

مجموعۃ الرسائل الکبری لابن تیمیہ

تألیف

شیخ الإسلام تقی الدین أبی العباس
أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن تیمیة الحرانی الدمشقی
المتوفی سنة ۷۲۸ هـ

الجزء الاول

وَلَزَّ

لأهیاء التراث العربی

مبکروت - لبنان

الرسالة الأولى
الفرقان بين الحق والباطل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله نستعينه ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا
ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتدي ، ومن يضل فلا هادي له ، وأشهد
أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى
الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً .

قال الإمام أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية رحمه الله ، وهو
عاصفه بقلعة دمشق أخيراً .

(فصل) في الفرقان بين الحق والباطل ؛ وأن الله بين ذلك بكتابه
ونبيه ، فمن كان أعظم اتباعاً لكتابه الذي أنزله ، ونبيه الذي أرسله ، كان
أعظم فرقاناً ، ومن كان أبعد عن اتباع الكتاب والرسول ، كان أبعد عن
الفرقان واشتبه عليه الحق بالباطل كالذين اشتبه عليهم عبادة الرحمن بعبادة
الشیطان ، والنبي الصادق بالمتنبي الكاذب ، وآيات النبيين بشبهات الكذابين
حتى اشتبه عليهم الخالق بالخلق ، فإن الله سبحانه وتعالى بعث محمداً بالهدى
ودين الحق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ففرق به بين الحق والباطل ،
والهدى والضلال ، والرشاد والغى ، والصدق والكذب ، والعلم والجهل ،
والمعروف والمنكر ، وطريق أولياء الله السعداء وأعداء الله الأشقياء ،
وبين ما عليه الناس من الاختلاف ، وكذلك النبيون قبله قال الله تعالى :
(كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم
الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين

أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) وقال تعالى : (تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزین لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) وقال سبحانه وتعالى : (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) وقال تعالى : (آلم الله لا إله إلا هو الحى القيوم نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان) .

قال جماهير المفسرين : هو القرآن . روى ابن أبى حاتم بإسناده عن الربيع ابن أنس قال : هو الفرقان فرق بين الحق والباطل . قال وروى عن عطاء ومجاهد ومقسم وقتادة ومقاتل بن حيان نحو ذلك . وروى بإسناده عن شيبان عن قتادة فى قوله : وأنزل الفرقان . قال هو القرآن الذى أنزله الله على محمد ففرق به بين الحق والباطل ، وبين فيه دينه وشرع فيه شرائعه ، وأحل حلاله وحرم حرامه ، وحد حدوده وأمر بطاعته ونهى عن معصيته . وعن عباد ابن منصور سألت الحسن عن قوله تعالى : وأنزل الفرقان . قال هو كتاب بحق . والفرقان مصدر فرق فرقانا مثل الرجحان والكفران والخسران وكذلك القرآن هو فى الأصل مصدر قرأ قرأنا ومنه قوله : (إن علينا جمعه وقرآنه فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه) ويسمى الكلام المقروء نفسه قرآنا وهو كثير كما فى قوله : (فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) كما أن الكلام هو اسم مصدر كلم تسكلم ، وتكلم تكلم ، ويراد به الكلام نفسه وذلك لأن الانسان إذا تكلم كان كلامه بفعل منه

وحركة هي مسمى المصدر وحصل عن الحركة صوت يقطع حروفاً هو نفس التكلم ، فالكلام والقول ونحو ذلك يتناول هذا وهذا ، ولهذا كان الكلام تارة يجعل نوعاً من العمل إذا أريد به المصدر ، وتارة يجعل قسماً له إذا أريد ما يتكلم به وهو يتناول هذا وهذا ، وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن لفظ الفرقان إذا أريد به المصدر كان المراد أنه أنزل الفصل والفرق بين الحق والباطل ، وهذا منزل في الكتاب فإن في الكتاب الفصل وإنزال الفرق هو إنزال الفارق ، وإن أريد بالفرقان ما يفرق فهو الفارق أيضاً فهما في المعنى سواء ، وإن أريد بالفرقان نفس المصدر فيكون إنزاله كأنزال الإيمان وإنزال العدل ، فإنه جعل في القلوب التفريق بين الحق والباطل بالقرآن كما جعل فيها الإيمان والعدل وهو سبحانه وتعالى أنزل الكتاب والميزان ، والميزان قد فسر بالعدل ، وفسر بأنه ما يوزن به ليعرف العدل ، وهو كالفرقان يفسر بالفرق ويفسر بما يحصل به الفرق وهما متلازمان ، فإذا أريد الفرق نفسه فهو نتيجة الكتاب وثمرته ومقتضاه ، وإذا أريد الفارق ، فالكتاب نفسه هو الفارق ويكون له اسمان كل اسم يدل على صفة ليست هي الصفة الأخرى ، سمى كتاباً باعتبار أنه مجرّع مكتوب تحفظ حروفه ويقرأ ويكتب ، وسمى فرقاناً باعتبار أنه يفرق بين الحق والباطل كما تقدم ، كما سمى هدى باعتبار أنه يهدي إلى الحق ، وشفاء باعتبار أنه يشفي القلوب من مرض الشبهات والشبهات ونحو ذلك من أسمائه ، وكذلك أسماء الرسول كالمقتني والمأحى والحاشر ، وكذلك أسماء الله الحسنى كالرحمن والرحيم والملك والحكيم ونحو ذلك ، والعطف يكون لتغاير الأسماء والصفات ، وإن كان المسمى واحداً كقوله : (سبح اسم ربك الأعلى الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى)

وقوله: (وهو الاول والآخروالظاهر والباطن) ونحو ذلك. وهنا ذكر أنه نزل الكتاب فانه نزل متفرقا ، وأنه أنزل التوراة والانجيل ، وذكر أنه أنزل الفرقان ، وقد أنزل سبحانه وتعالى الإيمان في القلوب وأنزل الميزان ، والإيمان والميزان مما يحصل به الفرقان أيضاً كما يحصل بالقرآن ، وإذا أنزل القرآن حصل به الإيمان والفرقان وظاهر هذا قوله: (واقعد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكرنا) قيل الفرقان هو التوراة ، وقيل هو الحكم بنصره على فرعون كما في قوله (إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان).

وكذلك قوله: (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين) قيل : النور هو محمد عليه الصلاة والسلام وقيل : هو الاسلام وقوله: (قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نوراً مبيناً) قيل : البرهان هو محمد . وقيل : هو الحجة والدليل . وقيل : القرآن والحجة والدليل يتناول الآيات التي نمت بها محمد صلى الله عليه وسلم ، لكنه هناك جاء بلفظ آتينا وجاءكم وهنا قال : وأنزل الفرقان جاء بلفظ الانزال ، فلهذا شاع بينهم أن القرآن والفرقان يحصل بالعلم والبيان كما حصل بالقرآن ، ويحصل بالنظر والتمييز بين أهل الحق والباطل بأن ينجي هؤلاء وينصرهم ، ويعذب هؤلاء ، فيكون قد فرق بين الطائفتين كما يفرق المفرق بين أولياء الله وأعدائه بالاحسان إلى هؤلاء وعقوبة هؤلاء ، وهذا كقوله في القرآن في قوله : (وإن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير) قال الواجب عن ابن عباس يوم الفرقان : يوم بدر فرق الله فيه بين الحق والباطل . قال ابن أبي حاتم : وروى عن مجاهد ومقسم وعبد الله بن عبد الله والضحاك وقتادة ومقاتل بن حيان نحو ذلك . وبذلك فسر أكثرهم : ان تقهرا الله يجعل لكم فرقانا. كما

في قوله : (ومن يتق الله يجعل له مخرجا) أى من كل ما ضاق على الناس . قال الوالى عن ابن عباس في قوله : (ان تقوا الله يجعل لكم فرقا) أى مخرجا قال ابن أبى حاتم وروى عن مجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة والسدى ومقاتل بن حيان كذلك ، غير أن مجاهد قال مخرجا في الدنيا والآخرة . وروى عن الضحاك عن ابن عباس قال نصراً قال وفي آخر قول ابن عباس والسدى : نجاه . وعن عروة بن الزبير : يجعل لكن فرقانا . أى فصلا بين الحق والباطل يظهر الله به حكمه ويطنى به باطل من خالفكم ، وذكر البغوى عن مقاتل ابن حيان قال مخرجا في الدنيا من الشبهات ، لكن قد يكون هذا تفسيرا لمراد مقاتل بن حيان كما ذكر أبو الفرج بن الجوزى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وابن قتبية أنهم قالوا : هو المخرج . ثم قال والمعنى يجعل لكم مخرجا في الدنيا من الضلال وليس مرادهم ، وإنما مرادهم المخرج المذكور في قوله : (ومن يتق الله يجعل له مخرجا) والفرقان المذكور في قوله : (وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان) وقد ذكر ابن زيد أنه قال هدى في قلوبهم يعرفون به الحق من الباطل ، ونوعا الفرقان فرقان الهدى والبيان وهو النصر والنجاه هو نوعا الظهور في قوله تعالى : (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله) يظهره بالبيان والحجة والبرهان ، ويظهر باليد والعز والسياسة . وكذلك السلطان في قوله : (واجعل لى من لدنك سلطانا نصيراً) فهذا النوع وهو الحجة والعلم كما في قوله : (أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون) وقوله : (الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم ان فى صدورهم إلا كبر) وقوله : (إن هى إلا أسماء سميتوها أنتم وآبائكم ما أنزل الله بها من سلطان) وقد فسر السلطان بسلطان القدرة واليد ، وفسر

بالحجة والبيان فن الفرقان ما نعمة الله به في قوله : (ورحمتي وسعت كل شيء فساكتها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والاغلال التي كانت عليهم) ففرق بين المعروف والمنكر ، أمر بهذا ونهى عن هذا وبين الطب والحيث ، أحل هذا وحرم هذا .

ومن الفرقان ؛ أنه فرق بين أهل الحق المهتدين المؤمنين المصلحين أهل الحسنة وبين أهل الباطل الكفار والضالين المفسدين أهل السيئات . قال تعالى : (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون) وقال تعالى : (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الارض أم نجعل المتقين كالفجار) وقال تعالى (أفجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون) وقال تعالى : (مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً أفلأ تذكرون) وقال تعالى : (أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الالباب) وقال تعالى : (وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الجور وما يستوي الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور إن أنت إلا نذير إنما أرسلاك بالحق بشيراً ونذيراً) وقال تعالى : (أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها) وقال تعالى : (أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستويون) فهو

سبحانه بين الفرق بين أشخاص أهل الطاعة لله والرسول والمعصية لله والرسول كما بين الفرق بين ما أمر به وبين ما نهى عنه .

وأعظم من ذلك أنه بين الفرق بين الخالق والمخلوق ، وأن المخلوق لا يجوز أن يسوى بين الخالق والمخلوق في شيء ، فيجعل المخلوق نداً للخالق قال تعالى: (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله) وقال تعالى: (هل تعلم له سمياً . ولم يكن له كفواً أحد . ليس كمثل شيء) وضرب الأمثال في القرآن على من لم يفرق بل عدل بربه وسوى بينه وبين خلقه كما قالوا وهم في النار يصطرخون فيها : (تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين) وقال تعالى : (أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم والله يعلم ما تسرون وما تعلنون والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون أموات غير أحياء وما يشعرون أيا ن يعثرون) .

فهو سبحانه الخالق العليم الحق الخالق الذي لا يموت ، ومن سواه لا يخلق شيئاً كما قال : (إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدره) .

وهذا مثل ضربه الله ، فإن الذباب من أصغر الموجودات وكل من يدعى من دون الله لا يخلقون ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، فإذا تبين أنهم لا يخلقون ذباباً ولا يقدرون على انتزاع ما يسلبهم ، فهم عن خلق غيره وعن مغالبتها أعجز وأعجز .

والمثل هو الأصل والظهير المشبه به كما قال : (ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون) أى لما جعلوه نظيراً قاسوا عليه آلهتهم وقالوا إذا كان قد عبد وهو لا يعذب فكذلك آلهتنا ، فضرّبوه مثلاً لآلهتهم وجعلوا يصدون ، أى يضجون ويعجبون منه احتجاجاً به على الرسول ، والفرق بينه وبين آلهتهم ظاهر كما بينه فى قوله تعالى : (إن الذين سبقتم منّا الحسنى أولئك عنها مبعدون) وقال فى فرعون : (وجعلناه سلفاً ومثلاً للآخرين) أى مثلاً يعتبر به ويقاس عليه غيره ، فمن عمل بمثل عمله جوزى بمجرأته ليتعظ الناس به فلا يعمل بمثل عمله وقال تعالى : (ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم) وهو ما ذكره من أحوال الأمم الماضية التى يعتبر بها ويقاس عليها أحوال الأمم المستقبلية كما قال : (لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب) فمن كان من أهل الإيمان قيس بهم وعلم أن الله يسعده فى الدنيا والآخرة ومن كان من أهل الكفر قيس بهم وعلم أن الله يشقيه فى الدنيا والآخرة كما قال فى حق هؤلاء : (أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براة فى الزبر) وقد قال : (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) وقال فى حق المؤمنين : (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلكم) وقال : (وذات النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) فاستجيبنا له ونجيناها من الغم وكذلك ننجى المؤمنين) وقال فى قصة أيوب : (رحمة من عندنا وذكرى للعابدين — رحمة منّا وذكرى لأولى الألباب) وقال : (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) وقال : (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى

يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب وقال :
 (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك) فلفظ المثل يراد به
 التظهير الذي يقاس عليه ويعتبر به ويراد به بمجموع القياس قال سبحانه : (وضرب
 لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم) أى لا أحد يحييها وهي
 رميم . فمثل الخالق بالخلق في هذا النقي فجعل هذا مثل هذا لا يقدر على
 أحيائها سواء نظمه قياس تمثيل أو قياس شمول كما قد بسط الكلام على
 هذا في غير هذا الموضع ، وبين أن معنى القياسين قياس بالشمول وقياس
 بالتشليل ، وإن المثل المضروب المذكور في القرآن ، فإذا قلت التبيذ مسكر وكل
 مسكر حرام ، وأثبت الدليل على المقدمة الكبرى بقوله صلى الله عليه وسلم :
 « كل مسكر حرام » فهو كقوله صلى الله عليه وسلم قياساً على الخمر لأن الخمر
 إنما حُرمت لأجل الاسكار وهو موجود في التبيذ فقوله : ضرب مثل فاستمعوا
 له . جعل ما هو من أصغر المخلوقات مثلاً ونظيراً يعتبر به فإذا كان أدون
 خلق الله لا يقدر على خلقه ولا منازعته فلا يقدر على خلق ما سواء فيعلم بها
 من عظمة الخالق ، وإن كلما يعبدون من دون الله في السماء والأرض لا يقدر
 على ما هو أصغر مخلوقاته وقد قيل أنهم جعلوا آلهتهم مثلاً لله فاستمعوا لذكرها
 وهذا لأنهم لم يفقهوا المثل الذي ضربه الله ، جعلوا المشركين هم الذين ضربوا
 هذا المثل ، ومثل هذا في القرآن قد ضربه الله ليبين أنه لا يقاس المخلوق بالخالق
 ويجعل له ندا ومثلاً كقوله : (قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك
 السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن
 يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون فذلّم الله ربكم الحق فإذا بعد الحق
 إلا الضلال فاني تصرفون كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم

لا يؤمنون قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تقولون قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق قل الله يهدى للحق أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدى إلا أن يهدى فالسكم كيف تحكمون وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً إن الله عليم بما يفعلون).

ولما قرر الوحداية قرر النبوة كذلك فقال: (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة من مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله) وهؤلاء مثلوا المخلوق بالخالق وهذا من تكذيبهم إياه، ولم يكن المشركون يسوون بين آلهتهم وبين الله فى كل شيء بل كانوا يؤمنون بأن الله هو الخالق للمالك لهم وهم مخلوقون مملوكون له ولكن كانوا يسوون بينه وبينها فى المحبة والتعظيم والدعاء والعبادة والذنوب لها ونحو ذلك بما يخص به الرب، فمن عدل بالله غيره فى شيء من خصائصه سبحانه وتعالى فهو مشرك بخلاف من لا يعدل به ولكن يذنب مع اعترافه بأن الله ربه وحده وخضوعه له خوفاً من عقوبة الذنب، فهذا يفرق بينه وبين من لا يعترف بتحريم ذلك.

(فصل) وهو سبحانه وتعالى كما يفرق بين الأمور المختلفة فإنه يجمع ويسوى بين الأمور المتماثلة فيحكم فى الشيء خلقاً وأمرأً بحكم مثله لا يفرق بين متماثلين ولا يسوى بين شئيين غير متماثلين بل ان كانوا مختلفين متضادين لم يسو بينهما .

ولفظ الاختلاف فى القرآن يراد به التضاد والتعارض ، لا يراد به مجرد

عدم التماثل كما هو اصطلاح كثير من النظار ومنه قوله: (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) وقوله: انكم لفي قول مختلف يؤفك عنه من أفك . وقوله : (ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر) .

وقد بين سبحانه وتعالى أن السنة لا تبدل ولا تتحول في غير موضع . والسنة هي العادة التي تتضمن أن يفعل في الثاني مثل ما فعل بنظيره الأول ولهذا أمر سبحانه وتعالى بالاعتبار ، وقال : (لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب) .

والاعتبار أن يقرن الشيء بمثله ، فيعلم أن حكمه مثل حكمه كما قال ابن عباس هلا اعتبرتم الأصابع بالأسنان فاذا قال فاعتبروا بأولى الأبصار وقال : (لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب) أفاد أن من عمل مثل أعمالهم جوزى مثل جزائهم ليحذر أن يعمل مثل أعمال الكفار ، وليرغب في أن يعمل مثل أعمال المؤمنين اتباع الأنبياء قال تعالى : (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) وقال تعالى : (وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافاك إلا قليلا سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنة الله تبديلا) وقال تعالى : (لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) وهذه الآية أنزلها الله قبل الأحزاب وظهور الاسلام وذل المنافقين ، فلم يستطيعوا أن يظهروا بعد هذا ما كانوا يظهرونه قبل ذلك قبل بدر وبعدها ، وقبل أحد وبعدها فاختفوا النفاق وكنموه فلماذا لم يقتلهم النبي صلى الله عليه وسلم .

وبهذا يجيب من لم يقتل الزنادقة ويقول إذا أخفوا زندقته لم يمكن قتلهم
ولم يمكن إذا أظهروها قتلوا بهذه الآية بقوله : (ملعونين أينما ثقفوا أخذوا
وقتلوا تقتيلا سنة الله في الذين خلوا من قبل وإن تجد لسنة الله تبديلا) .

قال قتادة: ذكر لنا أن المنافقين كانوا يظهرون ما في أنفسهم من النفاق
فأوعدهم الله بهذه الآية . فلما أوعدهم بهذه الآية أسروا ذلك وكتبوه سنة الله
في الذين خلوا من قبل يقول هكذا سنة الله فيهم إذا أظهروا النفاق قال مقاتل
ابن حيان قوله : (سنة الله في الذين خلوا من قبل) يعني كما قتل أهل بدر
وأسروا فذلك قوله : (سنة الله في الذين خلوا من قبل) .

قال السدي: كان النفاق على ثلاثة أوجه نفاق مثل نفاق عبد الله بن أبي
وعبد الله بن نفيل ومالك بن داعس فكان هؤلاء وجوها من وجوه الأنصار
فكانوا يستحيون أن يأتوا الزنا يصرون بذلك أنفسهم والذين في قلوبهم
مرض قال الزنا إن وجدوه عملوا به وإن لم يجدوه لم يتبعوه، ونفاق يكابرون
النساء مكابرة، وهم هؤلاء الذين يجلسون على الطريق ثم قال ملعونين ثم فصلت
الآية أينما ثقفوا يعملون هذا العمل مكابرة النساء . قال السدي: هذا حكم
في القرآن ليس يعمل به لو أن رجلا أو أكثر من ذلك اقتصوا أثر امرأة
فغلبوها على نفسها ففجروا بها ، كان الحكم فيهم غير الجلد والرجم أن
يؤخذوا فتضرب أعناقهم .

قال السدي: قوله سنة كذلك كان يفعل بمن مضى من الأمم قال فن
كأبر امرأة على نفسها فقتل فليس على قاتله دية لأنه مكابر .

قلت هذا على وجهين: أحدهما: أن يقتل دفعا لصلوه عنها مثل أن يقهرها فهذا دخل في قوله: من قتل دون حرمة فهو شهيد. وهذه لها أن تدفعه بالقتل لكن إذا طاوعت فيه نزاع وتفصيل وفيه قضيتان عن عمر وعلى معروفان، وأما إذا فجر بها مستكرها ولم تجد من يعينها عليه فهو لاء نوعان أحدهما: أن يكون له شوكة كالمحاربين لاخذ المال وهؤلاء محاربون للفاحشة فيقتلوا. قال السدى: قد قاله غيره وذكر أبو اللوي أن هذه جرت عنده ورأى أن هؤلاء أحق بأن يكونوا محاربين. والثاني: أن لا يكونوا ذوى شوكة بل يفعلون ذلك غيلة واحتياالا حتى إذا صارت عندهم المرأة أكرهوها، فهذا المحارب غيلة كما قال السدى: يقتل أيضا وإن كانوا جماعة في المصر فهم كالمحاربين في المصر، وهذه المسائل لها مواضع أخر.

والمقصود أن الله أخبر أن سنته لن تبدل ولن تتحول، وسنته عادته التي يسوى فيها بين الشيء وبين نظيره الماضى، وهذا يقتضى أنه سبحانه يحكم في الأمور المتماثلة بأحكام متماثلة، ولهذا قال: (أكفاركم خير من أولئكم) وقال: (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم) أى أشباههم ونظراءهم وقال: (وإذا النفوس زوجت) قرن النظر بنظيره وقال تعالى: (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم) وقال: (قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم وما نعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا) وقال: (والسابقون الأولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم).

فجعل التابعين لهم بإحسان ؛ مشاركين لهم فيما ذكر من الرضوان والجنة وقد قال تعالى : (والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم) وقال تعالى : (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم) وقال تعالى : (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم) فمن اتبع السابقين الأولين كان منهم وهم خير الناس بعد الأنبياء فان أمة محمد خير أمة أخرجت للناس وأولئك خير أمة محمد كما ثبت في الصحاح من غير وجه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « خير القرون القرن الذي بعثت فيه ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » ولهذا كان معرفة أقوالهم في العلم والدين وأعمالهم خيرا وأنفع من معرفة أقوال المتأخرين وأعمالهم في جميع علوم الدين وأعماله كال تفسير وأصول الدين وفروعه والزهد والعبادة والأخلاق والجهاد وغير ذلك ، فانهم أفضل ممن بعدهم كما دل عليه الكتاب والسنة فالإقتداء بهم خير من الاقتداء بمن بعدهم ومعرفة أجماعهم ونزاعهم في العلم والدين خير وأنفع من معرفة ما يذكر من أجماع غيرهم وتنازعهم .

وذلك أن إجماعهم لا يكون إلا معصوما ، وإذا تنازعوا فالحق لا يخرج عنهم فيمكن طلب الحق في بعض أقاريلهم ولا يحكم بخطأ قول من أقوالهم حتى يعرف دلالة الكتاب والسنة على خلافه قال تعالى : (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فان تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) .

وأما المتأخرون الذين لم يتحروا متابعتهم وسلوك سبيلهم ولا لهم خبرة

بأقوالهم وأفعالهم بل هم في كثير مما يتكلمون به في العلم ، ويعملون به ولا يعرفون طريق الصحابة والتابعين في ذلك من أهل الكلام والرأى والزهد والتصوف ، فهؤلاء تجد عندهم في كثير من الأمور المهمة في الدين إنما هو عما يظنونه من الإجماع وهم لا يعرفون في ذلك أقوال السلف البتة ، أو عرفوا بعضها ولم يعرفوا سائرها ، فتارة يحلون الإجماع ولا يعملون إلا قولهم وقول من ينازعهم من الطوائف المتأخرين طائفة أو طائفتين أو ثلاث ، وتارة عرفوا أقوال بعض السلف والاول كثير في مسائل أصول الدين وفروعه ، كما تجد كتب أهل الكلام مشحونة بذلك ، يحلون إجماعاً ونزاعاً ولا يعرفون ما قال السلف في ذلك البتة بل قد يكون قول السلف خارجاً عن أقوالهم كما تجد ذلك في مسائل أقوال الله وأفعاله وصفاته ، مثل مسألة القرآن والرؤية والقدر وغير ذلك ، وهم إذا ذكروا إجماع المسلمين ، ولم يكن لهم علم بهذا الإجماع فانه لو أمكن العلم بإجماع المسلمين لم يكن هؤلاء من أهل العلم به لعدم علمهم بأقوال السلف ، فكيف إذا كان المسلمون يتعذر القطع بإجماعهم في مسائل النزاع بخلاف السلف ، فانه يكثر العلم بإجماعهم كثيراً وإذا ذكروا نزاع المتأخرين لم يكن بمجرد ذلك أن يجعل هذه من مسائل الاجتهاد التي يكون كل قول من تلك الأقوال سائغاً لم يخالف إجماعاً لأن كثيراً من أصول المتأخرين محدث مبتدع في الإسلام ، مسبوق بإجماع السلف على خلافه ، والنزاع الحادث بعد إجماع السلف خطأ قطعاً ، كخلاف الخوارج والرافضة والقدرية والمرجئة ممن قد اشتهرت لهم أقوال خالفوا فيها النصوص المستفيضة المعلومة ، وإجماع الصحابة بخلاف ما يعرف من نزاع السلف فانه لا يمكن أن يقال انه خلاف الإجماع وإنما يرد بالنص ، وإذا قيل قد أجمع التابعون على

أحد قولهم فارفع النزاع ، فقل هذا مبنى على مقدمتين : إحداهما : العلم بأنه لم يبق في الامة من يقول بقول الآخر ، وهذا متعذر . الثاني : أن مثل هذا هل يرفع النزاع ^(١) مشهور فنزاع السلف يمكن القول به إذا كان معه حجة ^(٢) على خلافه ونزاع المتأخرين لا يمكن هذا ^(٣) لأن كثير آمنه قد تقدم الإجماع على خلافه ، كما دلت النصوص على خلافه ومخالفة إجماع السلف خطأ قطعاً ، وأيضاً فلم يبق مسألة في الدين إلا وقد تكلم فيها السلف ، فلا بد أن يكون لهم قول يخالف ذلك القول أو يوافقه وقد بسطنا في غير هذا الموضع أن الصواب في أقوالهم أكثر وأحسن ، وأن خطأهم أخف من خطأ المتأخرين ، وأن المتأخرين أكثر خطأ وأفحش ، وهذا في جميع علوم الدين ولهذا أمثلة كثيرة يضيق هذا الموضع عن استقصائها والله سبحانه أعلم .

﴿ فصل ﴾ وما ينبغي أن يعلم أن القرآن والحديث إذا عرف تفسيره من جهة النبي صلى الله عليه وسلم لم يحتج في ذلك إلى أقوال أهل اللغة فانه قد عرف تفسيره ، وما أريد بذلك من جهة النبي صلى الله عليه وسلم لم يحتج في ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم ، ولهذا قال الفقهاء الاسماء ثلاثة أنواع : نوع يعرف حده بالشرع كالصلاة والزكاة ، ونوع يعرف حده باللغة كالشمس والقمر ، ونوع يعرف حده بالعرف كلفظ القبض ولفظ المعروف في قوله : (وعاشروهن بالمعروف) .

وكان من أعظم ما أنعم الله به عليهم اعتصامهم بالكتاب والسنة ، فكان من الأصول المتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، أنه

(١) هكذا يرض بالاصل .

لا يقبل من أحد قط أن يعارض القرآن لا برأيه ولا ذوقه ولا معقوله ولا قياسه ولا وجوده ، فانهم ثبت عنهم بالبراهين القطعية والآيات البينات ، أن الرسول جاء بالهدى ودين الحق ، وأن القرآن يهدي للتي هي أقوم ، فيه نأ من قبلهم ، وخبر ما بعدهم ، وحكم ما بينهم ، هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسن ، فلا يستطيع أن يزيغه إلى هواه ولا يحرف به لسانه ، ولا يخلق عن كثرة التردد ، فاذا ردد مرة بعد مرة لم يخلق ولم يمل كغيره من الكلام ، لا تنقض عجمته ، ولا تشعب منه العلماء ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعى إليه هدى إلى صراط مستقيم .

فكان القرآن هو الإمام الذي يقتدى به ، ولهذا لا يوجد في كلام أحد من السلف أنه عارض القرآن بعقل ورأى وقياس ، ولا بذوق ووجد ومكاشفة ، ولا قال قط قد تعارض في هذا العقل والنقل فضلا عن أن يقول فيجب تقديم العقل والنقل يعني القرآن والحديث ، وأقوال الصحابة والتابعين إما أن يفوض وإما أن يؤول . ولا فيهم من يقول ان له ذوقا أو وجدا أو مخاطبة أو مكاشفة تخالف القرآن والحديث ، فضلا عن أن يدعى أحدهم أنه يأخذ من حيث يأخذ الملك الذي يأتي الرسول ، وانه يأخذ من ذلك المعدن علم التوحيد ، والأنبياء كلهم يأخذون عن مشكاته ، أو يقول الولي أفضل من النبي ، ونحو ذلك من مقالات أهل الإلحاد ، فان هذه الأقوال لم تكن حدثت بعد في المسلمين . وإنما يعرف مثل هذه إما من ملاحظة

اليهود والنصارى فإن فيهم من يجوز أن غير النبي أفضل من النبي ، كما قد يقوله في الحوارين ، فانهم عندهم رسل ، وهم يقولون أفضل من داود وسليمان بل ومن إبراهيم وموسى ، وإن سموهم أنبياء إلى أمثال هذه الأمور . ولم يكن السلف يقبلون معارضة الآية إلا بآية أخرى تفسرها وتفسخها ، أو بسنة الرسول صلى الله عليه وسلم تفسرها . فإن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تبين القرآن وتدل عليه وتبصر عنه ، وكانوا يسمون ما عارض الآية ناسخاً لها ، فالنسخ عندهم اسم عام لكل ما يرفع دلالة الآية على معنى باطل ، وإن كان ذلك المعنى لم يرد بها وإن كان لا يدل عليه ظاهر الآية بل قد ^(١) وقد فهمه منها قوم فيسمون ما رفع ذلك الإبهام والافهام نسخاً ^(٢) هذه التسمية لا تؤخذ عن كل واحد منهم وأصل ذلك ^(٣) الشيطان ثم يحكم الله آياته ، فألقاه الشيطان في الأذهان من ظن دلالة الآية على معنى لم يدل عليه سمى هؤلاء ما يرفع ذلك الظن نسخاً ، كما سموا قوله : (فاتقوا الله ما استطعتم) ناسخاً لقوله : (فاتقوا الله حق تقاته) وقوله : (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) ناسخاً لقوله : (إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) وأمثال ذلك مما ليس هذا موضع بسطه .

إذ المقصود أنهم كانوا متفقين على أن القرآن لا يعارضه إلا قرآن لارأى ومعقول وقياس ، ولا ذوق ووجد وإلهام ومكاشفة .

وكانت البدع الأولى مثل بدعة الخوارج ، إنما هي من سوء فهمهم للقرآن لم يقصدوا معارضته لكن فهموا منه ما لم يدل عليه فظنوا أنه يوجب

(١) هكذا يابض بالأصل .

تكفير أرباب الذنوب ، إذ كان المؤمن هو البر التقي قالوا فمن لم يكن برا
تقياً فهو كافر وهو غلغل في النار، ثم قالوا وعثمان وعلي ومن والاهما ليسوا بمؤمنين
لأنهم حكموا بغير ما أنزل الله . فكانت بدعتهم لها مقدمتان ، الواحدة: أن
من خالف القرآن بعمل أو رأى خطأ فيه فهو كافر ، والثانية : أن عثمان
وعلياً ومن والاهما كانوا كذلك ، ولهذا يجب الاحتراز من تكفير المسلمين
بالذنوب والخطايا فانه أول بدعة ظهرت في الاسلام ، فكفر أهلها المسلمين
واستحلوا دماءهم وأموالهم وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم الاحاديث
الصحيحة في ذمهم والامر بقتالهم ، قال الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه:
صح فيهم الحديث من عشرة أوجه. ولهذا قد أخرجها مسلم في صحيحه وأفرد
البخارى قطعة منها ، وهم مع هذا الذم إنما قصدوا اتباع القرآن ، فكيف
بمن يكون بدعته معارضة القرآن والاعراض عنه ، وهو مع ذلك يكفر
المسلمين كالجهمية ثم الشيعة لما حدثوا لم يكن الذي ابتدع التشيع قصده
الدين بل كان غرضه فاسداً ، وقد قيل انه كان منافقاً زنديقاً ، فأصل بدعتهم
مبنية على الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وتكذيب الاحاديث
الصحيحة ، ولهذا لا يوجد في فرق الامة من الكذب أكثر مما يوجد فيهم
بخلاف الخوارج فانه لا يعرف فيهم من يكذب .

﴿والشيعة﴾ لا يكاد يوثق برواية أحد منهم من شيوخهم لكثرة الكذب فيهم ،
ولهذا أعرض عنهم أهل الصحيح فلا يروى البخارى ومسلم أحاديث على إلا عن أهل
بيته كأولاده مثل الحسن والحسين ، ومثل محمد بن الحنفية ، وكان به عبيد الله بن أبي رافع
وأصحاب ابن مسعود وغيرهم مثل عبيدة السلماني ، والحريث انيمى ، وقيس بن عباد ،
وأشاهلهم إذ هؤلاء صادقون فيما يروونه عن علي فلهذا أخرج أصحاب الصحيح حديثهم .

وهاتان الطائفتان الخوارج والشيعة ؛ حدثوا بعد مقتل عثمان ، وكان المسلمون في خلافة أبي بكر وعمر وصدرأ من خلافة عثمان في السنة الأولى من ولايته ، متفقين لا تنازع بينهم ، ثم حدث في أواخر خلافة عثمان أمور أوجبت نوعاً من التفرق ، وقام قوم من أهل الفتنة والظلم فقتلوا عثمان ففترق المسلمون بعد مقتل عثمان ، ولما اقتتل المسلمون بصفين وانفقوا على تحكيم حكيم .

خرجت الخوارج على أمير المؤمنين على بن أبي طالب وفارقوه وفارقوا جماعة المسلمين إلى مكان يقال له حروراء ، فكف عنهم أمير المؤمنين وقال : لكم علينا أن لا نمنعكم حقكم من الفى . ولا نمنعكم المساجد إلى أن استحلوا دماء المسلمين وأموالهم ، فقتلوا عبد الله بن حباب ، وأغاروا على سرح المسلمين فلم على أنهم الطائفة التي ذكرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : « يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية آيتهم فيهم رجل مخدج اليد عليها بضعة عليها شعرات ، وفي رواية : « يقتلون أهل الاسلام ويدعون أهل الأوثان ، فخطب الناس وأخبرهم بما سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : هم هؤلاء القوم ، قد سفكوا الدم الحرام وأغاروا على سرح الناس فقاتلهم ، ووجد العلامة بعد أن كادلا يوجد فسجد لله شكراً .

وحدث في أيامه الشيعة ، لكن كانوا محتفين بقولهم لا يظهرونه لعل وشيعته ، بل كانوا ثلاثة طوائف .

طائفة تقول : أنه إله وهؤلاء لما ظهر عليهم أحرقتهم بالنار ، وخذ لهم أخاديد عند باب مسجد بنى كنده وقيل انه أنشد :

لما رأيت الأمر أمراً منكراً أججت ناري ودعوت قنبرا

وقد روى البخارى فى صحيحه عن ابن عباس قال : أتى على بزنادقة فحرقهم بالنار ولو كنت أنا لم أحرقتهم لنهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يعذب بعذاب الله ، ولضربت أعناقهم لقوله : من بدل دينه فاقتلوه .

وهذا الذى قاله ابن عباس ، هو مذهب أكثر الفقهاء وقد روى أنه أجلبهم ثلاثاً .

(والثانية) السابة وكان قد بلغه عن أبى السوداء أنه كان يسب أباً بكر وعمر فطلبه ، قيل أنه طلبه ليقتله فهرب منه .

(والثالثة) المفضلة الذين يفضلونه على أبى بكر وعمر ، فتواتر عنه أنه قال : خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر . وروى ذلك البخارى فى صحيحه عن محمد بن الحنفية أنه سأل أباه من خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أبو بكر . قال : ثم من . قال : عمر . وكانت الشيعة الأولى لا يتنازعون فى تفضيل أبى بكر وعمر وإنما كان النزاع فى على وعثمان ، ولهذا قال شريك بن عبد الله : ان أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر . فقيل له : تقول هذا وأنت من الشيعة . فقال : كل الشيعة كانوا على هذا وهو الذى قال هذا على أعواد منبره أفتكذبه فيما قال ، ولهذا قال سفيان الثورى : من فضل علياً على أبى بكر وعمر فقد أزرى بالمهاجرين والانصار وما أرى يصعد له إلى الله عز وجل عمل ، وهو كذلك رواء .

أبوداود في سنته وكأنه يعرض بالحسن بن صالح بن حي فان الزيدية الصالحة
وهم أصلح طوائف الزيدية ينسبون إليه .

ولكن الشيعة لم يكن لهم في ذلك الزمان جماعة المسلمين ولا إمام ولا دار
ولا سيف يقاتلون به المسلمين ، وإنما كان هذا للخوارج تميزوا بالامام
والجماعة والدار وسموا دارهم دار الهجرة ، وجعلوا دار المسلمين دار
كفر وحرب .

وكلا الطائفتين تطعن بل تكفر ولاية المسلمين ، وجمهور الخوارج
يكفرون عثمان وعلياً ومن تولاهما ، والرافضة يلعنون أبا بكر وعمر وعثمان
ومن تولاهما ، ولكن الفساد الظاهر كان في الخوارج من سفك الدماء
وأخذ الأموال والخروج بالسيف ، فلماذا جاءت الأحاديث الصحيحة بقتالهم
والأحاديث في ذمهم والامر بقتالهم كثيرة جداً وهي متواترة عند أهل
الحديث ، مثل أحاديث الرؤية وعذاب القبر وفتنه ، وأحاديث الشفاعة
والخوض .

(وقد رويت أحاديث في ذم القدرية والمرجئة) روى بعضها أهل
السنن كابن داود وابن ماجه ، وبعض الناس يشبهها ويقرها ومن العلماء من
طعن فيها وضعفها ، ولكن الذي ثبت في ذم القدرية ونحوهم هو عن الصحابة
كابن عمر وابن عباس .

(وأما لفظ الرافضة) فهذا اللفظ أول ما ظهر في الاسلام لما خرج
زيد بن علي بن الحسين في أوائل المائة الثانية في خلافة هشام بن عبد الملك

واتبعه الشيعة ، فسل عن أبي بكر وعمر فتولاها وترحم عليهما فرفضه قوم ، فقال : رفضتموني رفضتموني . فسماوا الرفضة ، فالرفضة تتولى أخاه أبا جعفر محمد بن علي زيديه ، والزيدية يتولونه وينسبون إليه ، ومن حيثئذ انتمت الشيعة إلى زيدية ، والرفضة إمامية .

(ثم في آخر عصر الصحابة حدثت القدرية) وأصل بدعتهم كانت من عجز عقولهم عن الايمان بقدر الله ، والايمان بأمره ونهيه ووعدته ووعدته ، وظنوا أن ذلك تمتع ، وكانوا قد آمنوا بدين الله وأمره ونهيه ووعدته ووعدته وظنوا أنه إذا كان كذلك لم يكن قد علم قبل الأمر من يطيع ومن يعصى لأنهم ظنوا أن من علم ما سيكون لم يحسن منه أن يأمر وهو يعلم أن الأمور يعصيه ولا يطيعه ، وظنوا أيضاً أنه إذا علم أنهم يفسدون لم يحسن أن يخلق من يعلم أنه يفسد فلما بلغ قلوبهم بانكار القدر السابق للصحابة ، أنكروا انكاراً عظيماً وتبرءوا منهم حتى قال عبد الله بن عمر : أخبر أولئك أني برىء منهم وأنهم مني برآء ، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر ، وذكر عن أبيه حديث جبريل وهذا أول حديث في صحيح مسلم ، وقد أخرجه البخاري ومسلم من طريق أبي هريرة أيضاً مختصراً .

ثم كثر الخوض في القدر ، وكان أكثر الخوض فيه بالبصرة والشام وبعضه في المدينة ، فصار مقتصدوهم وجهورهم يقرؤون بالقدر السابق وبالكتاب المتقدم ، وصار نزاع الناس في الارادة وخلق أفعال العباد ، فصاروا في ذلك حزينين . النفاة يقولون : لا إرادة إلا بمعنى المشيئة وهو لم يرد إلا ما أمر به ولم

يخلق شيئاً من أفعال العباد . وقابلهم الخائضون في القدر من المجرة مثل الجهم ابن صفوان وأمثاله، فقالوا ليست الإرادة إلا بمعنى المشيئة ، والأمر والنهي لا يستلزم إرادة ، وقالوا العبد لا فعل له البتة ولا قدرة بل الله هو الفاعل القادر فقط وكان جهم مع ذلك ينفي الأسماء والصفات ، يذكر عنه أنه قال : لا يسمى الله شيئاً ولا غير ذلك من الأسماء التي تسمى بها العباد إلا القادر فقط ، لأن العبد ليس بقادر . وكانت الخوارج قد تكلموا في تكفير أهل الذنوب من أهل القبلة وقالوا أنهم كفار مغلدون في النار غفاض الناس في ذلك وغاض في ذلك القدرية بعد موت الحسن البصري ، فقال عمرو بن عبيد وأصحابه لا هم مسلمون ولا كفار ، بل لهم منزلة بين المنزلتين ، وهم مغلدون في النار ، فوافقوا الخوارج على أنهم مغلدون ، وعلى أنه ليس معهم من الاسلام والايمان شيء ولكن لم يسموهم كفاراً واعتزلوا حلقة أصحاب الحسن البصري مثل قتادة وأيوب السخيتاني وأمثالهما .

﴿ فسموا معتزلة من ذلك الوقت بعد موت الحسن ﴾ وقيل أن قتادة كان يقول أولئك المعتزلة .

وتنازع الناس في الأسماء والاحكام ، أي في أسماء الدين مثل مسلم ومؤمن وكافر وفاسق ، وفي أحكام هؤلاء في الدنيا والآخرة فالمعتزلة وافقوا الخوارج على حكمهم في الآخرة دون الدنيا ، فلم يستحلوا من دماءهم وأموالهم ما استحلته الخوارج ، وفي الأسماء أحدثوا المنزلة بين المنزلتين ، وهذه خاصة المعتزلة التي انفردوا فيها وسائر أقوالهم قد شاركهم فيها غيرهم .

﴿ وحدثت المرجئة ﴾ وكان أكثرهم من أهل الكوفة ولم يكن أصحاب

عبد الله من المرجئة، ولا إبراهيم النخعي وأمثاله، فصاروا نقيض الخوارج والمعتزلة فقالوا إن الأعمال ليست من الإيمان، وكانت هذه البدعة أخف البدع، فإن كثيراً من النزاع فيها نزاع في الاسم واللفظ دون الحكم؛ إذ كان الفقهاء الذين يضاف إليهم هذا القول مثل حاد بن أبي سليمان وأبي حنيفة وغيرهما مع سائر أهل السنة متفقين على أن الله يعذب من يعذبه من أهل الكبائر بالنار ثم يخرجهم بالشفاعة كما جاءت الأحاديث الصحيحة بذلك، وعلى أنه لا بد في الإيمان أن يتكلم بلسانه، وعلى أن الأعمال المفروضة واجبة وتاركها مستحق للذم والعقاب، فكان في الأعمال هل هي من الإيمان وفي الاستثناء ونحو ذلك وعامته نزاع لفظي، فإن الإيمان إذا أطلق دخلت فيه الأعمال لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «الإيمان بضع وستون شعبة أو بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إمالة الأذى عن الطريق، والحياة شعبة من الإيمان وإذا عطف عليه العمل كقوله: (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) فقد ذكر مقيداً بالعطف فهنا قد يقال الأعمال دخلت فيه وعطفت عطف الخاص على العام، وقد يقال لم تدخل فيه ولكن مع العطف كما في اسم الفقير والمسكين إذا أفرد أحدهما تناول الآخر وإذا عطف أحدهما على الآخر فهم ما صنفان كما في آية الصدقات كقوله: (إنما الصدقات للفقراء والمساكين) وكما في آية الكفارة كقوله: (فكفارتها إطعام عشرة مساكين) وفي قوله: (وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم) فالفقير والمسكين شيء واحد، وهذا التفصيل في الإيمان هو كذلك في لفظ البر والتقوى والمعروف، وفي الأثم والعبدوان والمنكر تختلف دلالتها في الأفراد والاقتران لمن تدبر القرآن، وقد بسط هذا بسطاً كبيراً في الكلام على

الإيمان وشرح حديث جبريل الذي فيه بيان أن الإيمان أصله في القلب . وهو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله كما في المسند عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الإسلام علانية والإيمان في القلب » ، وقد قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : « ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب » ، فإذا كان الإيمان في القلب فقد صلح القلب فيجب أن يصلح سائر الجسد فلذلك هو ثمرة ماني القلب ، فلهذا قال بعضهم الأعمال ثمرة الإيمان ، وصحته لما كانت لازمة لصلاح القلب دخلت في الاسم كما نطق بذلك الكتاب والسنة في غير موضع ، وفي الجملة الذين رموا بالارجاء من الأكابر مثل : طلق بن حبيب وإبراهيم التيمي ونحوهما كان أرجاؤهم من هذا النوع .

﴿ وكانوا أيضاً ﴾ لا يستثنون في الإيمان ، وكانوا يقولون الإيمان هو الإيمان الموجود فينا ، ونحن نقطع بأننا مصدقون ويرون الاستثناء شكاً ، وكان عبد الله بن مسعود وأصحابه يستثنون ، وقد روى في حديث أنه رجع عن ذلك لما قال له بعض أصحاب معاذ ما قال لكن أحمد أنكرك هذا وضعف هذا الحديث وصار الناس في الاستثناء على ثلاثة أقوال ، قول أنه يجب الاستثناء ومن لم يستثن كان مبتدعاً ، وقول أن الاستثناء محذور فانه يقتضي الشك في الإيمان ، والقول الثالث أوسطها وأعدلها أنه يجوز الاستثناء باعتبار تركه باعتبار فإذا كان مقصوده أني لا أعلم أني قائم في كل ما أرجب الله على وأنه يقبل أعمالي ليس مقصوده الشك فيما في قلبه ، فهذا استثناءه حسن وقصده أن لا يزكي نفسه وأن لا يقطع بأنه عمل عملاً كما أمر فقبل منه والذنوب كثيرة والنفاق مخوف على عامة الناس ، قال ابن أبي مليكة : أدركت

ثلاثين من أصحاب محمد كلهم يخاف النفاق على نفسه لا يقول واحد منهم أن إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل ، والبخارى في أول صحيحه بوب أبو ابا في الإيمان والرد على المرجئة ، وقد ذكر بعض من ضعف في هذا الباب من أصحاب أبي حنيفة قال وأبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد كرهوا أن يقول الرجل إيماني كإيمان جبريل وميكائيل، قال محمد لأنهم أفضل يقيناً أو إيماني كإيمان جبريل، أو إيماني كإيمان أبي بكر أو كإيمان هذا، ولكن يقول آمنت بما آمن به جبريل وأبو بكر .

وأبو حنيفة وأصحابه لا يجوزون الاستثناء في الإيمان بكون الاعمال منه فيؤمنون المرجئة والمرجئة عندهم الذين لا يوجبون الفرائض ولا اجتناب المحارم بل يكفون بالإيمان، وقد علق تحريم الاستثناء فيه بأنه لا يصح تعليقه على الشرط ، لأن المعلق على الشرط لا يوجد إلا عند وجوده كما قالوا في قوله : أنت طالق إن شاء الله ، فإذا علق الإيمان بالشرط كسائر المعلقات بالشرط لا يحصل إلا عند حصول الشرط ، قالوا وشرط المشيئة الذي يترجاه القائل لا يتحقق حصوله إلى يوم القيامة ، فإذا علق العزم بالفعل على التصديق والإقرار فقد ظهرت المشيئة وصح العقد فلامعنى للاستثناء ، ولأن الاستثناء عقيب الكلام يرفع الكلام فلا يبقى الإقرار بالإيمان والعقد مؤمناً ، وربما يتوهم هذا القائل القارن بالاستثناء على الإيمان بقاء التصديق وذلك يزيله .

(قلت) فتعليقهم في المسألة إنما يتوجه فيمن يعلق إنشاء الإيمان على المشيئة ، كالذي يريد الدخول في الاسلام فيقال له آمن فيقول أنا أومن

إن شاء الله ، أو آمنت إن شاء الله ، أو أسلمت إن شاء الله ، أو أشهد
 إن شاء الله أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، والذين
 استثنوا من السلف والخلف لم يقصدوا في الإنشاء وإنما كان استثنائهم في
 اخباره عما قد حصل له من الإيمان فاستثنوا ، إما أن الإيمان المطلق يقتضى
 دخول الجنة وهم لا يعلمون الخاتمة ، كأنه إذا قيل للرجل أنت مؤمن ، قيل
 له أنت عند الله مؤمن من أهل الجنة ، فيقول أنا كذلك إن شاء الله أو لأنهم
 لا يعرفون أنهم أتوا بكال الإيمان الواجب ، ولهذا كان من جواب بعضهم
 إذا قيل له أنت مؤمن آمنت بالله وملائكته وكتبه فيجزم بهذا ولا يعلقه ،
 أو يقول إن كنت تريد الإيمان الذى يعصم دمي ومالي فأنا مؤمن ، وإن
 كنت تريد قوله : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا
 تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة
 وما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقا) وقوله : (إنما المؤمنون الذين
 آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله
 أولئك هم الصادقون) فأنا مؤمن . إن شاء الله ، وأما الاستثناء لم يستثن
 فيه أحد ولا شرع الاستثناء فيه بل كل من آمن وأسلم آمن وأسلم جزماً
 بلا تعليق .

فتبين أن النزاع في المسألة قد يكون لفظياً ، فإن الذى حرمه هؤلاء غير
 الذى استحسنه وأمر به أولئك ، ومن جزم جزم بما في قلبه من الحال ،
 وهذا حق لا ينافي تعليق الكمال والعاقبة ، ولكن هؤلاء عندهم الاعمال ليست
 من الإيمان فصار الإيمان هو الإسلام عند أولئك .

﴿ والمشهور عند أهل الحديث أنه لا يستثنى في الإسلام ﴾ وهو المشهور عن أحمد رضى الله عنه ، وقد روى عنه فيه الاستثناء كما قد بسط هذا في شرح حديث جبريل وغيره من نصوص الإيمان التي في الكتاب والسنة .

﴿ ولو قال لامرأته أنت طالق إن شاء الله ﴾ ففيه نزاع مشهور وقد رجحنا التفصيل وهو أن الكلام يراد به شيآن ، يراد به إيقاع الطلاق تارة ، ويراد به منع إيقاعه تارة ، فإن كان مراده أنت طالق بهذا اللفظ فقوله : إن شاء الله مثل قوله : بمشيئة الله ، وقد شاء الله الطلاق حين أتى بالتطبيق فيقع ، وإن كان قد علق لثلاً يقع أو علقه على مشيئة توجد بعد هذا لم يقع به الطلاق حتى يطلق بعد هذا ، فإنه حينئذ شاء الله أن يطلق ، وقول من قال المشيئة تنجزه ليس كما قال ، بل نحن نعلم قطعاً أن الطلاق لا يقع إلا إذا طلقت المرأة بأن يطلقها الزوج أو من يقوم مقامه من ولى أو وكيل ، فإذا لم يوجد تطبيق لم يقع طلاق قط ، فإذا قال : أنت طالق إن شاء الله وقصد حقيقة التعليق لم يقع إلا بتطبيق بعد ذلك ، وكذلك إذا قصد تعليق لثلاً يقع الآن ، وأما إن قصد إيقاعه الآن وعلقه بالمشيئة توكيداً وتحقيقاً فهذا يقع به الطلاق .

وما أعرف أحداً أنشأ الإيمان فعلقه على المشيئة فإذا علقه فان كل مقصوده أنا مؤمن إن شاء الله أنا أو من بعد ذلك ، فهذا لم يصبر مؤمناً مثل الذى يقال له : هل تصير من أهل دين الإسلام . فقال : أصير إن شاء الله ، فهذا لم يسلّم ، بل هو باق على الكفر وإن كان قصده إني قد آمنت وإيماني بمشيئة الله صار مؤمناً ، لكن إطلاق اللفظ يحتمل هذا وهذا فلا يجوز إطلاق مثل (٣ - مجموعة الرسائل)

هذا اللفظ في الإنشاء ، وأيضاً فإن الأصل انه إنما يعلق بالمشيئة ما كان مستقبلاً ، فأما الماضي والحاضر فلا يعلق بالمشيئة ، والذين استثنوا لم يستثنوا في الإنشاء كما تقدم كيف وقد أمروا أن يقولوا (آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والاسباط) وقال تعالى : (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله) فأخبر أنهم آمنوا فوق الإيمان منهم قطعاً بلا استثناء .

وعلى كل أحد أن يقول : آمنا بالله وما أنزل إلينا كما أمر الله بلا استثناء وهذا متفق عليه بين المسلمين ما استثنى أحد من السلف قط في مثل هذا ، وإنما الكلام إذا أخبر عن نفسه بأنه مؤمن ، كما يخبر عن نفسه بأنه برتقي فيقول القائل له أنت مؤمن ، هو عندهم كقوله : هل أنت برتقي ، فإذا قال أنا برتقي فقد زكى نفسه ، فيقول إن شاء الله وأرجو أن أكون كذلك ، وذلك أن الإيمان التام يتعقبه قبول الله له وجزاؤه عليه وكتابة الملك له ، فالاستثناء يعود إلى ذلك لا إلى ماعله هو من نفسه وحصل واستقر ، فإن هذا لا يصح تعليقه بالمشيئة ، بل يقال هذا حاصل بمشيئة الله وفضله وإحسانه وقوله فيه إن شاء الله بمعنى إذ شاء الله ، وذلك تحقيق لاتعليق والرجل قد يقول والله ليكون كذا إن شاء الله وهو جازم بأنه يكون ، فالمعلق هو الفعل كقوله : (لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله) والله عالم بأنهم سيدخلونه ، وقد يقول الآدمي لأفعلن كذا إن شاء الله وهو لا يجزم بأنه يقع لكن يرجوه ، فيقول يكون إن شاء الله ثم عزمه عليه قد يكون جازماً ولكن لا يجزم بوقوع المعزوم عليه ، وقد يكون العزم متردداً معلقاً بالمشيئة أيضاً ، ولكن متى كان المعزوم عليه معلقاً لزم تعليق بقاء العزم فانه

بتقدير أن تطبق العزم ابتداء أو دواما في مثل ذلك ، ولهذا لم يبحث المطلق المعلق وحرف أن لا يكون لا يبق العزم ، فلا بد إذا دخل على الماضي صار مستقبلا تقول إن جاء زيد كان كذلك (فازآمروا بمثل ما آمنتهم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ) وإذا أريد الماضي دخل حرف كان كقوله : (إن كنتم تحبون الله فاتبعوني) فيفرق بين قوله : أنا مؤمن إن شاء الله وبين قوله : إن كان الله شاء إيماني . وكذلك إذا كان مقصوده اني لا أعلم بماذا ينتج لي كما قيل لأبي مسعود : إن فلانا يشهد أنه مؤمن قال : فليشهد أنه من أهل الجنة ، فهذا مراده إذا شهد أنه مؤمن عند الله يموت على الإيمان وكذلك إن كان مقصوده إن إيماني حاصل بمشيئة الله . ومن لم يستثن قال : أنا لا أشك في إيمان قلبي فلا جناح عليه إذا لم يرك نفسه ويقطع بأنه عامل كما أمر وقد تقبل الله عمله ، وإن لم يقل إن إيمانه كإيمان جبريل وأبي بكر وعمر ونحو ذلك من أقوال المرجئة كما كان مسعر بن كدام يقول : أنا لا أشك في إيماني . قال أحمد ولم يكن من المرجئة ، فان المرجئة الذين يقولون الأعمال ليست من الإيمان وهو كان يقول : هي من الإيمان لكن أنا لا أشك في إيماني .

وكان الثوري يقول لسفيان بن عيينة : ألا تنه عن هذا فاهما من قبيلة واحدة ، وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن النزاع في هذا كان بين أهل العلم والدين من جنس المنازعة في كثير من الأحكام ، وكلهم من أهل الإيمان والقرآن .

(وأما جهنم) فكان يقول : ان الإيمان مجرد تصديق القلب وإن لم يتكلم

يه ، وهذا القول لا يعرف عن أحدهم علماء الأئمة وأئمتها ، بل أحد ووكيل وغيرهما كفروا من قال بهذا القول ، ولكن هو الذى نصره الأشعرى وأكثر أصحابه ، ولكن قالوا مع ذلك أن كل من حكم الشرع بكفره ، حكمنا بكفره واستدلنا بتكفير الشارع له على خلو قلبه من المعرفة ، وقد بسط الكلام على أقوالهم وأقوال غيرهم فى الإيمان .

والأصل الذى منه نشأ النزاع ، اعتقاد من اعتقد أن من كان مؤمناً لم يكن معه شيء من الكفر والنفاق ، وظن بعضهم أن هذا إجماع كما ذكر الأشعرى : أن هذا إجماع ، فهذا كان أصل الأرجاء كما كان أصل القدر عجزهم عن الإيمان بالشرع والقدر جميعاً ، فلما كان هذا أصلهم صاروا حزينين ، قالت الخوارج والمعتزلة : قد علمنا يقيناً أن الأعمال من الإيمان فمن تركها فقد ترك بعض الإيمان ، وإذا زال بعضه زال جميعه لأن الإيمان لا يتبعض ولا يكون فى العبد إيمان ونفاق ، فيكون أصحاب الذنوب مخلصين فى النار إذا كان ليس معهم من الإيمان شيء ، وقالت المرجئة مقتصدتهم وغلاتهم كالجهمية ، قد علمنا أن أهل الذنوب من أهل القبلة لا يخلصون فى النار بل يخرجون منها كما تواترت بذلك الأحاديث ، وعلمنا بالكتاب والسنة وإجماع الأئمة أنهم ليسوا كفاراً مرتدين ، فإن الكتاب قد أمر بقطع السارق لا بقتله ، وجاءت السنة بمجلد الشارب لا بقتله ، فلو كان هؤلاء كفاراً مرتدين لوجب قتلهم ، وبهذا ظهر للمعتزلة ضعف قول الخوارج بخالفهم فى أحكامهم فى الدنيا .

والخوارج لا يتمسكون من السنة إلا بما فسر بمحملها دون ما خالف ظاهر

القرآن عندهم ، فلا يرجعون الزاني ولا يرون للسرقة نصابا ، وحينئذ فقد يقولون ليس في القرآن قتل المرتد ، فقد يكون المرتد عندهم نوعين .

وأقوال الخوارج إنما عرفناها من نقل الناس عنهم لم يقف لهم على كتاب مصنف ، كما وقفنا على كتب المعتزلة والرافضة والزيدية والكرامية والاشعرية والسبئية وأهل المذاهب الأربعة والظاهرية ومذاهب أهل الحديث والفلاسفة والصوفية ونحو هؤلاء ، وقد بسط الكلام على تفصيل القوم في أقوال هؤلاء في غير هذا الموضع .

((وان الناس في ترتيب أهل الأهواء على أقسام)) منهم من يرتبهم على زمان حدوثهم فيبدأ بالخوارج ، ومنهم من يرتبهم بحسب خفة أمرهم وغلظه فيبدأ بالمرجئة ويختتم بالجهمية ، كما فعله كثير من أصحاب أحمد رضى الله عنه كعبد الله ابنه ونحوه ، وكالحلال وأبي عبد الله بن بطة وأمثالهما وكأبي الفرج المقدسى ، وكلا الطائفتين تختتم بالجهمية لأنهم أغلظ البدع ، وكالبخارى في صحيحه ، فإنه بدأ بكتاب الإيمان والرد على المرجئة وختمه بكتاب التوحيد والرد على الزنادقة والجهمية ، ولما صنف الكتاب في الكلام صاروا يقدمون التوحيد والصفات فيكون الكلام أولا مع الجهمية وكذلك رتب أبو القاسم الطبري كتابه في أصول السنة ، واليهيقي أفرد لكل صنف مصنفاً فله مصنف في الصفات ومصنف في القدر ، ومصنف في شعب الإيمان ، ومصنف في دلائل النبوة ، ومصنف في البعث والنشور ، وبسط هذه الأمور له موضع آخر .

والمقصود هنا أن منشأ النزاع في الأسماء والأحكام في الإيمان والاسلام

أنهم لما ظنوا أنه لا يتبعض، قال أولئك فإذا فعل ذنباً زال بعضه فيزول كله فيخلد في النار، فقالت الجهمية والمرجئة: قد علمنا أنه ليس يخلد في النار وأنه ليس كافر آمرتدأ بل هو من المسلمين، وإذا كان من المسلمين وجب أن يكون مؤمناً تام الإيمان معه بعض الإيمان لأن الإيمان عندهم لا يتبعض، فاحتاجوا أن يجعلوا الإيمان شيئاً واحداً يشترك فيه جميع أهل القبلة، فقال فقهاء المرجئة هو التصديق بالقلب والقول باللسان، فقالت الجهمية: بعد تصديق اللسان قد لا يجب إذا كان الرجل أخرس أو كان مكرهاً، فالذي لا بد منه تصديق القلب، وقالت المرجئة: الرجل إذا أسلم كان مؤمناً قبل أن يجب عليه شيء من الأفعال، وأنكر كل هذه الطوائف أنه ينقص ﴿والصحابة﴾ قد ثبت عنهم أن الإيمان يزيد وينقص وهو قول أئمة السنة، وكان ابن المبارك يقول: هو يتفاضل ويتزايد ويمسك عن لفظ ينقص، وعن مالك في كونه لا ينقص روايتان، والقرآن قد نطق بالزيادة في غير موضع ودلت النصوص على نقصه كقوله: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» ونحو ذلك، لكن لم يعرف هذا اللفظ إلا في قوله في النساء: «ناقصات عقل ودين» وجعل من نقصان دينها أنها إذا حاضت لا تصوم ولا تصلي، وبهذا استدلل غير واحد على أنه ينقص.

وذلك أن أصل أهل السنة بأن الإيمان يتفاضل من وجهين من جهة أمر الرب ومن جهة فعل العبد، أما الأول فإنه ليس الإيمان الذي أمر به شخص من المؤمنين هو الإيمان الذي أمر به كل شخص، فإن المسلمين في أول الأمر كانوا مأمورين بمقدار الإيمان، ثم بعد ذلك أمروا بغير ذلك، وأمروا بترك ما كانوا مأمورين به كالقبلة، فكان من الإيمان في أول الأمر الإيمان بوجوب استقبال

بيت المقدس ثم صار من الايمان تحريم استقباله ووجوب استقبال الكعبة ، فقد تنوع الايمان في الشريعة الواحدة ، وايضا فن وجب عليه الحج والزكاة أو الجهاد يجب عليه من الايمان أن يعلم ما أمر به ، ويؤمن بأن الله أوجب عليه ما لا يجب على غيره إلا بجمل ، وهذا يجب عليه فيه الايمان المفصل ، وكذلك الرجل أول ما يسلم إنما يجب عليه الاقرار الجمل ، ثم إذا جاء وقت الصلاة كان عليه أن يؤمن بوجوبها ويؤديها فلم تنسأ أو الناس فيما أمروا به من الايمان ، وهذا من أصول غلط المراجعة فانهم ظنوا أنه شيء واحد وأنه يستوى فيه جميع المكلفين فقالوا إيمان الملائكة والانبياء وأفسق الناس سواء ، كما أنه إذا تلفظ الفاسق بالشهادتين أو قرأ فاتحة الكتاب كان لغفلة كلفظ غيره من الناس فيقال لهم : قد تبين أن الايمان الذي أوجهه الله على عبادته يتنوع ويتفاضل ويتباينون فيه تباينا عظيما ، فيجب على الملائكة من الايمان ما لا يجب على البشر ، ويجب على الانبياء من الايمان ما لا يجب على غيرهم ، ويجب على العلماء ما لا يجب على غيرهم ، ويجب على الأمراء ما لا يجب على غيرهم ، وليس المراد أنه يجب عليهم من العمل فقط بل ومن التصديق والافرار ، فإن الناس وإن كان يجب عليهم الافرار الجمل بكل ما جاء به الرسول ، فأكثرهم لا يعرفون تفصيل كل ما أخبر به وما لم يعلموه كيف يؤمرون بالإقرار به مفصلا ، وما لم يؤمر به العبد من الاعمال لا يجب عليه معرفته ومعرفة الأمر به ، فن أمر بحج وجب عليه معرفة ما أمر به من أعمال الحج والايمان بها ، فيجب عليه من الايمان والعمل ما لا يجب على غيره ، وكذلك من أمر بالزكاة يجب عليه معرفة ما أمر الله به من الزكاة ، ومن الايمان بذلك والعمل به ما لا يجب على غيره فيجب عليه من العلم والايمان والعمل ما لا يجب على غيره إذا جعل العلم

والعمل ليسا من الايمان وان جعل جميع ذلك داخلا في مسمى الايمان كان أبلغ ،
فبكل حال قد وجب عليه من الايمان ما لا يجب على غيره .

ولهذا كان من الناس من قد يؤمن بالرسول بجملا ، فاذا جاءت أمور
أخرى لم يؤمن بها فيصير منافقا مثل طائفة نافقت لما حوالت القبله إلى الكعبة
وطائفة نافقت لما انهزمت المسلمون يوم أحد ونحو ذلك .

ولهذا وصف الله المنافقين في القرآن بأنهم آمنوا ثم كفروا كما ذكر
ذلك في سورة المنافقين ، وذكر مثل ذلك في سورة البقرة فقال : (مثلهم
كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى
ظلمات لا يبصرون صم بكم عن فهم لا يرجعون) وقال : طائفة من السلف
عرفوا ثم أنكروا وأبصروا ثم عموا .

فن هؤلاء من كان يؤمن أولا إيمانا بجملا ، ثم يأتى أموراً يؤمن بها
فينافق فى الباطن ، وما يمكنه إظهار الردة بل يتكلم بالنفاق مع خاصته وهذا
كما ذكر الله عنهم فى الجهاد فقال : (ولذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها
القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشى عليه من الموت
فأولى لهم طاعة وقول معروف فاذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان
خيرا لهم) .

وبالجملة فلا يمكن المنازعة ان الايمان الذى أوجبه الله يتباين فيه أحوال
للناس ويتفاضلون فى إيمانهم ودينهم بحسب ذلك ، ولهذا قال النبي صلى الله
عليه وسلم فى النساء : « ناقصات عقل ودين » وقال فى نقصان دينهن أنها
إذا حاضت لا تصوم ولا تصلى ، وهذا بما أمر الله به فليس هذا النقص دينا

لها تعاقب عليه ، لكن هو نقص حيث لم تؤمر بالعبادة في هذا الحال ، والرجل كامل حيث أمر بالعبادة في كل حال ، فدل ذلك على أن من أمر بطاعة يفعلها كان أفضل ممن لم يؤمر بها ، وإن لم يكن عاصيا فهذا أفضل دينا وإيمانا ، وهذا المفضل ليس بمعاقب ومذموم فهذه زيادة كزيادة الايمان بالتطوعات لكن هذه زيادة بواجب في حق شخص وليس بواجب في حق شخص غيره ، فهذه الزيادة لو تركها بهذا لا يستحق العقاب بتركها ، وذلك لا يستحق العقاب بتركها ولكن إيمان ذلك أكمل قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا » .

فهذا يبين تفاضل الايمان في نفس الامر به وفي نفس الاخبار التي يجب التصديق بها ، والنوع الثاني : وهو تفاضل الناس في الايمان به مع استوائهم في الواجب . وهذا هو الذي يظن أنه محل النزاع وكلاهما محل النزاع وهذا أيضاً يتفاضلون فيه ، فليس إيمان السارق والزاني والشارب كإيمان غيرهم ولا إيمان من أدى الواجبات كإيمان من أخل ببعضها ، كما أنه ليس دين هذا وبره وتقواه مثل دين هذا وبره وتقواه ، بل هذا أفضل ديناً وبراً وتقوى فهو كذلك أفضل إيمانا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقاً » ، وقد يجتمع في العبد إيمان ونفاق كما في الصحابين عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أربع من كن فيه كان منافقا خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من اتففاق حتى يدعها ، إذا حدث كذب ، وإذا أوثق خان ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » .

وأصل هؤلاء أن الايمان لا يتبعض ولا يتفاضل بل هو شيء واحد

يستوى فيه جميع العباد فيما أوجبه الرب من الايمان ، وفيما يفعله العبد من الأعمال فغلطوا في هذا وهذا ثم تفرقوا كما تقدم .

وصارت المرجئة على ثلاثة أقوال ، فعلباؤهم وأئمتهم : أحسنهم قولاً وهو ان قالوا الايمان تصديق القلب وقول اللسان .

وقالت الجهمية : هو تصديق القلب فقط ، فن تكلم به فهو مؤمن كامل الايمان لكن إن كان مقراً بقلبه كان من أهل الجنة ، وإن كان مكذباً بقلبه كان منافقاً مؤمناً من أهل النار .

(وهذا القول هو الذي اختصت به الكرامية وابتدعته) ولم يسبقها أحد إلى هذا القول وهو آخر ما أحدث من الأقوال في الايمان ، وبعض الناس يحكى عنهم أن من تكلم به بلسانه دون قلبه فهو من أهل الجنة وهو غلط عليهم ، بل يقولون أنه مؤمن كامل الايمان ، وأنه من أهل النار فيلزمهم أن يكون المؤمن الكامل الايمان معذباً في النار بل يكون مخلداً فيها .

وقد تواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أنه يخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ، وان قالوا لا يخلد وهو منافق لزمهم أن يكون المنافقون يخرجون من النار ، والمنافقون قد قال الله فيهم : (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار وان تجد لهم نصيراً) .

وقد نهى الله نبيه عن الصلاة عليهم والاستغفار لهم وقال له : (استغفر لهم أولاً تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) وقال : (ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) وقد أخبر أنهم كفروا بالله ورسوله .

فان قالوا هؤلاء فقد كانوا يتكلمون بالسنتهم سرّاً فكفروا بذلك وإنما يكون مؤمناً إذا تكلم بلسانه ولم يتكلم بما ينقضه ، فان ذلك رده عن الإيمان قيل لهم ولو أضربوا النفاق ولم يتكلموا به كانوا منافقين قال تعالى يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة نذبهم بما في قلوبهم : (قل استهزءوا إن الله مخرج ما تحذرون) وأيضاً قد أخبر الله عنهم أنهم يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم وأنهم كاذبون فقال تعالى : (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) وقال تعالى : (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد أنك رسل الله والله يعلم أنك لرسوله والله يشهد أن المنافقين لكاذبون) وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : (والاسلام علانية والإيمان في القلب ، وقد قال الله تعالى : (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) وفي الصحيحين عن سعد أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطى رجلاً ولم يعط رجلاً فقالت يا رسول الله أعطيت فلانا وفلانا وتركت فلانا وهر مؤمن فقال : (أو مسلم مرتين أو ثلاثاً ، وبسط الكلام في هذا له مواضع أخر ، وقد صنفت في ذلك مجلدأ غير ما صنفت فيه غير ذلك .

وكلام الناس في هذا الاسم ومسماه كثير ، لانه قطب الدين الذي يدور عليه وليس في القول اسم علق به السعادة والشقاء والمدح والذم والثواب والعقاب أعظم من اسم الإيمان والكفر ، ولهذا سمي هذا الأصل مسائل الاسماء والاحكام ، وقد رأيت لابن الهيثم فيه مصنفاً في أنه قول اللسان فقط ، ورأيت لابن الباقلاني فيه مصنفاً أنه تصديق القلب فقط وكلاهما في عصر واحد وكلاهما يرد على المعتزلة والرافضة .

﴿ والمقصود هنا أن السلف كان اعتصامهم بالقرآن والايان ﴾ فلما حدث في الامة ما حدث من التفرق والاختلاف ، صار أهل التفرق والاختلاف شيعاً صار هؤلاء عمدتهم في الباطن ليست على القرآن والايان ولكن على أصول ابتدعها شيوخهم عليها يعتمدون في التوحيد والصفات والقدر والايان بالرسول وغير ذلك ، ثم ما ظنوا أنه يوافقها من القرآن احتجوا به ، وما خالفها تأولوه ، فلهذا تجدهم إذا احتجوا بالقرآن والحديث لم يعتنوا بتحرير دلالتهما ، ولم يستقصوا ما في القرآن من ذلك المعنى إذ كان اعتمادهم في نفس الامر إلى غير ذلك ، والآيات التي تخالفهم يشرعون في تأويلها شروع من قصد ردّها كيف أمكن ، ليس مقصوده أن يفهم مراد الرسول ، بل أن يدفع منازعه عن الاحتجاج بها .

ولهذا قال كثير منهم كأبي الحسين البصري ومن تبعه كالرازي والآمدي وابن الحاجب أن الامة إذا اختلفت في تأويل الآية على قولين جاز لمن بعدهم إحداث قول ثالث بخلاف ما إذا اختلفوا في الأحكام على قولين ؛ فجوزوا أن تكون الامة مجتمعة على الضلال في تفسير القرآن والحديث وأن يكون الله أنزل الآية وأراد بها معنى لم يفهمه الصحابة والتابعون ، ولكن قالوا أن الله أراد معنى آخر وهم لو تصوروا هذه المقالة لم يقولوا هذا فان أصلهم أن الامة لا تجتمع على ضلالة ، ولا يقولون قولين كلاهما خطأ والصواب قول ثالث لم يقولوه ، لكن قد اعتادوا أن يتأولوا ما خالفهم ، والتأويل عندهم مقصوده بيان احتمال في لفظ الآية يجوز أن يراد ذلك المعنى بذلك اللفظ ، ولم يستشعروا أن التأول هو مبين لمراد الآية مخبر عن الله تعالى أنه أراد هذا المعنى إذا حملها على معنى وكذلك إذا قال يجوز أن يرداها هذا المعنى والامة قبله

لم يقولوا أريد بها إلا هذا أو هذا ، فقد جوزوا أن يكون ما أَرَادَهُ اللهُ لم يخبر به الأمة وأخبرت أن مراده غير ما أَرَادَهُ ، لكن الذى قاله هؤلاء يتمشى إذا كان التأويل أنه يجوز أن يراد هذا المعنى من غير حكم بأنه مراد وتكون الأمة قبلهم كلها كانت جاهلة بمراد الله ضالة عن معرفته ، وانقرض عصر الصحابة والتابعين وهم لم يعلموا الآية ، ولكن طائفة قالت يجوز أن يريد هذا المعنى وطائفة قالت يجوز أن يريد هذا المعنى ، وليس فيهم من علم المراد فجاء الثالث وقال هنا معنى يجوز أن يكون هو المراد فإذا كانت الأمة من الجاهل بمعاني القرآن والضلال عن مراد الرب بهذه الحال توجه ما قالوه وبسط هذا له ووضع آخر .

والمقصود أن كثيراً من المتأخرين لم يصيروا يعتمدون في دينهم لاعلى القرآن ولا على الإيمان الذى جاء به الرسول بخلاف السلف ، فلهذا كان السلف أكمل علماء وإيماناً وخطوهم أخف وصوابهم أكثر كما قدمناه ، وكان الأصل الذى أسسوه هو ما أمرهم الله به في قوله : (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم) فان هذا أمر للمؤمنين بما وصف به الملائكة كما قال تعالى : (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ومن يقل منهم إن إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين) فوصفهم سبحانه بأنهم لا يسبقونه بالقول وأنهم بأمره يعملون ، فلا يخبرون عن شيء من صفاته ولا غير صفاته إلا بعد أن يخبر سبحانه بما يخبر به ، فيكون خبرهم وقولهم تبعاً لخبره وقوله كما قال : (لا يسبقونه بالقول) . وأعمالهم تابعة لأمره

فلا يعملون إلا ما أمرهم هو أن يعملوا به فهم مطيعون لأمره سبحانه وقد وصف سبحانه بذلك ملائكة النار فقال: (قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) وقد ظن بعضهم أن هذا تأكيد وقال بعضهم: بل لا يعصونه في الماضي ويفعلون ما أمروا به في المستقبل، وأحسن من هذا وهذا أن العاصي هو الممتنع من طاعة الأمر مع قدرته على الامتثال، فلم يفعل ما أمر به لعمره لم يكن عاصياً فإذا قال: لا يعصون الله ما أمرهم. لم يكن في هذا بيان أنهم يفعلون ما يؤمرون، فإن العاجز ليس بعاصٍ ولا فاعل لما أمر به فقال: ويفعلون ما يؤمرون، ليسين أنهم قادرون على فعل ما أمروا به فهم لا يتركونه لا عجزاً ولا معصية، والمأمور إنما يترك ما أمر به لأحد هذين إما أن لا يكون قادراً وإما أن يكون عاصياً لا يريد الطاعة، فإذا كان مطيعاً يريد طاعة الأمر وهو قادر وجب وجود فعل ما أمر به، فكذلك الملائكة المذكورون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وقد وصف الملائكة بأنهم: (عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين).

فالملائكة مصدقون بنبر رسهم، مطيعون لأمره ولا يخبرون حتى يخبر ولا يعملون حتى يأمر كما قال تعالى: (لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) وقد أمر الله المؤمنين أن يكونوا مع الله ورسوله كذلك فإن البشر لم يسمعوا كلام الله منه، بل بينهم وبينه رسول من البشر فعليهم أن لا يقولوا حتى يقول الرسول ما بلغهم عن الله ولا يعملوا إلا بما أمرهم به كما قال تعالى:

(يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم) .

قال مجاهد لا تفتاتوا عليه بشيء حتى يقضيه الله على لسانه تقدموا: معناه تتقدموا وهو فعل لازم، وقد قرئوا يقدموا يقال قدم وتقدم كما يقال بين وبينين، وقد يستعمل قدم متعدياً أى قدم غيره لكن هنا هو فعل لازم فلا تقدموا معناه لا تتقدموا بين يدي الله ورسوله .

فعلى كل مؤمن أن لا يتكلم فى شيء من الدين إلا تبعاً لما جاء به الرسول ولا يتقدم بين يديه بل ينظر ما قال فيكون قوله تبعاً لقوله ، وعليه تبعاً لأمره ، فلماذا كان الصحابة ومن سلك سبيلهم من التابعين لهم باحسان وأئمة المسلمين ، فلماذا لم يكن أحد منهم يعارض النصوص بمعقوله ولا يؤسس ديناً غير ما جاء به الرسول ، وإذا أراد معرفة شيء من الدين والكلام فيه نظر فيما قاله الله والرسول ، فلهذا يتعلم وبه يتكلم وفيه ينظر ويتفكر ، وبه يستدل فهذا أصل أهل السنة وأهل البدع ، لا يجعلون اعتمادهم فى الباطن ونفس الأمر على ما تلقوه عن الرسول ، بل على ما رووه أو ذاقوه ، ثم إن وجدوا السنة توافقهم وإلا لم يبالوا بذلك ، فإذا وجدوها تخالفه أعرضوا عنها تفويضاً أو حرقوها تأويلاً .

فهذا هو الفرقان بين أهل الإيمان والسنة ، وأهل النفاق والبدعة ، وإن كان هؤلاء لهم من الإيمان نصيب وافر من اتباع السنة ، لكن فيهم من النفاق والبدعة بحسب ما تقدموا فيه بين يدي الله ورسوله وخالفوا الله ورسوله ، ثم إن لم يعلموا أن ذلك يخالف الرسول ، ولو علموا لما قالوه

لم يكونوا منافقين ، بل ناقصي الإيمان مبتدعين وخطوهم مغفور لهم لا يعاقبون عليه وإن نقصوا به .

(فصل) وكل من خالف ما جاء به الرسول لم يكن عنده علم بذلك ولا عدل ، بل لا يكون عنده إلا جهل وظلم وظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى ، وذلك لأن ما أخبر به الرسول فهو حق باطنا وظاهراً فلا يمكن أن يتصور أن يكون الحق في نقيضه . وحينئذ فن اعتقد نقيضه كان اعتقاده باطلا ، والاعتقاد الباطل لا يكون علماً وما أمر به الرسول فهو عدل لا ظلم فيه ، فن نهى عنه فهو نهى عن العدل ومن أمر بضده فقد أمر بالظلم فان ضد العدل الظلم ، فلا يكون ما يخالفه إلا جهلاً وظلماً ظناً وما تهوى الأنفس ، وهو لا يخرج عن قسمين أحسنهما : أن يكون كان شرعاً لبعض الأنبياء ثم نسخ ، وأدناها : أن يكون ما شرع قط بل يكون من المبدل ، فكل ما خالف حكم الله ورسوله فإما شرع منسوخ ، وإما شرع مبدل ما شرعه الله بل شرعه شارع بغير إذن من الله . كما قال : (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله) لكن هذا وهذا قد يقمان في خفي الأمور ودقيقها باجتهاد من أصحابها ، استفرغوا فيه وسعهم في طلب الحق ويكون لهم من الصواب والاتباع ما يغمر ذلك ، كما وقع مثل ذلك من بعض الصحابة في مسائل الطلاق والفرائض ونحو ذلك ولم يكن منهم مثل هذا في جلي الأمور وجليلها ، لأن بيان هذا من الرسول كان ظاهراً بينهم ، فلا يخالفه إلا من يخالف الرسول وهم معتمدون بحبل الله ، يحكمون الرسول فيما شجر بينهم ، لا يتقدمون بين يدي الله ورسوله فضلاً عن تعمد مخالفة الله ورسوله .

فلما طال الزمان خفي على كثير من الناس ما كان ظاهراً لهم ، ودق على كثير من الناس ما كان جلياً لهم ، فكثير من المتأخرين مخالفة الكتاب والسنة ما لم يكن مثل هذا في السلف .

وإن كانوا مع هذا مجتهدين معذورين ، يغفر الله لهم خطاياهم ويثيبهم على اجتهدهم .

وقد يكون لهم من الحسنات ما يكون للعامل منهم أجر خمسين رجلاً يعملها في ذلك الزمان لأنهم كانوا يجدون من يمينهم على ذلك ، وهؤلاء المتأخرون لم يجدوا من يمينهم على ذلك لكن تضعيف الأجر لهم في أمور لم يضعف للصحابة ، لا يلزم أن يكونوا أفضل من الصحابة ، ولا يكون قاضهم كفاضل الصحابة ، فإن الذي سبق إليه الصحابة من الإيمان والجهاد ومعاودة أهل الأرض في موالاة الرسول وتصديقه وطاعته فيما يخبر به ويوجه قبل أن تنتشر دعوته وتظهر كلمته وتكثر أعوانه وأنصاره وتنتشر دلائل نبوته بل مع قلة المؤمنين وكثرة الكافرين والمنافقين وانفاق المؤمنين أمورهم في سبيل الله ابتغاء وجهه ، في مثل تلك الحال أمر ما بقي يحصل مثله لأحد كما في الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم : « لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » .

وقد استفاضت النصوص الصحيحة عنه أنه قال : « خير القرون قرني الذين بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » .

فجملة القرن الأول أفضل من القرن الثاني ، والثاني أفضل من الثالث ، والثالث

أفضل من الرابع لكن قد يكون في الرابع من هو أفضل من بعض الثالث وكذلك في الثالث مع الثاني ، وهل يكون فيمن بعد الصحابة من هو أفضل من بعض الصحابة المفضولين لا الفاضلين ، هذا فيه نزاع وفيه قولان حكاهما القاضي عياض وغيره ، ومن الناس من يفرضها في مثل معارضة وعمر بن عبد العزيز ، فان معاوية له مزية الصحة والجهاد مع النبي صلى الله عليه وسلم وعمر له مزية فضيلته من العدل والزهد والخوف من الله تعالى ، وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا أن من خالف الرسول فلا يعرفون أن يتبع الظن وما تهوى الأنفس كما قال تعالى في المشركين الذين يعبدون اللات والعزى : (إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى) .

وقال في الذين يخبرون عن الملائكة أنهم أناث : (إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئا فأعرض عن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى) وهم جعلوهم أناثا كما قال : (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن أناثا) وفي القراءة الأخرى : (عند الرحمن أناثا أشهدوا خلقهم سكتب شهادتهم ويسألون) وهؤلاء قال عنهم : (إن يتبعون إلا الظن) لأنه خبر محض ليس فيه عمل وهناك : وما تهوى الأنفس لأنهم كانوا يعبدونها ويدعونها فهناك عبادة وعمل يهوى أنفسهم فقال : (إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس) والذي جاء به الرسول كما قال : (والنجم إذا هوى

ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى عليه شديد القوى) وكل من خالف الرسول لا يخرج عن الظن وما تهوى الأنفس فان كان من يعتقد ما قاله وله فيه حجة يستدل بها ، كان غايته الظن الذى لا يغنى من الحق شيأ كاحتجاجهم بقياس فاسد ، أو نقل كاذب أو خطاب ألقى إليهم اعتقدوا أنه من الله وكان من القاء الشيطان .

وهذه الثلاثة هى عمدة من يخالف السنة بما يراه حجة ودليلا ، أما أن يحتاج بأدلة عقلية ويظنها برهانا وأدلة قطعية . وتكون شبهات فاسدة مركبة من ألفاظ مجملة ومعانى متشابهة لم يميز بين حقها وباطلها ، كما يوجد مثل ذلك فى جميع ما يحتاج به من خالف الكتاب والسنة ، إنما يركب حججه من ألفاظ متشابهة ، فإذا وقع الاستفسار والتفصيل تبين الحق من الباطل وهذه هى الحجج العقلية ، وإن تمسك المبطل بحجج سمعية فاما أن تكون كذباً على الرسول ، أو تكون غير دالة على ما احتج بها أهل البطول ، فالمنع اما فى الاسناد وإما فى المتن ، ودلالته على ما ذكر وهذه الحجج السمعية . هذه حجج أهل العلم الظاهر .

وأما حجة أهل الذوق والوجد والمكاشفة والمخاطبة فان أهل الحق من هؤلاء لهم (الهامات صحيحة) مطابقة كما فى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « قد كان فى الأمم قبلكم محدثون فان يكن فى أمتى أحد فعمرو ، وكان عمر يقول : اقتربوا من أفواه المطيعين واسمعوا منهم ما يقولون فانها تجلى لهم أمور صادقة . وفى الترمذى عن أبى سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله ثم قرأ قوله : ان

في ذلك آيات للمتوسمين ، . وقال بعض الصحابة : أظنه والله للحق يقذفه الله على قلوبهم وأسماعهم . وفي صحيح البخارى عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنزافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ، وفي رواية « في يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى ، فقد أخبر أنه يسمع بالحق وبصر به .

وكانوا يقولون : إن السكينة تنطق على لسان عمر رضى الله عنه . وقال صلى الله عليه وسلم : « من سأل القضاء واستعان عليه وكل إليه ومن لم يسأله ولم يستعن عليه أنزل الله عليه ملكا يسدده ، وقال الله تعالى : (نور على نور) الايمان مع نور القرآن . وقال تعالى : (أفن كان على بينة من ربه) ويتلوه شاهد منه وهو المؤمن على بينة من ربه ، ويتبعه شاهد من الله ، وهو القرآن شهد الله في القرآن بمثل ما عليه المؤمن من بينة الايمان ، وهذا القدر مما أقربه حذاق النظار لما تكلموا في وجوب النظر وتحصيله للعلم ، ف قيل لهم : أهل التصفية والرياضة والعبادة والتأله يحصل لهم المعارف والعلوم اليقينية بدون النظر كما قال الشيخ الملقب بالكبرى (للرازي) ورفيقه وقد قالاه : يا شيخ بلغنا أنك تعلم علم اليقين . فقال : نعم . فقالا : كيف تعلم ونحن نتناظر في زمان طويل كلما ذكر شيئا أفسدته ، وكلما ذكرت شيئا أفسده . فقال : هو واردات ترد على النفوس تعجز النفوس عن ردها ، فجعلنا يعجبنا من ذلك ويكرران الكلام ، وطلب أحدهما أن يحصل له هذه الموارد فعلمه الشيخ وأدبه حتى حصلت له وكان من المعتزلة النفاة .

فبين له أن الحق مع أهل الالبيات وأن الله سبحانه فوق سمواته ، وعلم ذلك بالضرورة . رأيت هذه الحكاية بخط القاضي نجم الدين أحمد بن محمد ابن خطف المقدسى ، وذكر أن الشيخ الكبيرى حكاه له وكان قد حدثنى بها عنه غير واحد حتى رأيتها بخطه وكلام المشايخ فى مثل هذا كثير ، وهذا الوصف الذى ذكره الشيخ جواب لهم بحسب ما يعرفون ، فانهم قد قسموا العلم إلى ضرورى ونظرى ، والنظرى مستند إلى الضرورى ، والضرورى هو العلم الذى يلزم نفس المخلوق لزوما لا يمكنه معه الانفكاك عنه ، هذا حد القاضى أبى بكر الطيب وغيره فخاصته أنه يلزم النفس لزوما لا يمكن مع ذلك دفعه فقال لهم : علم اليقين عندنا هو من هذا الجنس ، وهو علم يلزم النفس لزوما لا يمكنه مع ذلك الانفكاك عنه وقال واردات لأنه يحصل مع العلم طمأنينة وسكينة توجب العمل به فالواردات تحصل بهذا وهذا وهذا قد أقربه كثير من حذاق النظر متقدمهم كالصيا الهراسى ، والغزالى وغيرهما ، ومتأخريهم كالرازى والآمدى ، وقالوا : نحن لا ننكر أن يحصل لناس علم ضرورى بما يحصل لنا بالنظر هذا لا يدفعه لكن إن لم يكن علما ضروريا فلا بد له من دليل ، والدليل يكون مستلزما للمدلول عليه بحيث يلزم من انتفاء الدليل انتفاء المدلول عليه ، قائلوا : فان كان لو دفع ذلك الاعتقاد الذى حصل له لزم دفع شيء مما يعلم بالضرورة ، فهذا هو الدليل وإن لم يكن كذلك فهذا هوس لا يلتفت إليه ، وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود أن هذا الجنس واقع ، لكن يقع أيضا ما يظن أنه منه كبير أو لا يميز كثير منهم الحق من الباطل ، كما يقع فى الأدلة العقلية والسمعية ، فن هؤلاء من يسمع خطابا أو يرى من يأمره بقضية ، ويكون ذلك الخطاب

من الشيطان ، ويكون ذلك الذى يخاطبه الشيطان وهو يحسب أنه من أولياء الله من رجال الغيب .

ورجال الغيب : هم الجن وهو يحسب أنه انسى ، وقد يقول له أنا الخضر أو الياس بل أنا محمد أو ابراهيم الخليل أو المسيح أو أبو بكر أو عمر أو أنا الشيخ فلان أو الشيخ فلان ممن يحسن بهم الظن ، وقد يطير به فى الهواء ، أو يأتيه بطعام أو شراب أو نفقة ، فيظن هذا كرامة بل آية ومعجزة تدل على أن هذا من رجال الغيب أو من الملائكة ، ويكون ذلك شيطانا ألبس عليه فهذا ومثله واقع كثيراً أعرف منه وقائع كثيرة ، كما أعرف من الغلط فى السمعيات والعقليات ، هؤلاء يتبعون ظناً لا يفتى من الحق شيئاً ، ولو لم يتقدموا بين يدى الله ورسوله بل اعتصموا بالكتاب والسنة ، لتبين لهم أن هذا من الشيطان ، وكثير من هؤلاء يتبع ذوقه ووجدته وما يحده محبوباً اليه بغير علم ولا هدى ولا بصيرة فيكون متبعاً لهواه بلا ظن ، وخيارهم من يتبع الظن وما تهوى الانفس ، وهؤلاء إذا طلب من أحدهم حجة ذكر تقليده لمن يحبه من آباءه وأسلافه كقول المشركين : (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) وإن عكسوا احتجوا بالقدر وهو أن الله أراد هذا وسلطاناً عليه فهم يعملون بهوهم وإرادة نفوسهم بحسب قدرتهم كالمملوك المسلطين ، وكان الواجب عليهم أن يعملوا بما أمر الله فيتبعون أمر الله وما يحبه ويرضاه ، لا يتبعون إرادتهم وما يحبونه هم ويرضونه ، وأن يستعينوا بالله فيقولون : (إياك نعبد وإياك نستعين) لا حول ولا قوة إلا بالله لا يعتمدون على ما أوتوه من القوة والتصرف والحال فإن هذا من الجذ ، وقد كان النبي

صلى الله عليه وسلم يقول عقب الصلاة وفي الاعتدال بعد الركوع : « اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد » .

فالذوق والوجد هو يرجع إلى حب الإنسان ووجده بجلاوته وذوقه وطعمه ، وكل صاحب محبة فله في محبوبه ذوق ووجد ، فان لم يكن ذلك بسلطان من الله وهو ما أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم كان صاحبه متبعاً لهواه بغير هدى ، وقد قال الله تعالى : (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله) وقال تعالى : (وما لكم أن لا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمهتدين) .

وكذلك من اتبع ما يرد عليه من الخطاب ، أو ما يراه من الأنوار والأشخاص الغيبية ، ولا يعتبر ذلك بالكتاب والسنة ، فانما يتبع ظناً لا يقين من الحق شيئاً .

فليس في الحديثين الملهمين أفضل من عمر كما قال صلى الله عليه وسلم : « أنه قد كان في الأمم قبلكم محدثون فان يكن في أمتي منهم أحد فعمرو منهم » ، وقد وافق عمر ربه في عدة أشياء ، ومع هذا فكان عليه أن يعتصم بما جاء به الرسول ولا يقبل ما يرد عليه حتى يعرضه على الرسول ، ولا يتقدم بين يدي الله ورسوله بل يجعل ما ورد عليه ، وكان إذا تبين له من ذلك أشياء خلاف ما وقع له فيرجع إلى السنة ، وكان أبو بكر يبين له أشياء خفيت عليه فيرجع إلى بيان الصديق وإرشاده وتعليمه كما جرى يوم الحديبية ، ويوم مات الرسول ، ويوم ناظره من مانع الزكاة وغير ذلك ، وكانت المرأة ترد عليه

ما يقوله وتذكر الحجة من القرآن ، فيرجع اليها كما جرى في مهوور الذساء
ومثل هذا كثير .

فكل من كان من أهل الإلهام والخطاب والكاشفة ، لم يكن أفضل
من عمر فعليه أن يسلك سبيله في الاعتصام بالكتاب والسنة تبعاً لما جاء به
الرسول ، لا يجعل ما جاء به الرسول تبعاً لما ورد عليه ، وهؤلاء الذين
أخطؤا وضلوا وتركوا ذلك واستغنوا بما ورد عليهم وظنوا أن ذلك ينفيهم
عن اتباع العلم المنقول .

وصار أحدهم يقول أخذوا عليهم ميتاً عن ميت ، وأخذنا علماً عن
الحى الذى لا يموت ، فيقال له: أما ما نقله الثقات عن المعصوم فهو حق ولولا
النقل المعصوم لكنت أنت وأمثالك إما من المشركين وإما من اليهود والنصارى ،
وأما ما ورد عليك فمن أين لك أنه وحى من الله ، ومن أين لك أنه ليس
من وحى الشيطان .

والوحى وحيان : وحى من الرحمن ، ووحى من الشيطان . قال تعالى :
(وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم) وقال تعالى : (وكذلك
جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الانس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف
القول غروراً) وقال تعالى : (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين) وقد كان
المختار بن أبى عبيد من هذا الضرب ، حتى قيل لابن عمر وابن عباس قيل
لأحدهما : انه يقول انه يوحي اليه فقال : وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم
ليجادلوكم . وقيل للآخر : انه يقول انه ينزل عليه . فقال : (هل أنبئكم على
من تنزل الشياطين) فهؤلاء يحتاجون إلى الفرقان الإيماني القرآنى النبوى

الشرعى أعظم من حاجة غيرهم ، وهؤلاء لهم حسيات يرونها ويسمعونها ، والحسيات يضطر إليها الإنسان بغير اختياره كما قد يرى الإنسان أشياء ويسمع أشياء بغير اختياره ، كما أن النظار لهم قياس ومعقول ، وأهل السمع لهم أخبار منقولات ، وهذه الأنواع الثلاثة هي طرق العلم : الحس ، والخبر ، والنظر ، وكل إنسان من هذه الثلاثة في بعض الأمور ، لكن يكون بعض الأنواع أغلب على بعض الناس في الدين وغير الدين ، كالطبيب فإنه تجربات وقياسات وأمله منهم من يغلب عليه التجربة ، ومنهم من يغلب عليه القياس ، والقياس أصله التجربة ، والتجربة لا بد فيها من قياس ، لكن مثل قياس العاديات لا يعرف فيه العلة والمناسبة ، وصاحب القياس من يستخرج العلة المناسبة ويعلق الحكم بها والعقل خاصة القياس والاعتبار والقضايا السلكية ، فلا بد له من الحسيات التي هي الأصل ليعتبر بها والحس إن لم يكن مع صاحبه عقل وإلا فقد يغلط .

والناس يقولون غلط الحس ، والغلط تارة من الحس وتارة من صاحبه ، فإن الحس يرى أمراً معيناً فيظن صاحبه فيه شيئاً آخر فيؤتى من ظنه فلا بد له من العقل .

ولهذا النائم يرى شيئاً وتلك الأمور لها وجود وتحقيق ، ولكن هي خيالات وأمثلة قلما عزب ، ظنها الرأى نفس الحقائق كالذى يرى نفسه في مكان آخر يكلم أمواتاً ويكلمونه ، ويفعل أموراً كثيرة وهو في النوم ، يحزم بأنه نفسه الذى يقول ويفعل ، لأن عقله عزب عنه ، وتلك الصورة التي رآها مثال صورته وخيالها ، لكن غاب عقله عن نفسه حتى ظن أن ذلك

المثال هو نفسه ، فلما تاب إليه عقله علم أن ذلك خيالات ومثالات ، ومن الناس من لا يغيب عقله ، بل يعلم في المنام أن ذلك في المنام ، وهذا كالذي يرى صورته في المرآة أو صورة غيره ، فإذا كان ضعيف العقل ظن أن تلك الصورة هي الشخص حتى أنه يفعل به ما يفعل بالشخص ، وهذا يقع للصبيان والبله كما يخيل لأحدهم في الضوء شخص يتحرك ويصعد وينزل فيظنونه شخصاً حقيقة ، ولا يعلمون أنه خيال فالحس أحس صحيحاً لم يغلط ، لكن معه عقل لم يميز بين هذا العين والمثال ، فإن العقل قد عقل قل هذا أن مثل هذا يكون مثالا ، وقد عقل لوازم الشخص بعينه وأنه لا يكون في الهواء ولا في المرآة ولا يكون بدنه في غير مكانه وأن الجسم الواحد لا يكون في مكانين .

وهؤلاء الذين لهم مكاشفات ومخاطبات يرون ويسمعون ماله وجود في الخارج ، وما لا يكون موجوداً إلا في أنفسهم كحال النائم ، وهذا يعرفه كل أحد ولكن قد يرون في الخارج أشخاصاً يراها عياناً ، وما في خيال الإنسان لا يراه غيره ويخاطبهم أولئك الأشخاص ويحملونهم ويذهبون بهم إلى عرفات ، فيقفون بها ولما إلى غير عرفات ، ويأتونهم بذهب وفضة وطعام ولباس وسلاح وغير ذلك يخرجون إلى الناس ويأتونهم أيضاً بمن يطلبونه ، مثل من يكون له إرادة في امرأة أو صبي فيأتونه بذلك ، إما بحمولا في الهواء ولما يسعى شديد ، ويخبر أنه وجد في نفسه من الباعث القوى ما لم يمكنه المقام معه ، أو يخبر أنه سمع خطاباً ، وقد يقتلون له من يريد قتله من أعدائه أو يمرضونه ، فهذا كله موجود كثيراً لكن من الناس من يعلم أن هذا من الشيطان ، وأنه من السحر ، وأن ذلك حصل بما قاله ويعلمه من السحر ،

ومنها من يعلم أن ذلك من الجن ويقول هذا كرامة أكرمنا بتسخير الجن لنا ، ومنها من يظن أولئك الأشخاص إلا آدميين أو ملائكة ، فإن كانوا غير معروفين قال : هؤلاء رجال الغيب ، وإن يسموا قالوا : هذا هو الخضر ، وهذا هو الياس ، وهذا هو أبو بكر وعمر ، وهذا هو الشيخ عبد القادر أو الشيخ عدى أو الشيخ أحمد الرفاعى أو غير ذلك ، ظن أن الأمر كذلك فهنا لم يغلط ، لكن غلط عقله حيث لم يعرف أن هذه شياطين تمثلت على صور هؤلاء ، وكثير من هؤلاء يظن أن النبي صلى الله عليه وسلم نفسه أو غيره من الأنبياء أو الصالحين يأتيه في اليقظة ، ومن يرى ذلك عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم أو الشيخ وهو صادق في أنه إياه من قال أنه النبي أو الشيخ أو قيل له ذلك فيه ، لكن غلط حيث ظن صدق أولئك ، والذي له عقل وعلم يعلم أن هذا ليس هو النبي صلى الله عليه وسلم تارة لما يراه منهم من مخالفة الشرع مثل أن يأمره بما يخالف أمر الله ورسوله ، وتارة يعلمه أن النبي صلى الله عليه وسلم ما كان يأتي أحداً من أصحابه بعد موته في اليقظة ، ولا كان يخاطبهم من قبره ، فكيف يكون هذا لي وتارة يعلم أن الميت لم يقيم من قبره وأن روحه في الجنة لا تصير في الدنيا هكذا ، وهذا يقع كثيراً لكثير من هؤلاء ويسمون تلك الصورة رفيقة فلان ، وقد يقولون هو معناه يشكل وقد يقولون روحانيته ، ومن هؤلاء من يقول إذا مات فلا تدعوا أحداً يغسلنى ، ولا فلاناً يحضرنى ، فإنى أنا أغسل نفسى ، فإذا مات رأوه قد جاء وغسل ذلك البدن ، ويكون ذلك جنياً قد قال لهذا الميت إنك تجيء بعد الموت ، واعتقد ذلك حقاً فإنه كان في حياته يقول له أموراً ، وغرض الشيطان أن يضل أصحابه ، وأما بلاد المشركين كالحند فهذا كثيراً ما يرون

الميت بعد موته جاء وفتح حانوته ورد ودائع وقضى ديوناً ودخل إلى منزله ثم ذهب ، وهم لا يشكون أنه الشخص نفسه ، وإنما هو شيطان تصور في صورته .

(ومن هؤلاء) من يكون في جنازة أبيه أو غيره ، والميت على سريره وهو يراه آخذاً يمشي مع الناس بيد ابنه وأبيه قد جعل شيخاً بعد أبيه ، فلا يشك ابنه أن أباه نفسه هو كان الماشي معه الذي رآه هو دون غيره ، وإنما كان شيطانا ويكون مثل هذا الشيطان قد سمى نفسه خالداً وغير خالد ، وقال لهم انه من رجال الغيب ، وهم يعتقدون أنه من الإنس الصالحين ، ويسمونه خالداً الغيب وينسبون الشيخ إليه ويقولون : محمد الخالدي ونحو ذلك .

(فإن الجن مأمورون ومنهون) كالإنس وقد بعث الله الرسل من الانس اليهم وإلى الإنس ، وأمر الجميع بطاعة الرسل كما قال تعالى : (يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) وهذا بعد قوله : (ويوم نحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مشواكم خالدون فيها إلا ما شاء الله) قال غير واحد من السلف أي كثير من أغويتهم من الإنس وأضللتهم . قال البغوي : قال بعضهم استمتع الإنس بالجن ما كانوا يلقون لهم من الأراجيف والسحر والكهانة وتزييفهم لهم الأمور التي

يهيئونها ويسهل سبلها عليهم ، واستمتاع الجن بالإنس طاعة للإنس لهم فيما يزينون لهم من الضلالة والمعاصي ، قال محمد بن كعب : هو طاعة بعضهم لبعض وموافقة بعضهم بعضاً ، وذكر بن أبي حاتم عن الحسن البصري قال : لما كان استمتاع بعضهم ببعض إلا أن الجن أمرت وعملت الإنس . وعن محمد بن كعب قال : هو الصحابة في الدنيا ، وقال ابن السائب : استمتاع الإنس بالجن استعاذتهم بهم ، واستمتاع الجن بالإنس ان قالوا قد أسرنا الإنس مع الجن حتى عاذوا بنا ، فيزدادون شرفاً في أنفسهم وعظماً في نفوسهم وهذا كقوله : (ولأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً) قلت الاستمتاع بالشئ هو أن يتمتع به ، يقال به ما يطلبه ويريده ويهرأه ، ويدخل في ذلك استمتاع الرجال بالنساء بعضهم لبعض كما قال : (فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة) ومن ذلك الفواحش كاستمتاع الذكور بالذكور والاناث بالاناث .

ويدخل في هذا الاستمتاع بالاستخدام وأئمة الرياسة ، كما يتمتع الملوك والسادة بجنودهم ومواليهم ، ويدخل في ذلك الاستمتاع بالاموال كاللباس ومنه قوله : (ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره) وكان من السلف من يتمتع المرأة بخادم فهي تستمتع بخدمته ومنهم من يتمتع بكسوة أو نفقة ، ولهذا قال الفقهاء أعلى المتعة خادم وأدناها كسوة يجزى فيها الصلاة .

وفي الجملة استمتاع الإنس بالجن والجن بالإنس ، يشبه استمتاع الإنس بالإنس قال تعالى : (الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) وقال

تعالى : (وثققت بهم الأسباب) قال مجاهد هي المودات التي كانت لغير الله ، وقال الخليل : (إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً) قال تعالى : (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه) فالمشرك يعبد ما يهواه ، واتباع الهوى هو استمتاع من صاحبه بما يهواه ، وقد وقع في الإنس والجن هذا كله .

وتارة يخدم هؤلاء لهؤلاء في أغراضهم ، هؤلاء لهؤلاء في أغراضهم ، فالجن تأتيه بما يريد من صورة أو مال أو قتل عدوه ، والإنس تطيع الجن فتارة يسجد له وتارة يسجد لما يأمره بالسجود له ، وتارة يمكنه من نفسه فيفعل به الفاحشة ، وكذلك الجنيات ممن من يريد من الإنس الذي يخدمته ما يريد نساء الإنس من الرجال ، وهذا كثير في رجال الجن ونسائهم ، فكثير من رجالهم ينال من نساء الإنس ما يناله الإنسى وقد يفعل ذلك بالذكران .

(وصرع الجن للإنس هو لأسباب ثلاثة) تارة يكون الجنى يحب المصروع فيصرعه ليشبع به ، وهذا الصرع يكون أرفق من غيره وأسهل ، وتارة يكون الإنسى آذاهم إذا بال عليهم ، أو صب عليهم ماء حاراً ، أو يكون قتل بعضهم ، أو غير ذلك من أنواع الأذى ، هذا أشد الصرع ، وكثيراً ما يقتلون المصروع ، وتارة يكون بطريق العبث به كما يعبت سفهاء الإنس بأبناء السبيل .

ومن استمتع الإنس بالجن استخدمهم في الأخبار بالأمور الغائبة كما يخبر الكهان ، فإن في الإنس من له غرض في هذا لما يحصل به من الرياسة

والمال وغير ذلك ، فإن كان القوم كفاراً كما كانت العرب ، لم تبال بأن يقال أنه كاهن كما كان العرب كهانا ، وقدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة وفيها كهان ، وكان المنافقون يطلبون التحاكم إلى الكهان ، وكان أبو أبرق الأسلمي أحد الكهان قبل أن يسلم ، وإن كان القوم مسلمين لم يظهر أنه كاهن ، بل يجعل ذلك من باب الكرامات ، وهو من جنس الكهان فإنه لا يخدم الإنسى بهذه الأخبار إلا لما يستمتع به من الإنسى بأن يطيعه الإنسى في بعض ما يريده ، إما في شرك ، وإما في فاحشة ، وإما في أكل حرام ، وإما في قتل نفس بغير حق ، فالشياطين لهم غرض فيما نهى الله عنه من الكفر والفسوق والعصيان ، ولهم لذة في الشر والفن يحبون ذلك ، وإن لم يكن فيه منفعة لهم ، وهم يقولون بأمر السارق أن يسرق ويذهب إلى أهل المال ، فيقولون فلان سرق متاعكم ، ولهذا يقال القوة الملكية والبهيمية والسبعية والشيطانية ، فإن الملكية فيها العلم النافع والعمل الصالح ، والبهيمية فيها الشهوات كالأكل والشرب ، والسبعية فيها الغضب وهو دفع المؤذى ، وأما الشيطانية فشر محض ليس فيها جلب منفعة ولا دفع مضرة .

والفلاسفة ونحوهم ممن لا يعرف الجن والشياطين لا يعرفون هذه ، وإنما يعرفون الشهوة والغضب ، والشهوة خلقاً لمصلحة ومنفعة ، لكن المذموم هو العبدوان فيهما ، وأما الشيطان فيأمر بالشر الذي لا ينفعه فيه ويجب ذلك ، كما فعل إبليس بآدم لما وسوس له ، وكما امتنع من السجود له ، فالحسد يأمر به الشيطان ، والحاسد لا يفتنع بزوال

النعمة عن المحسود لكن يبغض ذلك وقد يكون بغضه لغوات غرضه وقد لا يكون .

ومن استمتع الانس بالجن : استخدامهم في إحضار بعض ما يطلبونه من مال وطعام وثياب ونفقة ، فقد يأتون ببعض ذلك وقد يدلونه على كثر وغيره ، واستمتع الجن بالانس استعمالهم فيما يريد الشيطان من كفر وفسوق ومعصية .

ومن استمتع الإنس بالجن : استخدامهم فيما يطلبه الانس من شرك وقتل وفواحش ، فتارة يمثل الجنى في صورة الانسى ، فإذا استغاث به بعض أتباعه أتاه فظن أنه الشيخ نفسه ، وتارة يكون التابع قد نادى شيخه وهتف به : ياسيدى فلان فينقل الجنى ذلك الكلام إلى الشيخ بمثل صوت الانسى حتى يظن الشيخ أنه صوت الانسى بعينه ثم إن الشيخ يقول : نعم . ويشير إشارة يدفع بها ذلك المكروه ، فيأتى الجنى بمثل ذلك الصوت والفعل يظن ذلك الشخص أنه شيخه نفسه وهو الذى أجابه وهو الذى فعل ذلك ، حتى أن تابع الشيخ قد يكون يده فى إناء يأكل فيضع الجنى يده فى صورة يد الشيخ ويأخذ من الطعام فيظن ذلك التابع أنه شيخه حاضر معه ، والجنى يمثل للشيخ نفسه مثل ذلك الاناء فيضع يده فيه حتى يظن الشيخ أن يده فى ذلك الاناء ، فإذا حضر المرید ذكر له الشيخ أن يده كانت فى الاناء فيصدق ، ويكون بينهما مسافة شهر والشيخ موضعه ويده لم تطل ، ولكن الجنى مثل للشيخ ومثل للمرید حتى ظن كل منهما أن أحدهما عند الآخر ، وإنما كان عنده ما مثله الجنى وخيله ، وإذا سئل الشيخ المخدوم عن أمر غائب إما

سرقة وإما شخص مات وطلب منه أن يخبر بحاله، أو علة في النساء أو غير ذلك فإن الجنى قد يمثل ذلك في صورة المسروق، فيقول الشيخ: ذهب لكم كذا وكذا، ثم إن كان صاحب المال معظماً وأراد أن يدلّه على سرقة مثل له الشيخ الذي أخذه أو المكان الذي فيه المال، فيذهبون إليه فيجدونه كما قال، والأكثر منهم أنهم يظهرون صورة المال، ولا يكون عليه لأن الذي سرق المال معه أيضاً حتى يخدمه، والجن يخاف بعضهم من بعض، كما أن الإنس يخاف بعضهم بعضاً، فإذا دلّ الجنى عليه جاء إليه أولياء السارق فأذروه، وأحياناً لا يدلّ لكون السارق وأعوانه يخدمونه ويرشونه، كما يصيب معرف اللصوص من الإنس تارة يعرف السارق ولا يعرف به إمارغبة يناهضه، وإمارهة وخوف منه، وإذا كان المال المسروق لكبير يخافه ويرجوه عرف سارقه، فهذا وأمثاله من استمتاع بعضهم ببعض.

﴿والجن مكلفون كتكليف الإنس﴾ ومحمد صلى الله عليه وسلم مرسل إلى الثقلين الجن والإنس، وكفار الجن يدخلون النار بنصوص وإجماع المسلمين ﴿وأما مؤمنهم﴾ ففيهم قولان، وأكثر العلماء على أنهم يثابون أيضاً ويدخلون الجنة، وقد روى أنهم يكونون في ربضها يراهم الإنس من حيث لا يرون الإنس، عُدس الحال في الدنيا وهو حديث رواه الطبراني في معجمه الصغير يحتاج النظر في إسناده. وقد احتج ابن أبي ليلى وأبو يوسف على ذلك بقوله تعالى: (ولكل درجات بما عملوا) وقد ذكر الجن والإنس الأبرار والفجار في الأحقاف والأنعام. واحتج الأوزاعي وغيره بقوله تعالى: (لم يطمئن إنس قبلهم ولا جان) وقد قال تعالى في الأعراف: (أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس) (٥ - مجموعة الرسائل)

أنهم كانوا خاسرين ولكل درجات بما عملوا) وقد تقدم قبل هذا ذكر أهل الجنة وقوله : (أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا وتتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة) ثم قال : (ولكل درجات بما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون) قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم : درجات أهل الجنة تذهب علواً ، ودرجات أهل النار تذهب سفلاً ، وقد قال تعالى عن قول الجن : (منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا) وقالوا : (وإنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً) ففهم الكفار والفساق والعصاة ، وفهم من فيه عبادة ودين بنوع من قلة العلم كما في الإنس ، وكل نوع من الجن يميل إلى نظيره من الإنس ، فاليهود مع اليهود ، والنصارى مع النصارى ، والمسلمون مع المسلمين ، والفساق مع الفساق ، وأهل الجهل والبدع مع أهل الجهل والبدع .

واستخدام الإنس لهم مثل استخدام الإنس للإنس بشيء . منهم من يستخدمهم في المحرمات من الفواحش والظلم والشرك والقول على الله بلا علم ، وقد يظنون ذلك من كرامات الصالحين وإنما هو من أفعال الشياطين . ومنهم من يستخدمهم في أمور مباحة ، إما لإحضار ماله أو دلالة على مكان فيه مال ليس له مالك معصوم أو دفع من يؤذيه ونحو ذلك ، فهذا كاستعانة الإنس بعضهم ببعض في ذلك . والنوع الثالث : أن يستعملهم في طاعة الله ورسوله كما يستعمل الإنس في مثل ذلك ، فيأمرهم بما أمر الله به ورسوله وينهاهم عما نهاهم الله عنه ورسوله ، كما يأمر الإنس وينهاهم ، وهذه حال نبينا صلى الله عليه وسلم ، وحال من اتبعه واقتدى به من أمته ، وهم أفضل

الخلق فانهم يأمرون الإنس والجن بما أمرهم الله به ورسوله ، وينهون الإنس والجن عما نهاهم الله عنه ورسوله إذ كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مبعوثا بذلك إلى الثقلين الإنس والجن ، وقد قال الله له : (قل هذه سبيلي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ وَسَبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمَشْرِكِينَ) وقال : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) (وعمر رضى الله عنه لما نادى يا سارية الجبل . قال : إن لله جنودا يبلغون صوتي) وجنود الله هم من الملائكة ومن صالحى الجن ، فجند الله بلغوا صوت عمر إلى سارية وهو أنهم نادوه بمثل صوت عمر والانفس صوت عمر لا يصل نفسه فى هذه المسافة البعيدة ، وهذا كالرجل يدعو آخر وهو بعيد عنه فيقول : يا فلان فيمان على ذلك . فيقول الواسطة بينهما : يا فلان وقد يقول لمن هو بعيد عنه : يا فلان احبس الماء تعال إلينا وهو لا يسمع صوته ، فيناديه الواسطة بمثل ذلك : يا فلان احبس الماء ارسل الماء اما بمثل صوت الأول ان كان لا يقبل إلا صوته وإلا فلا يضر بأى صوت كان إذا عرف أن صاحبه قد ناداه ، وهذا حكاية كان عمر مرة قد أرسل جيشا فجاء شخص وأخبر أهل المدينة بانتصار الجيش وشاع الخبر . فقال عمر : من أين لكم هذا . قالوا : شخص صفته كيت وكيت فأخبرنا . فقال عمر : ذاك أبو الهيثم . يريد الجن وسيجىء بريد الإنسان بعد ذلك بأيام .

وقد يأمر الملك بعض الناس بأمر ويستكتمه إياه فيخرج فيرى الناس يتحدثون به ، فان الجن تسمعه وتخبر به الناس والذي يستخدمون الجن فى المباحات يشبه استخدام سليمان ، لكن أعطى ملكا لا ينبغي لأحد بعده وسخرت له الإنس والجن ، وهذا لم يحصل لغيره والنبي صلى الله عليه وسلم

لما تفلت عليه العفريت ليقطع عليه صلاته قال : « فأخذته فذعته حتى سال لعابه على يدي وأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد ثم ذكرت دعوة أخى سليمان فأرسلته ، (فلم يستخدم) الجن أصلاً لكن دعاهم إلى الإيمان بالله ، وقرأ عليهم القرآن وبلغهم الرسالة وبايعهم كما فعل بالانس . والذي أوتيته صلى الله عليه وسلم أعظم مما أوتيته سليمان ، فانه استعمل الجن والانس في عبادة الله وحده وسعادتهم في الدنيا والآخرة ، لا لغرض يرجع اليه إلا ابتغاء وجه الله وطلب مرضاته ، واختار أن يكون عبداً رسولاً على أن يكون نبياً ملكاً ، فداود وسليمان ويوسف أنبياء ملوك ، وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد رسل عبيد ، فهو أفضل كفضل السابقين المقربين على الأبرار أصحاب اليمين ، وكثير ممن يرى هذه المعجائب الخارقة يعتقد أنها من كرامات الأولياء وكثير من أهل الكلام والعلم لم يعرفوا الفرق بين الأنبياء والصالحين في الآيات الخارقة وما لأولياء الشيطان من ذلك من السحرة والكهات والكفار من المشركين وأهل الكتاب وأهل البدع والضلال من الداخلين في الاسلام ، جعلوا الخوارق جنساً واحداً وقالوا كلها يمكن أن تكون معجزة إذا اقترنت بدعوى النبوة والاستدلال بها والتحدى بمثلاً .

وإذا ادعى النبوة من ليس بنبي من الكفار والسحرة ، فلا بد أن يسلبه الله ما كان معه من ذلك وأن يقيض له من يعارضه ، ولو عارض واحد من هؤلاء النبي لا يعجزه الله ، خاصة المعجزات عندهم مجرد كون المرسل إليهم لا يأتون بمثله ما أتى به النبي كان معتاداً للناس . قالوا : إن معجز الناس عن المعارضة خرق عادة فهذه هي المعجزات عندهم ، وهم ضاهوا سلفهم من المعتزلة الذين قالوا المعجزات هي خرق العادة لكن أنكروا كرامات

الصالحين ، وأنكروا أن يكون السحر والكهانة إلا من جنس الشعبة والحيل ، لم يعلموا أن الشياطين تعين على ذلك ، وأولئك أثبتوا الكرامات ثم زعموا أن المسلمين أجمعوا على أن هذه لا تكون إلا لرجل صالح أو نبي . قالوا : فإذا ظهرت على يد رجل كان صالحاً بهذا الإجماع وهؤلاء أنفسهم قد ذكروا أنها تكون للسحرة ما هو مثلها وينافضوا في ذلك كما قد بسط في غير هذا الموضع .

فصار كثير من الناس لا يعلمون ما للسحرة والكهان ، وما يفعلها الشياطين من المعجائب وظنوا أنها لا تكون إلا لرجل صالح ، فصار من ظهرت هذه له يظن أنها كرامة فيقوى قلبه بأن طريقته هي طريقة الأولياء ، وكذلك غيرهم يظن فيه ذلك ثم يقولون : الولي إذا تولى لا يعترض عليه ، فنهى من براه مخالفاً لما علم بالاضطرار من دين الرسول مثل ترك الصلاة المفروضة وأكل الخبائث كالخمر والحشيشة والميتة وغير ذلك ، وفعل الفواحش والفحش والتفحش في المنطق وظلم الناس وقتل النفس بغير حق والشرك بالله وهو مع ذلك يظن فيه أنه ولي من أولياء الله قد وهبه هذه الكرامات بلا عمل فضلاً من الله تعالى ، ولا يعلمون أن هذه من أعمال الشياطين ، وأن هذه من أولياء الشياطين يضل به الناس ويغويهم .

(ودخلت) الشياطين في أنواع من ذلك ، فتارة يأتون الشخص في النوم يقول أحدهم : أنا أبو بكر الصديق وأنا أتوبك لي ، وأصير شيخك وأنت تتوب الناس لي ويلبسه ، فيصبح وعلى رأسه ما ألبسه فلا يشك أن الصديق هو الذي جاءه ولا يعلم أنه الشيطان ، وقد جرى مثل هذا لعدة

من المشايخ بالعراق والجزيرة والشام ، وتارة يقص شعره في النوم فيصبح فيجد شعره مقصوصاً ، وتارة يقول أنا الشيخ فلان فلا يشك أن الشيخ نفسه جاءه وقص شعره .

وكثيراً ما يستغيث الرجل بشيخه الحى أو الميت ، فيأتونه في صورة ذلك الشيخ وقد يخلصونه عما يكره ، فلا يشك أن الشيخ نفسه جاءه أو أن ملوكاً تصور بصورته وجاءه ، ولا يعلم أن ذلك الذى تمثل إنما هو الشيطان لما أشرك بالله أضلته الشياطين والملائكة لا تنجيب مشركاً، وتارة يأتون إلى من هو خال في البرية ، وقد يكون ملوكاً أو أميراً كبيراً ويكون كافراً ، وقد انقطع عن أصحابه وعطش وخاف الموت فيأتيه في صورة إنسى ويسقيه ويدعوه إلى الاسلام ويتوبه فيسلم على يديه ويطعمه ويدله على الطريق ويقول من أنت ؟ فيقول: أنا فلان ويكون في موضع .

﴿ كما جرى مثل هذا لي ﴾ كنت في مصر في قلعتها وجرى مثل هذا إلى كثير من الترك من ناحية المشرق ، وقال له ذلك الشخص أنا ابن تيمية فلم يشك ذلك الأمير أنى أنا هو وأخبر بذلك ملك ماردین ، وأرسل بذلك ملك ماردین إلى ملك مصر رسولاً وكنت في الحبس فاستعظموا ذلك وأنا لم أخرج من الحبس ، ولكن كان هذا جنياً يحبنا فيصنع بالترك التتر مثل ما كنت أصنع بهم لما جاءوا إلى دمشق ، كنت أدعوم إلى الاسلام ، فإذا نطق أحدهم بالشهادتين أطعمتهم ما تيسر فعمل معهم مثل ما كنت أعمل ، وأراد بذلك لإكرامى ليظن ذاك أنى أنا الذى فعلت ذلك .

((قال لى طائفة من الناس فلم لا يجوز أن يكون ماسكا قلت لا)) إن الملك لا يكذب ، وهذا قد قال أنا ابن تيمية وهو يعلم أنه كاذب فى ذلك .

((وكثير من الناس)) رأى من قال لى أنا الحضر ، وإنما كان جنياً ثم صار من الناس من يكذب بهذه الحكايات انكاراً لموت الحضر ، والذين قد عرفوا صدقها يقطعون ب حياة الحضر ، وكلا الطائفتين مخطئ . فان الذين رأوا من قال لى أنا الحضر هم كثيرون صادقون ، والحكايات متواترات لكن أخطئوا فى ظنهم أنه الحضر ، وإنما كان جنياً ولهذا يجرى مثل هذا لليهود والنصارى ، فكثيراً ما يأتهم فى كنائسهم من يقول أنه الحضر ، وكذلك اليهود يأتهم فى كنائسهم من يقول أنه الحضر ، وفى ذلك من الحكايات الصادقة ما يضيق عنه هذا الموضع بين صدق من رأى شخصاً وظن أنه الحضر وأنه غلط فى ظنه أنه الحضر ، وإنما كان جنياً وقد يقول أنا المسيح أو موسى أو محمد أو أبو بكر أو عمر أو الشيخ فلان ، فكل هذا قد وقع والنبي صلى الله عليه وسلم قال : « من رانى فى المنام فقد رآنى حقاً فان الشيطان لا يتمثل فى صورى » قال ابن عباس فى صورته التى كان عليها فى حياته وهذه رؤية فى المنام ، وأما فى اليقظة فمن ظن أن أحداً من الموتى يحى بنفسه للناس عياناً قبل يوم القيامة فمن جهله أئى .

((ومن هنا)) ضلت النصارى حيث اعتقدوا أن المسيح بعد أن صلب كما يظنون أنه أتى إلى الحواريين وكلهم ووصاهم وهذا مذكور فى أناجيلهم وكلها تشهد بذلك ، وذلك الذى جاء كان شيطاناً قال أنا المسيح ولم يكن هو المسيح نفسه ، ويجوز أن يشبهه مثل هذا على الحواريين كما اشتبهه على كثير من شيوخ المسلمين ، ولكن ما أخبرهم المسيح قبل أن يرفع بتبليغه

فهو الحق الذى يجب عليهم تبليغه ، ولم يرفع حتى بلغ رسالات ربه فلاحاجة إلى مجيئه بعد أن رفع إلى السماء .

(وأصحاب الحلاج) لما قتل كان يأتهم من يقول أنا الحلاج، فيرونه فى صورته عيانا ، وكذلك شيخ بمصر يقال له الدسوقي بعد أن مات كان يأتى أصحابه من جهته رسائل وكتب مكتوبة وأرأى صادق من أصحابه الكتاب الذى أرسله فرأىته بخط الجن ، وقد رأيت خط الجن غير مرة ، وفيه كلام من كلام الجن ، وذلك المعتقد يعتقد أن الشيخ حى وكان يقول أنتقل ثم مات وكذلك شيخ آخر كان بالمشرق وكان له خوارق من الجن ، وقيل كان بعد هذا يأتى خواص أصحابه فى صورته فيعتقدون أنه هو ، وهكذا الذين كانوا يعتقدون بقاء على أوبقاء محمد بن الحنفية قد كان يأتى إلى بعض أصحابهم حى فى صورته وكذا منتظر الرافضة قد يراه أحدهم أحيانا ويكون المرئى جنيا ، فهذا باب واسع واقع كثيرا ، وكلما كان القوم أجهل كان عندهم أكثر فى المشركين أكثر بما فى النصارى وهو فى النصارى كما هو فى الداخلين فى الاسلام ، وهذه الأمور يسلم بسببها ناس ويتوب بسببها ناس يكونون أضل من أصحابها فينتقلون بسببها إلى ما هو خير مما كان عليه كالشيخ الذى فيه كذب وجور من الانس قد يأتية قوم كفار فيدعوهم إلى الاسلام فيسلون ويصيرون خيرا عما كانوا ، وإن كان قصد ذلك الرجل فاسداً وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم ، وهذا كان كالحنجج والأدلة التى يذكروها كثير من أهل الكلام والرأى ، فانه ينقطع بها كثير من أهل الباطن ، ويقوى بها قلوب كثير من أهل الحق ، وإن كانت فى نفسها باطلة فغيرها أبطل منها والخير والشر درجات فينتفع بها أقوام ينتقلون بما كانوا عليه إلى ما هو خير

منه ، وقد ذهب كثير من مبتدعة المسلمين من الرافضة والجهمية وغيرهم إلى بلاد الكفار ، فأسلم على يديه خلق كثير وانتفعوا بذلك وصاروا مسلمين مبتدعين وهو خير من أن يكونوا كفاراً ، وكذلك بعض الملوك قد يغزو غزواً يظلم فيه المسلمين والكفار ويكون آثماً بذلك ، ومع هذا فيحصل به نفع خلق كثير كانوا كفاراً فصاروا مسلمين ، وذاك كان شراً بالنسبة إلى القائم بالواجب . وأما بالنسبة إلى الكفار فهم خير . وكذلك كثير من الأحاديث الضعيفة في الترغيب والترهيب والفضائل والأحكام والقصص قد يسمعها أقوام فينتقلون بها إلى خير مما كانوا عليه ، وإن كانت كذباً ، وهذا كالرجل يسلم رغبة في الدنيا ورهبة من السيف ، ثم إذا أسلم وطال مكثه بين المسلمين دخل الإيمان في قلبه ، فنفس ذل الكفر الذي كان عليه وانتهاره ودخوله في حكم المسلمين خير من أن يبقى كافراً ، فانتقل إلى خير مما كان عليه وخف الشر الذي كان فيه ، ثم إذا أراد الله هدايته أدخل الإيمان في قلبه ، والله تعالى بعث الرسل بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتعليقها والتي صلى الله عليه وسلم دعا الخلق بغاية الامكان ، ونقل كل شخص إلى خير مما كان عليه بحسب الامكان : (ولكل درجات بما عملها وليوفهم أعمالهم وهم لا يظلمون) وأكثر المتكلمين يردون باطلاً بباطل ، وبدعة بدعة ، لكن قد يردون باطل الكفار من المشركين وأهل الكتاب بباطل المسلمين ، فيصير الكافر مسلماً مبتدعاً ، وأخص من هؤلاء من يرد البدع الظاهرة كبدعة الرافضة بدعة أخف منها وهي بدعة أهل السنة ، وقد ذكرنا فيما تقدم أصناف البدع .

ولا ريب أن المتزلة خير من الرافضة ومن الخوارج ، فإن المعتزلة تفر

بخلق الخلفاء الاربعة ، وكلهم يتولون ابا بكر وعمر وعثمان ، وكذلك المعروف عنهم أنهم يتولون علياً ، ومنهم من يفضل على أبي بكر وعمر ، ولكن حكى عن بعض متقدميهم أنه قال : فسق يوم الجمل احدى الطائفتين ولا أعلم عينها . وقالوا أنه قال : لو شهد على والزبير لم أقبل شهادتهما لفسق أحدهما لا بعينه ولو شهد على مع آخر ففي قبول شهادته قولان . وهذا القول شاذ فيهم والذي عليه عامتهم تعظيم على .

ومن المشهور عندهم ذم معاوية وأبي موسى وعمر بن العاص لاجل على ومنهم من يكفر هؤلاء ويفسقهم بخلاف طلحة والزبير وعائشة فانهم يقولون أن هؤلاء تابوا من قتاله ، وكلهم يتولى عثمان ويعظمون ابا بكر وعمر ويعظمون الذنوب ، فهم يتحرون الصدق كالخوارج لا يختلفون الكذب كالرافضة ، ولا يرون أيضا اتخاذ دار غير دار الاسلام كالخوارج ، ولهم كتب في تفسير القرآن ونصر الرسول ، ولهم محاسن كثيرة يرجعون على الخوارج والروافض وهم قصدهم إثبات توحيد الله ورحمته وحكمته وصدقه وطاعته ، وأصولهم الخمس عن هذه الصفات الخمس لكنهم غلطوا في بعض ما قالوه في كل واحد من أصولهم الخمس فجعلوا من التوحيد نفي الصفات وإنكار الرؤية والقول بأن القرآن مخلوق ، فوافقوا في ذلك الجهمية وجعلوا من العدل أنه لا يشاء ما يكون ويكون ما لا يشاء ، وأنه لم يخلق أفعال العباد ، فنفوا قدرته ومشيتته وخلقه لإثبات العدل ، وجعلوا من الرحمة نفي أمور خلقها لم يعرفوا ما فيها من الحكمة ، وكذلك هم الخوارج قالوا بانفاذ الوعيد ليثبتوا أن الرب صادق لا يكذب إذ كان عندهم قد أخبر بالوعيد العام فتم لم يقل بذلك لزم كذبه وغلطوا في فهم الوعيد ، وكذلك الامر بالمعروف والنهي

عن المنكر بالسيف قصدوا به طاعة الله ورسوله كما يقصده الخوارج والزيدية فغلطوا في ذلك ، وكذلك إنكارهم للخوارق غير المعجزات ، قصدوا به إثبات النبوة ونصرها ، وغلطوا فيما سلموه فإن النصر لا يكون بتكذيب الحق ، وذلك لكونهم لم يحققوا خاصة آيات الانبياء والاشعرية ماردوه من بدع المعتزلة والرافضة والجهمية وغيرهم ، وبينوا ما بينوه من تناقضهم وعظموا الحديث والسنة ومذهب الجماعة فحصل بما قالوه من بيان تناقض أصحاب البدع الكبار وردهم بما انتفع به خلق كثير .

فإن الأشعري كان من المعتزلة وبقي على مذهبهم أربعين سنة يقرأ على أبي علي الجبائي ، فلما انتقل عن مذهبهم كان خبيراً بأصولهم وبالرد عليهم وبيان تناقضهم ، وأما ما بقي عليه من السنة فليس هو من خصائص المعتزلة بل هو من القدر المشترك بينهم وبين الجهمية ، وأما خصائص المعتزلة فلم يواهم الأشعري في شيء منها بل ناقضهم في جميع أصولهم ، ومال في مسائل العدل والأسماء والأحكام إلى مذهب جهم ونحوه ، وكثير من الطوائف كالنجرانية أتباع حسين النجار ، والضرارية أتباع ضرار بن عمرو ، وبخالفون المعتزلة في القدر والأسماء والأحكام وإنفاذ الوعيد ، والمعتزلة من أبعد الناس عن طريق أهل الكشف ، والخوارج والصوفية يذمونهم ويعيبونها ، وكذلك يبالغون في ذم النصارى أكثر مما يبالغون في ذم اليهود وهم إلى اليهود أقرب ، كما أن الصوفية ونحوهم إلى النصارى أقرب ، فإن النصارى عندهم عبادة وزهد وأخلاق بلا معرفة ولا بصيرة فهم ضالون ، واليهود عندهم علم ونظر بلا قصد صالح ولا عبادة ولا زهد ولا أخلاق كريمة فهم مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون .

قال أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم : ولا أعلم في هذا الحرف اختلافا بين المفسرين ، وروى بإسناد عن أبي روق عن ابن عباس وغير طريق الضالين وهم النصارى الذين أضلهم الله بفريتهم عليه يقول : فألهنا دينك الحق وهو لا إله إلا الله وحده لا شريك له حتى لا تغضب علينا كما غضبت على اليهود ولا تضلنا كما أضللت النصارى فتعذبنا كما تعذبهم . يقول : امنعنا من ذلك برفقك ورحمتك ورأفتك وقدرتك . قال ابن أبي حاتم : ولا أعلم في هذا الحرف اختلافا بين المفسرين ، وقد قال سفيان بن عيينة : كانوا يقولون من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى .

فأهل الكلام أصل أمرهم هو النظر في العلم ودليله فيعظمون العلم وطريقه ، وهو الدليل والسلوك في طريقه وهو النظر .

وأهل الزهد يعظمون الإرادة والمريد ، وطريق أهل الإرادة فهو لا يبنون أمرهم على الإرادة ، وأولئك يبنون أمرهم على النظر ، وهذه هي القوة العلمية ولا بد لأهل الصراط المستقيم من هذا وهذا ، ولا به أن يكون هذا وهذا موافقاً لما جاء به الرسول .

فالإيمان قول وعمل وموافقة السنة ، وأولئك عظموا النظر وأعرضوا عن الإرادة وعظموا جنس النظر ولم يلتزموا النظر الشرعى ، فغلطوا من جهة كون جانب الإرادة لم يعظموه ، وإن كانوا يوجبون الأعمال الظاهرة فهم لا يعرفون أعمال القلوب وحقائقها ، ومن جهة أن النظر لم يميزوا فيه

بين النظر الشرعى الحق الذى أمر به الشارع وأخبر به ، وبين النظر البدعى الباطل المنهى عنه .

وكذلك الصوفية ، عظموا جنس الارادة لإرادة القلب ، وذموا الهوى وبالفوضى في الباب ، ولم يميز كثيرا منهم بين الإرادة الشرعية الموافقة لأمر الله ورسوله ، وبين الإرادة البدعية بل أقبلوا على طريق الارادة طريقة النظر . وأعرض كثير منهم فدخل عليهم الداخل من هاتين الجهتين ، ولهذا صار هؤلاء يميل اليهم النصارى ويميلون اليهم ، وأولئك يميل اليهم اليهود ويميلون اليهم ، وبين اليهود والنصارى غاية التنافر والتباغض ، وكذلك بين أهل الكلام والرأى وبين أهل التصوف والزهد تنافر وتباغض . هذا وهذا من الخروج عن الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

نسأل الله العظيم أن يهدينا وسائر اخواننا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين آمين .

(فصل) فان قيل : فإذا كان في كتب الاناجيل التى عندهم أن المسيح صلب وأنه بعد الصلب بأيام أتى إليهم وقال لهم : أنا المسيح ، ولا يقولون أن الشيطان تمثل على صورته ، فالشيطان ليس هو لحم وعظم . وهذه أثر المسامير ونحو هذا الكلام فأين الانجيل الذى قال الله عز وجل فيه : (وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه) وقال قبل هذا : (وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيه هدى ونورا ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين

وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) وقد قال قبل هذا : (وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء) وقال أيضاً : (ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) وقال أيضاً : (قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما أنزل إليكم من ربكم ويزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً فلا تأس على القوم الكافرين) وهذا أمر للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يقول لأهل الكتاب الذين بعث إليهم وهو من كان في وقتهم ومن يأتي من بعدهم إلى يوم القيامة لم يؤمر أن يقول ذلك لمن قد تاب منهم ، وكذلك قوله : (وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله) اخبار عن اليهود الموجودين وأن عندهم التوراة فيها حكم الله وكذلك قوله : (وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه) هو أمر من الله على لسان محمد لأهل الانجيل ومن لا يؤمر على لسان محمد صلى الله عليه وسلم قيل قبل هذا أنه قد قيل ليس في العالم نسخة بنفس ما أنزل الله في التوراة والانجيل بل ذلك مبدل ، فإن التوراة انقطع تواتره والانجيل إنما أخذت عن أربعة ، ثم من هؤلاء من زعم أن كثيراً مما في التوراة أو الانجيل باطل ليس من كلام الله ، ومنهم من قال بل ذلك قليل وقيل : لم يحرف أحد شيئاً من حروف الكتب ، وإنما حرفوا معانيها بالتأويل وهذا القولان قال كلاهما كثير من المسلمين ، والصحيح القول الثالث وهو أن في الأرض نسخاً

صحيحة وبقيت إلى عبد النبي صلى الله عليه وسلم ، ونسخاً كثيرة محرقة ، ومن قال أنه لا يحرف شيء من النسخ فقد قال ما لا يمكنه نفيه ، ومن قال جميع النسخ بعد النبي صلى الله عليه وسلم حرفت ، فقد قال ما يعلم أنه خطأ ، والقرآن يأمرهم أن يحكموا بما أنزل الله في التوراة والإنجيل ، ويخبر أن فيهما حكماً وليس في القرآن خبر أنهم غيروا جميع النسخ ، وإذا كان كذلك فنقول هو سبحانه قال : (وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه) وما أنزله الله هو ما تلقوه عن المسيح فأما حكايته لحاله بعد أن رفع فهو مثلهما في التوراة ذكر وفاة موسى عليه السلام ، ومعلوم أن هذا الذي في التوراة والإنجيل من الخبر عن موسى وعيسى بعد توفيهما ليس هو مما أنزله الله وما تلقوه عن موسى وعيسى ، بل هو مما كتبوه مع ذلك للتعريف بحال توفيهما ، وهذا خبر محض من الموجودين بعدها عن حالهما ليس هو مما أنزله الله عليهما ، ولا هو مما أمراه في حياتهما ولا بما أخبرا به الناس .

وكذلك : (لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم) وقوله : (ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لا كلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) فإن إقامة الكتاب : العمل بما أمر الله به في الكتاب من التصديق بما أخبر به على لسان الرسول وما كتبه الذين نسخوه من بعد وفاة الرسول ومقدار عمره ونحو ذلك ، ليس هو مما أنزله الله على الرسول ، ولا بما أمر به ولا أخبر به وقد يقع مثل هذا في الكتب المصنفة ، يصنف الشخص كتاباً ، فيذكر ناسخه في آخره عمر المصنف ونسبه وسنه ونحو ذلك مما ليس هو من كلام المصنف .

﴿ولهذا﴾ أمر الصحابة والعلماء بتجريد القرآن وأن لا يكتب في المصحف غير القرآن ، فلا يكتب أسماء السور ولا التخميس والتعشير ، ولا آمين ولا غير ذلك ، والمصاحف القديمة والتي كتبها أهل العلم على هذه الصفة ، وفي المصاحف من قد كتب ناسخها : أسماء السور ، والتخميس ، والتعشير ، والوقف ، والابتداء ، وكتب في آخر المصحف تصديقه ودعا وكتب اسمه ونحو ذلك ، وليس هذا من القرآن ، فهكذا مافي الانجيل من الخبر عن صلب المسيح وتوفيه وبعثه إلى الحواريين ليس هو عما قاله المسيح ، وإنما هو بما رآه من بعده والذي أنزله الله هو ما سمع من المسيح المبلغ عن الله .

فان قيل فاذا كان الحواريون قد اعتقدوا أن المسيح صلب وأنه أتاهاهم بعد أيام ، وهم الذين نقلوا عن المسيح الانجيل والدين فقد دخلت الشبهة .

قيل الحواريون وكل من نقل عن الانبياء إنما يجب أن يقبل منهم ما نقلوه عن الانبياء فان الحججة في كلام الانبياء ، وما سوى ذلك فوقوف على الحججة إن كان حقاً قبل ، وإلا رد ولهذا كان ما نقله الصحابة عن النبي صلى الله عليه وسلم من القرآن والحديث يجب قبوله لاسيما المتواتر كالقرآن وكثير من السنن ، وأما ما قالوه فما أجمعوا عليه ، فاجماعهم معصوم وماتازعوا فيه رد إلى الله والرسول ، وعمر قد كان أولاً أنكر موت النبي صلى الله عليه وسلم حتى رد ذلك عليه أبو بكر ، وقد تازعوا في دفنه حتى فضل أبو بكر بالحديث الذي رواه ، وتنازعوا في تجهيز جيش أسامة ، وتنازعوا في قتال مانعى الزكاة ، فلم يكن هذا قادحاً فيما نقلوه عن النبي

صلى الله عليه وسلم والنصارى ليسوا متفقين على صلب المسيح ولم يشهد أحد منهم صلبه ، فإن الذى صلب إنما صلبه اليهود ولم يكن أحد من أصحاب المسيح حاضراً وأولئك اليهود الذين صلبوه ، قد اشدبه عليهم المصلوب بالمسيح ، وقد قيل أنهم عرفوا أنه ليس هو المسيح ولكنهم كذبوا وشبهوا على الناس . والاول : هو المشهور وعليه جمهور الناس وحينئذ فليس عند النصارى خبر عمن يصدقونه بأنه صلب ، لكن عمدتهم على ذلك الشخص الذى جاء بعد أيام وقال أنا المسيح وذاك شيطان ، وهم يعترفون بأن الشياطين كثيراً ما نجى . ويدعى أنه نبي أو صالح ويقول : أنا فلان النبي أو الصالح ويكون شيطانياً ، وفي ذلك حكايات متعددة مثل حكاية الراهب الذى جاءه ، جاء وقال : أنا المسيح جئت لأهديك . فمرف أنه الشيطان . فقال : أنت قد بلغت الرسالة ونحن نعمل بها ، فان جئت اليوم بشيء يخالف ذلك لم نقبل منك .

فليس عند النصارى واليهود علم بأن المسيح صلب كما قال تعالى : (وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن) وأضاف الخبر عن قتله إلى اليهود بقوله : (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله) فانهم بهذا الكلام يستحقون العقوبة إذ كانوا يعتقدون جواز قتل المسيح ، ومن جوز قتله فهو كمن قتله فهم في هذا القول كاذبون وهم آثمون وإذا قالوه غفراً لم يحصل لهم الفخر لأنهم لم يقتلوه ، وحصل الوزر لاستحلالهم ذلك وسعيهم فيه وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار . قالوا : يا رسول الله فما بال المقتول . قال : إنه كان حريصاً على قتل صاحبه ، وقوله : (وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه) قيل هم اليهود ، وقيل النصارى والآية تعم الطائفتين . وقوله : (لفي شك)

(٦ - مجموعة الرسائل)

منه) قيل : من قتله . وقيل منه : أى فى شك منه هل صلب أم لا كما اختلفوا فيه ، فقالت اليهود : هو ساحر . وقالت النصارى : إنه إله ، فاليهود والنصارى اختلفوا هل صلب أم لا وهم فى شك من ذلك ما لهم به من علم ، فإذا كان هذا فى الصلب فكيف فى الذى جاء بعد الرفع وقال إنه هو المسيح .

فإن قيل كان الحواريون الذين أذكرهم قد حصل هذا فى إيمانهم فإين المؤمنون به الذين قال فيهم :

(وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا) وقوله : (فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين) .

قيل ظن من ظن منهم أنه صلب ، لا يقدح فى إيمانه إذا كان لم يحرف ما جاء به المسيح بل هو مقر بأنه عبد الله ورسوله وكلبته ألقاها إلى مريم وروح منه ، فاعتقاده بعد هذا أنه صلب ، لا يقدح فى إيمانه فإن هذا اعتقاد موته على وجه معين ، وغاية الصلب أن يكون قتلا له وقتل النبي لا يقدح فى نبوته ، وقد قتل بنو إسرائيل كثيراً من الأنبياء وقال تعالى : (وكأين من نبي قتل معه ربون كثير الآية) وقال تعالى : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) وكذلك اعتقاد من اعتقد منهم أنه جاء بعد الرفع وكلهم ، هو مثل اعتقاد كثير من مشايخ المسلمين : أن النبي صلى الله عليه وسلم جاءهم فى اليقظة فإنهم لا يكفرون بذلك ، بل هذا كان يعتقد من هو من أكثر الناس اتباعاً للسنة واتباعاً لها ، وكان فى الزهد والعبادة أعظم من غيره وكان يأتيه من يظن أنه رسول الله ، فهذا غلط منه لا يوجب كفره ، فكذلك ظن من ظن الحواريين أن ذلك هو المسيح لا يوجب

خروجهم عن الإيمان بالمسيح ولا يقدح فيما نقلوه عنه ، وعمر لما كان يعتقد أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يميت ، ولكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى وأنه لا يموت حتى يموت أصحابه لم يكن هذا قادحاً في إيمانه وإنما كان غلطاً ورجع عنه .

(فصل) وقوله تعالى في هذه : (ما لهم به من علم إلا اتباع الظن) هو ذم لهم على اتباع الظن بلا علم . وكذلك قوله : (إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى) وكذلك قوله : (وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً) وقوله تعالى : (وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا لايخرون) وقوله : (أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدي فما لكم كيف تحكمون وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لا يغني من الحق شيئاً إن الله عليم بما يفعلون) .

فهذه عدة مواضع ينم الله فيها الذين لا يتبعون إلا الظن ، وكذلك قوله : (قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون قل فله الحجة البالغة) مضاربة بالعلم وذم لمن يتبع الظن وما عنده علم وكذلك قوله : (نبشئ بعلم إن كنتم صادقين) وقوله : (وإن كثيراً يضلون بأهوائهم بغير علم) وأمثال ذلك ذم لمن عمل بغير علم وعمل بالظن .

وقد ثبت في السنة المتواترة وإجماع الامة أن الحاكم يحكم بشاهدين

وإن لم يكن شهود حلف الخصم . وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض وإنما أقضي بنحو مما أسمع فمن قضيت له من حق أخيه فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار » .

والاجتهاد في تحقيق المناط مما اتفق المسلمون عليه ولا بد منه ، كحكم حوى عدل بالمثل في جزاء الصيد ، وكالاستدلال على الكعبة عند الاشتباه ونحو ذلك ، فلا يقطع به الإنسان بل يجوز أن تكون القبلة في غير جهة اجتهاده ، كما يجوز إذا حكم أن يكون قد قضى لأحدهما بشيء من حق الآخر ، وأدلة الأحكام لا بد فيها من هذا فإن دلالة العموم في الظواهر قد تكون محتملة للنقيض ، وكذلك خبر الواحد والقياس وإن كان قوم نازعوا في القياس ، فالفقهاء منهم لم ينازعوا في خبر الواحد كالظاهرية ، ومن نازع في هذا وهذا لم ينازع في العموم كالمعتزلة البغداديين ، وإن نازع في العموم والقياس منازع كبعض الرافضة مثل الموسوي ونحوه ، لم ينازع في الأخبار فإن الإمامية عمدتهم على ما نقل عن الاثني عشر فلا بد لهم من الرواية ، ولا يوجد من يستغنى عن الظواهر والأخبار والافيسة ، بل لا بد أن يعمل ببعض ذلك مع تجويز نقيضه وهذا عمل بالظن ، والقرآن قد حرم اتباع الظن وقد تنوعت طرق الناس في جواز هذا ، فطائفة قالت : لا يتبع قط إلا العلم ولا يعمل بالظن أصلاً . وقالوا : إن خبر الواحد يفيد العلم ، وكذلك يقولون في الظواهر ، بل يقولون : نقطع بخطأ من خالفنا وتنقض حكمه كما يقوله داود وأصحابه ، وهؤلاء عمدتهم إنما هو ما يظنونه ظاهراً ، وأما الاستصحاب والاستصحاب في كثير من المواضع من أضعف الأدلة وهم

في كثير مما يحتجون به قد لا يكون ما احتجوا به ظاهر اللفظ بل الظاهر خلافه ، فطائفة قالت لما قام الدليل على وجوب العمل بالظن الراجح كما متبعين للعلم فنحن نعمل بالعلم عند وجود العلم لانهل بالظن ، وهذه طريقة القاضي أبو بكر وأتباعه .

وهنا السؤال المشهور في حد الفقه انه العلم بالأحكام الشرعية العملية ، وقال الرازي: العلم بالأحكام الشرعية العملية المستدل على أعيانها بحيث لا يعلم كونها من الدين ضرورة قال :

﴿ فان قلت ﴾ الفقه من باب الظنون فكيف جعلته علما .

﴿ قلت ﴾ المجتهد إذا غلب على ظنه مشاركة صورة لصورة في مناط الحكم قطع بوجوب العمل بما أدى إليه ظنه فالعلم حاصل قطعا والظن واقع في طريقه ، وحقيقة هذا الجواب ان هنا مقدمتين احدهما: أنه قد حصل عندى ظن والثانية : قد قام الدليل القطعى على وجوب اتباع هذا الظن فالمقدمة الأولى : وجدانية . والثانية : عملية استدلالية ، فليس الظن هنا مقدمة في الدليل كما توهمه بعضهم لكن يقال العمل بهذا الظن هو حكم أصول الفقه ليس هو الفقه بل الفقه هو ذاك الظن الحاصل بالظاهر وخبر الواحد والقياس والأصول يفيد أن العمل بهذا الظن واجب وإلا فالفقه لا يتعرضون لهذا ، فهذا الحكم العملى الاصولى ليس هو الفقه ، وهذا الجواب جواب القاضي أبى بكر ، وهو بناء على أصله فانه عنده: كل مجتهد مصيب . وليس في نفس الامر أمر مطلوب ، ولا على الظن دليل يوجب ترجيح ظن على ظن ، بل الظنون عنده بحسب

وقال الغزالي وغيره من نصر قوله ، قد يكون بحسب ميل النفس إلى أحد القولين دون الآخر كمثل ذى الشدة إلى قول ، وذى اللين إلى قول ، وحينئذ فعندهم متى وجد المجتهد ظنا في نفسه فحكم الله في حقه اتباع هذا الظن ، وقد أنكر أبو المعالي وغيره عليه هذا القول إنكارا بليغا ، وهم معذورون في إنكاره فان هذا أولا مكابرة ، فان الظاهرين عليها أمارات ودلائل يوجب وجردها ترجيح ظن على ظن وهذا أمر معلوم بالضرورة ، والشرعية جاءت به ورجحت شيئا على شيء ، والكلام في شيئين في اتباع الظن وفي النقص هل هو من الظاهرين .

أما الأول : فالجواب الصحيح هو الجواب الثالث ، وهو أن كل ما أمر الله تعالى به فأنما أمر بالعلم ، وذلك أنه في المسائل الخفية عليه أن ينظر في الأدلة ويعمل بالراجح ، وكون هذا هو الراجح أمر معلوم عند أمر مقطوع به وإن قدر أن ترجيح هذا على هذا فيه شك عنده لم يعمل به ، وإذا ظن الرجحان فأنما ظنه لقيام دليل عنده على أن هذا راجح وفرق بين اعتقاد الرجحان ورجحان الاعتقاد ، وأما اعتقاد الرجحان فقد يكون علما وقد لا يعمل حتى يعلم الرجحان وإذا ظن الرجحان أيضا فلا بد أن يظنه بدليل يكون عنده أرجح من دليل الجانب الآخر ورجحان هذا غير معلوم فلان ينتهي الأمر إلى رجحان معلوم عنده فيكون متعبا لما علم أنه أرجح ، وهذا اتباع للعلم لا للظن ، وهو اتباع الأحسن كما قال : (فخذها بقرة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) وقال : (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) وقال : (واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم) فإذا كان أحد الدليلين هو الأرجح فاتباعه هو الأحسن وهذا معلوم .

فالواجب على المجتهد أن يعمل بما يعلم أنه أرجح من غيره ، وهو العمل بأرجح الدليلين المتعارضين ، وحيفئذ فاعمل إلا بالعلم وهذا جواب الحسن البصري وأبي وغيرهم ، والقرآن ذم من لا يتبع إلا الظن فلم يستند ظنه إلى علم ، فان هذا أرجح من غيره كما قال : (ما لهم به من علم ان يتبعون إلا الظن) وقال : (هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن) وهكذا في سائر المواضع يذم الذين إن يتبعون إلا الظن ، فعندهم ظن مجرد لا علم معه ، وهم يتبعونه والذي جاءت به الشريعة وعليه عقلاء الناس أنهم لا يعلمون إلا بعلم بأن هذا أرجح من هذا ، فيعتقدون الرجحان اعتقاداً عملياً لكن لا يلزم إذا كان أرجح أن لا يكون المرجوح هو الثابت في نفس الامر ، وهذا كما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال : « ولعل بعضهم أن يكون الحق بحجته من بعض وأنا أقضي بنحو ما أسمع » فإذا أتى أحد الخصمين بحجة مثل بينة تشهد له ولم يأت الآخر بشاهد معها كان الحاكم عالماً بأن حجة هذا أرجح ، فاحكم إلا بعلم لكن الآخر قد يكون له حجة لا يعلمها أولاً يحسن أن بينها مثل أن يكون قد قضاه أو أبراه وله بينة تشهد بذلك ، وهو لا يعلمها أولاً يذكرها أولاً يحسر أن يتكلم بذلك فيكون هو المضيع بحقه حيث لم يبين حجته ، والحاكم لم يحكم إلا بعلم وعدل ، وضياح حق هذا كان من عجزه وتفريطه لا من الحاكم ، وهكذا أدلة الأحكام ، فإذا تعارض خبران أحدهما : مسند ثابت والآخر : مرسل كان المسند الثابت أقوى من المرسل ، وهذا معلوم لأن المحدث بهذا قد علم عدله وضبطه ، والآخر لم يعلم عدله ولا ضبطه كشاهدين زكى أحدهما ولم يرك الآخر فهذا المزكى أرجح ، وإن جاز أن يكون في نفس الامر قول الآخر هو الحق ، لكن المجتهد إنما عمل بعلم وهو عليه

برجحان هذا على هذا ليس بمن يتبع إلا الظن ، ولم يكن تبين له إلا بعد الاجتهاد اللام فيه من أرسل ذلك الحديث ، وفي تركية هذا الشاهد فان المرسل قد يكون روايه عدلا حافظا كما قد يكون هذا الشاهد عدلا ونحن ليس معنا علم بانتفاء عدالة الراوى ، لكن معنا عدم العلم بعدالتهما ، وقد لا يعلم عدالتهما مع تقريرتها ورجحانها في نفس الامر ، فن هنا يقع الخطأ في الاجتهاد لكن هذا لاسبيل إلى أن يكلفه العالم أن يدع ما يعلمه إلى أمر لا يعلمه لإمكانه ثبوته في نفس الامر ، فاذا كان لا بد من ترجيح أحد القولين وجب ترجيح هذا الذي علم ثبوته على ما لا يعلم ثبوته . وإن لم يعلم انتفاؤه من جهته ، فانهما إذا تعارضا وكانا متناقضين فاثبات أحدهما هو نفي الآخر فهذا الدليل المعلوم قد علم أنه يثبت هذا وينفي ذلك ، وذلك المحجول بالعكس فاذا كان لا بد من الترجيح وجب قطعاً ترجيح المعلوم ثبوته على ما لم يعلم ثبوته ، ولكن قد يقال أنه لا يقطع بثبوته ، وقد قلنا فرق بين اعتقاد الرجحان ورجحان الاعتقاد ، أما اعتقاد الرجحان فهو علم والمجتهد ما عمل إلا بذلك العلم ، وهو اعتقاد رجحان هذا على هذا ، وأما رجحان هذا الاعتقاد على هذا الاعتقاد فهو الظن لكن لم يكن فن قال الله فيه : (ان يتبعون إلا الظن) بل هنا ظن رجحان هذا وظن رجحان ذاك ، وهذا الظن هو الراجح ، ورجحانه معلوم فحكم بما علمه من الظن الراجح ودليله الراجح ، وهذا معلوم له لا مظهر عنده ، وهذا يوجد في جميع العلوم والصناعات كالطب والتجارة وغير ذلك .

وأما الجواب عن قولهم الفقه من باب الظنون ، فقد أجاب طائفة منهم أبو الخطاب بجواب آخر ، وهو أن العلم المراد به العلم الظاهر وإن جوز أن يكون الامر بخلافه كقوله : (فان علمتموهن مؤمنات) .

والتحقيق أن عنه جوابين : أحدهما : أن يقال جمهور مسائل الفقه الى يحتاج اليها الناس ويفتون بها هي ثابتة بالنص أو الاجماع ، وإنما يقع الظن والنزاع في قليل مما يحتاج إليه الناس وهذا موجود في سائر العلوم ، وكثير مسائل الخلاف هي في أمور قليلة الوقوع ومقدرة ، وأما ما لا بد للناس منه من العلم مما يجب عليهم ويحرم ويباح فهو معلوم مقطوع به ، وما يعلم من الدين ضرورة جزء من الفقه ، وأخراجه من الفقه قول لم يعلم أحد من المتقدمين قاله ، ولا احترز بهذا القيد أحد إلا الرازي ونحوه ، وجميع الفقهاء يذكرون في كتب الفقه وجوب الصلاة والزكاة والحج واستقبال القبلة ، وجوب الوضوء والغسل من الجنابة ، وتحريم الخمر والفواحش وغير ذلك مما يعلم من الدين ضرورة .

وأیضا فكون الشيء معلوما من الدين ضرورة أمر إضافي ، فحديث العهد بالاسلام ومن نشأ ببادية بعيدة قد لا يعلم هذا بالكلية ، فضلا عن كونه يعلمه بالضرورة ، وكثير من العلماء يعلم بالضرورة أن النبي صلى الله عليه وسلم سجد للسهو وقضى بالدية على العاقلة ، وقضى أن الولد للراش وغير ذلك مما يعلمه الخاصة بالضرورة ، وأكثر الناس لا يعلمه البتة . الجواب الثاني : أن يقال الفقه لا يكون فقها إلا من المجتهد المستدل وهو قد علم أن هذا الدليل أرجح وهذا الظن أرجح فالفقه هو علمه برجحان هذا الدليل ، وهذا الظن ليس الفقه قطعه بوجوب العمل أى بما أدى اليه اجتهاده ، بل هذا القطع من أصول الفقه ، والأصولى يتكلم في جذس الأدلة ويتكلم كلاما كليلا . فيقول : يجب إذا تعارض دليلان أن يحكم بأرجحهما ، ويقول أيضا إذا تعارض العام والخاص فالخاص أرجح ، وإذا تعارض المسند والمرسل فالمسند أرجح ،

ويقول أيضا العام المجرد عن قرائن التخصيص شموله الافراد أرجح من عدم شموله ويجب العمل بذلك .

فأما الفقيه : فيتكلم في دليل معين في حكم معين مثل أن يقول قوله :
 (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من
 المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) خاص في أهل
 الكتاب ومتأخر عن قوله : (ولا تكهوا المشركات) وتلك الآية لا تناول
 أهل الكتاب وإن تناولتهم فهذا خاص متأخر . فيكون ناسخاً ومخصصاً ، فهو
 يعلم أن دلالة هذا النص على الحل أرجح من دلالة ذلك النص على التحريم
 وهذا الرجحان معلوم عنده قطعاً ، وهذا الفقه الذي يختص به الفقيه وهو علم
 قطعي لا ظني ، ومن لم يعلم كان مقلداً للأئمة الأربعة والجمهور الذين جوزوا
 نكاح الكتابيات واعتقاد المقلد ليس بفقه ، ولهذا قال المستدل على أعيانها
 والفقيه قد استدل على عين الحكم المطلوب والمسئول عنه ، وحيث لا يعلم
 الرجحان فهو متوقف لا قول له ، وإذا قيل له فقد قال : (ولا تمسكوا بعصم
 الكوافر) قال هذا نزل عام الحديدية والمراد به المشركات فإن سبب النزول
 يدل على أنهن مرادات قطعاً ، وسورة المائدة بعد ذلك فهي خاص متأخر وذاك
 عام مقدم ، والخاص المتأخر أرجح من العام المتقدم ، ولهذا لما نزل قوله :
 (ولا تمسكوا بعصم الكوافر) فارق عمر امرأة مشركة وكذلك غيره ، فدل
 على أنهم كانوا ينكحون المشركات إلى حين نزول هذه الآية ، ولو كانت
 آية البقرة قد نزلت قبل هذه لم يكن كذلك ، فدل على أن آية البقرة بعد آية
 الممتحنة وآية المائدة بعد آية البقرة . فهذا النظر وأمثاله هو نظر الفقيه العالم
 بمرجحان دليل وظن على دليل وهذا علم لا ظن .

فقد تبين أن الظن له أدلة تقتضيه ، وإن العالم إنما يعلم بما يوجب العلم بالرجحان لا بنفس الظن إلا إذا علم رجحانه ، وأما الظن الذي لا يعلم رجحانه فلا يجوز اتباعه ، وذلك هو الذي ذم الله به من قال فيه : (إن يتبعون إلا الظن) فهم لا يتبعون إلا الظن ليس عندهم علم ، ولو كانوا عالمين بأنه ظن راجح لسكانوا قد اتبعوا علما لم يكونوا ممن يتبع إلا الظن والله أعلم .

(فصل) فهنا ثلاثة أشياء أحدها الظن الراجح في نفس المستدل المجتهد .

والثاني : الأدلة التي يسميها بعض المتكلمين أمارات التي تعارضت ، وعلم المستدل بأن التي أوجبت ذلك الظن أقوى من غيرها .

الثالث : أنه قد يكون في نفس الأمر دليل آخر على القول الآخر لم يعلم به المستدل ، وهذا هو الواقع في عامة موارد الاجتهاد ، فإن الرجل قد يسمع نصا عاما كما سمع ابن عمر وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن قطع الخفين ، وأنه أمر أن لا يخرج أحد حتى يودع البيت ، أو أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن لبس الحرير ، وظاهره العموم وهذا راجح على الاستصحاب النافي للتحريم ، فعملوا بهذا الراجح وهم يعلمون قطعاً أن النهي أولى من الاستصحاب ، لكن يجوز أن يكون مع الاستصحاب دليل خاص ولكن لما لم يعلموه لم يحز لهم أن يعدلوا عما علموه إلى ما لم يعلموه ، فكانوا يفتنون بأن الحائض عليها الوداع وعليها قطع الخفين ، وإن قليل الحرير وكثيره حرام ، وابن الزبير كان يحرمه على الرجال والنساء لعموم قوله : « من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة » ، وكان في نفس الأمر نصوص خاصة

بأن النبي صلى الله عليه وسلم رخص للمحائض أن تنفر بلا وداع ، وأنها تلبس الخفين وغيرهما مما نهى عنه المحرم ، ولكن تجتنب النقاب والقفازين ، وأنه رخص في موضع أصبعين أو ثلاث أو أربعة من الحرير ، كما بين ذلك في الصحيح في رواية عمر ولم يعرف به ابنه عبد الله وكان لهجة مكفوفة بالحرير فلما سمع ابن عمر ونحوه هذه النصوص الخاصة رجعوا وعلوا حينئذ أنه كان في نفس الأمر دليل أقوى من الدليل الذي يستصحبوه ولم يعلوا به وهم في الحالين إنما حكموا بعلم لم يكونوا ممن لم يتبع إلا الظن ، فانهم أولا رجحوا العموم على استصحاب البراءة الأصلية ، وهذا ترجيح بعلم ، فان هذا راجح بلا ريب والشرع طافح بهذا .

فما أوجبه الله أو حرمه كتابه كالوضوء والصلاة والحج وغيرهما ، هي نصوص عامة ، وما حرمه كالميتة والدم ولحم الخنزير حرمه بنصوص عامة وهي راجحة ومقدمة على البراءة الأصلية النافية للوجوب والتحريم ، فمن رجع ذلك فقد حكم بعلم وحكم بأرجح الدليلين المعلوم الرجحان ، ولم يكن ممن لم يتبع إلا الظن ، لكن لتجويزه أن يكون النص مخصوصا صار عنده ظن راجح ، ولو علم أنه لا تخصيص هناك قطع بالعموم . وكذلك لو علم إرادة نوع قطع بانتفاء النصوص وهذا القول في سائر الأدلة ، مثل أن يتمسك بنصوص وتكون منسوخة ولم يبلغه الناسخ ، كالذين نهوا عن الانتباذ في الأوعية وعن زيارة القبور ، ولم يبلغهم النص الناسخ ، وكذلك الذين صلوا إلى بيت المقدس قبل أن يبلغهم النسخ ، مثل من كان من المسلمين بالبوادي وبمكة والحبشة وغير ذلك ، وهؤلاء غير الذين كانوا بالمدينة وصى بعضهم صلاة إلى القبلتين بعضها إلى هذه القبلة ، وبعضها إلى هذه القبلة لما بلغهم النسخ وهم

في أثناء الصلاة فاستداروا في صلاتهم من جهة بيت المقدس الى جهة الكعبة من جهة الشام الى جهة اليمن .

فالقاضي أبو بكر ونحوه من الذين ينفون أن يكون في الباطن حكم مطلوب بالاجتهاد أو دليل عليه ، يقولون ما ثم إلا الظن الذي في نفس المجتهد ، والامارات لا ضابط لها وليست أمانة أقوى من أمانة ، فانهم إذا قالوا ذلك لزمهم أن يكون الذي عمل بالمرجوح دون الراجح خطأ ، وعندهم ليس في نفس الأمر خطأ .

وأما السلف والائمة الاربعة والجمهور فيقولون : بل الامارات بعضها أقوى من بعض في نفس الامر (وعلى الانسان أن يجتهد) ويطلب الاقوى فاذا رأى دليلاً أقوى من غيره ولم ير ما يعارضه عمل به ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، وإذا كان في الباطن ما هو أرجح منه كان خطأ معذوراً وله أجر على اجتهاده وعمله بما بين له رجحانه ، وخطؤه مغفور له وذلك الباطن هو الحكم لكن بشرط القدرة على معرفته ، فن عجز عن معرفته لم يؤخذ بتركه .

فاذا أريد بالخطأ الاتيم ، فليس المجتهد بمخطئ بل كل مجتهد مصيب مطيع لله فاعل ما أمره الله به ، وإذا أريد به عدم العلم بالحق في نفس الامر فالمصيب واحد وله أجران كما في المجتهدين في جهة الكعبة إذا صلوا إلى أربع جهات ، فالذي أصاب الكعبة واحد وله أجران لاجتهاده وعمله كان أكمل من غيره ، وانؤمن القوى أحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، ومن زاده الله علماً وعملًا زاده أجراً بما زاده من العلم والعمل قال تعالى : (وتلك حجتنا آتيناها

ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء) قال مالك عن زيد بن أسلم بالعلم وكذلك قال في قصة يوسف : (ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم) .

وقد تبين أن جميع المجتهدين إنما قالوا بعلم واتبعوا العلم ، وأن الفقه من أجل العلوم ، وأنهم ليسوا من الذين لا يتبعون إلا الظن لكن بعضهم قد يكون عنده علم ليس عند الآخر ، إما بأن سمع مالم يسمع الآخر ، وإما بأن فهم مالم يفهم الآخر كما قال تعالى : (وداود وسليمان إذ يحكمان في الحث إذ نفشت فيه غم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما) .

وهذه حال أهل الاجتهاد والنظر والاستدلال في الأصول والفروع ، ولم يفرق أحد من السلف والائمة بين أصول وفروع .

بل جعل الدين قسمين : أصولا وفروعا لم يكن معروفا في الصحابة والتابعين ولم يقل أحد من السلف والصحابة والتابعين ان المجتهد الذي استفرغ وسعه في طلب الحق يأثم لا في الأصول ولا في الفروع ، ولكن هذا التفريق ظهر من جهة المعتزلة ، وأدخله في أصول الفقه من نقل ذلك عنهم ، وحكوا عن عبيد الله بن الحسن العنبري أنه قال : كل مجتهد مصيب ومراده أنه لا يأثم . وهذا قول عامة الائمة كأبي حنيفة والشافعي وغيرهما .

ولهذا يقبلون شهادة أهل الأهواء ويصلون خلفهم ومن ردها كمالك وأحمد فليس ذلك مستلزما لائتمهما ، لكن المقصود إنكار المنكر وهجر من أظهر البدعة فإذا هجر ولم يصل خلفه ، ولم تقبل شهادته كان ذلك منعا له من

أظهار البدعة ، ولهذا فرّق أحد وغيره بين الداعية للبدعة المظهر لها وغيره وكذلك قال الخرقى ومن صلى خلف من يجهل ببدعة أو منكرها عاد ، وبسط هذا له موضع آخر .

والذين فرقوا بين الأصول والفروع ، لم يذكروا ضابطاً يميز بين النوعين بل تارة يقولون هذا قطعى وهذا ظنى ، وكثير من مسائل الأحكام قطعى ، وكثير من مسائل الأصول ظنى عند بعض الناس ، فإن كون الشيء قطعياً وظنياً أمر إضافي ، وتارة يقولون الأصول هي العمليات الخبريات والفروع العمليات ، وكثير من العمليات من جحدتها كفر ، كوجوب الصلاة والزكاة والصيام والحج ، وتارة يقولون هذه عقليات وهذه سمعيات ، وإذا كانت عقليات لم يلزم تكفير الخطئ فإن الكفر حكم شرعى يتعلق بالشرع ، وقد بسط هذا فى غير هذا الموضع .

ولإذا تدبر الإنسان تنازع الناس ، وجد عند كل طائفة من العلم ما ليس عند الأخرى كما فى مسائل الأحكام ، مثال ذلك : ما تقدم فى الأصول الخمسة التوحيد والعدل والمنزلة بين المنزلتين ومسائل الأسماء والأحكام وإنفاذ الوعيد ، وهى التى توالى المعتزلة من وافقهم عليها ويتبرءون من خالفهم فيها وقد قدمنا أنهم قصدوا توحيد الرب واثبات عدله وحكمته ورحمته وصدقته وطاعة أمره ، لكن غلطوا فى كل واحدة من هذه الأمور كما تقدم ، وكذلك الذين ناقضوهم من الجهمية ، ومن سلك مسلكتهم كأبى الحسن الأشعرى وأصحابه ، فإنهم ناقضوهم فى الأصول الخمسة ، وكان عندهم علم ليس عند أولئك وكان عند أولئك علم ليس عند هؤلاء ، وكل من الطائفتين لم تحط

علما بما في الكتاب والسنة من بيان هذه الأمور ، بل علوا بعضاً وجهلوا بعضاً فان هؤلاء المجبرة هم في الحقيقة لا يثبتون لله عدلا ولا حكمة ولا رحمة ولا صدقا فأولئك قصدوا إثبات هذه الأمور ، أما العدل فعندهم كل ممكن فهو عدل ، والظلم عندهم هو الممتنع ، فلا يكون ثم عدل يقصد فعله وظلم يقصد تركه ، ولهذا يجوزون عليه فعل كل شيء وإن كان قبيحا ، ويقولون القبيح هو ما نهى عنه وهو لا ناهى له ، ويجوزون الأمر بكل شيء وإن كان منكرا وشركا ، والنهى عن كل شيء وإن كان توحيدا ومعروفا فلا ضابط عندهم للفعل ، فلهذا الرمومهم جواز إظهار المعجزات على يد الكاذب ، ولم يكن لهم عن ذلك جواب صحيح ، ولم يذكروا فرقا بين المعجزات وغيرها ولا ما به يعلم صدق النبي صلى الله عليه وسلم إلا إذا نقضوا أصلهم ، وقد قال الله تعالى : (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط) وعندهم هذا لافائدة فيه ، فليس في الممكن قسط وجور حتى يكون قائما بهذا دون هذا ، وقد بسط هذا في غير هذا الموضع .

وكذلك الحكمة عندهم لا تفعل الحكمة ، وقد فسروا الحكمة إما بالعلم وإما بالقدر وإما بالإرادة ، ومعلوم أن القادر قد يكون حكيما ويكون غير حكيم ، كذلك المريد قد يكون إرادته حكمة ، وقد يكون سفها ، والعلم يطابق المعلوم سواء كان حكمة أو سفها ، فليس عندهم في نفس الأمر أن الله حكيم وكذلك الرحمة ما عندهم في نفس الأمر إلا إرادة ترجيح أحد اثنين بلا مرجح ، نسبتها إلى نفع العباد وضررهم سواء ، فليس عندهم في نفس الأمر رحمة ولا حجة أيضاً ، وقد بسط هذا في غير هذا الموضع ، وبين تناقضهم في الصفات والأفعال حيث أثبتوا الإرادة مع نفي المحبة والرضا ومع نفي

الحكمة ، وبين تناقضهم وتناقض كل من أثبت بعض الصفات دون البعض وأن المتفلسفة نفاة الإرادة أعظم تناقضاً منهم ، فإن الرازي ذكر في المطالب العلمية مسألة الإرادة ورجح نفي الإرادة لأنه لم يمكنه أن يجيب عن حجة المتفلسفة على أصول أصحابه الجهمية والمعتزلة ففر إليهم ، وكذلك في غير هذا من المسائل فهو تارة يرجح قوله قول المتفلسفة ، وتارة يرجح قول المتكلمة ، وتارة يحار ويقف ، واعترف في آخر عمره بأن طريق هؤلاء وهؤلاء لا تشفى عيلاً ولا تروى غليلاً .

وقال : قد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية . فسا رأيتها تشفى عيلاً ولا تروى غليلاً ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ، اقرأ في الاثبات : (الرحمن على العرش استوى . إليه يصعد الكلم الطيب) وقرأ في النفي : (ليس كمثل شيء . ولا يحيطون به علماً) ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل تعريفني ، فقد تبين أنهم لا يثبتون عدل الرب ولا حكمته ولا رحمته وكذلك الصدق . فانهم لما أرادوا أن يقيموا الدليل على أن الله صادق تعذر ذلك عليهم ، فقالوا الصدق في الكلام النفساني واجب لأنه يعلم الأمور ، ومن يعلم يتمتع أن يقوم في نفسه خبر بخلاف علمه ، وعلى هذا اعتمد الغزالي وغيره ، فقيل لهم هذا ضعيف لوجهين . أحدهما : الصدق في ذلك المعنى لا ينفع إن لم يثبت الصدق في العبارات الدالة عليه ويتميز بين الأفعال عندهم . الثاني : أنهم أثبتوا الخبر النفساني فإن الإنسان يخبرك بالكذب فيقوم في نفسه معنى ليس هو العلم وهو معنى الخبر ، فهذا يقتضى أنهم يقولون أن العلم قد يقوم في نفسه خبر بخلاف علمه ، والرازي لما ذكر مسألة أنه لا يجوز أن يتكلم بكلام ولا يعنى به شيئاً ، خلافاً للحشوية قيل له : هل قال أحد من طوائف (٧ - مجموعة الرسائل)

الإلانة أن الله لا يعنى بكلامه شيئاً ، وإنما النزاع هل يتكلم بما لا يفهم العباد معناه ، وقيل لهم هب أن فى هذا نزاعاً فهو لم يقم دليل على امتناع ذلك بل قال هذا عيب أو نقص ، والله منزّه عنه ، فقيل له : إما أن يريد المعنى القائم بالذات أو العبارات المخلوقة . أما الأول : فلا يجوز إرادته هذا لأن المسألة هى فىمن يتكلم بالحروف المنظومة ولا يعنى به شيئاً ، وذلك القائم بالذات هو نفس المعنى وإن أردت الحروف وهو مراده فتلك عندك مخلوقة ، ويجوز عندك أن يخلق كل شىء ليس منزهاً عن فعل من الأفعال ، والعيب عندك هو ما لا تريده ، فهذا يمتنع فتبين أنه ليس لهم حجة لاعلى صدقه ولا على تنزيهه عن العيب فى خطابه ، فان ذلك إنما يكون بمن تنزيهه عن بعض الأفعال ، وتبين بذلك أنهم لا يشبتون عدله ولا حكمته ولا رحمته ولا صدقه ، والممثلة قصدهم لإثبات هذه الأمور ولهذا يذكرونها فى خطبة الصفات كما يذكرونها أبو الحسين البصرى وغيره ، كما ذكر فى أول صور الأدلة خطبة مضمونها أن الله واحد عدل لا يظلم الناس شيئاً ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون ، وأنه بالناس ليرى وف رحيم وأظن فيها لإثبات صدقه ، ولهذا يكفرون من يحوره أو يكذبه أو يسفه أو يشبهه ، ولكن قد غلطوا فى مواضع كثيرة كما قد نبه على هذا فى غير موضع ، فكل الطائفتين معاً حق وباطل ولم يستوعب الحق إلا من اتبع المهاجرين والأنصار وآمن بما جاء به الرسول كله على وجهه لم يؤمن ببعض ويكفر ببعض ، وهؤلاء هم أهل الرحمة الذين لا يختلفون بخلاف أولئك المختلفين . قال تعالى : (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) .

((فصل)) والجهمية والمعتزلة مشتركون فى نفي الصفات ، وابن كلاب

ومن تبعه كالاشعري وأبي العباس القلانسي ومن تبعهم ، أثبتوا الصفات لكن لم يثبتوا الصفات الاختيارية ، مثل كونه يتكلم بمشيئته ، ومثل كون فعله الاختيارى يقوم بذاته ، ومثل كونه يحب ويرضى عن المؤمنين بعد إيمانهم ، ويغضب ويغض الكافرين بعد كفرهم ، ومثل كونه يرى أفعال العباد بعد أن يعملوها كما قال تعالى : (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) فأثبت رؤية مستقلة وكذلك قوله تعالى : (ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لنتظر كيف تعملون) ومثل كونه نادى موسى حين أتى لم يناده قبل ذلك بنداء قام بذاته ، فان المعتزلة والجهمية يقولون: خلق نداء في الهواء، والكلائية والسالمية يقولون: النداء قام بذاته وهو قديم ، لكن سمعه موسى فاستجدوا سماع موسى ، وإلا فما زال عندهم منادياً .

والقرآن والاحاديث وأقوال السلف والائمة كلها تخالف هذا وهذا وتبين أنه ناداه حين جاء وأنه يتكلم بمشيئته في وقت بكلام معين كما قال : (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا لللائكة اسجدوا لآدم) وقال تعالى : (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقناه من تراب ثم قال له كن فيكون) والقرآن فيه مثنون من الآيات تدل على هذا الاصل ، وأما الاحاديث فلا تحصى ، وهذا قول أئمة السنة والسلف وجمهور العقلاء ، ولهذا قال عبد الله ابن المبارك والإمام أحمد بن حنبل وغيرهما : لم يزل متكلماً إذا شاء وكيف شاء ، وهذا قول عامة أهل السنة ، فلماذا اتفقوا على أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق ، ولم نعرف عن أحد من السلف أنه قال : هو قديم لم يزل . والذين قالوا من المتأخرين : هو قديم كثير ، منهم من لم يتصور المراد ، بل منهم من يقول : هو قديم في علمه ، ومنهم من يقول : قديم أى متقدم الوجود متقدم على

ذات زمان المبعث لأنه أزل لم يزل ، ومنهم من يقول بل مرادنا بتقديم أنه غير مخلوق ، وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أنه على هذا الأصل إذا خلق المخلوقات رآها وسمع أصوات عباده ، وكان ذلك بمشيئته وقدرته إذ كان خلقه لهم بمشيئته وقدرته ، وبذلك صاروا يرون ويسمع كلامهم وقد جاء في القرآن والسنة في غير موضع أنه يخص بالنظر والاستماع بعض المخلوقات كقوله : (ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكهم ولهم عذاب أليم) ملك كذاب وشيخ زان وعائل مستكبر ، وكذلك في الاستماع قال تعالى : (وأذنت لربها وحقت) أى استمعت وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما أذن الله لشيء كاذنه لشيء حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهربه » ، وقال : « لله أشد أذنا إلى صاحب القرآن من صاحب القينة إلى قينته » ، فهذا تخصيص بالإذن وهو الاستماع لبعض الأصوات دون بعض ، وكذلك سمع الإجابة كقوله : (سمع الله لمن حمده) وقول الخليل : إناك سميع الدعاء . وقوله : (إن ربى سميع قريب) يقتضى التخصيص بهذا السمع فهذا التخصيص ثابت في الكتاب والسنة هي تخصيص بمعنى يقوم بذاته بمشيئته وقدرته كما تقدم ، وعند النفاة هو تخصيص بأمر مخلوق منفصل لا بمعنى يقوم بذاته وتخصيص من يجب ، ومحبة بالنظر والاستماع المذكور يقتضى أن هذا النوع متف عن غيرهم .

(لكن مع ذلك هل يقال) ان نفس الرؤية والسمع الذى هو مطلق الإدراك هو من لوازم ذاته ، فلا يمكن وجود مسموع ومرئى إلا وقد تعلق به كالعالم ، أو يقال أنه أيضاً بمشيئته وقدرته فيمكنه أن لا ينظر إلى بعض

المخلوقات ، هذا فيه قولان . والاول : قول من لا يجعل ذلك متعلقاً بمشيئته وقدرته ، وأما الذين يجعلونه متعلقاً بمشيئته وقدرته فقد يقولون متى وجد المرئى والمسموع وجب تعلق الإدراك به .

(والقول الثانى) ان جنس السمع والرؤية يتعلق بمشيئته وقدرته فيمكن أن لا ينظر إلى شيء من المخلوقات ، وهذا هو المسأثور عن طائفة من السلف كما روى ابن أبى حاتم عن أبى عمران الجونى قال : ما نظر الله إلى شيء من خلقه إلا راحه ولكنه قضى أن لا ينظر إليهم ، وقد يقال هذا مثل الذكر والنسيان ، فان الله تعالى قال : (اذكرونى أذكركم) وفى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يقول الله أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه فان ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملة ذكرته فى ملة خير منهم ، وإن تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلى ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتانى يمشى أتيت هرولة ، فهذا الذكر يختص بمن ذكره ، فمن لا يذكره لا يحصل له هذا الذكر ، ومن آمن به وأطاعه ذكره برحمته ومن أعرض عن الذكر الذى أنزله أعرض عنه كما قال : (ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) ومثله قوله : (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم) .

وقد فسروا هذا النسيان بأنه ^(١) وهذا النسيان ضد ذلك الذكر ، وفى

الصحيح في حديث الكافر يحاسبه قال: وأظننت أنك ملاق؟ قال: لا. قال: فالיום أنساك كما نسيتني، فهذا يقتضى أنه لا يذكره كما يذكر أهل طاعته، هو متعلق بمشيئته وقدرته أيضا وهو سبحانه قد خلق هذا العبد وعلم ما سيعمله قبل أن يعمل، ولما عمل علم ما عمل ورأى عمله فهذا النسيان لا يناقض ما عليه سبحانه من حال هذا.

(فصل) في جماع الفرقان بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والرشاد والغى، وطريق السعادة والنجاة وطريق الشقاوة والهلاك، أن يجعل ما بعث الله به رسله وأنزل به كنبه هو الحق الذى يجب اتباعه وبه يحصل الفرقان والهدى والعلم والايمان فيصدق بأنه حق وصدق، وما سواه من كلام سائر الناس يعرض عليه، فإن وافقه فهو حق، وإن خالفه فهو باطل، وإن لم يعلم هل وافقه أو خالفه لكون ذلك الكلام مجحولا لا يعرف مراد صاحبه، أو قد عرف مراده ولكن لم يعرف هل جاء الرسول بتصديقه أو تكذيبه، فانه يمسك فلا يتكلم إلا بعلم.

(والعلم ما قام عليه الدليل) والنافع منه ما جاء به الرسول وقد يكون علم من غير الرسول، لكن في أمور دينوية مثل الطب والحساب والفلاحة والتجارة وأما الأمور الإلهية والمعارف الدينية، فهذه العلم فيها ما أخذ عن الرسول، فالرسول أعلم الخلق بها وأرغبهم في تعريف الخلق بها وأقدرهم على بيانها وتعريفها، فهو فوق كل أحد في العلم والقدرة والإرادة، وهذه الثلاثة بها يتم المقصود، ومن سوى الرسول إما أن يكون في علمه بها نقص أو فساد، وإما أن لا يكون له إرادة فيما علمه من ذلك فلم يبينه، إما لرغبة

ولما لرؤية وإما لغرض آخر، وإما أن يكون بيانه ناقصا ليس بيانه البيان عما عرفه الجنان .

وبيان الرسول على وجهين: تارة بين الأدلة العقلية الدالة عليها ، والقرآن ملوئ من الأدلة العقلية والبراهين يقينية على المعارف الإلهية والمطالب الدينية وتارة يخبر بها خبراً مجرداً لما قد أقامه من الآيات البينات والدلائل اليقينية على أنه رسول الله المبلغ عن الله ، وأنه لا يقول عليه إلا الحق وإن الله شهد له بذلك وأعلم عباده وأخبرهم أنه صادق مصدوق فيما بلغه عنه . والأدلة التي بها تعلم أنه رسول الله كثيرة متبوعة وهي أدلة عقلية يعلم صحتها بالعقل ، وهي أيضاً شرعية سمعية لكن الرسول بينها ودل عليها وأرشد إليها ، وجميع طوائف النظار متفقون على أن القرآن اشتمل على الأدلة العقلية في المطالب الدينية وهم يذكرون ذلك في كتبهم الأصولية ، وفي كتب التفسير وعامة النظار أيضاً يحتاجون بالأدلة السمعية الخبرية المجردة عن المطالب الدينية ، فانه إذا ثبت صدق الرسول وجب تصديقه فيما يخبر به .

﴿ والعلوم ثلاثة أقسام ﴾ منها: ما لا يعلم إلا بالأدلة العقلية وأحسن الأدلة العقلية التي بينها القرآن وأرشد إليها الرسول . فينبغي أن يعرف أن أجل الأدلة العقلية وأكملها وأفضلها مأخوذ عن الرسول . فان من الناس من يذهل عن هذا ، فنهى من يقدح في الدلائل العقلية مطلقاً لانه قد صار في ذهنه أنها هي الكلام المبتدع الذي أحدثه من المتكلمين ، ومنهم من يعرض عن تدبر القرآن وطلب الدلائل اليقينية العقلية منه لانه قد صار في ذهنه أن القرآن لما يدل بطريق الخبر فقط . فلا بد أن يعلم بالعقل قبل ذلك ثبوت النبوة وصدق

الخبر حتى يستدل بعد ذلك بخبر من ثبت بالعقل صدقه ، ومنها ما لا يعلمه غير الانبياء إلا بخبر الانبياء ، وخبرهم المجرد هو دليل سمعى مثل تفاصيل ما أخبروا به من الأمور الالهية والملائكة والعرش والجنة والنار وتفاصيل ما يؤمر به وينهى عنه ، فأما نفس اثبات الصانع ووحدانيته وعلمه وقدرته ومشيتته وحكمته ورحمته ونحو ذلك ، فهذا لا يعلم بالأدلة العقلية وإن كانت الأدلة والآيات التي يأتي بها الانبياء هي أكمل الأدلة العقلية ، لكن معرفة هذه ليست مقصورة على الخبر المجرد وإن كان أخبار الانبياء المجردة تفيد العلم اليقيني أيضا ، فيعلم بالأدلة العقلية التي أرشدوا إليها ، ويعلم بمجرد خبرهم لما علم صدقهم بالأدلة والآيات والبراهين التي دلت على صدقهم .

﴿ وقد تنازع الناس في العلم بالمعاد وبحسن الأفعال وقبحها ﴾ فأكثر الناس يقولون أنه يعلم بالعقل مع السمع ، والقائلون بأن العقل يعلم به الحسن والقبح أكثر من القائمين بأن المعاد يعلم بالعقل ، قال أبو الخطاب : هو قول أكثر الفقهاء والمتكلمين ، ومنهم من يقول المعاد والحسن والقبح لا يعلم إلا بمجرد الخبر وهو قول الأشعرى وأصحابه ومن وافقهم من أتباع الأئمة كالقاضي أبي يعلى وأبي المعالي الجويني وأبي الوليد التاجي وغيرهم ، وكلهم متفقون على أن من العلوم ما يعلم بالعقل والسمع الذي هو مجرد الخبر ، مثل كون أفعال العباد مخلوقة لله أو غير مخلوقة ، وكون رؤيته ممكنة أو مستعنة ونحو ذلك ، وكتب أصول الدين بجميع الطوائف مملوءة بالاحتجاج بالأدلة السمعية الخبرية ، لكن الرازي طعن في ذلك في المطالب العالية ، قال لأن الاستدلال بالسمع مشروط بأن لا يعارضه قاطع عقلي ، فإذا عارضه العقلي وجب تقديمه عليه . قال : والعلم بانتفاء المعارض العقلي متعذر ، وهو إنما

يثبت بالسمع ما علم بالاضطرار أن الرسول أخبر به كالمعاد ، وقد يظن أن هذه طريقة أئمتنا الواقعة في الوعيد ، كالأشعري والقاضي أبي بكر وغيرهما ليس كذلك ، فإن هؤلاء إنما وقفوا في أخبار الوعيد خاصة لأن العموم عندهم لا يفيد القطع ، أو لأنهم لا يقولون بصريح العموم ، وقد تعارضت عندهم الأدلة وإلا فهم يثبتون الصفات الخيرية لله كالوجه واليد بمجرد السمع والخبر ، ولم يختلف قول الأشعري في ذلك وهو قول أئمة أصحابه ، لكن أبو المعالي وأتباعه لا يثبتون الصفات الخيرية ، بل فيهم من ينفيها ، ومنهم من يقف فيها كالرازي والآمدي ؛ فيمكن أن يقال قول الأشعري ينزع من قول هؤلاء بأن يقال لا يعرف أنهم اعتمدوا في الأصول على دليل سمعي ، لكن يقال المعاد يحتجرون عليه بالقرآن والاحاديث ، ولكن الرازي هو الذي سلك فيه طريق العلم الضروري أن الرسول جاء به ، وفي الحقيقة لجميع الأدلة اليقينية توجب علماً ضرورياً والأدلة السمعية الخيرية توجب علماً ضرورياً ، بأخبار الرسول ، لكن منها ما تكثر أدلته كخبر الأخبار المتواترة ، ويحصل به علم ضروري من غير تعيين دليل ، وقد يعين الأدلة ويستدل بها ، وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا أن يؤخذ من الرسول العلوم الإلهية الدينية سمعياً وعقلياً ويجعل ما جاء به هو الأصول لدلالة الأدلة اليقينية البرهانية على أن ما قاله حق جملة وتفصيلاً ، فدلائل النبوة فاعلامها تدل على ذلك جملة ، وتفصيل الأدلة العقلية الموجودة في القرآن والحديث يدل على ذلك تفصيلاً ، وأيضاً قال الأنبياء والرسل إنما بعثوا بتعريف هذا ، فهم أعلم الناس به وأحقهم بقيامه وأولادهم بالحق فيه ، وأيضاً فمن جرب ما يقولونه ويقولونه غيرهم وجد

الصواب معهم والخطأ مع مخالفيهم كما قال الرازي ، مع أنه من أعظم الناس طعناً في الأدلة السمعية حتى ابتدع قولاً ما عرف به قائل مشهور غيره ، وهو أنها لا تنفي اليقين ومع هذا فإنه يقول : لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عايلاً ولا تروى غليلاً ، ووجدت أقرب الطرق طريقة القرآن أقرأ في الإثبات : (إليه يصعد الكلم الطيب . الرحمن على العرش استوى) وأقرأ في النفي : (ليس كمثل شيء . ولا يحيطون به علماً) قال ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي . وأيضاً (فمن اعتبر ما عند الطوائف) الذين لم يعتصموا بتعليم الأنبياء وإرشادهم وأخبارهم ، وجدهم كلهم حائرين ضالين شاكرين مرتابين ، أو جاهلين جهلاً مركباً ، فهم لا يخرجون عن المثلين اللذين في القرآن : (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب أو كظلمات في بخر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) .

(فصل) وأهل الضلال الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ، وهم كما قال مجاهد : أهل البدع والشبهات ، يتمسكون بما هو بدعة في الشرع ومشبه في العقل كما قال فيهم الإمام أحمد . قال : هم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب متفقون على مخالفة الكتاب يحتجون بالمشابهة من الكلام ، ويضلون الناس بما يشبهون عليهم ، والموفقة من أهل الضلال تجعل لها ديناً وأصول دين قد ابتدعوه برأيهم ، ثم يعرضون على ذلك القرآن والحديث ، فان وافقه احتجوا به اعتقاداً لا اعتماداً وإن خالفه فتارة يحرفون الكلم عن

مواضعه ويتأولونه على غير تأويله ، وهذا فعل آثمهم ، وتارة يعرضون عنه . ويقولون : نفوض معناه إلى الله ، وهذا فعل عامتهم وعمدة الطائفتين في الباطن غير ماجاء به الرسول ، يجعلون أقوالهم البدعية محكمة يجب اتباعها واعتقاد موجبها ، والمخالف إما كافر وإما جاهل لا يعرف هذا الباب ، وليس له علم بالمعقول ولا بالاصول ، ويجعلون كلام الله ورسوله الذي يخالفها من المتشابه الذي لا يعرف معناه إلا الله ، أو لا يعرف معناه إلا الراسخون في العلم والراسخون عندهم من كان موافقاً لهم على ذلك القول ، وهؤلاء أضل من تمسك بمتشابهه عليه من آيات الكتاب ، ويترك المحكم كالتصاري والخوارج وغيرهم ، إذ كان هؤلاء أخذوا بالمتشابه من كلام الله وجعلوه محكما وجعلوا المحكم متشابهاً ، وأما أولئك كنفاء الصفات من الجهمية ومن وافقهم من المعتزلة وغيرهم ﴿ وكالفلاسفة ﴾ فيجعلون ما ابتدعوه هم برأيهم هو المحكم الذي يجب اتباعه ، وإن لم يكن معهم من الانبياء والكتاب والسنة ما يوافقه ويجعلون ماجاء به الانبياء وإن كان صريحاً قد يعلم معناه بالضرورة يجعلونه من المتشابه ، ولهذا كان هؤلاء أعظم مخالفة للانبياء من جميع أهل البدع ، حتى قال يوسف بن اسباط وعبد الله بن المبارك وغيرهما كطائفة من أصحاب أحمد : أن الجهمية نفاة الصفات خارجون عن الثنتين وسبعين فرقة . قالوا : وأصولها أربعة : الشيعة ، والخوارج ، والمرجئة ، والقدرية . وقد ذكرنا في غير هذا الموضع أن قوله تعالى يقال : (منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) في المتشابهات قولان . أحدهما : أنها آيات بعينها تتشابه على كل الناس . والثاني : وهو الصحيح أن التشابه أمر نفسي ، فقد تشابه عند هذا ما لا يتشابه عند غيره ، ولكن ثم آيات محكمات

لايتشابه فيها على أحد ، وتلك المتشابهات إذا عرف معناها صارت غير متشابهة ، بل القول كله محكم كما قال : (أحكمت آياته ثم فصلت) وهذا كقوله : « الحلال بين والحرام بين وبين ذلك أمور لايعلمهن كثير من الناس » وكذلك قولهم : (إن البقر تشابه علينا) وقد صنف أحمد كتاباً في الرد على الزنادقة والجهمية فيما سكت فيه من متشابه القرآن ، وتأولوه على غير تأويله ، وفسر تلك الآيات كلها ، وذمهم على أنهم تأولوا ذلك المتشابه على غير تأويله ، وعامتها آيات معروفة قد تكلم العلماء في تفسيرها ، مثل الآيات الذي سأل عنها نافع بن الأزرق لابن العباس . قال الحسن البصري : ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم فيم أنزلت وماذا عنى بها ، ومن قال من السلف أن المتشابه لايعلم تأويله إلا الله فقد أصاب أيضاً ، ومراده بالتأويل ما استأثر الله بعلمه مثل وقت الساعة ، وبجىء اشراطها ، ومثل كيفية نفسه وما أعدء في الجنة لاوليائه ، وكان من أسباب نزول الآية : احتجاج النصارى بما تشابه عليهم كقوله : «أنا . ونحن ، وهذا يعرف العلماء أن المراد به الواحد المعظم الذي له أعوان لم يرد به أن الآلهة ثلاثة ، فتأويل هذا الذي هو تفسيره يعلمه الراسخون ، ويفرقون بين ما قيل فيه « إيا » وما قيل فيه « أنا » لدخول الملائكة فيما يرسلهم فيه إذ كانوا رسله ، وأما كونه هو المعبود الإله فهو له وحده ، ولهذا لايقول : فايانا فاعبدوا ، إيانا فارهبوا ، بل متى كان الأمر بالعبادة والتقوى والخشية والتوكل ، ذكر نفسه وحده باسمه الخاص ، وإذا ذكر الأفعال التي يرسل فيها الملائكة ، قال : (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً . فاذا قرأناه فاتبع قرآنه . تتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق) ونحو ذلك مع أن تأويل هذا وهو حقيقة ما دل عليه

من الملائكة وصفاتهم وكيفية إرسال الرب لهم ، لا يعلمه إلا الله كما قد بسط في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن الواجب أن يجعل ما قاله الله ورسوله هو الأصل ، ويتدبر معناه ويعقل ويعرف برهانه ودليله ، أما العقلي ، وأما الخبري السمعي ويعرف دلالة القرآن على هذا ، وهذا يجعل أقوال الناس التي قد توافقه وتخالفه متشابهة بجملة ، فيقال لأصحاب هذه الالفاظ : يحتمل كذا وكذا ويحتمل كذا وكذا ، فإن أرادوا بها ما يوافق خبر الرسول قبل ، وإن أرادوا بها ما يخالفه رد ، وهذا مثل لفظ المركب والجسم والتحيز والجوهر والجهة والعرض ونحو ذلك ، ولفظ الحيز ونحو ذلك ، فإن هذه الالفاظ ما لا يوجد في الكتاب والسنة بالمعنى الذي يريده أهل هذا الاصطلاح بل ولا في اللغة أيضاً ، بل هم يختصمون بالتعبير بها على معان لم يعبر غيرهم عن تلك المعاني بهذه الالفاظ ، فيفسر تلك المعاني بعبارات أخرى ويطن مادل عليه القرآن الأدلة العقلية والسمعية ، وإذا وقع الاستفسار والتفصيل تبين الحق من الباطل ، وعرف وجه الكلام على أدلتهم فأنها ملفقة من مقدمات مشتركة ، يأخذون اللفظ المشترك في إحدى المقدمتين بمعنى ، وفي المقدمة الأخرى بمعنى آخر ، فهو في صورة اللفظ دليل وفي المعنى ليس بدليل . كمن يقول : سهيل بعيد من الثريا . لا يجوز أن يقرن بها ولا يتزوجها . والذي قال :

أيها المتكح الثريا سهيلا

أراد امرأة اسمها الثريا ورجلا اسمه سهيل . ثم قال :

عمر ك الله كيف يلتقيان هي شامية إذا ما استقلت
وسهيل إذا استقل يمان

وهذا لفظ مشترك ، فجعل يعجبه وانكاره من الظاهر من جهة اللفظ
المشترك ، وقد بسط الكلام على أدلتهم المفصلة في غير موضع .

والأصل الذي بنى عليه نفاة الصفات ، وعطوا ما عطلوه حتى صار منتهاهم إلى
قول فرعون الذي جحد الخالق ، وكذب رسوله موسى في أن الله كله
هو استدلالهم على حدوث العالم بأن الأجسام محدثة ، واستدلواهم على ذلك
بأنها لا تخلو من الحوادث ولم تسبقها ، وما لم يخل من الحوادث ولم يسبقها
فهو محدث ، وهذا أصل قول الجهمية الذين أطبق السلف والائمة على ذمهم
وأصل قول المتكلمين الذين أطبقوا على ذمهم ، وقد صنف الناس مصنفات
متعددة ، فيها أقوال السلف والائمة في ذم الجهمية وفي ذم هؤلاء المتكلمين .

﴿والسلف لم يذموا جفس الكلام﴾ فان كل آدمي يتكلم ، ولا ذموا الاستدلال
والنظر والجدل الذي أمر الله به رسوله ، والاستدلال بما بينه الله ورسوله
بل ولا ذموا كلاما هو حق بل ذموا الكلام الباطل ، وهو المخالف للكتاب
والسنة ، وهو المخالف للعقل أيضاً وهو الباطل .

فالكلام الذي ذمه السلف هو الكلام الباطل ، وهو المخالف للشرع
والعقل ، ولكن كثير من الناس خفي عليه بطلان هذا الكلام ، فمنهم من
اعتقده موافقاً للشرع والعقل حتى اعتقد أن ابراهيم الخليل استدل به ، ومن
هؤلاء من يجعله أصل الدين ولا يحصل الايمان أو لا يتم إلا به ، ولكن من

عرف ما جاء به الرسول وما كان عليه الصحابة ، علم بالاضطرار أن الرسول والصحابة لم يكونوا يسلكون هذا المسلك ، فصار من عرف ذلك يعرف أن هذا بدعة ، وكثير منهم لا يعرف أنه فاسد بل يظن مع ذلك أنه صحيح من جهة العقل ، لكنه طويل أو تبعد المعرفة ، أو هو طريق مخيفة مخطر يخاف على سالكه ، فصاروا يعميونه كما يعاب الطريق الطويل والطريق الخفيف ، مع اعتقادهم أنه يوصل إلى المعرفة وأنه صحيح في نفسه . وأما الخذاق العارفون بتحقيقه ، فعلموا أنه باطل عقلا وشرعا ، وأنه ليس بطريق موصل إلى المعرفة ، بل إنما يوصل لمن اعتقد صحته إلى الجهل والضلال ، ومن تبينه له تناقضه أوصله إلى الحيرة والشك .

ولهذا صار خذاق سالكيه ينتهون إلى الحيرة والشك ، إذ كانت حقيقته أن كل موجود فهو حادث مسبوق بالعدم ، وليس في الوجود قديم وهذا مكابرة ، فإن الوجود مشهود ، وهو إما حادث ، وإما قديم ، والحادث لا بد له من قديم ، فثبت وجود القديم على التقديرين .

وكذلك ما ابتدعه في هذه الطريق ابن سينا وأتباعه من الاستدلال بالممكن على الواجب أبطل من ذلك ، كما قد بسط ذلك في غير هذا الموضع ، وحقيقته أن كل موجود فهو ممكن ليس في الوجود موجود بنفسه ، مع أنهم جعلوا هذا طريقاً لإثبات الواجب بنفسه ، كما يجعل أولئك هذا طريقاً لإثبات القديم ، وكلاهما يناقض ثبوت القديم الواجب فليس في واحد منهما إثبات قديم ولا واجب بنفسه ، مع أن ثبوت موجود قديم وواجب بنفسه معلوم بالضرورة ، ولهذا طار خذاق هؤلاء إلى أن الموجود الواجب والقديم هو

العالم بنفسه ، وقالوا هو الله وأنكر وأن لا يكون العالم رب مباين للعالم ، إذ كان ثبوت القديم الواجب بنفسه لا بد منه على كل قول ، وفرعون ونحوه ممن أنكر الصانع ما كان ينكر هذا الوجود المشهود ، فلما كان حقيقة قول أولئك يستلزم أنه ليس موجود قديم ولا واجب ، لكنهم لا يعرفون أن هذا يلزمهم ، بل يظنون أنهم أقاموا الدليل على إثبات القديم الواجب بنفسه .

(ولكن وصفوه) بصفات الممتنع فقالوا: لا داخل العالم ولا خارجه، ولا هو صفة، ولا موصوف ، ولا يشار إليه ونحو ذلك من الصفات السلبية التي تستلزم عدمه ، وكان هذا مما تنفر عنه العقول والفطر ، ويعرف أن هذا صفة المعدم الممتنع لا صفة الموجود ، فدليلهم في نفس الأمر يستلزم أنه ما ثم قديم ولا واجب ، ولكن ظنوا أنهم أثبتوا القديم والواجب ، وهذا الذي أثبتوه هو ممتنع فما أثبتوا قديما ولا واجبا ، فجاء آخرون من جهتهم فرأوا هذا مكابرة ، ولا بد من إثبات القديم والواجب. فقالوا : هو هذا العالم ، فكان قدماء الجهمية يقولون : أنه بذاته في كل مكان ، وهؤلاء قالوا: هو غير الموجودات ، والموجود القديم الواجب هو نفس الوجود المحدث الممكن ، والحلول هو الذي أظهرته الجهمية للناس حتى عرفه السلف والأئمة وردوه ، وأما حقيقة قولهم فهو النفي أن لا داخل العالم ولا خارجه ، ولكن هذا لم تسمعه الأئمة ولم يعرفوا أنه قولهم إلا من باطنهم ، ولهذا كان الأئمة يحكون عن الجهمية أنه في كل مكان ، ويحكون عنهم وصفه بالصفات السلبية وشاع عند الناس أن الجهمية يصفونه بالسلوب حتى قال أبو تمام :

جهمية الأوصاف إلا أنها قد حليت بمحاسن الأشياء

وهم لم يقصدوا نفي القديم والواجب ، فان هذا لا يقصده أحد من العقلاء لا مسلم ولا كافر ، إذ كان خلاف ما يعلمه كل أحد ببديهية عقله ، فانه إذا قدر أن جميع الموجودات حادثة عن عدم لزم أن كل الموجودات حدثت بأنفسها ، ومن المعلوم ببداهة العقول أن الحادث لا يحدث بنفسه ولهذا قال تعالى : (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون) وقد قيل : خلقوا من غير شيء من غير رب خلقهم . وقيل : من غير مادة . وقيل : من غير عاقبة وجزاء ، والاول مراد قطعاً فان كل ما خلق من مادة أو لغاية فلا بد له من خالق .

(ومعرفة الفطر) أن المحدث لا بد له من محدث أظهر فيها من أن كل محدث لا بد له من مادة خلق منها وغاية خلق لها ، فان كثيراً من العقلاء نازع في هذا وهذا ، ولم ينازع في الاول طائفة . قال : إن هذا العالم حدث من غير محدث أحدثه . بل من الطوائف من قال : إنه قديم بنفسه واجب بنفسه ليس له صانع ، واما أن يقول أنه محدث حدث بنفسه بلا صانع ، فهذا لا يعرف عن طائفة معروفة وإنما يحكى عن لا يعرف ، ومثل هذا القول وأمثاله يقوله من يقوله عن حصل له فساد في عقله صار به إلى السفسطة ، والسفسطة تعرض لأحاد الناس وفي بعض الأمور ، ولكن أمة من الأمم كلهم سوفسطائية في كل شيء هذا لا يتصور ، فلماذا لا يعرف عن أمة من الأمم أنهم قالوا بحدوث العالم من غير محدث ، وهؤلاء لما اعتقدوا أن كل موصوف أو كل ما قامت به صفة أو فعل بمشيئته فهو محدث ويمكن لزعمهم القول بحدوث كل موجود ، إذ كان الخالق جل جلاله متصفاً بما يقوم به من الصفات والأمور الاختياريات ، مثل أنه متكلم بمشيئته وقدرته ، ويخلق ما يخلقه بمشيئته وقدرته ، لكن هؤلاء اعتقدوا انتفاء هذه الصفات عنه ، لاعتقادهم صحة القول

بأن ما قامت به الصفات والحوادث فهو حادث ، لأن ذلك لا يخلو من الحوادث ، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث ، وإذا كان حادثا كان له محدث قديم ، واعتقدوا أنهم أثبتوا الرب وأنه ذات مجردة عن الصفات ووجوده مطلق لا يشار اليه ولا يتعين ، ويقولون هو بلا إشارة ولا تعيين وهذا الذي أثبتوه لا حقيقة له في الخارج ، وإنما هو في الذهن فكان ما أثبتوه واعتقدوا أنه الصانع للعالم إنما يتحقق في الأذهان لا في الأعيان ، وكان حقيقة قولهم تعطيل الصانع ، فجاء إخوانهم في أصل المقالة وقالوا : هذا الوجود المطلق المجرد عن الصفات ، هو الوجود الساري في الموجودات فقالوا بخلوله في كل شيء ، وقال آخرون منهم : هو وجود كل شيء ، ومنهم من فرق بين الوجود والثبوت ، ومنهم من فرق بين التعيين والاطلاق ، ومنهم من جعله في العالم كالمادة في الصورة . ومنهم من جعله في العالم كالزبد في اللبن ، وكالزيت والشيرج في السمس والزيتون ، وقد بسط الكلام على هؤلاء في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن الأصل الذي أصلهم : قولهم ما قامت به الصفات والأفعال والأمر الاختيارية أو الحوادث فهو حادث ، ثم قالوا والجسم لا يخلو من الحوادث وأثبتوا ذلك بطرق ، منهم من قال لا يخلو عن الأكوان الأربعة : الحركة ، والسكون ، والاجتماع ، والافتراق . ومنهم من قال : لا يخلو عن الحركة والسكون فقط . ومنهم من قال لا يخلو عن الأعراض والأعراض كلها حادثة وهي لا تبقى زمانين ، وهذه طريقة الآمدي ، وزعم أن أكثر أصحاب الأشعرية اعتمدوا عليها ، والرازي اعتمد على طريقة الحركة والسكون وقد بسط الكلام على هذه الطرق وجميع ما احتجوا به على حدوث الجسم

وامكانه ، وذكرنا في ذلك كلامهم هم أنفسهم في فساد جميع هذه الطرق ، وأنهم هم بينوا فساد جميع ما استدل به على حدوث الجسم وامكانه ، وبينوا فسادها طريقاً طريقاً بما ذكروه ، كما قد بسط هذا في غير هذا الموضع .

وأما المشامية والكرامية وغيرهم ، ممن يقول بأنه جسم قديم ، فقد شاركهم في أصل هذه المقالة ، لكن لم يقولوا بحدوث كل جسم ، ولا قالوا أن التجسم لا ينفك عن الحوادث إذ كان القديم عندهم جسماً قديماً وهو خال من الحوادث ، وقد قيل : أول من قال في الاسلام أن القديم جسم ، هو هشام بن الحكم ، كما أن أول من أظهر في الاسلام في الجسم هو الجهم بن صفوان ، وكلام السلف والأئمة في ذم الجهمية كثير مشهور ، فإن مرض التعطيل شر من مرض الجسم ، وإنما كان السلف يذمون المشبهة كما قال الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه واسحق بن راهويه وغيرهما قالوا : المشبهة الذين يقولون بصر كبرى ، ويدكى ، وقدم كقدمى ، وابن كلاب ومن تبعه أثبتوا الصفات التي لا تثبت بمشيئته وقدرته فينفونها قالوا : لأنها حادثة ولو قامت به الحوادث لكان حادثاً ، لأن ما قبل الشيء لم يخل عنه وعن ضده ، فلو قبل بعض هذه الحوادث لم يخل منه ومن ضده ، فلم يخل من الحوادث فيكون حادثاً .

ومحمد بن كرام فكان بعد ابن كلاب في عصر مسلم بن الحجاج ، أثبت أنه يوصف بالصفات الاختياريات ويتكلم بمشيئته وقدرته ، ولكن عنده يتمتع أنه كان في الاول متكلاً بمشيئته وقدرته ، لا يتمتع حوادث لا أول لها ، فلم يقل بقول السلف أنه لم يزل متكلاً إذا شاء ، بل قال أنه صار يتكلم

بمشيئته وقدرته ، كما صار يفعل بمشيئته وقدرته بعد أن لم يكن كذلك ، وقال هو وأصحابه في المشهور عنه : أن الحوادث التي تقوم به لا يخلو منها ولا يزول عنها لأنه لو قامت به الحوادث ثم زالت عنه كان قابلا لحدوثها وزوالها ، وإذا كان قابلا كذلك لم يخل منه ، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث ، وإنما يقبل على أصلهم أنه تقوم به الحوادث فقط كما يقبل أن يفعلها ويحدثها ولا يلزم من ذلك أنها لم تخل منه كما يلزم أنه لم يزل فاعلا لها ، والحدوث عندهم غير الأحداث ، والقرآن عندهم حادث لا يحدث ، لأن الحادث يفترق إلى إحداث بخلاف الحدوث ، وهم إذا قالوا كان خاليا منها في الأزل وكان ساكنا ، لم يقولوا أنه قام به حادث بل يقولون السكون أمر عدمي كما يقوله الفلاسفة ، ولكن الحركة أمر وجودي بخلاف ما يقوله من المعتزلة والأشعرية أن السكون أمر وجودي كالحركة ، فإذا حصل به حادث لم يكن ثم عدم هذا الحادث ، فأنما يعدم الحادث بأحداث يقوم به ، وهذا يمتنع وهم يقولون أنه يمتنع عدم الجسم ، وعندهم أن البارئ يقوم به إحداث المخلوقات وإفنائها فالحوادث التي تقوم به لو أفناها لقام به الأحداث والإفناء ، فكان قابلا لأن يحدث فيه حادث ويفنى ذلك الحادث ، وما كان كذلك لم يخل من أحداث وإفناء فلم يخل من الحوادث وما لم يخل منها فهو حادث ، وإنما كان كذلك لأن القابل للشيء لا يخلو عنه وعن ضده كما قالت الكلالية ، لكن المعتزلة يقولون السكون ضد الحركة ، فالقابل لأحدهما لا يخلو عنه وعن الآخر ، وهؤلاء يقولون السكون ليس بضد وجودي بل هو عدمي ، وإنما الوجودي هو الأحداث والإفناء ، فلو قبل قيام الأحداث والإفناء به لكان قابلا لقيام الأضداد الوجودية ، والقابل للشيء لا يخلو عنه وعن ضده ، وهؤلاء

لما أراد منازعهم لإبطال قولهم كان عمدتهم بيان تناقض أقوالهم كما ذكر ذلك أبو المعالي وأتباعه ، وكما ذكر الآمدى تناقضهم من وجوه كثيرة قد ذكرت في غير هذا الموضع ، وغايتها أنها تدل على مناقضتهم ، لا على صحة مذهب المنازع .

وتم طائفة كثيرة تقول : أنه تقوم به الحوادث وتزول وأنه كلم موسى بصوت وذلك الصوت عدم ، وهذا مذهب أئمة السنة والحديث من السلف وغيرهم ، وأظن الكرامية لهم في ذلك قولان ، وإلا فالقول بفناء الصوت الذى كلم به موسى من جنس القول بقدمه ، كما يقول ذلك من يقوله من أهل الكلام والحديث والفقهاء السالمية وغيرهم ، ومن الحنبلية والشافعية والمالكية يقول : أنه كلم موسى بصوت سمعه موسى ، وذلك الصوت قديم وهذا القول يعرف فسادَه ببديهية العقل ، وكذلك قول من يقول كله بصوت حادث ، وإن ذلك الصوت باق لا يزال هو وسائر ما يقوم به من الحوادث هي أقوال يعرف فسادها بالبديهية .

وإنما أوقع هذه الطوائف في هذه الأقوال ، ذلك الأصل الذى تلقوه عن الجهمية ، وهو أن ما لم يخل من الحوادث فهو حادث ، وهو باطل عقلا وشرعا ، وهذا الأصل فاسد مخالف للعقل والشرع ، وبه استطالت عليهم الفلاسفة الدهرية ، فلا للإسلام نصروا ولا لعذره كسروا بل قد خالفوا السلف والأئمة ، وخالفوا العقل والشرع ، وسلطوا عليهم وعلى المسلمين عدوهم من الفلاسفة والدهرية والملاحدة ، بسبب غلظتهم في هذا الأصل الذى جعلوه أصل دينهم ، ولو اعتصموا بما جاء به الرسول لوافقوا المنقول والمعقول ،

وثبت لهم الأصل ولكن ضيعوا الأصول ، فحرموا الوصول والأصول
اتباع ما جاء به الرسول .

وأحدثوا أصولاً ظنوا أنها أصول ثابتة ، وكانت كما ضرب الله المثلين
مثل البناء والشجرة فقال في المؤمنين والمنافقين : (أفنأسس بنيانه على تقوى
من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في
نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين) وقال : (ضرب الله مثلاً كلمة طيبة
كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها
ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة
أجثت من فوق الأرض ما لها من قرار يثبته الله الذين آمنوا بالقول الثابت
في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء) والأصول
مأخوذة من أصول الشجرة وأساس البناء ، ولهذا يقال فيه الأصل ما ابنتى
عليه غيره أو ما يفرع عنه غيره .

فالأصول الثابتة هي أصول الأنبياء كما قيل :

أيها المعتدى لتطلب علماً كل علم عبد لعلم الرسول
تطلب الفرع كي تصحح حكماً ثم أغفلت أصل أصل الأصول

والله يهدينا وسائر اخواننا المؤمنين ، إلى صراطه المستقيم صراط الذين
أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .
وهذه الأصول يذنب عليها ما في القلوب ويتفرع عليها ، وقد ضرب الله مثل
الكلمة الطيبة التي في قلوب المؤمنين ، ومثل الكلمة الخبيثة التي في
قلوب الكافرين .

والكلمة هي قضية جازمة وعقيدة جامعة ، ونبينها صلى الله عليه وسلم
أوتى فواتح الكلام وخواتمه وجوامعه ، فبعث بالعلوم الكلية والعلوم الأولية
والآخرية على أتم قضية ، فالكلمة الطيبة في قلوب المؤمنين وهي العقيدة
الإيمانية التوحيدية (كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء) فأصل
أصول الإيمان ثابت في قلب المؤمن كنبات أصل الشجرة الطيبة وفرعها في
السماء (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) والله سبحانه مثل
الكلمة الطيبة ، أى كلمة التوحيد بشجرة طيبة (أصلها ثابت وفرعها في السماء).

فبين بذلك أن الكلمة الطيبة لها أصل ثابت في قلب المؤمن ، ولها فرع
عال ، وهي ثابتة في قلب ثابت كما قال : (ثبت الله الدين آمنوا بالقول
الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة) فالمؤمن عنده يقين وطمأنينة والإيمان
في قلبه ثابت مستقر ، وهو في نفسه ثابت على الإيمان مستقر لا يتحول عنه
والكلمة الخبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ، استوصلت واجتثت
كما يقطع النوى يجثث من فوق الأرض ، مالها من قرار ، لا مكان تستقر فيه
ولا استقرار في المكان ، فان القرار يراد به مكان الاستقرار كما قال تعالى :
﴿ بثس القرار ﴾ وقال : (جمل لكم الأرض قرارا) ويقال : فلان ماله قرار :
أى ثبات . وقد فسر القرار في الآية بهذا وهذا ، فالمبطل ليس قوله ثابتا
في قلبه ، ولا هو ثابت فيه ولا يستقر كما قال تعالى في المثل الآخر : (فأما
الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض) فانه وإن اعتقده
مدة فانه عند الحقيقة يخونه كالذى يشرك بالله ، فعند الحقيقة يضل عنه ما كان
يدعو من دون الله ، وكذلك الأفعال الباطلة التي يعتقدونها الإنسان
عند الحقيقة تخونه ولا تنفعه ، بل هي كالشجرة الخبيثة التي اجتثت من

فوق الأرض ما لها من قرار ، فمن كان معه كلمة طيبة أصلها ثابت كان له فرع في السماء يوصله إلى الله ، فإنه سبحانه : (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) ومن لم يكن معه أصل ثابت فإنه يحرم الوصول ، لأنه ضيع الأصول ولهذا تجد أهل البدع والشبهات لا يصلون إلى غاية محمودتها كما قال تعالى : (له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) .

والله سبحانه بعث الرسل ، وأنزل الكتب بأن يكون هو المعبود وحده لا شريك له ، وإنما يعبد بما أمر به على ألسن رسله .

وأصل عبادته معرفته بما وصف به نفسه في كتابه ، وما وصف به رسله ولهذا كان مذهب السلف أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه ، وما وصفه به رسله من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، والذين ينكرون بعض ذلك ما قدروا الله حق قدره وما عرفوه حق معرفته ، ولا وصفوه حق صفته ولا عبدوه حق عبادته .

والله سبحانه قد ذكر هذه الكلمة (ما قدروا الله حق قدره) في ثلاث مواضع ليثبت عظمته في نفسه وما يستحقه من الصفات ، وليثبت وحدانيته وأنه لا يستحق العبادة إلا هو ، وليثبت ما أنزله على رسله فقال في الزمر : (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة) الآية وقال في الحج : (ضعف الطالب والمطلوب وما قدروا الله حق قدره) وقال في الانعام : (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ، ما أنزل الله على بشر من شيء)

والمواضع الثلاثة ذم الذين ما قدروه حق قدره من الكفار ، فذل ذلك على أنه يجب على المؤمن أن يقدر الله حق قدره كما يجب عليه أن يتقيه حق ثقته وأن يجاهد فيه حق جهاده قال تعالى : (وجاهدوا في الله حق جهاده) وقال : (اتقوا الله حق ثقته) والمصدر هنا مضاف إلى المفعول والفاعل مراد أى حق جهاده الذى أمركم به ، وحق ثقته التى أمركم بها ، واقدروه قدره الذى بينه لكم وأمركم به ، فصدقوا الرسول فيما أخبر وأطيعوه فيما أوجب وأمر وأما ما يخرج عن طاقة البشر فذلك لا يذم أحد على تركه ، قالت عائشة : فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللبر . ودلت الآية على أن له قدراً عظيماً لا سيما قوله : (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) وفى تفسير ابن أبى طلحة عن ابن عباس قال : من آمن بأزائه على كل شيء قدير فقد قدر الله حق قدره .

وقد ثبت فى الصحيحين من حديث ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية لما ذكر له بعض اليهود أن الله يحمل السموات على أصبع ، والأرضين على أصبع ، والجبال على أصبع ، والشجر والثرى على أصبع ، وسائر الخلق على أصبع ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم تعجباً وتصديقاً لقول الخبر وقرأ هذه الآية .

وعن ابن عباس قال مر يهودى بالنبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا أبا القاسم ما تقول إذا وضع الله السماء على ذه ، والأرض على ذه ، والجبال والماء على ذه ، وسائر الخلق على ذه ، فأنزل الله تعالى : (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه)

رواه الامام أحمد والترمذى من حديث أبي الضحى عن ابن عباس وقال :
غريب حسن صحيح .

وهذا يقتضى أن عظمته أعظم مما وصف ذلك الخبر ، فان الذى فى الآية
أبلغ كما فى الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يقبض
الله الأرض يوم القيامة ويطوى السماء يمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك
الأرض ، وفى الصحيحين عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : « يطوى الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول :
أين الملوك الجبارون أين المتكبرون ، ورواه مسلم أبسط من هذا ، وذكر
فيه أنه يأخذ الأرض بيده الاخرى .

وقد روى ابن حاتم حدثنا أبو ثناء عمرو بن رافع ثنا يعقوب بن عبد الله
عن جعفر عن سعيد بن جبير قال تكلمت اليهود فى صفة الرب تبارك وتعالى
فقالوا : ما لم يعلموا ولم يروا فأنزل الله على نبيه : (وما قدروا الله حق
قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه
وتعالى عما يشركون) فجعل صفته التى وصفوا بها شركاً .

وقال : حدثنا أبو ثناء أبو نعيم ثنا الحكم يعنى أبا معاذ عن الحسن قال
عمدت اليهود فنظروا فى خلق السموات والأرض والملائكة فلما فرغوا
أخذوا يقدرونه فأنزل الله تعالى على نبيه : (وما قدروا الله حق قدره) وهذا يدل
على أنه أعظم مما وصفوه وأنهم لم يقدروه حق قدره ، وقوله عما يشركون
فكل من جعل مخلوقاً مثلاً للخالق فى شيء من الأشياء فأجبه مثل ما يجب
الخالق ، أو وصفه بمثل ما يوصف به الخالق ، فهو مشرك سوى بين الله

وبين المخلوق في شيء من الأشياء فعدل بربه ، والرّب تعالى : لا كفؤ له ، ولا سمي له ، ولا مثل له ، ومن جعله مثل المعدوم والممتنع فهو شر من هؤلاء ، فإنه معطل ، بمثل . والمعطل : شر من المشرك ﴿ والله تلى قصة فرعون ﴾ في القرآن في غير موضع لاحتياج الناس إلى الاعتبار بها ، فإنه حصل له من الملك ودعوى الربوبية والإلهية والعلو ما لم يحصل مثله لأحد من المعطلين ، وكانت عاقبته إلى ما ذكر الله تعالى وليس لله صفة يماثله فيها غيره فلهذا لم يحز أن يستعمل في حقه قياس التمسك ولا قياس السموك الذي يستوى إفراده ، فإن ذلك شرك إذ سوى فيه بالمخلوق ، بل قياس الأولى فإنه سبحانه له المثل الأعلى في السموات والأرض فهو أحق من غيره بصفات الكمال ، وأحق من غيره بالتنزيه عن صفات النقص ، وقد بسطت هذه الأمور في غير هذا الموضع وبين أن من جعله الوجود المطلق والمقيد بالسلب أو ذاتا مجردة ، فهو لا مثله بأنقص المعقولات الذهنية ، وجعلوه دون الموجودات الخارجية ، والنفاة الذين قصدوا إثبات حدوث العالم بآثبات حدوث الجسم ، لم يثبتوا بذلك حدوث شيء كما قد بين في موضعه .

ثم أنهم جعلوا عندتهم في تنزيه الرب عن النقائص على نفي الجسم ، ومن سلك هذا المسلك لم ينزه الله عن شيء من النقائص البتة ، فإنه مامن صفة ينفيها لأنها تستلزم التجسيم وتكون من صفات الأجسام ، إلا يقال له فيما أثبتته نظير ما يقوله هو في نفس تلك الصفة ، فإن كان مثبتاً لبعض الصفات قيل له القول في هذه الصفة التي ينفيها كالقول فيما أثبتته ، فإن كان هذا تجسيمياً وقولاً باطلاً فهذا كذلك ، وإن قلت أنا أثبت هذا على الوجه الذي يليق

بالرب . قيل له : وكذلك هذا كذلك . وإن قلت أنا أثبتته وأننى التجسيم قيل ذلك وهذا كذلك ، فليس لك أن تفرق بين المتماثلين وإن من ثبتت الأسماء وينتفى الصفات كالمعزلة قيل له فى الصفات ما يقوله هو فى الأسماء ، فإذا كان يثبت حياً عالماً قادراً وهو لا يعرف من هو متصف بذلك إلا جسماً ، كان لإثبات أن له علماً وقدرة كما نطق به الكتاب والسنة كذلك ، وإن كان من لا يثبت لا الأسماء ولا الصفات كالجهمية المحضة والملاحدة . قيل له : فلا بد أن تثبت موجوداً قائماً بنفسه ، وأنت لا تعرف ذلك إلا جسماً ، وإن قال لا أسميه باسم لا لإثبات ولا نفى . قيل له : سكوتك لا ينفى الحقائق ولا واسطة بين النفى والإثبات ، فاما أن يكون حقاً ثابتاً موجوداً ، واما أن يكون باطلاً معدوماً ، وأيضاً فإن كنت لم تعرفه فانت جاهل فلا تتكلم ، وإن عرفته فلا بد أن تميز بينه وبين غيره بما يختص به مثل أن يقول : رب العالمين ، أو القديم الأزلى . أو الموجود بنفسه ونحو ذلك ، وحينئذ فقد أثبت حياً موجوداً قائماً بنفسه وأثبتته فاعلاً ، وأنت لا تعرف ما هو كذلك إلا الجسم ، وإن قدر أنه جاحد له قيل له : فهذا الوجود مشهود ، فإن كان قديماً أزلياً موجوداً بنفسه فقد يثبت جسم قديم أزلى موجود بنفسه وهو ما فررت منه ، وإن كان مخلوقاً مصنوعاً فله خالق خلقه ، ولا بد أن يكون قديماً أزلياً فقد ثبت الموجود القائم بنفسه القديم الأزلى على كل تقدير ، وهذا مبسوط فى غير هذا الموضع .

وهنا قد نهينا على ذلك ، وأنه كل من بنى تنزيهه للرب عن النقائص والعيوب على نفى الجسم ، فانه لا يمكنه أن ينزهه عن عيب أصلاً بهذه الحجة ، وكذلك من جعل عمدته نفى التركيب .

ومن تدبر ما ذكره في كتبهم تبين له أنهم لم يقيموا حجة على وجوده ،
فلاهم أثبتوه وأثبتوا له ما يستحقه ، ولا نزوه ونفوا عنه ما لا يجوز عليه ،
إذ كان إثباته هو لإثبات حدوث الجسم ، ولم يقيموا على ذلك دليلا ، والنفي
اعتمدوا فيه على ذلك ، وهم متناقضون فيه لو كانوا أقاموا دليلا على نفي
كونه جسما فكيف إذا لم يقيموا على ذلك دليلا وتناقضوا .

وهذا مما يتبين لك أن من خرج عن الكتاب والسنة ، فليس معه علم
لاعقل ولا سمع ، لاسيما في هذا المطلوب الأعظم ، لكنهم قد يكونون
معتقدين لعقائد صحيحة عرفوها بالفطرة العقلية وبما سمعوه من القرآن ودين
المسلمين ، فقلوبهم تثبت ما تثبت وتنفى ما تنفى بناء على هذه الفطرة المكملّة
بالشرعة المنزلّة ، لكنهم سلكوا هذه الطرق البدعية وليس فيها علم أصلا ،
ولكن يستفاد من كلامهم لإبطال بعضهم لقول المبطل الآخر وبيان تناقضه ،
ولهذا لما ذكروا المقالات الباطلة في الرب جعلوا يردونها بأن ذلك تجسيم ،
كما فعل القاضي أبو بكر في هداية المسترشدين وغيره ، فلم يقيموا حجة على
أولئك المبطلين ، وردوا كثيراً عما يقول اليهود بأنه تجسيم ، وقد كان اليهود
عند النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة وكانوا أحيانا يذكرون له بعض الصفات
كحديث الخبر ، وقد ذم الله اليهود على أشياء كقولهم : إن الله فقير وأن يده
مغلولة . وغير ذلك . ولم يقل النبي صلى الله عليه وسلم قط أنهم يحسمون
ولا أن في التوراة تجسما ولا عابهم بذلك ولا رد هذه الأقوال الباطلة بأن
هذا تجسيم كما فعل ذلك من فعله من النفاة ، فبين أن هذه الطريقة مخالفة
للشرع والعقل ، وأنها مخالفة لما بعث الله به رسوله ولما فطر عليه عباده ،
وأن أهلها من جنس الذين قالوا : (لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب

السعير) وقد يتنافى غير هذا الموضع فساد ما ذكره الرازى من أن طريقة
الوجوب والإمكان من أعظم الطرق وبيننا فسادها ، وأنها لا تقيد علماً وأنهم
لم يقيموا دليلاً على إثبات واجب الوجود وأن طريقة الكمال أشرف منها ،
وعليها اعتماد العقلاء قديماً وحديثاً وهو قد اعترف في آخر عمره بأنه قد تأمل
الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية ، فما وجدها تشفى غليلاً ولا تروى غليلاً ،
ووجد أقرب الطرق طريقة القرآن ، وطريقة الوجوب والإمكان لم يسلكها
أحد قبل ابن سينا ، وهو أخذها من كلام المتكلمين الذين قسموا الوجود إلى
محدث وقديم ، فقسمه هو إلى واجب وممكن ، ليكنه القول بأن الفك ممكن
مع قدرته وخالف بذلك عامة العقلاء من سلفه وغير سلفه وخالف نفسه
فانه قد ذكر في المنطق ما ذكره سلفه من أن الممكن لا يكون إلا محدثاً ، كما
قد بسط الكلام عليه في غير هذا الموضع .

(ثم) أن هؤلاء الذين سلكوا هذه الطريقة انتهت بهم إلى قول
فرعون ، فإن فرعون جحد الخالق وكذب موسى في أن الله كله ، وهؤلاء
ينتهى قولهم إلى جحد الخالق ، وإن أثبتوه قالوا : أنه لا يتكلم ولا نادى أحداً
ولا ناجاه ، وعمدتهم في نفي ذاته على نفي الجسم ، وفي نفي كلامه وتمكليمه لموسى
على أنه لا تحله الحوادث ، فلا يبقى عندهم رب ولا مرسل حقيقة قولهم تناقض
شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فإن الرسول هو المبلغ لرسالة
مرسله ، والرسالة هي كلامه الذى بعث به ، فاذا لم يكن متكلماً لم تكن رسالة
ولهذا اتفق الانبياء على أن الله يتكلم ، ومن لم يقل أنه يتكلم بمشيئته وقدرته
كلاماً يقوم بذاته لم يقل أنه يتكلم ، والنفاة منهم من يقول :

الكلام صفة فعل ، بمعنى أنه مخلوق بأن عنهم ، ومنهم من يقول هو صفة ذات ، بمعنى أنه كالحياة يقوم بذاته وهو لا يتكلم بمشيئته وقدرته وكل طائفة مصيبة في إبطال باطل الأخرى .

• الدليل يقوم على أنه صفة ذات ، وفعل تقوم بذات الرب ، والرب يتكلم بمشيئته وقدرته ، فأدلة من قال أنه صفة فعل كلها إنما تدل على أنه يتكلم بقدرته ومشيئته ، وهذا حق وأدلة من قال أنه صفة ذات إنما تدل على أن كلامه يقوم بذاته وهذا حق ، وأما من أثبت أحدهما كن قال إن كلامه مخلوق ، أو قال أنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته ، فهؤلاء في الحقيقة لم يثبتوا أنه يتكلم ، ولا أثبتوا له كلاماً ، ولهذا يقولون ما لا يعقل ، هذا يقول أنه معنى واحد قام بالذات ، وهذا يقول حروف ، أو حروف وأصوات قديمة أزلية لازمة لذاته ، وهذا يقول مخلوق بآئن عنه .

ولهذا لما ظهر لطائفة من أتباعهم مافى قولهم من الفساد ، ولم يعرفوا عين هذه الأقوال الثلاثة ، حاروا وتوقفوا وقالوا : نحن نقر بما عليه عموم المسلمين من أن القرآن كلام الله ، وأما كونه مخلوقاً أو بحرف وصوت أو معنى قائم بالذات فلا نقول شيئاً من هذا ، ومعلوم أن الهدى في هذه الأصول ومعرفة الحق فيها ، ومعرفة ما جاء به الرسول وهو الموافق لصريح المعقول أنفع وأعظم من كثير مما يتكلمون فيه من العلم لاسيما والقلوب تطلب معرفة الحق في هذه بالقطرة ، ولما قد رأوا من اختلاف الناس فيها ، وهؤلاء يذكرون هذا الوقف في عقائدهم وفيما صنفوه في أصول الدين ، كما قد رأيت منهم من أكابر شيوخ العلم والدين بمصر والشام ، قد صنفوا في أصوله

الدين ما صنفوه ، ولما تكلموا في مسألة القرآن ، وهل هو مخلوق ، أو قديم أو هو الحروف والاصوات ، أو معنى قائم بالذات ، نهوا عن هذه الأقوال وقالوا : الواجب أن يقال ما قاله المسلمون كلهم : أن القرآن كلام الله ويمسك عن هذه الأقوال ، وهؤلاء توقفوا عن حيرة وشك . ولهم رغبة في العلم والهدى والدين ، وهم من أحرص الناس على معرفة الحق في ذلك وغيره ، لكن لم يعلموا إلا هذه الأقوال الثلاثة ، قول المعتزلة ، والكلائية ، والسلمية ، وكل طائفة تبين فساد قول الأخرى ، وفي كل قول من الفساد ما يوجب الامتناع من قبوله ، ولم يعلموا قولا غير هذه فرضوا بالجهل البسيط ، وكان أحب اليهم من الجهل المركب ، وكان أسباب ذلك أنهم وافقوا هؤلاء على أصل قولهم ودينهم ، وهو الاستدلال على حدوث الأجسام ، وحدث العالم بطريقة أهل الكلام المبتدع كما سلكها من ذكرته من أجلاء شيوخ أهل العلم والدين ، والاستدلال على إمكانها بكونها مركبة كما سلك الشيخ الآخر ، وهذا ينفي عن الواجب أن يكون جسما بهذه الطريقة وذلك نفي عنه أنه جسم بتلك الطريقة ، وحذاق النظائر الذين كانوا أخبر بهذه الطرق وأعظم نظراً واستدلالاتها وبغيرها قد عرفوا فسادها ، كما قد بسط في غير هذا الموضع .

والله سبحانه قد أخبر أنه أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وأخبر أنه ينصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا ، والله سبحانه يجزى الانسان بحسن عمله ، فالجزاء من جنس العمل فمن خالف الرسل عوقب بمثل ذنبه فان كان قد قدح فيهم ، ونسب ما يقولونه إلى أنه جهل وخروج عن العلم والعقل ، ابتلى في عقله وعلمه وظهر من جهله ما عوقب به ، ومن

قال عنهم أنهم تعمدوا الكذب أظهر الله كذبه. ومن قال : أنهم جهال أظهر الله جهله . فرعون، وهامان ، وقارون ، لما قالوا عن موسى أنه ساحر كذاب أخبر الله بذلك عنهم في قوله : (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب) وطلب فرعون أهلا كه بالقتل وصار يصفه بالعيوب كقوله : (وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه اني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد) وقال : (أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين) أهلك الله فرعون وأظهر كذبه واقتراه على الله وعلى رسله وأذله غاية الازلال ، وأعجزه عن الكلام النافع ، فلم يبين حجة ، وفرعون هذه الامة أبو جهل كان يسمى أبا الحكم ولكن النبي صلى الله عليه وسلم سماه : أبا جهل ، وهو كما سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أبو جهل أهلك به نفسه وأتباعه في الدنيا والآخرة .

(والذين) قالوا عن الرسول أنه أتر ، وقصدوا أنه يموت فينقطع ذكره عوقبوا بانبتاهم كما قال تعالى : (إن شئت لك هو الأتر) فلا يوجد من شأ الرسول إلا بتره الله ، حتى أهل البدع المخالفون لسنة ، قيل لأبي بكر ابن عياش : إن بالمسجد قوما يجلسون للناس ويتكلمون بالبدعة. فقال : من جلس للناس جلس الناس اليه ، لكن أهل السنة يقولون ويبقى ذكركم ، وأهل البدعة يموتون ويموت ذكركم .

وهؤلاء المشبهون لفرعون الجهمية نفاة الصفات الذين وافقوا فرعون في جحده ، وقالوا : انه ليس فوق السموات وأن الله لم يكلم موسى تكليما ، كما قال فرعون : (يا هامان ابن لي صرحا لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات) (٩ — مجموعة الرسائل)

فاطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا) وكان فرعون جاحدا للرب فلولا أن موسى أخبره أن ربه فوق العالم ، لما قال أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا قال تعالى : (وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا في تباب) وقال تعالى : (وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فاوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون فأخذناهم ورجلهم فنبذناهم فى اليم فأنظر كيف كان عاقبة الظالمين وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين) .

ومحمد صلى الله عليه وسلم لما عرج به إلى ربه وفرض عليه الصلوات الخمس ذكر أنه رجع إلى موسى ، وأن موسى قال له ارجع إلى ربك فسله التخفيف إلى أمتك كما تواتر هذا فى أحاديث المعراج ، فوسى صدق محمداً فى أن ربه فوق وفرعون كذب موسى فى أن ربه فوق ، فالمقرون بذلك متبعون لموسى ومحمد ، والمكذبون بذلك موافقون لفرعون .

وهذه الحجة بما اعتمد عليها غير واحد من النظار ، وهى بما استمد عليه أبو الحسن الأشعرى فى كتابه فى الإبانة ، وذكر عدة أدلة عقلية وسمعية ، على أن الله فوق العالم وقال فى أوله :

فان قال قائل : قد أنكرتم قول الجهمية والقدرية والخوارج والروافض والمعزلة والمرجئة ، فعرفونا قولكم الذى به تقولون وديانتكم التى بها تدينون.

قيل له : قولنا الذى نقول به وديانتنا التى ندين بها : التمسك بكتاب ربنا وستة نبينا وما جاء عن الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين ، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل قائلون ، ولما خالف قوله مجانبون ، فانه الامام الكامل والرئيس الفاضل الذى أبان الله به الحق ، وأوضح به المناهج وقع به بدع المبتدعين ، وزين الزائفين ، وشك الشاكين ، فرحمه الله من امام مقدم وكبير مفهم وعلى جميع أئمة المسلمين ، وذكر جملة الاعتقاد والكلام على علو الله على العرش وعلى الرؤية ، ومسألة القرآن ونحو ذلك وهذا مبسوط فى غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن المعطلة نفاة الصفات أو نفاة بعضها ، لا يعتمدون فى ذلك على ما جاء به الرسول إذ كان ما جاء به الرسول إنما يتضمن الاثبات لا النفي ، لكن يعتمدون فى ذلك على ما يظنونه أدلة عقلية ويعارضون بذلك ما جاء به الرسول ، وحقيقة قولهم أن الرسول لم يذكر فى ذلك ما يرجع إليه لا من سمع ولا عقل ، فلم يخبر بذلك خبراً بين به الحق على زعمهم ، ولا ذكر أدلة عقلية تبين الصواب فى ذلك على زعمهم بخلاف غير هذا ، فانهم معترفون بأن الرسول ذكر فى القرآن أدلة عقلية على ثبوت الرب وعلى صدق الرسول ، وقد يقولون أيضاً أنه أخبر بالمعاد ، لكن نفوا الصفات لما رأوا أن ما ذكره من النفي لم يذكره الرسول فلم يخبر به ولا ذكر دليل عقلية عليه بل إنما ذكر الاثبات وليس هو فى نفس الأمر حقاً ، فأحوج الناس إلى التأويل أو التفويض ، فلما نسبوا ما جاء به الرسول إلى أنه ليس فيه لا دليل سمعى ولا عقلى ، لا خبر بين الحق ، ولا دليل يدل عليه ، عاقبهم الله بحجس ذنوبهم ، فكان ما يقولونه فى هذا الباب خارجاً عن العقل والسمع مع دعواهم أنه من العقليات البرهانية ، فاذا

اختبره العارف وجده من الشبهات الشيطانية من جنس شبهات أهل السفسطة والالحاد الذين يقدحون في العقليات والسمعيات ، وأما السمع بخلافهم له ظاهر لكل أحد ، وإنما يظن من يعظمهم ويتبعهم أنهم أحكوا العقليات ، فاذا حقق الأمر وجدهم كما قال أهل النار : (لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير) وكما قال تعالى : (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب . أو كظلمات في بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فإنه من نور) .

فلما كان حقيقة قولهم : أن القرآن والحديث ليس فيه في هذا الباب دليل سمعى ولا عقلى ، سلهم الله في هذا الباب معرفة الأدلة السمعية والعقلية حتى كانوا من أضل البرية مع دعواهم أنهم أعلم من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين ، بل قد يدعون أنهم أعلم من النبيين وهذا ميراث من فرعون وحزبه اللعين .

وقد قيل ان أول من عرف أنه أظهر في الاسلام التعطيل الذى تضمنه قول فرعون ، هو الجعد بن درهم فضحى به خالد بن عبد الله القسرى وقال : أيها الناس ضحوا قبل الله ضحاياكم ، إني موضح بالجمع بن درهم ، انه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ، ولم يكلم موسى تكليما تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا ثم نزل فذبجه وشكر له علماء المسلمين ما فعله كالحسن البصرى وغيره ، وهذا الجعد اليه ينسب مروان بن محمد الجعدى آخر خلفاء بني أمية ، وكان شؤمه

عاد عليه حتى زالت الدولة ، فانه إذا ظهرت البدع التي تخالف دين الرسل انتقم الله من خالف الرسل وانتصر لهم ، ولهذا لما ظهرت الملاحدة الباطنية وملكوا الشام وغيرها ، ظهر فيها النفاق والزندقة الذي هو باطن أمرهم ، وهو حقيقة قول فرعون : انكار الصانع وانكار عبادته وخيار ما كانوا يتظاهرون به الرفض ، فكانوا خيارهم وأقربهم إلى الاسلام الرافضة ، وظهر بسببهم الرفض واللاحاد حتى كان من كان ينزل الشام مثل بنى حمدان العالية ونحوهم متشيعين وكذلك من كان من بنى بويه في المشرق .

وكان ابن سينا وأهل بيته من أهل دعوتهم . قال : وبسبب ذلك اشتغلت في الفلسفة ، وكان مبدأ ظهورهم من حين تولى المقتدر ، ولم يكن بلغ بعد ، وهو مبدأ انحلال الدولة العباسية ، ولهذا سمى حينئذ بأمر المؤمنين الاموى الذى كان بالاندلس ، وكان قبل ذلك لا يسمى بهذا الاسم . ويقول : لا يكون للمسلمين خليفتان ، فلما ولى المقتدر قال : هذا صبي لا تصح ولايته فسمى بهذا الاسم .

وكان بنو عبيد الله القداح الملاحدة يسمون بهذا الاسم ، لكن هؤلاء كانوا في الباطن ملاحدة زنادقة منافقين ، وكان نسبهم باطلا كدينهم ، بخلاف الاموى والعباسي فان كلاهما نسبة صحيح وهم مسلمون كأمثالهم من خلفاء المسلمين .

فلما ظهر النفاق والبدع والفجور المخالف لدين الرسول سلطت عليهم الاعداء ، فخرجت الروم النصارى إلى الشام والجزيرة مرة بعد مرة ، وأخذوا الثغور الشامية شيئا بعد شيء الى أن أخذوا بيت المقدس ، في أواخر المائة الرابعة ، وبعد هذا بمدة حاصروا دمشق ، وكان أهل الشام بأسوأ حال بين

الكفار النصارى والمنافقين الملاحدة إلى أن تولى نور الدين الشهيد ، وقام بما قام به من أمر الإسلام والطهارة والجهاد لأعدائه ، ثم استجد به ملوك مصر بنو عبيد على النصارى فأنجدهم ، وجرت فصول كثيرة إلى أن أخذت مصر من بنى عبيد، أخذها صلاح الدين يوسف بن سادى وخطب بها لبنى العباس فن حينئذ ظهر الاسلام بمصر بعد أن مكثت بأيدي المنافقين المرتدين عن دين الاسلام مائة سنة .

فكان الإيمان بالرسول والجهاد عن دينه سبباً لحير الدنيا والآخرة ، وبالعكس البدع والالحاد ومخالفة ما جاء به سبب لشر الدنيا والآخرة .

فلما ظهر في الشام ومصر والجزيرة الالحاد والبدع سلط عليهم الكفار ، ولما أقاموا ما أقاموه من الاسلام وقهر الملحدين والمبتدعين نصرهم الله على الكفار تحقيقاً لقوله : (يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين) .

وكذلك لما كان أهل المشرق قائمين بالاسلام ، وكانوا منصورين على الكفار المشركين من الترك والهند والصين وغيرهم ، فلما ظهر منهم ما ظهر من البدع والالحاد والفجور سلط عليهم الكفار قال تعالى : (وقضينا إلى بني اسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأساً شديداً ففجسوا خلال الديار

وكان وعداً مفعولاً ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسروا واورثوا ما تركوا لكم وليسلطوا عليكم ما يولون ولما تولى الله رسوله قل الله يهدي من يشاء عسى أن يكون بغير علم ما علوا تبيراً عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً .

وكان بعض المشايخ يقول : هو لا كرم ملك الترك التتار الذى قهر الخليفة بالعراق وقتل ببغداد مقتلة عظيمة جداً ، يقال قتل منهم ألف ألف ، وكذلك قتل بحلب دار الملك حينئذ . كان بعض الشيوخ يقول : هو للمسلمين بمنزلة بخت نصر لبني اسرائيل .

وكان من أسباب دخول هؤلاء ديار المسلمين : ظهور الإلحاد والنفاق والبدع ، حتى أنه صنف الرازى كتاباً فى عبادة الكواكب والأصنام وعمل السحر ، سماء ، السر المكتوم فى السحر ومخاطبة النجوم ، ويقال : أنه صنفه لأم السلطان علاء الدين محمد بن لكش بن جلال الدين خوارزم شاه ، وكان من أعظم ملوك الأرض ، وكان للرازى به اتصال أخوى حتى أنه وصى إليه على أولاده ، وصنف له كتاباً سماه الرسالة العلاجية فى الاختيارات السماوية .

وهذه الاختيارات لأهل الضلال بدل الاستخارة التى عليها النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين ، كما قال جابر فى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى وغيره كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة فى الأمور كلها ، كما يعلمنا السورة من القرآن يقول : « إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من

غير الفريضة ثم ليقبل اللهم إنى أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر — وتسميه باسمه — خير لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى فأقدره لى ويسره ثم بارك لى فيه وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى فأصرفه عني وأصرفنى عنه واقدر لى الخير حيث كان ثم رضنى به ، (وأهل النجوم) لهم اختيارات ، إذا أراد أحدهم أن يفعل فعلاً أخذ طالعاً سعيداً ففعل فيه ذلك العمل لينجح بزعمهم ، وقد صنف الناس كتاباً فى الرد عليهم ، وذكروا كثرة ما يقع من خلاف مقصودهم فيما يخبرون به ويأمرون به ، وكما يخبرون من خبر فيكون كذباً . وكما يأمرون باختيار فيكون شراً ، والرازى صنف الاختيارات لهذا الملك ، وذكر فيه الاختيار لشرب الخمر وغير ذلك ، كما ذكر فى السبر المكتوم فى عبادة الكواكب ودعوتها مع السجود لها والشرك بها ودعائها مثل ما يدعو الموحدون ربهم بل أعظم ، والتقرب إليها بما يظن أنه مناسب لها من الكفر والفسوق والعصيان ، فذكر أنه يتقرب إلى الزهرة بفعل الفواحش وشرب الخمر والغناء ونحو ذلك مما حرمه الله ورسوله ، وهذا فى نفس الأمر يقرب إلى الشياطين الذين يأمرونهم بذلك ، ويقولون لهم إن الكوكب نفسه يحب ذلك وإلا فالكواكب مسخرات بأمر الله مطيعة لله لا تأمر بشرك ولا غيره من المعاصى ، ولكن الشياطين هى التى تأمر بذلك ويسمونها روحانية الكواكب وقد يجعلونها ملائكة وإنما هى شياطين ، فلما ظهر بأرض المشرق نسب مثل هذا الملك ونحوه ومثل هذا العالم ونحوه ما ظهر من الإلحاد والبدع ، سلب الله عليهم الترك المشركين الكفار فأبادوا هذا الملك ، وجرت له أمور فيها عبرة لمن يعتبر ، ويعلم تحقيق ما أخبر الله

به في كتابه حيث يقول : (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) أى أن القرآن حق وقال : (سأريكم آياتي فلا تستعجلون) وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا أن دولة بني أمية ، كان انقراضها بسبب هذا الجعد المعطل وغيره من الأسباب التي أوجبت إدارها ، وفي آخر دولتهم (ظهر الجهم ابن صفوان) بخراسان وقد قيل : أن أصله من ترمذ ، وأظهر قول المعطلة التفتاة الجهمية وقد قتل في بعض الحروب ، وكان أئمة المسلمين بالمشرق أعلم بحقيقة قوله من علماء الحجاز والشام والعراق ولهذا يوجد لعبد الله بن المبارك وغيره من علماء المسلمين بالمشرق من الكلام في الجهمية أكثر مما يوجد لغيرهم ، مع أن عامة أئمة المسلمين تكلموا فيهم ، ولكن لم يكونوا ظاهرين إلا بالمشرق ، لكن قوى أمرهم لما مات الرشيد وتولى ابنه الملقب بالمأمون بالمشرق وتلقى عن هؤلاء ما تلقاه .

ثم لما ولي الخلافة اجتمع بكثير من هؤلاء ودعا إلى قولهم في آخر عمره . وكتب إلى بغداد وهو (بالشر بطرسوس) التي ببلد سيس ، وكانت إذ ذاك أعظم ثغور بغداد ، ومن أعظم ثغور المسلمين يقصدها أهل الدين من كل ناحية ويرابطون بها ، رابطها الإمام أحمد رضى الله عنه والسرى السقطى وغيرهما ، وتولى قضاءها أبو عبيد ، وتولى قضاءها أيضاً صالح بن أحمد بن حنبل ولهذا ذكرت في كتب الفقه كثيراً فإنها كانت ثغراً عظيماً .

فكتب من الشر إلى نائبه ببغداد اسحاق بن ابراهيم بن مصعب كتاباً يدعو الناس فيه إلى أن يقولوا : (القرآن مخلوق) فلم يجبه أحد ، ثم كتب

كتاباً ثانياً يأمر فيه بتقييد من لم يحبه وإرساله إليه ، فأجاب أكثرهم ثم قيدوا سبعة لم يجيبوا فأجاب منهم خمسة بعد القيد ، وبقي اثنان لم يجيبا : الإمام أحمد ابن حنبل ، ومحمد بن نوح . فأرسلوهما إليه ، فمات قبل أن يصلا إليه ثم أوصى إلى أخيه أبي اسحاق ، وكان هذا سنة ثمان عشرة ومائتين ، وبقي أحمد في الحبس إلى سنة عشرين ، فجرى ما جرى من المناظرة حتى قطعهم بالحجة ، ثم لما خافوا الفتنة ضربوه وأطلقوه ، وظهر مذهب النفاة الجهمية وامتنحوا الناس ؛ فصار من أجابهم أعطوه وإلا منعه العطاء وعزوه من الولايات ولم يقبلوا شهادته ، وكانوا إذا افتكوا الأسرى يمتحنون الأسير فان أجابهم اقتدوه وإلا لم يقتدوه .

وكتب قاضيه أحمد بن أبي داود على ستارة الكعبة : ليس كشه شيء وهو العزيز الحكيم . لم يكتب وهو السميع البصير .

ثم ولي الواثق واشتد الأمر إلى أن ولي المتوكل فرفع المحنة ، وظهرت حينئذ السنة وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود أن أئمة المسلمين لما عرفوا حقيقة قول الجهمية بنوه حتى قال عبد الله بن المبارك : إنا لنحكي كلام اليهود والنصارى ، ولانستطيع أن نحكي كلام الجهمية وكان ينشد :

عجبت لشیطان دعا الناس جهرة إلى النار واشتق اسمه من جهنم

وقيل له : بماذا يعرف ربنا ؟ قال : بأنه فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه

قيل له : يحد . قال : يحد . وكذلك قال أحمد بن حنبل وإسحاق بن إبراهيم
ابن راهويه وعثمان بن سعيد البارمي وغيرهم من أئمة السنة .

وحقيقة قول الجهمية المعطلة هو قول فرعون ، وهو جحد الخالق
وتعطيل كلامه ودينه كما كان فرعون يفعل ، فكان يحد الخالق جل جلاله
ويقول : ما علمت لكم من إله غيري ويقول لموسى : (لئن اتخذت إلها
غيري لأجعلنك من المسجونين) ويقول : (أنا ربكم الأعلى) وكان ينكر
أن يكون الله كام موسى ، أو لا يكون لموسى إله فوق السموات ، ويريد
أن يطل عبادة الله وطاعته ، ويكون هو المعبود المطاع ، فلما كان قول
الجهمية المعطلة النفاة يؤول إلى قول فرعون ، كان منتهى قولهم إنكار
رب العالمين ، وإنكار عبادته ، وإنكار كلامه حتى ظهر وأبدعوى التحقيق
والتوحيد والعرفان ، فصاروا يقولون : العالم هو الله ، والوجود واحد ،
والموجود القديم الأزلي الخالق ، هو الموجود المحدث المخلوق ، والرب هو
العبد ما ثم رب وعبد وخالق ومخلوق ، بل هو عندهم فرقان ، ولهذا صاروا
يعيبون على الأنبياء وينقصونهم ، يعيبون على نوح وعلى إبراهيم الخليل وغيرهما ،
ويمدحون فرعون ويجوزون عبادة جميع المخلوقات ، وجميع الأصنام ولا يرضون
بأن تعبد الأصنام حتى يقولوا : إن عباد الأصنام لم يعبدوا إلا الله وأن الله
نفسه هو العابد وهو المعبود وهو الموجود كله ، فحدوا الرب وأبطلوا دينه
وأمره ونهيه ، وما أرسل به رسله وتمكلمه لموسى وغيره .

وقد ضل في هذا جماعة ولهم معرفة بالكلام والفلسفة والتصوف
المناسب لذلك ، كان سبعين والصدر القنوي تلميذ ابن عربي والبلياني والتلساني

وهو من حذاقهم علماء ومعرفة ، وكان يظهر المذهب بالفعل فيشرب الخمر ويأتى المحرمات .

وحدثني الثقة : أنه قرأ عليه فصوص الحكم لابن عربي ، وكان يظنه من كلام أولياء الله العارفين ، فلما قرأه رآه يخالف القرآن . قال : فقلت له هذا الكلام يخالف القرآن . فقال : القرآن كله شرك ، وإنما التوحيد في كلامنا ، وكان يقول ثبت عندنا في الكشف ما يخالف صريح المعقول .

وحدثني من كان معه ومع آخر نظير له ، فمرا على كلب أجرب ميت بالطريق عند دار الطعم . فقال له رفيقه : هذا أيضاً هو ذات الله . فقال : وهل ثم شيء خارج عنها نعم الجميع في ذاته .

وهؤلاء حقيقة قولهم : هو قول فرعون ، لكن فرعون ما كان يخالف أحداً فيناقفه فلم يثبت الخالق ، وإن كان في الباطن مقراً به وكان يعرف أنه ليس هو إلا مخلوق ، لكن حب العلو في الأرض والظلم دعاه إلى الجحود والإنكار كما قال : (فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً) فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ، وأما هؤلاء فهم من وجه ينافقون المسلمين ، فلا يمكنهم إظهار جحود الصانع ومن وجههم ضلال يحسبون أنهم على حق وأن الخالق هو المخلوق ، فان كان قولهم هو قول فرعون لكن فرعون كان معانداً مظهراً للجحود والعناد وهؤلاء : إما جهال ضلال وإما منافقون مبطنون بالإلحاد والجحود وبوافقون المسلمين في الظاهر .

وحدثني الشيخ عبد السيد الذي كان قاضي اليهود ثم أسلم ، وكان من أصدق الناس ومن خيار المسلمين وأحسنهم إسلاما : أنه كان يجتمع بشيخ منهم يقال له الشرف البلاسي ، يطلب منه المعرفة والعلم . قال : فدعاني إلى هذا المذهب . فقلت له : قولكم يشبه قول فرعون . قال : ونحن على قول فرعون . فقلت لعبد السيد : واعترف لك بهذا . قال : نعم . وكان عبد السيد إذ ذاك قد ذاكرني بهذا المذهب . فقلت له : هذا مذهب فاسد وهو يؤول إلى قول فرعون ، فحدثني بهذا . فقلت له : ما ظننت أنهم يعترفون بأنهم على قول فرعون ، لكن مع قرار الخصم ما يحتاج إلى بيّنة . قال عبد السيد . فقلت له : لا أدع موسى وأذهب إلى فرعون . فقال : ولم . قلت : لأن موسى أغرق فرعون فانقطع واحتج عليه بالظهور الكوني . فقلت لعبد السيد وكان هذا قبل أن يسلم : نفعتك اليهودية ، يهودى خير من فرعونى .

وفيه جماعات لهم عبادة وزهد وصدق فيأثم فيه ، وهم يحسبون أنه حق وعامتهم الذين يقرون ظاهراً وباطناً بأن محمداً رسول الله وأنه أفضل الخلق أفضل من جميع الأنبياء والأولياء ، لا يفهمون حقيقة قولهم بل يحسبون أنه تحقيق ما جاء به الرسول ، وأنه من جنس كلام أهل المعرفة الذين يتكلمون في حقائق الإيمان والدين ، وهم من خواص أولياء الله فيحسبون هؤلاء من جنس أولئك ، من جنس الفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم وأبي سليمان الداراني والسري السقطي والجنيد بن محمد وسهل بن عبد الله وأمثال هؤلاء .

وأما عرافهم الذين يعلمون حقيقة قولهم فيعلمون أنه ليس الأمر كذلك

ويقولون ما يقول ابن عربي ونحوه أن الاولياء أفضل من الانبياء وأن خاتم الاولياء أفضل من خاتم الانبياء ، وأن جميع الانبياء يستفيدون معرفة الله من مشكاة خاتم الاولياء ، وأنه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يأتي خاتم الانبياء ، فانهم متجهمة متفلسفة يخرجون أقوال الفلاسفة والجهمية في قالب الكشف ، وعند المتفلسفة أن جبريل إنما هو خيال في نفس النبي ليس هو ملكا يأتي من السماء ، والنبي عندهم يأخذ من هذا الخيال ، وأما خاتم الاولياء في زعمهم فانه يأخذ من العقل المجرد الذي يأخذ منه الخيال ، فهو يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحى به إلى الرسول ، وهم يعظمون فرعون ويقولون ما قاله صاحب الفصوص . قال : ولما كان فرعون في منصب التحكم صاحب الوقت وإن جاز في العرف الناموس لذلك قال : (أنا ربكم الاعلى) أى وإن كان الكل أرباباً بنسبة ما فأننا الاعلى منهم بما أعطيته في الظاهر من الحكم فيكم . قال : ولما علمت السحرة صدق فرعون فيما قاله لم ينكروه وأقروا له بذلك وقالوا له : اقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا . قال : فصح قول فرعون أنا ربكم الاعلى وإن كان فرعون عين الحق .

وحدثني الثقة الذي كان منهم ثم رجع عنهم : أن أبغض الناس إليهم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم . قال : وإذا نهق الحمار ، ونبح الكلب ، سجدوا له وقالوا هذا هو الله ، فانه مظهر من المظاهر . قال : فقلت له : محمد ابن عبد الله أيضاً مظهر من المظاهر فاجعلوه كسائر المظاهر ، وأنتم تعظمون المظاهر كلها أو اسكتوا عنه . قال : فقالوا لى محمد نبغضه فانه أظهر الفرق ودعا إليه وعاقب من لم يقل به . قال : فتناقضوا في مذهبهم الباطل وجعلوا

الكلب والحمار ، أفضل من أفضل الخلق . قال لى : وهم يصرحون بالعنة له ولغيره من الانبياء ولا ريب أنهم من أعظم الناس عبادة للشيطان وكفراً بالرحمن .

وقد ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا سمعتم صباح الديكة فسلوا الله من فضله فانها رأت ملكا وإذا سمعتم نهيق الحمار ونباح الكلب فتعودوا بالله من الشيطان فانها رأت شيطانا » ، فهم إذا سمعوا نهيق الحمار ونباح الكلب تكون الشياطين قد حضرت ، فيكون سجودهم للشياطين .

وكان فيهم شيخ جليل من أعظمهم تحقيقاً ، لكن هذا لم يكن من هؤلاء الذين يسبون الانبياء وقد صنف كتاباً باسماء فك الازرار عن أغناق الاسرار . ذكر فيه مخاطبة جرت له مع إبليس وأنه قال له ما معناه : إنكم قد غلبتموني وقهرتموني ونحو هذا ، لكن جرت لى قصة تعجبت منها مع شيخ منكم فإني تجليت له . فقلت : أنا الله لا إله إلا أنا فسجد لى ، فتعجبت كيف سجد لى قال هذا الشيخ فقلت له : ذاك أفضلنا وأعلنا وأنت لم تعرف قصده ، ما رأى فى الوجود اثنين ، وما رأى إلا واحداً فسجد لذلك الواحد لا يميز بين إبليس وغيره ، فجعل هذا الشيخ ذاك الذى سجد لإبليس لا يميز بين الرب وغيره ، بل جعل لإبليس هو الله هو وغيره من الموجودات جعله أفضلهم وأعلمهم .

ولهذا عاب ابن عربى نوحاً أول رسول بعث إلى أهل الأرض ، وهو الذى جعل الله ذريته هم الباقين ، وأنجاه ومن معه فى السفينة وأهلك سائر

أهل الأرض لما كذبوه فلبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وعظم قومه الكفار الذين عبدوا الأصنام ، وأنهم ماعبدوا إلا الله وأن خطاياهم خطت بهم ففرقوا في بحار العلم بالله ، وهذا عادته ينتقص الأنبياء ويمدح الكفار كما ذكر مثل ذلك في قصة نوح وإبراهيم وموسى وهرون وغيرهم ، ومدح عباد العجل وتنقص هرون وافترى على موسى فقال : وكان موسى أعلم بالامر من هرون لأنه علم ماعبده أصحاب العجل ، لعله بأن الله قد قضى أن لا يعبد إلا إياه وما قضى الله بشيء إلا وقع ، فكان عتب موسى أخاه هرون لما وقع الامر في إنكاره وعدم اتساعه ، فإن العارف من يرى الحق في كل شيء ، بل يراه عين كل شيء ، فذكر عن موسى أنه عتب على هرون أنه أنكر عليهم عبادة العجل ، وأنه لم يسع ذلك فلم ينكره ، فإن العارف من يرى الحق في كل شيء بل يراه عين كل شيء .

وهذا من أعظم الافتراء على موسى وهرون وعلى الله وعلى عباد العجل فإن الله أخبر عن موسى أنه أنكر العجل إنكاراً أعظم من إنكار هرون ، وأنه أخذ بلحية هرون لما لم يدعهم ويتبع موسى لمعرفة قال تعالى : (وما أعجلك عن قومك يا موسى قال هم أولاء على أثرى وعجلت إليك رب لترضى قال فانا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يجل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكننا حملنا أوزاراً من زينة القوم فقدفناها فكذلك ألقى السامري فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى أفلا يرون أن لا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً ولقد قال لهم هرون من

قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمرى قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى قال ياهارون مامنك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن أفصيت أمرى قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى لئى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى) .

قلت لبعض هؤلاء : هذا الكلام الذى ذكره هذا عن موسى وهارون يوافق القرآن أو يخالفه . فقال : لا بل يخالفه . قلت : فاختر لنفسك أما القرآن ولما كلام ابن عربى وكذلك قال عن نوح . قال : لو أن نوحاً جمع لقومه بين الدعوتين لأجابوه أى ذكر لهم فدعاهم جهاراً ثم دعاهم اسراراً إلى أن قال : ولما علموا أن الدعوة إلى الله مكر بالمدعو لأنه ماعدى من البداية ، فیدعى إلى الغاية ادعوا إلى الله ، فهذا عين المسكر على بصيرة فنبه أن الأمر كله لله ، فأجابوه مكرراً كما دعاهم . فجاء المحمدى وعلم أن الدعوة إلى الله ما هى من حيث هويته ، وإنما هى من حيث أسماؤه فقال : (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً) فجاء بحرف الغاية وقرنها بالاسم ، فعرفنا أن العالم كان تحت حيلة اسم إلهى أوجب عليهم أن يكونوا متقين . فقالوا فى مكرهم : (لا تذرنا آلهتكم ولا تذرنا ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا) فانهم إذا تركوهم جهلوا من الحق بقدر ما تركوا من هؤلاء ، فإن للحق فى كل معبود وجهها يعرفه من يعرفه ، ويجهله من يجهله ، كما قال فى المحمديين : (وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً) أى حكم فالعارف يعرف من عبد وفى أى صورة ظهر حتى عبد ، وإن التفريق والكثرة كالأعضاء فى الصورة المحسوسة وكالقوى المعنوية فى الصورة الروحانية ، فما عبد غير الله فى كل معبود .

وهو دائماً يحرف القرآن عن مواضعه كما قال في هذه القصة : (بما خطاياهم)
 فهي التي خطت بهم ، ففرقوا في بحار العلم بالله وهي الحيرة ، فادخلوا ناراً
 في عين الماء في المحمدين : (وإذا البحار سجرت) سجرت التور : أوقدته
 فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً ، فكان الله عين أنصارهم فأنكروا فيه إلى
 الأبد . وقوله : (وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه) بمعنى أمر وأوجب
 وفرض ، وفي القراءة الأخرى : (ووصى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه) فجعل
 معناه أنه قدر وشاء أن لا تعبدوا إلا إياه وما قدره فهو كائن ، فجعل
 معناها كل معبود هو الله وأن أحداً ما عبد غير الله قط ، وهذا من أظهر
 القرينة على الله وعلى كتابه وعلى دينه وعلى أهل الأرض ، فان الله في غير
 موضع أخبر أن المشركين عبدوا غير الله ، بل يعبدون الشيطان كما قال
 تعالى : (ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين
 وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تذكروا
 تعقلون) وقال تعالى عن يوسف أنه قال : (يا صاحبي السجن أأرباب
 متفرقون خير أم الله الواحد القهار ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها
 أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر أن لا تعبدوا
 إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) وقال تعالى :
 (وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا
 يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون ان هؤلاء متبر ما هم
 فيه وباطل ما كانوا يعملون قال أغير الله أبنيسكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين)
 وقال تعالى عن الخليل : (إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر
 ولا يغني عنك شيئاً يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك

صراطاً سوياً يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً يا أبت
إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً قال أراغب أنت
عن آلهتي يا إبراهيم إئن لم تفتنه لأرجنك واهجرني ملياً قال سلام عليك
سأستغفر لك ربى إنه كان نبياً وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو
ربى عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقيماً فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله
وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلاً جعلنا نبياً ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم
لسان صدق علياً .

فهو سبحانه يقول : (فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله) وهؤلاء
الملحدون يقولون : ما عبدنا غير الله فى كل معبود .

وقال تعالى : (واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلًا جسدًا له خوار
ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً) اتخذوه وكانوا ظالمين ولما سقط فى
أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا : (إئن لم يرجعنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من
الخاسرين — إلى قوله — إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم
وذلة فى الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين) .

قال أبو قلابة : هى لكل مفتر إلى يوم القيامة أن يذله الله .

والجهمية النفاة كلهم مفترون كما قال الامام أحمد بن حنبل : إنما يقودون
قولهم إلى فرية على الله وهؤلاء من أعظمهم افتراء على الله ، فان القائلين بأن
وجود الخالق هو وجود المخلوق هم أعظم افتراء ممن يقول : أنه يحل فيه
وهؤلاء يجهلون من يقول بالحلول ، أو يقول بالاتحاد ، وهو أن الخالق اتحد

مع المخلوق، فان هذا إنما يكون إذا كان شيان متباينان ثم اتحد أحدهما بالآخر كما يقوله النصارى من اتحاد اللاهوت مع الناسوت ، وهذا إنما يقال فى شيء معين، وهؤلاء عندهم ما ثم وجود لغيره حتى يتحد مع وجوده ، وهم من أعظم الناس تناقضاً فانهم يقولون : ما ثم غير ولا سوى . ويقول : السبعينية ليس إلا الله بدل قول المسلمين لا إله إلا الله ثم يقولون : هؤلاء المحجوبون لا يرون هذا فاذا كان ما ثم غير ولا سوى ، فمن المحجوب ومن الحاجب ، ومن الذى ليس بمحجوب وعما حجب ، فقد أثبتوا أربعة أشياء : قوم محجوبون ، وقوم ليسوا بمحجوبين ، وأمرأ انكشف هؤلاء ، وحجب عن أولئك ، فأين هذا من قولهم : ما ثم اثنان ولا وجودان ، كما حدثنى الثقة أنه قال للتلمسانى : فعلى قولكم لا فرق بين امرأة الرجل وأمه وبنته . قال : نعم الجميع عندنا سواء ، لكن هؤلاء المحجوبون قالوا احرام فقلنا حرام عليكم ، فقليل لهم فن الخطاب للمحجوبين أهرهم أم غيرهم ، فان كانوا هم فقد حرم على نفسه لما زعم أنه حرام عليهم دونه ، وإن كانوا غيره فقد أثبت غيرين ، وعندهم ما ثم غير وهؤلاء اشتبه عليهم الواحد بالنوع بالواحد بالعين . فانه يقال : الوجود واحد كما يقال : الانسانية واحدة ، والحيوانية واحدة . أى يعنى واحد كلى ، وهذا الكلى لا يكون كلياً الا فى الذهن لا فى الخارج ، فظنوا هذا الكلى ثابتاً فى الخارج ثم ظنوه هو الله .

وليس فى الخارج كل مع كونه كلياً ، وإنما يكون كلياً فى الذهن ، وإذا قدر فى الخارج كل ، فهو جزء من المعينات وقائم بها ليس هو متميزاً قائماً بنفسه ، فخيرانية الحيوان وانسانية الإنسان سواء قدرت معينة أو مطلقة ، هى حصة له ويمتنع أن يكون صفة الموصوف مبدعة له ، ولو قدر وجودها مجرداً

عن العيان على رأى من أثبت المثل الافلاطونية ، فتثبت الماهيات الكلية مجردة عن الموصوفات ويدعى أنها قديمة أزلية ، مثل انسانية مجردة وحيوانية مجردة ، وهذا خيال باطل ، وهذا الذى جعله مجردا هو مجرد فى الذهن وليس فى الخارج كلى مجرد ، واذا قدر ثبوت كلى مجرد فى الخارج وهو مسمى الوجود فهذا يتناول وجود المحدثات كلها كما يتناول وجود القديم ، وهذا لا يكون مبدعا لشيء ولا اختصاص له بصفات الكمال ، فلا يوصف بأنه حى عليم قدير ، إذ ليس وصفه بذلك بأولى من وصفه بأنه عاجز جاهل ميت ، والخالق لا بد أن يكون حيا علما قديرا سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً ، ثم لو قدر أن هذا هو الخالق فهذا غير الاعيان الموجودة المخلوقة ، فقد ثبت وجودان أحدهما غير الآخر ، وأحدهما محدث مخلوق ، فيكون الآخر الخالق غير المخلوق ، ولا يمكن جحد وجود الاعيان المعينة ، ولكن الواحد من هؤلاء قد تغيب عن شهود المغيبات كما يغيب عن شهود نفسه ، فيظن أن ما لم يشهده قد عدم فى نفسه وفى وليس كذلك ، فان ما عدم وفى شهوده له وعليه به ونظره اليه ، فالمدوم الثانى صفة هذا الشخص ، وإلا فالموجودات فى نفسها باقية على حالها لم تتغير ، وعدم العلم ليس علما بالمدوم ، وعدم المشهود ليس شهودا لعدم ، ولكن هذه الحال يعترى كثيرا من السالكين يغيب أحدهم عن شهود نفسه وغيره من المخلوقات ، وقد يسمون هذا فناء واصطلاما ، وهذا فناء عن شهود تلك المخلوقات لا أنها فى نفسها فنية ، ومن قال : فى ما لم يكن وبقي ما لم يزل ، فالتحقيق إذا كان صادقا أنه فى شهوده لما لم يكن وفى شهوده لما لم يزل لا إن ما لم يكن فى فى نفسه فانه باق موجود ، ولكن يتوهمون إذا لم يشهده أنه قد عدم فى نفسه .

ومن هنا دخلت طائفة في الاتحاد والحلول ، فأحدهم قد يذكر الله حتى يغلب على قلبه ذكر الله ويستغرق في ذلك ، فلا يبقى له مذكور مشهود لقلبه إلا الله ويفنى ذكره وشهوده لما سواه ، فيتوهم أن الأشياء قد فنيت وأن نفسه فنيت ، حتى يتوهم أنه هو الله وأن الوجود هو الله .

ومن هذا الباب غلط أبي يزيد ونحوه حيث قال : ما في الجبة إلا الله ، وقد بسط هذا في غير هذا الموضع ، وبين أنه يعبر بالفناء عن ثلاثة أمور أحدها : أنه يغنى بعبادة الله عن عبادة ما سواه ، وبمحبة وطاعته وخشيته ورجائه والتوكل عليه عن محبة ما سواه ، وطاعته وخشيته ورجائه والتوكل عليه . وهذا هو حقيقة التوحيد الذي بعث الله به الرسل وأنزل به الكتب . وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله فقد فنى من قلبه التأله لغير الله ، وبقي في قلبه تأله الله وحده ، وفنى من قلبه حب غير الله وخشية غير الله والتوكل على غير الله ، وبقي في قلبه حب الله وخشية الله والتوكل على الله ، وهذا الفناء يحامع البقاء فيخلو القلب عن عبادة غير الله مع تجلى القلب بعبادة الله وحده كما قال صلى الله عليه وسلم لرجل : « قل أسلمت لله وتخليت ، وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله بالنفى مع الاثبات ، نفي إلهية غيره مع إثبات إلهيته وحده ، فانه ليس في الوجود إله إلا الله ليس فيه معبود يستحق العبادة إلا الله فيجب أن يكون هذا ثابتا في القلب ، فلا يكون في القلب من يأله القلب ويعبده إلا الله وحده ، ويخرج من القلب كل تأله لغير الله ، ويثبت فيه تأله الله وحده . إذ كان ، ليس ثم إله إلا الله وحده ، وهذه الولاية لله مقرونة بالبراءة والعداوة لكل معبود سواه ولمن عبدهم قال تعالى عن الخليل عليه السلام : (وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه انني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني فانه سيهدين) وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون .

وقال : (أفأرى ما كنتم تعبدون أنتم وأباؤكم إلا قدمون فانهم عدو لى
إلا رب العالمين) .

وقال تعالى : (قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ
قالوا لقومهم إنا برآء منكم وبما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا
وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده) .

قلت لبعض ما خاطبته من شيوخ هؤلاء : قول الخليل اننى براء بما تعبدون
عن تبرأ الخليل . أتبرأ من الله تعالى وعندكم ما عبد غير الله قط ، والخليل
قد تبرأ من كل ما كانوا يعبدون إلا من رب العالمين ، وقد جعل الله لنا
أوفى من معه أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر قال تعالى : (قد كانت
لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم وبما تعبدون
من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا
بإله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لا أستغفرن لك وما أملك لك من الله
من شيء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ربنا لا تجعلنا فتنة للذين
كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم لقد كان لكم فىهم أسوة
حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد)
وقد قال صلى الله عليه وسلم : « أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد : ألا كل
شيء ما خلا الله باطل » وهذا تصديق قوله تعالى : (ذلك بأن الله هو الحق
وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير) وقال تعالى :
(فذلكم الله بكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون) وقال سبحانه :
(كل شيء هالك إلا وجهه) قال طائفة من السلف : كل عمل باطل إلا ما أريد

به وجهه . وقد قال سبحانه : (ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت اليك وادع إلى ربك ولا تكون من المشركين ولا تدع مع الله إلهاً آخر) والإله هو المألوه ، أى المستحق أن يؤله أى يعبد ، ولا يستحق أن يؤله ويعبد إلا الله وحده ، وكل معبود سواه من لدن عرشه إلى قرار أرضه باطل ، وفعال بمعنى مفعول ، مثل لفظ الركاب والحال بمعنى المركوب والمحمول ، وكان الصحابة يرتجزون في حفر الخندق يقولون :

هذا الحال لا حال خبير هذا أبر ربنا وأظهر

ولإذا قيل : هذا هو الإمام ، فهو الذى يستحق أن يؤتم به كما قال تعالى لإبراهيم : (انى جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدي الظالمين) فعنده بالإمامة لا ينال الظالم ، فالظالم لا يجوز أن يؤتم به فى ظله ولا يركن إليه كما قال تعالى : (ولا تركبوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار) فنأتم بمن لا يصلح للإمامة فقد ظلم نفسه ، فكيف بمن جعل مع الله إلهاً آخر وعبد من لا يصلح للعبادة ، والله تعالى لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء (وقد غلط) طائفة من أهل الكلام فظنوا أن الإله بمعنى الفاعل ، وجعلوا الإلهية هى القدرة والربوبية ، فالإله هو القادر وهو الرب ، وجعلوا العباد مألوهين كما أنهم مربوبيون . فالذين يقولون بوحدة الوجود متازعون فى أمور ، لكن إمامهم ابن عربى يقول : الأعيان ثابتة فى العدم ووجود الحق فاض عليها ، فلهذا قال : فنحن جعلناه بمألوهيتنا إلهاً ، فزعم أن المخلوقات جعلت الرب إلهاً لها حيث كانوا مألوهين ، ومعنى مألوهين عنده مربوبين ، وكونهم مألوهين حيث كانت أعيانهم ثابتة فى العدم ،

وفي كلامهم من هذا وأمثاله مما فيه تنقص بالربوبية ما لا يحصى فتعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

والتحقيق أن الله خالق كل شيء والمعدوم ليس بشيء في الخارج، ولكن الله يعلم ما يكون قبل أن يكون ويكتبه ، وقد يذكره ويجريه فيكون سبباً في العلم والذكر والكتاب لافي الخارج كما قال : (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) والله سبحانه خالق الإنسان ومعه فطر الذي خلق : (خلق الإنسان من علق) وهو الأكرم : (الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) ولو قدر أن الإله بمعنى الرب ، فهو الذي جعل الرب مربوباً ، فيكون على هذا هو الذي جعل المألوه مألوها ، والمربوب لم يجعله رباً بل ربوبيته صفة ، وهو الذي خلق الربوب وجعله مربوباً ، وهو إذا آمن بالرب واعتقد ربوبيته وأخبر بها ، كان قد اتخذ الله رباً ولم ينبغ رباً سوى الله ولم يتخذ رباً سواء كما قال تعالى : (قل أغير الله أبني رباً وهو رب كل شيء) وقال تعالى : (أفغير الله أتخذ ولياً فاطر السموات والأرض) وقال : (ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيا أمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون) وهو أيضاً في نفسه هو الإله الحق لا إله غيره ، فإذا عبده الإنسان فقد وحده من لم يجعل معه إلهاً آخر ولا اتخذ إلهاً غيره قال تعالى : (فلا تجعل مع الله إلهاً آخر فتكون مع المعبدين) وقال تعالى : (ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً) وقال إبراهيم لآبيه آزر : (أتتخذ أصناماً آلهة إنى أراك وقومك في ضلال مبين) فالمحجوب ليس بإله في نفسه لكن عابده اتخذته إلهاً وجعله إلهاً وسماء إلهاً ، وذلك كله باطل لا ينفع صاحبه ، بل يضره كما أن الجاهل إذا اتخذ إماماً ومفتياً وقاضياً كان ذلك باطلاً ، فانه لا يصلح أن

يؤم ولا يفتى ولا يقضى ، وغير الله لا يصلح أن يتخذ إلها يعبد ويدعى ، فإنه لا يخلق ولا يرزق ، وهو سبحانه لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع ، ولا ينفع ذا الجد منه الجد ، ومن دعا من لا يسمع دعاءه أو يسمع ولا يستجيب له فدعاؤه باطل وضلال ، وكل من سوى الله إما أنه لا يسمع دعاء الداعى أو يسمع ولكن لا يستجيب له ، فإن غير الله لا يستقل بفعل شيء البتة وقد قال تعالى : (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) فغير الله لا مال لك لشيء ولا شريك في شيء ولا هو معاون للرب في شيء ، بل قد يكون له شفاععة إذ كان من الملائكة والأنبياء والصالحين ، ولكن لا تنفع الشفاععة عنده إلا لمن أذن له ، فلا بد أن يأذن للشافع أن يشفع ، وأن يأذن للشفوع له أن يشفع له ، ومن دونه لا يملكون الشفاععة البتة ، فلا يصلح من سواه أن يكون إلها معبوداً ، كما لا يصلح أن يكون خالقاً رازقاً ، لا إله إلا هو وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

(فصل) وهؤلاء كان من أعظم أسباب ضلالهم : مشاركتهم للفلاسفة وتلقيهم عنهم ، فإن أولئك القوم من أبعد الناس عن الاستدلال بما جاء به الرسول ، فإن الرسول بعث بالبينات والهدى بين الأدلة العقلية ، ويخبر الناس بالغيب الذى لا يمكنهم معرفته بعقولهم ، وهؤلاء المتفلسفة يقولون : أنه لم يفد الناس علماً بخبره ولا بدالاته ، وإنما خاطب خطاباً جمهورياً ليصلح به العامة فيعتقدوا فى الرب والمعاد اعتقاداً ينفعهم ، وإن كان كذباً وباطلاً ، وحقبة كلامهم أن الأنبياء تكذب فيما يخبر به لكن كذباً للمصلحة ، فامتنع

أن يطلبوا من خبرهم علما ، وإذا لم تكن أخبارهم مطابقة للخبر فكيف يشبتون أدلة عقلية على ثبوت ما أخبروا به . والمتكلمون الذين يقولون أنهم لا يخبرون إلا بصدق ، ولكن يسلكون في العقلية غير طريقهم ، مبتدعون مع أفرارهم بأن القرآن اشتمل على الأدلة العقلية ، فكيف هؤلاء الملاحدة المغترين ، ولهذا لا يعتنون بالقرآن ولا تفسيره ، ولا بالحديث وكلام السلف وإن تعلموا من ذلك شيئا فلاجل تعلق الجمهور به ليعيشوا بينهم بذكره لا لاعتقادهم موجه في الباطن ، وهذا بخلاف طوائف المتكلمين ، فإنهم يعظمون القرآن في الجملة وتفسيره مع ما فهم من البدع . ولهذا لما استولى التتار على بغداد ، وكان الطوسي منجما لهولا كواستولى على كتب الناس الوقف والملك ، فكان كتب الإسلام مثل التفسير والحديث والفقه والرقائق يعدمها ، وأخذ كتب الطب والنجوم والفلسفة والعربية ، فهذه عنده هي الكتب المعظمة ، وكان بعض من أعرفه قارئاً خطيباً لكن كان يعظم هؤلاء ويرتاض رياضة فلسفية سخرية حتى يستخدم الجن ، وكان بعض الشياطين ألقى إليه أن هؤلاء يستولون على دار الإسلام ، فكان يقول لبعض أصحابنا : يا فلان عن قليل يرى هذا الجامع جامع دمشق يقرأ فيه المنطق والطبيعي والرياضي والإلهي ثم يرضيه فيقول : والعربية أيضاً ، والعربية إنما احتاج المسلمون إليها لأجل خطاب الرسول بها ، فإذا أعرض عن الأصل كان أهل العربية بمنزلة شعراء الجاهلية أصحاب المعلمات السبع ونحوهم من حطب النار .

(فصل) أول التفرق والابتداع في الإسلام بعد مقتل سيدنا عثمان واقتراق المسلمين ، فلما اتفق علي ومعاوية على التحكيم أنكرت الخوارج

وقالوا : لاحكم إلا الله وفارقوا جماعة المسلمين ، فأرسل إليهم ابن عباس فناظرهم فرجع نصفهم ، والآخرون أغاروا على ماشية الناس واستحلوا دماءهم فقتلوا ابن خباب . وقالوا : كلنا قتله . فقاتلهم على وأصل مذهبهم تعظيم القرآن وطلب اتباعه لكن خرجوا عن السنة والجماعة ، فهم لا يرون اتباع السنة التي يظنون أنها تخالف القرآن ، كالرجم ونصاب السرقة وغير ذلك فضلوا فإن الرسول : أعلم بما أنزل الله عليه ، والله قد أنزل عليه الكتاب والحكمة ، وجوزوا على النبي أن يكون ظالماً ، فلم ينفذوا لحكم النبي ولا لحكم الأئمة بعده ، بل قالوا ان عثمان وعلياً ومن والاهما قد حكموا بغير ما أنزل الله ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ، فكفروا المسلمين بهذا وبغيره ، وتكفيرهم وتكفير سائر أهل البدع مبني على مقدمتين باطلتين . احدهما : أن هذا يخالف القرآن ، والثانية : أن من خالف القرآن يكفر ولو كان مخطئاً أو مذهباً معتقداً للوجوب والتحريم .

وبازاتهم الشيعة غلوا في الأئمة وجعلوهم معصومين يعلمون كل شيء ، وأوجبوا الرجوع إليهم في جميع ما جاءت به الرسل ، فلا يرجعون إلا على القرآن ولا على السنة ، بل على قول من ظنوه معصوماً ، وانتهى الأمر إلى الاتهام بإمام معدوم لاحقيقة له فكانوا أضل من الخوارج ، فإن أولئك يرجعون إلى القرآن وهو حق وإن غلطوا فيه ، وهؤلاء لا يرجعون إلى شيء بل إلى معدوم لاحقيقة له ، ثم انما يتمسكون بما ينقل لهم عن بعض الموتى ، فيتمسكون بنقل غير مصدق عن قائل غير معصوم ، ولهذا كانوا أكذب الطوائف ، والخوارج صادقون لحديثهم من أصلح الحديث ، وحديث الشيعة من أكذب الحديث ، ولكن الخوارج دينهم المعظم مفارقة جماعة المسلمين

واستحلال دمايهم وأموالهم ، والشيعية تختار هذا لكنهم عاجزون ، والزيدية تفعل هذا ، والإمامية تارة تفعله وتارة يقولون لا تقتل إلا تحت راية امام معصوم ، والشيعية استنبعوا أعداء الملة من الملاحدة والباطنية وغيرهم ، ولهذا وصت الملاحدة مثل القرامطة الذين كانوا في البحرين وهم من أكفر الخلق ومثل قرامطة المغرب ومصر ، وهم كانوا يسترون بالتشيع ، أو صواباً بأن يدخل على المسلمين من باب التشيع ، فانهم يفتحون الباب لكل عدو للإسلام من المشركين وأهل الكتاب والمنافقين ، وهم من أبعد الناس عن القرآن والحديث كما قد بسط هذا في مواضع .

والمقصود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « انى تارك فيكم الثقلين كتاب الله ، لحض على كتاب الله ثم قال : « وعترتى أهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى ثلاثاً ، فوصى المسلمين بهم لم يجعلهم أئمة يرجع المسلمون اليهم ، فاحتطت الخوارج كتاب الله وانتحلت الشيعة أهل البيت ، وكلاهما غير متبع لما انتحله ، فان الخوارج خالفوا السنة التى أمر القرآن باتباعها وكفروا المؤمنين الذين أمر القرآن بموالاتهم ، ولهذا تأول سعد بن أبى وقاص فيهم هذه الآية : (وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض) وصاروا يتبعون المشابهة من القرآن ، فيتأولونه غير تأويله من غير معرفة منهم بمعناه ، ولا رسوخ فى العلم ، ولا اتباع للسنة ، ولا مراجعة لجماعة المسلمين الذين يفهمون القرآن ، وأما مخالفة الشيعة لأهل البيت فكثيرة جداً قد بسطت فى مواضع .

﴿ فصل ﴾ ثم حدث في آخر عصر الصحابة القدرية ، فكانت الخوارج تتكلم في حكم الله الشرعى ، أمره ونهيه وما يتبع ذلك من وعده ووعيده ، وحكم من وافق ذلك ومن خالفه ومن يكون مؤمناً وكافراً ، وهى مسائل الاسماء والاحكام ، وسموا محكمة لخوضهم في التحكيم بالباطل ، وكان الرجل إذا قال لاحكم إلا الله . قالوا : هو محكم : أى خائض في حكم الله ، نخاض أولئك في شرع الله بالباطل ، وأما القدرية : نخاضوا في قدره بالباطل ، وأصل ضلالهم ظنهم أن القدر يناقض الشرع ، فصاروا حزبين : حزباً يعظمون الشرع والأمر والنهى والوعد والوعيد واتباع ما يحبه الله ويرضاه ، وهجر ما يبغضه وما يسخطه ، وظنوا أن هذا لا يمكن أن يجمع بينه وبين القدر ، فقطعوا ما أمر الله به أن يوصل ، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه كما قطعت الخوارج ما أمر الله به أن يوصل من اتفاق الكتاب والسنة وأهل الجماعة ، ففرقوا بين الكتاب والسنة ، وفرقوا بين الكتاب وجماعة المسلمين ، وفرقوا بين المسلمين ، فقطعوا ما أمر الله به أن يوصل ، وكذلك القدرية . فصاروا حزبين : حزباً يغلب الشرع فيكذب بالقدر وينفيه أو ينفى بعضه ، وحزباً يغلب القدر فينفي الشرع فى الباطن أو ينفى حقيقته ويقول : لافرق بين ما أمر الله به وما نهى عنه فى نفس الأمر الجميع سواء ، وكذلك أولياؤه وأعداؤه وكذلك ما ذكر أنه يحبه وذكر أنه يبغضه ، لكنه فرق بين المتماثلين ببعض المشيئة يأمر بهذا وينهى عن مثله ، فجحدوا الفرق والفصل الذى بين التوحيد والشرك ، وبين الإيمان والكفر ، وبين الطاعة والمعصية ، وبين الحلال والحرام كما أن أولئك وإن أفرقوا بالفرق فأنكروا الجمع ، وأنكروا أن يكون الله على كل شيء قدير ، ومنهم من أنكر أن يكون الله بكل شيء علماً ، وأنكروا

أن يكون خالقاً لكل شيء ، وأن يكون ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنكروا أن يكون الله فعالاً لما يشاء ، وأثبتوا لغير الله الانفراد بالاحداث وشركاء ، خلقوا كخلقهم كما فعلت المجوس ، واعتقدوا أنه لا يمكن الإيمان بأمره ونهيه إلا مع تمجيذه أو تهميله ، وأنه لا يمكن أن يوصف بالاحسان والكرم إن لم يجعل عاجزاً وإلا لزم أن يكون بخيلاً ، كما أن القدرية المجبرة قالوا : لا يمكن أن يجعل عالماً قادراً إلا بتسفه وتجويره ، هؤلاء نفوا حكمته وعدله ، وأولئك نفوا قدرته ومشيته أو قدرته ومشيته وعله ، وهؤلاء ضاهوا المجوس في الإشراك بربوبيته حيث جعلوا غيره خالقاً ، وأولئك ضاهوا المشركين الذين لا يفرقون بين عبادته وعبادة غيره ، بل يجوزون عبادة غيره كما يجوزون عبادته ، ويقولون : (لو شاء الله ما أشركنا الآية) وهؤلاء منتهى توحيدهم ؛ توحيد المشركين وهو توحيد الربوبية ، فأما توحيد الإلهية المتضمن للأمر والنهي ، ولكون الله يحب ما أمر به ، ويبغض ما نهى عنه فهم ينكرونه ، ولهذا هم أكثر اتباعاً لاهوائهم ، وأكثر شركاً وتجويزاً من المعتزلة ، ومنتهى متكلميهم وعبادهم تجويز عبادة الأصنام ، وأن العارف لا يستحسن حسنة الأصنام فباح بها متأخروهم كالرازي صنف فيها مصنفاً وابن عربي وابن سبعين وأمثالها ، يصرحون بجواز عبادتها وبالإنكار على من أنكر ذلك ، وهم متافضون في ذلك ، فالقدرية أصلهم أنه لا يمكن إثبات قدرته وحكمته إذ لو كان قادراً لفعل عين ما فعل ، فلما لم يفعله دل على أنه غير قادر . وقالوا : يثبت حكمته كما يثبت حكمه لأن نفي ذلك يوجب السفه والظلم وهو منزه عنه بخلاف ما لم يقدر عليه ، فإنه معذور إذا لم يفعله فلا يلام عليه . وقال المجبرة :

بل قدرته ثابتة بلا حكمة ، ولا يجوز أن يفعل لحكمة لأن ذلك إنما يكون لمن يحتاج إلى الفعل وهو منزّه عن الحاجة ولا عدل ولا ظلم ، بل كل ما أمكن فعله فهو عدل ، وليس في الأفعال ما هو حسن ينبغي الأمر به ، وقبيح ينبغي النهي عنه ، ولا معروف ومنكر ، بل يجوز أن يأمر بكل شيء وينهى عن كل شيء .

ثم من حقق منهم أنكر الشرع بالسكينة ، وأنكر النبوات مع أنه مضطر إلى أن يأمر بشيء وينهى عن شيء ، فإن هذا لازم لجميع الخلق لا يحدون عنه محيصاً ، لكن من اتبع الأنبياء يأمر بما ينفعه وينفع غيره ، وينهى عما يضره ويضر غيره ، ومن خالف الأنبياء فلا بد أن يأمر بما يضر وينهى عما ينفع ، فيستحق عذاب الدنيا والآخرة ، وأما من كان منهم مقراً بالنبوة ، فأنكر الشرع في الباطن ، وقال العارف : لا يستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة ، فصار منافقاً يظهر خلاف ما يبطن ويقول : الشرع لأجل المارستان ، ولهذا يسمون باطنية كما سموا الملاحدة باطنية ، فإن كلاهما يبطن خلاف ما يظهر يبطون تعطيل ما جاء به الرسول من الأمر والنهي .

فتمت الجهمية المجبرة اما مشركون ظاهراً وباطناً ، ولما منافقون فيبطنون الشرك ، ولهذا يظنون بالله ظن السوء ، وأنه لا ينصر محمداً وأتباعه كما قال تعالى : (ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً) وهم يعقلون بقوله : (لا يسأل عما يفعل) وبأنه يفعل ما يشاء ، ولذلك لما ظهر المشركون التتار وأهل الكتاب ، كثر في عبادهم وعلماهم

من صار مع المشركين وأهل الكتاب ، وارتد عن الاسلام اما باطناً وظاهراً
واما باطناً . وقال : انه مع الحقيقة ومع المشيئة الإلهية ، وصاروا يحتجون
لأن هو معظم للرسل عما يوافق على تكذيبه بأن ما يفعله من الشرك والخروج
عن الشريعة . موالاة المشركين وأهل الكتاب والدخول في دينهم ومجاهدة
المسلمين معهم هو بأمر الرسول ، فتارة يأتهم شياطينهم بما يخيّلون لهم أنه
مكتوب من نور ، وأن الرسول أمر بقتال المسلمين مع الكفار لكون المسلمين
قد عصوا ، ولما ظهر أن مع المشركين وأهل الكتاب خفراً لهم من الرجال
المسلمين برجال الغيب ، وأن لهم خوارق يقتضى أنهم أولياء الله ، صار الناس من
أهل العلم ثلاثة أحزاب . حزب : يكذبون بوجود هؤلاء ولكن عاينهم الناس
وثبت ذلك عن عاينهم أو حدّثه الثقة بما رأوه هؤلاء إذ رأوهم أو تيقنوا
وجودهم خضعوا لهم . وحزب : عرفوهم ورجعوا الى القدر واعتقدوا أن
ثم في الباطن طريقاً الى الله غير طريقة الانبياء . وحزب : ما أمكنهم أن يجعلوا
أولياء الله خارجاً عن دائرة الرسول . فقالوا : يكون الرسول هو بمدلطائفتين
لهؤلاء وهؤلاء ، فهؤلاء معظمون للرسول جاهلون بدينه وشرعه ، والذين
قبلهم يجوزون لاتباع دين غير دينه ، وطريق غير طريقه .

وكانت هذه الأقوال الثلاثة بدمشق لما فتحت عكة ، ثم تبين بعد ذلك
أن هؤلاء من أتباع الشياطين ، وأن رجال الغيب هم الجن وأن الذين مع
الكفار شياطين ، وأن من وافقهم من الانس فهو من جنسهم شيطان من
شياطين الانس أعداء الانبياء كما قال تعالى : (وكذلك جعلنا لكل نبي
عدواً شياطين الانس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً) .
(١١ - مجموعة الرسائل)

وكان سبب الضلال عدم الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، وأصله قول الجهمية الذين يسمعون بين المخلوقات فلا يفرقون بين المحبوب والمسخوط ، ثم أنه بعد ذلك جرت أمور يطول وصفها .

ولما جاء قازان وقد أسلم دمشق انكشفت أمور أخرى ، فظهر أن اليونانية كانوا قد ارتدوا وصاروا كفاراً مع الكفار .

وحضر عندي بعض شيوخهم واعترف بالردة عن الاسلام وحدثني بفصول كثيرة . فقلت له : لما ذكر لي احتجاجهم بما جاءهم من أمر الرسول فهب أن المسلمين كأهل بغداد كانوا قد عصوا ، وكان في بغداد بضعة عشر بنى فالجيش الكفار المشركون الذين جاءوا ، كانوا شرأ من هؤلاء فان هؤلاء كن يزنين اختياراً ، فأخذ أولئك المشركون عشرات ألوف من حرائر المسلمين وسرايرهم بغير اختيارهم وردوهم عن الاسلام الى الكفر ، وأظهروا الشرك وعبادة الأصنام ودين النصارى وتعظيم الصليب حتى بقى المسلمون مقهورين مع المشركين وأهل الكتاب مع تضايف ما كان يفعل من المعاصى ، فهل يأمر محمد صلى الله عليه وسلم بهذا ويرضى بهذا فتبين له وقال : لا والله . وأخبرني عن ردة من ارتد من الشيوخ عن الاسلام لما كانت شياطين المشركين تكرهمهم على الردة في الباطن وتعذبهم إن لم يرتدوا .

فقلت : كان هذا لضعف إيمانهم وتوحيدهم والمادة التي يشهدونها من جهة الرسول ، وإلا فالشياطين لا سلطان لهم على قلوب الموحدين ، وهذا وأمثاله ما كانوا يعتقدون أنهم شياطين ، بل أنهم رجال من رجال الغيب الانس ، وكلهم الله بتصريف الامر .

فبينت لهم أن رجال الغيب هم الجن كما قال تعالى : (وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا) ومن ظن أنهم إنس فمن جهله وغلطه ، فإن الانس يؤنسون - أى يشبهون - ويرون إنما يحتجبه الانسى وأحيانا لا يكون دائماً محتجباً عن أبصار الانس بخلاف الجن ، فانهم كما قال الله : (إنه يراكم هو وقييله من حيث لا ترونهم) وكان غير هذا من المشايخ من يذكر عن الشيخ محمد بن السكران أن هو لاكو ملك المشركين لما دخل بغداد ، رأى ابن السكران شيخاً محقوق الرأس على صورة شيخ من مشايخ الدين والطريق . أخذ أبرس هو لاكو . قال : فلما رأيته أنكرت هذا واستعظمت أن يكون شيخ من شيوخ المسلمين يقود فرس ملك المشركين لقتل المسلمين . فقلت : يا هذا أو كلة نحو هذا فقال : تأمر بأمر . أو قال له : هل يفعل هذا بأمر أو فعلت هذا بأمر . فقلت : نعم بأمر . فسكت ابن السكران وأقنعه هذا الجواب ، وكان هذا اقله علمه بالفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان . وظن أن ما يؤمر به الشيوخ في قلوبهم هو من الله ، وأن من قال حدثني قلبي عن ربي فإن الله هو يناجيه ومن قال أخذتم عليكم ميتاً عن ميت ، وأخذنا علمنا عن الحى الذى لا يموت هو كذلك وهذا أضل من ادعى الاستغناء عن الانبياء ، وأنه لا يحتاج إلى واسطتهم .

وجواب هذا أن يقال له : بأمر من تأمر ؟ فإن قال : بأمر الله . قيل : بأمر الله الذى بعث به رسوله وأنزل به القرآن أم بأمر وقع في قلبك . فإن قال بالأول ظهر كذبه ، فانه ليس فيما يأمر الله به رسوله أن يأتي بالكفار المشركين وأهل الكتاب لقتل المسلمين وسبيهم وأخذ أموالهم لأجل ذنوب فعلوها ، ويجعل الدار تعبد بها الأوثان ويضرب فيها بالتواقيس ويقتل قراء

القرآن وأهل العلم بالشرع ويعظم النجسية علماء المشركين وقساقسة النصارى
وأمثال ذلك ، فان هؤلاء أعظم عداوة لمحمد صلى الله عليه وسلم وهو من
جنس مشركى العرب الذين قاتلوه يوم أحد ، وأولئك عصاة من عصاة أمته
وان كان فيهم منافقون كثيرون ، فالمنافقون يطنون نفاقهم . وإن قال :
بأمر وقع في قلبي . لم يكذب ، لكن يقال من أين لك أن هذا رحمانى ولم
لا يكون الشيطان هو الذى أمرك بهذا ، وقد علمت أن ما يقع في قلوب المشركين
وأهل الكتاب هو من الشيطان ، فان رجع إلى توحيد الربوبية وان الجميع
بمشيئته قيل له : فيثبتذ يكون ما يفعله الشيطان والمشركون وأهل الكتاب
هو بالأمر ولا ريب أنه بالأمر الكوفى القدرى ، فجميع الخلق داخلون تحته
لكن من فعل بمجرد هذا الأمر لا بأمر الرسول ، فانما يكون من جنس شياطين
الانس والجن ، وهو مستوجب لعذاب الله فى الدنيا والآخرة ، وهو عابد
لتغير الله متبع لهواه ، وهو بمن قال الله فيه : (لا ملأن جهنم منك ومن تبعك
منهم أجمعين) ومن قال فيهم الشيطان : (فبعزتك لأغوينهم أجمعين لإعبادك
منهم المخلصين) قال الله : (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من
الغاوين) وقال تعالى : (إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون
إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) وقال تعالى : (إنا جعلنا
الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا
والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون)
خكيف تأمر بالشرك والكفر وتسلط الكفار من المشركين وأهل الكتاب
على المسلمين ، وقتل الكفار للمسلمين هذا لا يأمر الله به ، كما لا يأمر بالفحشاء
فان هذا من أخفش الفواحش إذا جعلت الفاحشة اسما لكل ما يعظم عجب
فكانت جميع القبائح السيئة داخلة فى الفحشاء .

وكان أيضا بالشام بعض أكابر الشيوخ بعلبك ، الشيخ عثمان شيخ دير ناعس يأتيه خفير الفرنج - النصارى - راكبا أسداً ويخْلُوبه ويناجيه ، ويقول : يا شيخ عثمان وكلت بحفظ خنازيرهم ، فيعذره عثمان وأتباعه في ذلك ويرون أن الله أمره بهذا كما أمر الخضر أن يفعل ما فعل كما عذر ابن السكران وأمثاله لخرءاء المشركين التتار .

والجواب لهذا كالجواب لذلك، يقال له وكلك الله تعالى بهذا، أنزل على لسان نبيه، الدين أمر أن يوالى المسلمين ، وأن لا يتخذ اليهود والنصارى أولياء بل أمرك أن تبغضهم وتجاهدهم بما استطعت ، هو أمرك أن تتوكل بحفظ خنازيرهم . فان قال هذا ظهر كذبه، وان قال بل هو أمر ألقى في قلبي لم يكذب وقيل له : فهذا من أمر الشيطان لا من أمر الرحمن الذى أنزل به كتبه ، وأرسل به رسله ، ولكنه من الأمر الذى كونه وقدره كشرك المشركين الذين قالوا : (لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا) .

ومن هؤلاء من يظن الرجال الذين يؤيد بهم الكفار من المشركين وأهل الكتاب هم أولياء الله، ولا يجب عليهم اتباع الرسول كالملائكة الموكلة ببنى آدم المعقبات .

فقلت لشيخ كان من شيوخهم : محمد أرسل الى الثقلين الإنس والجن ، ولم يرسل إلى الملائكة : فكل انسى أو جنى خرج عن الإيمان به ، فهو عدو لله لا ولى لله بخلاف الملائكة .

ثم يقال له : الملائكة، لا يعاينون الكفار على المعاصى ولا على قتال

المسلمين ، وإنما يعاونوهم على ذلك الشياطين ، ولكن الملائكة قد تكون
مؤاكلة بخلقهم ورزقهم وكتابة أعمالهم فان ذلك ليس بمعصية ، فهذا الجواب
بالفرق بينهم وبين الملائكة من هذين الوحين .

وقد ظهر أنهم من جنس الشياطين لامن جنس الملائكة ، وكان هذا الشيخ
هو وأبوه من خفراء الكفار ، وكان والده يقال له محمد الخالدي نسبة إلى
شيطان كان يقربه يقال له الشيخ خالد ، وهم يقولون : إنه من الانس من
رجال الغيب .

وحدثني الثقة عنه أنه كان يقول : الانبياء ضيعوا الطريق . ولعمري لقد
ضيعوا طريق الشياطين ، شياطين الانس والجن ، وهؤلاء المشايخ الذين
يحبون المسلمين ، ولكن يوالون الشيوخ الذين يوالون المشركين الذين هم
خفراء الكفار ، ويظنون أنهم من أولياء الله اشتروا بهم وهم في أصل ضلالة
وهو أنهم جعلوا الخوارق الشيطانية من جنس الكرامات الرحمانية ، ولم
يفرقوا بين أولياء الرحمن كما قال تعالى : (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض
له شيطانا فهو له قرين) فهؤلاء وهؤلاء عشوا عن ذكر الرحمن الذي أنزله
وهو الكتاب والسنة ، وعن الروح الذي أوحاه الله إلى نبيه الذي جعله الله
تورا يهدي به من يشاء من عباده ، وبه يحصل الفرق بين أولياء الرحمن
وأولياء الشيطان ، ولم يفرقوا بين آيات الانبياء ومعجزاتهم ، وبين خوارق
السحرة والكهان ، إذ هذا مذهب الجهمية المجبرة ، وهؤلاء كلهم يشتركون
في هذا المذهب ، فلا يجعلون الله يحب ما أمر به ويبغض ما نهى عنه . بل يجعلون
كل ما قدره وقضاه فانه يحبه ويرضاه ، فبقى جميع الامور عندهم سواء ،

ولما يتميز بنوع من الخوارق ، فمن كان له خارق جعلوه من أولياء الله وخضعوا له إما اتباعا له وإماما موافقا له ومحبة ، وإما أن يسلبوا له حاله فلا يحبوه ولا يبنضوه ، إذ كانت قلوبهم لم يبق فيها من الايمان ما يعرفون به المعروف ، وينكرون به المنكر ، في هذا الموضع .

وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان » وفي رواية لمسلم : « من جاهدكم بيده فهو مؤمن ومن جاهدكم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدكم بقلبه فهو مؤمن ليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل ، وميت الاحياء الذين لا يعرفون معروفا ، ولا ينكرون منكرا وفي حديث حذيفة الذي في صحيح مسلم : أن الفتنة تعرض على القلوب كعرض الصبر عودا عودا ، فأيا قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء ، وأيا قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء حتى تبقى القلوب على قلبين قلب أبيض مثل الصفا لا يضره فتنة ما دامت السماء والارض ، وقلب أسود مريباد لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه . »

فهؤلاء العباد الزهاد الذين عبدوا الله بآرائهم وذوقهم ووجدتهم لا بالامر والنهي ، متهاهم اتباع أهوائهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله لا سيما اذا كانت حقيقتهم هي قول الجهمية المجبرة ، فأروا أن جميع الكائنات اشتركت في المشيئة ، ولم يميز بعضها عن بعض فان الله يحب هذا ويرضاه ، وهذا يبنضه ويسخطه ، فان الله يحب المعروف ويبغض المنكر فاذا لم يفرقوا بين هذا وهذا ، نكتت في قلوبهم نكت سود فساد قلوبهم ، فيكون المعروف

ما يهوونه ويحبونه ويجدونهم ويذوقونه ، ويكون المنكر ما يهرون بغضه وتفر عنه قلوبهم كالمشركين الذين كانوا عن التذكرة معرضين ، كأنهم حرم مستنفرة فرت من قسورة ، ولهذا يوجد في هؤلاء وأتباعهم من ينفرون عن القرآن والشرع ، كما تنفر الحمر المستنفرة التي تنفر من الرماة ومن الأسد ، ولهذا يوصفون بأنهم إذا قيل لهم قال المصطفى نفروا .

وكان الشيخ إبراهيم بن معصدي يقول لمن رآه من هؤلاء كاليونانية والاحدية: يا خنازير يا أبناء الخنازير ما أرى الله ورسوله عندكم راحة ، بل يريد كل منهم أن يؤتى صحفاً مذكرة ، كل منهم يريد أن يحدثه قلبه عن ربه فيأخذ عن الله بلا واسطة الرسول : (وإذا جاءهم آية قالوا إن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته) وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا أن قول القدرية الجهمية المجبرة أعظم مناقضة لما جاءت به الرسل من قول النفاة ، ولهذا لم يكن هؤلاء مظهرين لهذا في زمن السلف ، بل كلما ضعف نور النبوة أظهروا حقيقة قولهم ، فانه من جنس قول المشركين المكذابين للرسل ومنتهاهم الشرك وتكذيب الرسل ، وهذا جماع الكفر ، كما أن التوحيد وتصديق الرسل جماع الايمان ، ولهذا صاروا مع أهل الكفر المحض من المشركين وأهل الكتاب ، وبسط هذه الامور له موضع آخر .

والمقصود هنا أن القدرية المجبرة من جنس المشركين ، كما أن النافية من جنس المجوس ، وان المجبرة ما عندهم سوى القدرة والمشيئة في نفس الامر ، والنافية تنفي القدرة العامة والمشيئة التامة وتزعم أنها تثبت الحكمة والعدل ، وفي الحقيقة كلاهما ناف للحكمة والعدل والمشيئة والقدرة ، كما قد بسط في مواضع

وأولئك يتعلقون بقوله : (لا يسأل عما يفعل) والله يفعل ما يشاء . وهذا ذكره الله اثباتاً لقدرته لا نفياً لحكمته وعدله ، بل بين سبحانه أن يفعل ما يشاء ، فلا أحد يمكنه أن يعارضه إذا شاء شيئاً بل هو قادر على فعل ما يشاء بخلاف المخلوق الذى يشاء أشياء كثيرة ، ولا يمكنه أن يفعلها ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : لا يقول أحدكم اللهم اغفر لي ان شئت اللهم ارحمني ان شئت فان الله لا مكره له ولكن ليعزم المسألة ، وذلك أنه إنما يقال افعل كذا ان شئت لمن قد يفعله مكرها ، فيفعل ما لا يريد لدفع ضرر الاكراه عنه . والله تعالى لا مكره له فلا يفعل الا ما يشاء فقوله تعالى (إن الله يفعل ما يشاء ويفعل من يشاء ويعذب من يشاء) ونحو ذلك هو لإثبات قدرته على ما يشاء وهذا رد لقول القدرية النفاة الذين يقولون : انه لم يشأ كل ما كان بل لا يشاء الا الطاعة ، ومع هذا فقد شاءها ولم يكن من عصاه وليس هو قادراً عندهم على أن يجعل العبد لا مطيعاً ولا عاصياً .

فهذه الآيات التى يحتاج بها المجبرة تدل على فساد مذهب النفاة كما أن الآيات التى يحتاج بها النفاة التى تدل على أنه حكم عادل لا يظلم مثقال ذرة ، وانه لم يخلق الخلق عبثاً ونحو ذلك ، يدل على فساد قول المجبرة وليس فى هذه الآيات ولا هذه ما يدل على صحة قول واحدة من الطائفتين ، بل ما يحتاج به كل طائفة يدل على فساد مذهب الاخرى ، وكلا القولين باطل ، وهذا هو الذى نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الذى فى المسند وغيره ، وبعضه فى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر وعن النبي صلى الله عليه وسلم : انه خرج على أصحابه وهم يتمارون فى التندر وهذا يقول ألم يقل الله

كذا وهذا يقول ألم يقل الله كذا فكأنما فقيء في وجهه حب الرمان فقال
أبهذا أمرتم أم الى هذا دعيتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض ، ولهذا
قال أحد في بعض مناظرته لمن صار يضرب الآيات بعضها ببعض : إنا قد
نهينا عن هذا .

فن دفع نصوصا يحتاج بها غيره لم يؤمن بها ، بل آمن بما يحتاج به ،
صار ممن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض .

وهذا حال أهل الاهواء ، هم مختلفون في الكتاب ، مخالفون للكتاب ،
متفقون على مخالفة الكتاب ، وقد تركوا كلهم بعض النصوص وهو ما يجمع
تلك الأقوال ، فصاروا كما قال عن أهل الكتاب : (ومن الذين قالوا إنا نصارى
أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى
يوم القيامة) .

فاذا ترك الناس بعض ما أنزل الله وقعت بينهم العداوة والبغضاء ، إذ
لم يبق هنا حق جامع يشتركون فيه ، بل تقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب
بما لديهم فرحون ، وهؤلاء كلهم ليس معهم من الحق إلا ما وافقوا فيه الرسول
وهو ما تمسكوا به من شرعه مما أخبر به وما أمر به . وأما ما ابتدعوه فكله
ضلالة كما قال صلى الله عليه وسلم : « وإياكم ومحدثات الأمور فان كل بدعة
ضلالة » وقد تكون تلك البدعة أعظم عندهم مما أخذوا به من الشرعة يجعلون
تلك هي الأصول العقلية كالقدرية المجبرة والنفاة ، فكلهما يجعل ما أحدثوه
من الكلام في الأصول ، وهو الذى يسمونه العقليات أعظم عندهم مما تلقوه
من الشرع ، فالمعتزلة يجعلون العقليات هي الخبريات والأمريات جميعا

فالواجبات الشرعية ، لكن يقولون أيضا بأن الشرع أوجبها ولكن لهم فيها تخطيط ليس هذا موضعه .

وكذلك ما ابتدعه في الخبريات كاثبات حدوث العالم بطريقة الاعراض واستزامها للجسام ، وهم ينفون الصفات والقدر ويسمون ذلك التوحيد والعذل

وجهم بن صفوان وأتباعه هم أعظم نفياً منهم ، فانهم ينفون الاسماء مع الصفات ، وهم رؤس المجبرة ، والاشعرية وافقتهم في الجبر ، لكن نازعوهم نزاعاً لطيفاً في اثبات الكسب والقدرة عليه ، وهم يرون أن هذه الأصول العقلية وهي العلم بما يجب للرب ويمتنع عليه وما يجوز عليه من الافعال ، هي أعظم العلوم وأشرفها ، وأنهم برزوا بها على الصحابة ، وأن النبي لم يعلمها الصحابة إما لكونه وكلها إلى استنباط الامة ، وإما لكون الصحابة كانوا مشغولين عنها بالجهاد ، وأما لكونه قال لهم في ذلك ما لم يبلغوه ، ولم يشغلهم بالأدلة لاشتغالهم بالجهاد .

وهذه هي الأصول العقلية التي يعتمدون عليها هم ومن يوافقهم كالقاضي أبي يعلى ، وأبي المعالي ، وأبي الوليد الباجي تبعاً للقاضي أبي بكر وأمثاله ، وهو وأتباعه يناقضون عبد الجبار وأمثاله ، كما ناقض الأشعري وأمثاله أبا علي وأبا القاسم .

وكل الأصول العقلية التي ابتدعها هؤلاء وهؤلاء باطلة في العقل والشرع وإن كانت كل واحدة من الطائفتين تعتقد أنها أعظم الدين ، ويقدمونها

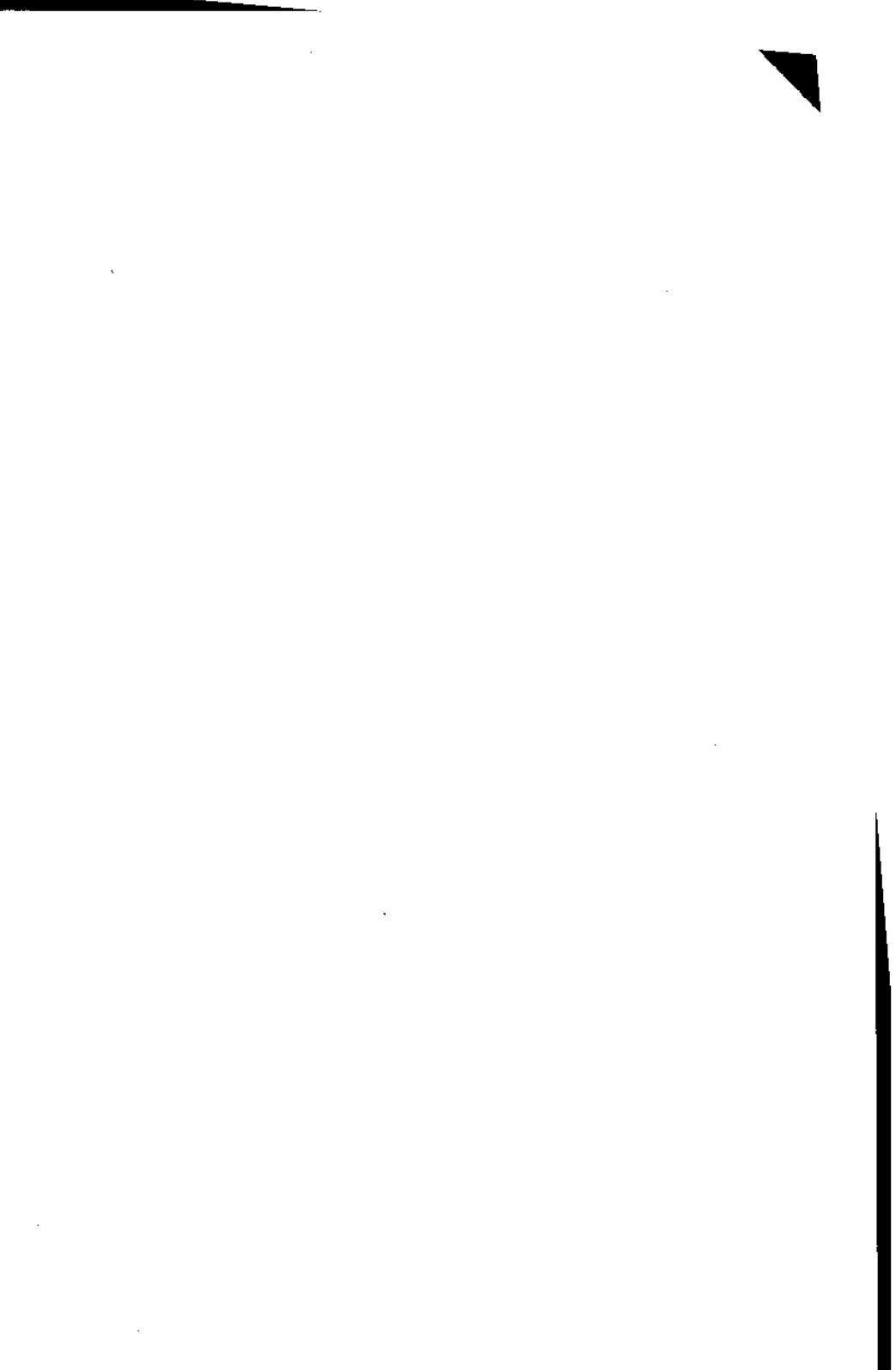
على الأصول الشرعية فانهم في ذلك بمنزلة ما يعظمه العباد والزهاد والفقراء والصوفية من الخوارق الشيطانية، ويفضلونها على العبادات الشرعية، والعبادات الشرعية هي التي معهم من الاسلام، وتلك كلها باطلة وان كانت أعظم عندهم من العبادات حتى يقولوا نهاية الصوفي ابتداء الفقيه، ونهاية الفقيه ابتداء المولود، وكذلك صاحب منازل السائرين يذكر في كل باب ثلاث درجات. فالأولى : وهي أهونها عندهم توافق الشرع في الظاهر. والثانية : قد توافق الشرع وقد لا توافق. والثالثة : في الأغلب تخالف لاسيما في التوحيد والفناء والرجاء ونحو ذلك، وهذا الذي ابتدعوه هو أعظم عندهم بما وافقوا فيه الرسل ، وكثير من العباد يفضل نوافله على أداء الفرائض ، وهذا كثير والله أعلم .

والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما
كثيراً ، والحمد لله رب العالمين .

تمت الرسالة الأولى

ويليها الرسالة الثانية : معارج الوصول

الرسالة الثانية
معارج الوصول



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الشيخ الإمام العالم تقى الدين ، أوجد المجتهدين ؛ أحمد بن تيمية قدس الله روحه ونور ضريحه ، وهو عما كتبه بقلعة دمشق متأخراً .

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم تسليماً .

﴿ فصل ﴾ في أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين جميع الدين ، أصوله وفروعه باطنه وظاهره عليه وعمله . فان هذا الأصل هو أصل أصول العلم والإيمان ، وكل من كان أعظم اعتصاماً بهذا الأصل كان أولى بالحق علماً وعملاً ، ومن كان أبعد عن الحق علماً وعملاً كالقراطة والمتفلسفة الذين يظنون أن الرسل ما كانوا يعلمون حقائق العلوم الإلهية والكلية ، وإنما يعرف ذلك بزعمهم من يعرفه من المتفلسفة ويقولون : خاصة النبوة هي التخييل ، ويجعلون النبوة أفضل من غيرها عند الجمهور لا عند أهل المعرفة ، كما يقول هذا ونحوه الفارابي وأمثاله مثل بشر بن فانك وأمثاله من الاسماعيلية ، وآخرون يعترفون بأن الرسول علم الحقائق لكن يقولون : لم يبينها بل خاطب الجمهور بالتخييل ، فيجعلون التخييل في خطابه لافي عليه كما يقول ذلك ابن سينا وأمثاله ، وآخرون يعترفون بأن الرسل علموا الحق وبيّنوه ، لكن

يقولون لا يمكن معرفته من كلامهم . بل يعرف بطريق آخر ، اما المعقول عند طائفة واما المكاشفة عند طائفة ، إما قياس فلسفي وإما خيال صوفي ، ثم بعد ذلك ينظر في كلام الرسول فما وافق ذلك قبل ، وما خالفه إما أن يفوض وإما أن يؤول ، وهذه طريقة كثير من أهل الكلام الجهمية والمعتزلة وهى طريقة خيار الباطنية والفلاسفة الذين يعظمون الرسول وينزهونه عن الجهل والكذب ، لكن يدخلون فى التأويل ، وأبو حامد الغزالي لما ذكر فى كتابه طرق الناس فى التأويل ، وأن الفلاسفة زادوا فيه حتى انحلوا وان الحق بين جحود الخبايلة وبين انحلال الفلاسفة ، وأن ذلك لا يعرف من جهة السمع ، بل يعرف الحق بنور يقذف فى قلبك ثم ينظر فى السمع فما وافق ذلك قبلته وإلا فلا ، وكان مقصوده بالفلاسفة المتأولين خيار الفلاسفة ، وهم الذين يعظمون الرسول عن أن يكذب للمصلحة ، ولكن هؤلاء وقعوا فى نظير ما فروا منه ، نسبوه إلى التلبيس والتعمية وإضلال الحق بل إلى أن يظهر الباطل ويكتم الحق .

وابن سينا وأمثاله لما عرفوا أن كلام الرسول لا يحتمل هذه التأويلات الفلسفية ، بل قد عرفوا أنه أراد مفهوم الخطاب ، سلك التخيل وقال إنه خطاب الجمهور بما يخيل إليهم مع علمه أن الحق فى نفس الامر ليس كذلك فهؤلاء يقولون أن الرسل كذبوا للمصلحة ، وهذا طريق ابن رشد الحفيد وأمثاله من الباطنية ، فالذين عظموا الرسل من هؤلاء عن الكذب نسبوههم إلى التلبيس والإضلال ، والذين أقروا بأنهم بينوا قالوا : أنهم كذبوا للمصلحة ، وأما أهل العلم والايمان فاتفقون على أن الرسل لم يقولوا إلا بالحق وأنهم بينوه مع علمهم بأنهم أعلم الخلق بالحق فهم الصادقون المصدوقون ،

علموا الحق وبينوه ، فمن قال أنهم كذبوا للمصلحة فهو من إخوان المكذبين للرسول . لكن هذا لما رأى ما عملوا من الخير والعدل في العالم لم يمكنه أن يقول كذبوا لطلب العلو والفساد ، بل قال : كذبوا لمصلحة الخلق ، كما يحكى عن ابن التومرت وأمثاله ، ولهذا كان هؤلاء لا يفرقون بين النبي والساحر إلا من جهة حسن القصد ، فإن النبي يقصد الخير ، والساحر يقصد الشر ، وإلا فلكل منهما خوارق هي عندهم قوى نفسانية ، وكلاهما عندهم يكذب ، لكن الساحر يكذب للعلو والفساد ، والنبي عندهم يكذب لمصلحة ، إذ لم يمكنه إقامة العدل بينهم إلا بنزع من الكذب ، والذين علموا أن النبوة تنافض الكذب على الله وأن النبي لا يكون إلا صادفاً من هؤلاء قالوا : أنهم لم يبينوا الحق ولو أنهم قالوا استكروا عن بيانه لكان أقل لحاداً لكن قالوا : أنهم أخبروا بما يظهر منه للناس الباطل ، ولم يبينوا لهم الحق فعندهم أنهم جمعوا بين شيئين بين كتمان حق لم يبينوه ، وبين إظهار ما يدل على الباطل ، وإن كانوا لم يقصدوا الباطل فجعلوا كلامهم من جنس المعارض التي يعنى بها المتكلم معنى صحيحاً ، لكن لا يفهم المستمع منها إلا الباطل ، وإذا قالوا قصدوا التعريض كان أقل الحاداً ممن قال أنهم قصدوا الكذب .

(والتعريض من نوع الكذب) إذ كان كذباً في الأفهام ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن إبراهيم لم يكذب إلا ثلاث كذبات كاهن في الله وهي معارضة لقوله عن سارة أنها أختي . إذ كان ليس هناك مؤمن إلا هو وهي (١) .

(١) ذكر احدى الثلاث والثانية قوله اني ستم والثالثة قوله بل فله كبيرهم هذا .

وهؤلاء يقولون أن كلام ابراهيم وعامة الانبياء بما أخبروا به عن الغيب كذب من المعارض .

وأما جمهور المتكلمين فلا يقولون بهذا بل يقولون : قصدوا البيان دون التعريض ، لكن مع هذا يقول الجهمية ونحوهم : أن بيان الحق ليس في خطابهم بل إنما في خطابهم ما يدل على الباطل ، والمتكلمون من الجهمية والمعتزلة والاشعرية ، ونحوهم ممن سلك في إثبات الصانع طريقة الاعراض يقولون : ان الصحابة لم يبينوا أصول الدين بل ولا الرسول إما لشغلهم بالجهاد ، أو لغير ذلك ، وقد بسط الكلام على هؤلاء في غير هذا الموضع .

وبين أن أصول الدين الحق الذي أنزل الله به كتابه وأرسل به رسوله ، وهى الأدلة والبراهين والآيات الدالة على ذلك قد بينها الرسول أحسن بيان وأنه دل الناس وهداهم إلى الأدلة العقلية والبراهين اليقينية التى بها يعلمون المطالب الإلهية ، وبها يعلمون إثبات ربوبية الله ووحدانيته وصفاته وصدق رسوله والمعاد وغير ذلك ، مما يحتاج إلى معرفته بالأدلة العقلية ، بل وما يمكن بيانه بالأدلة العقلية وإن كان لا يحتاج إليها ، فان كثيراً من الأمور يعرف بالخبر الصادق ، ومع هذا فالرسول بين الأدلة العقلية الدالة عليها لجمع بين الطريقين السمعى والعقلى .

وبينا أن دلالة الكتاب والسنة على أصول الدين ، ليست بمجرد الخبر كما تظنه طائفة من الغالطين من أهل الكلام والحديث والفقهاء والصوفية وغيرهم ، بل الكتاب والسنة دلا الخلق وهداياهم إلى الآيات والبراهين ، والأدلة المبينة لأصول الدين ، وهؤلاء الغالطون الذين أعرضوا عما فى

القرآن من الدلائل العقلية والبراهين اليقينية ، صاروا إذا صنفوا في أصول الدين أحزاباً .

حزب : يقدمون في كتبهم الكلام في النظر والدليل والعلم ، وإن النظر يوجب العلم ، وأنه واجب ويتكلمون في جنس النظر وجنس الدليل وجنس العلم ، بكلام قد اختلط فيه الحق بالباطل ، ثم إذا صاروا إلى ما هو الأصل والدليل للدين ، استدلوا بحدوث الأعراض على حدوث الأجسام ، وهو دليل مبتدع في الشرع وباطل في العقل .

والحزب الثاني : عرفوا أن هذا الكلام مبتدع ، وهو مستلزم مخالفة الكتاب والسنة ، وعنه ينشأ القول بأن القرآن مخلوق ، وأن الله لا يرى في الآخرة ، وليس فوق العرش ونحو ذلك من بدع الجهمية ، فصنفوا كتباً قدموا فيها ما يدل على وجوب الاعتصام بالكتاب والسنة من القرآن والحديث وكلام السلف ، وذكروا أشياء صحيحة لكنهم قد يخلطون الآثار صحيحةا بضعيفها ، وقد يستدلون بما لا يدل على المطلوب ، وأيضاً فهم إنما يستدلون بالقرآن من جهة إخباره لا من جهة دلالاته ، فلا يذكرون ما فيه من الأدلة على إثبات الربوبية والوحدانية والنبوة والمعاد ، وأنه قد بين الأدلة العقلية الدالة على ذلك ، ولهذا سموا كتبهم أصول السنة والشريعة ونحو ذلك ، وجعلوا الإيمان بالرسول قد استقر فلا يحتاج أن يبين الأدلة الدالة عليه ، فذمهم أولئك ونسبواهم إلى الجهل ، إذ لم يذكروا الأصول الدالة على صدق الرسول ، وهؤلاء لا ينسبون أولئك إلى البدعة بل إلى الكفر ، لكونهم أصولاً تخالف ما قاله الرسول . والطائفتان يلحقهما الملام لكونهما

أعرضنا عن الأصول التي بينها الله بكتابه ، فإنها أصول الدين وأدلته وآياته ، فلما أعرض عنها الطائفتان وقع بينهما العداوة كما قال الله تعالى : (ففسدوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة) .

وحزب ثالث : قد عرف تفريط هؤلاء وتعدى أولئك وبدعهم ، فذمهم وذم طالب العلم الذكي الذي اشتاقت نفسه إلى معرفة الأدلة والخروج عن التقليد إذا سلك طريقهم . وقال : إن طريقهم ضارة وأن السلف لم يسلكوها ونحو ذلك بما يقتضى ذمها ، وهو كلام صحيح لكنه إنما يدل على أمر يحمل لاتبين دلالاته على المطلوب ، بل قد يعتقد طريق المتكلمين مع قوله أنه بدعة ، ولا يفتح أبواب الأدلة التي ذكرها الله في القرآن التي تبين أن ما جاء به الرسول حق ، ويخرج الذكي بمعرفتها عن التقليد وعن الضلال والبدعة والجهل ، فهؤلاء أضل بفرقهم لأنهم لم يتدبروا القرآن وأعرضوا عن آيات الله التي بينها بكتابه ، كما يعرض من يعرض عن آيات الله المخلوقة قال الله تعالى : (وكم من آية في السموات والأرض يمدون عليها وهم عنها معرضون) وقال تعالى : (وما تنفي الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) وقال تعالى : (إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون) وقال تعالى : (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب) وقال تعالى : (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل) وقال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون بالبينات والزبر الآية) وقال تعالى : (وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك) وقال تعالى : (وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم

جاءتهم رسلهم بالبينات والزبر والكتاب المنير) ومثل هذا كثير لبسطه مواضع أخر .

والمقصود أن هؤلاء الغالطين الذين أعرضوا عما في القرآن من الدلائل العقلية والبراهين اليقينية ، لا يذكرون النظر والدليل والعلم الذي جاء به الرسول ، والقرآن مملوء من ذلك والمتكلمون يعترفون بأن في القرآن من الأدلة العقلية الدالة على أصول الدين ما فيه ، لكنهم يسلكون طرقاً أخر كطريق الإعراض .

ومنهم من يظن أن هذه طريق إبراهيم الخليل وهو غلط .

والمتفلسفة يقولون : القرآن جاء بالطريق الخطابية والمقدمات الاقتناعية التي تقنع الجمهور ، ويقولون : أن المتكلمين جاءوا بالطرق الجدلية ، ويدعون أنهم هم أهل البرهان اليقيني ، وهم أبعد عن البرهان في الإلهيات من المتكلمين ، والمتكلمون أعلم منهم بالعلميات البرهانية في الإلهيات والكمليات ، ولكن للمتفلسفة في الطبيعيات خوض وتفصيل تميزوا به بخلاف الإلهيات ، فإنهم من أجهل الناس بها وأبعدهم عن معرفة الحق فيها ، وكلام أرسطو معلوم فيها قليل كثير الخطأ ، فهو لحم جبل غث ، على رأس جبل وعر ، لاسهل فیرتقی ، ولاسمين فيقلی . وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

والقرآن جاء بالبينات والهدى بالآيات البينات وهي الدلائل النقليات وقد قال الله تعالى لرسوله : (أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتی هي أحسن) والمتفلسفة يفسرون ذلك بطرقهم المنطقية في

البرهان والخطابة والجدل وهو ضلال من وجوه ، قد بسطت في غير هذا الموضوع ، بل الحكمة هي معرفة الحق والعمل به فالقلوب التي لها فهم وقصد تدعى بالحكمة ، فيبين لها الحق علماً وعملاً فتقبله وتعمل به .

وآخرون يعترفون بالحق ، لكن لهم أهواء تصدم عن اتباعه ، فهؤلاء يدعون بالموعظة الحسنة المشتملة على الترغيب في الحق والترهيب من الباطل ، والوعظ أمر ونهى بترغيب وترهيب كما قال تعالى : (ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به) وقال تعالى : (يعظكم الله أن تعبدوا لئله أبداً) فالدعوة بهذين الطريقتين لمن قبل الحق ومن لم يقبله ، فانه يجادل بالتى هي أحسن ، والقرآن مشتمل على هذا وهذا ، ولهذا إذا جادل يسأل ويستفهم عن المقدمات البينة البرهانية التي لا يمكن أحد أن يمجدها لتقرير المخاطب بالحق ولا اعترافه بإنكار الباطل كما في مثل قوله : (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون) وقوله : (أفمينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد) وقوله : (أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم) وقوله : (أيجسب الإنسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من منى يمنى ثم كان علقة مخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى) وقوله : (أفرايتم ما تمنيون أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون) وقوله : (وقالوا لولا يأتينا بآية من ربنا أولم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى) وقوله : (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) وقوله : (أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل) وقوله : (ألم نجعل له عينين ولسانا وشفعتين وهدىناه النجدين) إلى أمثال ذلك مما يخاطبهم باستفهام التقرير المتضمن لإقرارهم واعترافهم بالمقدمات البرهانية التي تدل على المطلوب ، فهو

من أحسن جدل بالبرهان ، فان الجدل إنما يشترط فيه أن يسلم الخصم المقدمات وإن لم تكن بينة معروفة ، فإذا كانت بينة معروفة كانت برهانية ، والقرآن لا يحتاج في مجادلته بمقدمة لمجرد تسليم الخصم بها كما هي الطريقة الجدلية عند أهل المنطق وغيرهم ، بل بالقضايا والمقدمات التي تسلمها الناس وهي برهانية ، وإن كان بعضهم يسلمها ، وبعضهم ينزع فيها ذكر الدليل على صحتها كقوله : (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس يجعلونه قراطيس تبدونها وتحفون كثيرا وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم) فان الخطاب لما كان مع من يقر بنبوة موسى من أهل الكتاب ومع من ينكرها من المشركين ذكر ذلك بقوله : (قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى) وقد بين البراهين الدالة على صدق موسى في غير موضع ، وعلى قراءة من قرأ يبدونها كان كثير وأبي عمرو جعلوا قوله : (وعلمتم ما لم تعلموا) احتجاجا على المشركين بما جاء به محمد . فالحجة على أولئك نبوة موسى ، وعلى هؤلاء نبوة محمد ، ولكل منهما من البراهين ما قد بين بعضه في غير موضع ، وعلى قراءة الأكثرين بالتاء ، هو خطاب لأهل الكتاب وقوله : (علمتم ما لم تعلموا) بيان لما جاءت به الأنبياء بما أنكروه فعلمهم الأنبياء ما لم يقبلوه ولم يعلموه ، فاستدل بما عرفوه من أخبار الأنبياء وما لم يعرفوه .

وقد قص سبحانه قصة موسى وأظهر براهين موسى وآياته التي هي من أظهر البراهين والأدلة ، حتى اعترف بها السحرة التي جمعهم فرعون وناهيك بذلك ، فلما أظهر الله حق موسى وأتى بالآيات التي علم بالاضطرار أنها

الله ، وابتلعت عصاه الحبال والعصى التي آتى بها السحرة بعد أن جاءوا
بسحر عظيم ، وسحروا أعين الناس واسترهبوا الناس ، ثم لما ظهر الحق
وانقلبوا صاغرين قالوا : (آمنا برب العالمين رب موسى وهرون) فقال لهم
فرعون : (آتمم به قبل أن آذن لكم انه لكبيركم الذي علمكم السحر فلا قطعن
أيديكم وأرجلكم من خلاف ولا صلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن أننا أشد
عذابا وأبى قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات) من الدلائل البينات
اليقينية القطعية وعلى الذى فطرنا وهو خالقنا وربنا الذى لا بد لنا منه ، إن
نؤثرك على هذه الدلائل اليقينية وعلى خالق البرية : (فاقض ما أنت قاض
إنما تقضى هذه الحياة الدنيا إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا
عليه من السحر والله خير وأبى) .

وقد ذكر الله هذه القصة في عدة مواضع من القرآن ، يبين في كل موضع
منها من الاعتبار والاستدلال نوعا غير النوع الآخر ، كما يسمى الله ورسوله
وكتابه بأسماء متعددة ، كل اسم يدل على معنى لم يدل عليه الاسم الآخر ،
وليس في هذا تكرار بل فيه تنويع الآيات ، مثل أسماء النبي صلى الله عليه
وسلم إذا قيل محمد وأحمد والحاشر والعاقب والمقفي ونبي الرحمة ونبي التوبة
ونبي الملحمة ، في كل اسم دلالة على معنى ليس في الاسم الآخر وإن كانت
لذات واحدة فالصفات متروعة ، وكذلك القرآن إذا قيل فيه قرآن وفرقان
وبيان وهدى وبصائر وشفاء ونور ورحمة وروح ، فكل اسم يدل على معنى
ليس هو المعنى الآخر ، وكذلك أسماء الرب تعالى إذا قيل الملك القدوس
السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق الباري المصور ، فكل
اسم يدل على معنى ليس هو المعنى الذى في الاسم الآخر فالذات واحدة ،

والصفات متعددة ، فهذا في الاسماء المفردة ، وكذلك في الجمل التامة يعبر عن القصة بجمل تدل على معان فيها ، ثم يعبر عنها بجمل أخرى تدل على معان آخر ، وإن كانت القصة المذكورة ذاتها واحدة فصفات متعددة ، ففي كل جملة من الجمل معنى ليس في الجمل الآخر .

وليس في القرآن تكرار أصلا ، وأما ما ذكره بعض الناس من أنه كرر القصص مع الاكتفاء بالواحدة ، وكان الحكمة فيه أن وفود العرب كانت ترد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقرئهم المسلمون شيئا من القرآن فيكون ذلك كافيا ، وكان يبعث إلى القبائل المتفرقة بالسور المختلفة فلو لم تكن الآيات والقصص مشاة متكررة لوقعت قصة موسى إلى قوم ، وقصة عيسى إلى قوم ، وقصة نوح إلى قوم ، فأراد الله أن يشهر هذه القصص في أطراف الأرض ، وأن يلقيها إلى كل سمع فهذا كلام من لم يقدر القرآن قدره ، وأبو الفرج اقتصر على هذا الجواب في قوله : مثاني . لما قيل لم ثبت . وبسط هذا له موضع آخر ، فان التثنية هي التويع والتجنيس وهي استيفاء الأقسام ، ولهذا يقول من يقول من السلف الأقسام والأمثال .

والمقصود هنا التنبيه على أن القرآن اشتمل على أصول الدين التي تستحق هذا الاسم ، وعلى البراهين والآيات والأدلة اليقينية بخلاف ما أحدثه المبتدعون والمحدون ، كما قال الرازي مع خبرته بطرق هؤلاء : لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية ، فما وجدتني تشق عليلا ولا تروى غليلا ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن أقرأ في الإثبات : (إليه يصعد الكلم الطيب . الرحمن على العرش استوى) وأقرأ في النفي : (ليس

كشله شيء . ولا يخيطنون به علماً) قال : ومن جرب مثل تجربتي عرف
مثل معرفتي .

والخير والسعادة والكمال والصالح منحصر في نوعين : في العلم النافع ،
والعمل الصالح ، وقد بعث الله محمداً بأفضل ذلك ، وهو الهدى ودين الحق
كما قال : (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله
وكفى بالله شهيداً) وقد قال تعالى : (واذكر عبادنا إبراهيم واسحاق ويعقوب
أولى الأيدي والأبصار) فذكر النوعين قال الواجب عن ابن عباس يقول
أولو القوة في العبادة ، قال ابن أبي حاتم وروى عن سعيد بن جبيرة وعطاء
الخراساني والحسن والضحاك والسدي وقتادة وأبي سنان ومبشر بن عبيد
نحو ذلك ، والأبصار قال الأبصار : الفقه في الدين ، وقال مجاهد الأبصار :
الصواب في الحكم ، وعن سعيد بن جبيرة قال : البصيرة بدين الله وكتابه ،
وعن عطاء الخراساني أولى الأيدي والأبصار ، قال : أولو القوة في العبادة
والبصر والعلم بأمر الله ، وعن مجاهد وروى عن قتادة قال : أعطوا قوة
في العبادة وبصراً في الدين .

وجميع حكماء الأمم يفضلون هذين النوعين ، مثل حكماء اليونان والهند
والعرب قال ابن قتيبة : الحكمة عند العرب العلم والعمل ، فالعمل الصالح :
هو عبادة الله وحده لا شريك له وهو الدين دين الإسلام ، والعلم والهدى :
هو تصديق الرسول فيما أخبر به عن الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم
والآخر وغير ذلك ، فالعلم النافع : هو الإيمان ، والعمل الصالح : هو الإسلام ،
والعلم النافع من علم الله ، والعمل الصالح هو العمل بأمر الله ، هذا تصديق

الرسول فيما أخبر ، وهذا طاعته فيما أمر ، وضد الأول : أن يقول على الله مالا يعلم ، وضد الثاني : أن يشرك بالله مالم ينزل به سلطانا . والأول أشرف فمكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً : (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) وجميع الطوائف تفضل هذين النوعين ، لكن الذي جاء به الرسول هو أفضل ما فيهما كما قال :- (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في ركعتي الفجر تارة سورة الإخلاص وقل يا أيها الكافرون ، ففي قل يا أيها الكافرون عبادة الله وحده وهو دين الإسلام ، وفي قل هو الله أحد صفة الرحمن ، وأن يقال فيه ويخبر عنه بما يستحقه ، وهو الإيمان ، هذا هو التوحيد القولي وذلك هو التوحيد العلي .

وكان تارة يقرأ فيهما في الأولى بقوله في البقرة : (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم وما نحن له مسلمون) وفي الثانية : (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم — إلى قوله — فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) .

قال أبو العالية في قوله : (فلنسالنهم أجمعين عما كانوا يعملون) قال : خطتان يسأل عنهما كل أحد ، ماذا كنت تعبد ، وماذا أجبتم المرسلين ،

فالأول: تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله ، والثاني: تحقيق الشهادة بأن محمداً رسول الله .

والصوفية بنوا أمرهم على الإرادة ولا بد منها ، لكن بشرط أن تكون إرادة عبادة الله وحده بما أمر .

والمتكلمون بنوا أمرهم على النظر المقتضى للعلم ولا بد منه ، لكن بشرط أن يكون علماً بما أخبر به الرسول ، والنظر في الأدلة التي دل بها الرسول هي آيات الله ولا بد من هذا وهذا .

ومن طلب علماً بلا إرادة أو إرادة بلا علم فهو ضال ، ومن طلب هذا وهذا بدون اتباع الرسول فيهما فهو ضال ، بل كمن قال من السلف الدين والإيمان قول وعمل ، واتباع السنة وأهل الفقه في الأعمال الظاهرة يتكلمون في العبادات الظاهرة ، وأهل التصوف والزهد يتكلمون في قصد الإنسان وإرادته ، وأهل النظر والكلام ، وأهل العقائد من أهل الحديث وغيرهم يتكلمون في العلم والمعرفة والتصديق الذي هو أصل الإرادة ويقولون : العبادة لا بد فيها من القصد والقصد لا يصح إلا بعد العلم بالمقصود المعبود وهذا صحيح ، فلا بد من معرفة المعبود وما يعبد به ، فالضالون من المشركين والنصارى وأشباههم لهم عبادات وزهاديات ، لكن لغير الله أو بغير أمر الله ، وإنما القصد والإرادة النافعة هو إرادة عبادة الله وحده ، وهو إنما يعبد بما شرع لا بالبدع .

وعلى هذين الأصلين يدور دين الإسلام ، على أن يعبد الله وحده وأن

يعبد بما شرع ولا يعبد بالبدع ، وأما العلم والمعرفة والتصوف فدارها على أن يعرف ما أخبر به الرسول ، ويعرف أن ما أخبر به حق إما لعلنا بأنه لا يقول إلا حقاً ، وهذا تصديق عام وإما لعلنا بأن ذلك الخبر حق بما أظهر الله من آيات صدقه ، فإنه أنزل الكتاب والميزان وأرى الناس آية في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أن القرآن حق .

(فصل) وأما العمليات وما يسميه ناس : الفروع والشرع والفقه . فهذا قد بينه الرسول أحسن بيان ، فاشيء بما أمر الله به أو نهى عنه أو حله أو حرمه إلا بين ذلك وقد قال تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم) وقال تعالى : (ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) وقال تعالى : (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) وقال تعالى : (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه) وقال تعالى : (تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) فقد بين سبحانه أنه ما أنزل عليه الكتاب إلا لبيان لهم الذي اختلفوا فيه ، كما بين أنه أنزل جنس الكتاب مع النبيين ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وقال تعالى : (وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربى عليه توكلت وإليه أنيب) وقال تعالى : (وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون) .

قد بين للمسلمين جميع ما يتقونه كما قال : (وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه) وقال تعالى : (فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول) وهو الرد إلى كتاب الله أو إلى سنة الرسول بعد موته وقوله : (فإن تنازعتم) شرط والفعل نكرة في سياق الشرط فأى شئ تنازعوا فيه ردوه إلى الله والرسول ، ولو لم يكن بيان الله والرسول فاصلا للنزاع لم يؤمروا بالرد إليه ، والرسول أنزل الله عليه الكتاب والحكمة كما ذكر ذلك في غير موضع ، وقد علم أمته الكتاب والحكمة كما قال : (ويعلمهم الكتاب) وكان يذكر في بيته الكتاب والحكمة وأمر أزواجه بنبيه بذلك فقال : (واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة) فآيات الله هي القرآن إذ كان نفس القرآن يدل على أنه منزل من الله فهو علامة ودلالة على منزله . والحكمة : قال غير واحد من السلف هي السنة وقال أيضاً طائفة كمالك وغيره هي معرفة الدين والعمل به ، وقيل غير ذلك وكل ذلك حق فهي تتضمن التمييز بين المأمور والمحظور والحق والباطل ، وتعليم العلم بالحق دون الباطل وهذه السنة التي فرق بها بين الحق والباطل ، وبين الأعمال الحسنة من القبيحة ، والخير من الشر ، وقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك » .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كلام نحو هذا ، وهذا كثير في الحديث والآثار يذكرونه في الكتب التي يذكر فيها هذه الآثار ، كما يذكر مثل ذلك غير واحد فيما يصفونه في السنة ، مثل ابن بطة واللالكاى والطلنكى ، وقبلهم

المصنفون في السنة كأصحاب أحمد مثل عبد الله والأثرم وحرب الكرماني وغيرهم ومثل الحلال وغيره .

والمقصود هنا تحقيق ذلك ، وأن الكتاب والسنة وافيان بجميع أمور الدين ، وأما إجماع الأمة فهو في نفسه حق لا يجتمع الأمة على ضلالة ، وكذلك القياس الصحيح حق ، فإن الله بعث رسوله بالعدل وأنزل الميزان مع الكتاب ، والميزان يتضمن العدل وما يعرف به العدل ، وقد فسروا إنزال ذلك بأن أهم العباد معرفة ذلك ، والله ورسوله يسوى بين المتماثلين ويفرق بين المختلفين ، وهذا هو القياس الصحيح وقد ضرب الله في القرآن من كل مثل ، وبين بالقياس الصحيح وهي الأمثال المضروبة ما بينه من الحق ، لكن القياس الصحيح يطابق النص فإن الميزان يطابق الكتاب ، والله أمر نبيه أن يحكم بما أنزل وأمره أن يحكم بالعدل ، فهو أنزل الكتاب وإنما أنزل الكتاب بالعدل قال تعالى : (وأن احكم بينهم بما أنزل الله . وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط) وأما إجماع الأمة فهو حق لا يجتمع الأمة والله الحمد على ضلاله ، كما وصفها الله بذلك في الكتاب والسنة فقال تعالى : (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) وهذا وصف لهم بأنهم يأمرون بكل معروف ، وينهون عن كل منكر كما وصف نبيهم بذلك في قوله : (الذي يحدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف ويناهيهم عن المنكر) وبذلك وصف المؤمنين في قوله : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) فلو قالت الأمة في الدين بما هو ضلال ، لكأن لم تأمر بالمعروف في ذلك ولم تنه عن المنكر فيه وقال تعالى : (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً

لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً) والوسط العدل الخيار .

وقد جعلهم الله شهداء على الناس ، وأقام شهادتهم مقام شهادة الرسول وقد ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم : « مر عليه بجنزة فاثنوا عليها خيراً . فقال : وجبت وجبت . ثم مر عليه بجنزة فاثنوا عليها شراً . فقال : وجبت وجبت . قالوا : يا رسول الله ما قولك وجبت وجبت . قال : هذه الجنزة أثنيتم عليها خيراً فقلت وجبت لها الجنة ، وهذه الجنزة أثنيتم عليها شراً فقلت وجبت لها النار أتم شهداء الله في الأرض » .

فاذا كان الرب قد جعلهم شهداء لم يشهدوا بباطل ، فاذا شهدوا أن الله أمر بشيء فقد أمر به ، وإذا شهدوا أن الله نهى عن شيء فقد نهى عنه ، ولو كانوا يشهدون بباطل أو خطأ ، لم يكونوا شهداء الله في الأرض ، بل زكاهم الله في شهادتهم كما زكى الأنبياء فيما يبلغون عنه أنهم لا يقولون عليه إلا الحق ، وكذلك الأمة لا تشهد على الله إلا بحق وقال تعالى : (واتبع سبيل من أناب إلى) والأمة منيية إلى الله فيجب اتباع سبيلها وقال تعالى : (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه) فرضى عن اتباع السابقين إلى يوم القيامة ، فدل على أن متابعتهم عامل بما يرضى الله ، والله لا يرضى إلا بالحق لا بالباطل وقال تعالى : (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً) .

وكان عمر بن عبد العزيز يقول كلمات كان مالك يأثرها عنه كثيراً . قال :

من رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاية الأمر من بعده سننا ، الأخذ بها تصديق لكتاب الله واستعمال طاعة الله ومعونة على دين الله ، ليس لأحد تغييرها ولا النظر في رأى من خالفها ، فمن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاء الله تعالى ماتولى وأصله جهنم وساءت مصيرا .

والشافعى رضى الله عنه لما جرد الكلام فى أصول الفقه ، احتج بهذه الآية على الإجماع كما كان هو وغيره من مالك ، ذكر ذلك عن عمر بن عبد العزيز والآية دلت على أن متبع غير سبيل المؤمنين مستحق للوعيد ، كما أن مشاق الرسول من بعد ما تبين له الهدى مستحق للوعيد ، ومعلوم أن هذا الوصف يوجب الوعيد بمجردة ، فلو لم يكن الوصف الآخر يدخل فى ذلك لكان لا فائدة فى ذكره .

وهنا للناس ثلاثة أقوال : قيل اتباع غير سبيل المؤمنين هو بمجرد مخالفة الرسول المذكورة فى الآية ، وقيل بل مخالفة الرسول مستقلة بالذم ، فكذلك اتباع غير سبيلهم مستقل بالذم ، وقيل بل اتباع غير سبيل المؤمنين يوجب الذم كما دلت عليه الآية ، لكن هذا لا يقتضى مفارقة الأول ، بل قد يكون مستلزما له ، فكل متابع غير سبيل المؤمنين هو فى نفس الأمر مشاق للرسول ، وكذلك مشاق الرسول متبع غير سبيل المؤمنين وهذا كما فى طاعة الله والرسول ، فان طاعة الله واجبة وطاعة الرسول واجبة ، وكل واحد من معصية الله ومعصية الرسول موجب للذم وهما متلازمان ، فإنه من يطع الرسول فقد أطاع الله ، وفى الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من أطاعنى فقد أطاع الله ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى ومن »

(١٣ — مجموعة الرسائل)

عصاني فقد عصى الله ومن عصى أميري فقد عصاني ، وقال : « إنما الطاعة في المعروف » ، يعني إذا أمر أميري بالمعروف فطاعته من طاعتي ، وكل من عصى الله فقد عصى الرسول ، فإن الرسول يأمر بما أمر الله به ، بل من أطاع رسولا واحداً فقد أطاع جميع الرسل ، ومن آمن بواحد منهم فقد آمن بالجميع ، ومن عصى واحداً منهم فقد عصى الجميع ، ومن كذب واحداً منهم فقد كذب الجميع ، لأن كل رسول يصدق الآخر ، ويقول أنه رسول صادق ويأمر بطاعته ، فمن كذب رسولا فقد كذب الذي صدقه ، ومن عصاه فقد عصى من أمر بطاعته ، ولهذا كان دين الأنبياء واحداً كما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنا معشر الأنبياء ديننا واحد » ، وقال تعالى : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) وقال تعالى : (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون) وقال تعالى : (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين) من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون ودين الأنبياء كلهم الإسلام كما أخبر الله بذلك في غير موضع وهو الاستسلام لله وحده ، وذلك إنما يكون بطاعته فيما أمر به في ذلك الوقت فطاعة كل نبي هي دين الإسلام إذ ذاك ، واستقبال بيت المقدس كان من دين الإسلام قبل النسخ ، ثم لما أمر باستقبال الكعبة صار استقبالها

من دين الإسلام ، ولم يبق استقبال الصخرة من دين الإسلام ، ولهذا خرج اليهود والنصارى عن دين الإسلام فانهم تركوا طاعة الله وتصديق رسوله ، واعتاضوا عن ذلك بمبدل أو منسوخ ، وهكذا كل مبتدع ديناً خالف به سنة الرسول لا يتبع إلا ديناً مبدلاً أو منسوخاً ، فكل ما خالف ما جاء به الرسول إما أن يكون ذلك قد كان مشروعاً للنبي ثم نسخ على لسان محمد ، وإما أن لا يكون شرع قط فهذا كالأديان التي شرعها الشياطين على ألسنة أوليائهم قال تعالى : (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله) وقال : (وإن الشياطين ليوحرون إلى أوليائهم ليجادلوك وإن أطيعتموهم انكم لمشركون) وقال : (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون) ولهذا كان الصحابة إذا قال أحدهم برأيه شيئاً يقول : إن كان صواباً فمن الله وإن كان خطأً فني ومن الشيطان ، والله ورسوله برىء منه كما قال ذلك ابن مسعود ، وروى عن أبي بكر وعمر : فالأقسام ثلاثة : فانه إما أن يكون هذا القول موافقاً لقول الرسول أو لا يكون ، وإما أن يكون موافقاً لشرع غيره ، وإما أن لا يكون ، فهذا الثالث المبدل كأديان المشركين والمجوس ، وإما كان شرعاً لغيره وسواء وافق شرعه فقد نسخ كالسبت وتحريم كل ذى ظفر وشحم الثرب والكليتين ، فان اتخاذه السبت عيداً ، وتحريم هذه الطيبات قد كان شرعاً لموسى ثم نسخ ، بل قد قال المسيح : (ولا حل لكم بعض الذى حرم عليكم) فقد نسخ الله على لسان المسيح بعض ما كان حراماً في شرع موسى ، وأما محمد فقال الله فيه : (الذى يجذونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم

الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون) والشرك كله من المبدل لم يشرع الله الشرك قط كما قال : (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) وقال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) .

وكذلك ما كان يحرمه أهل الجاهلية بما ذكره الله في القرآن كالسائبة والوصيلة والحام وغير ذلك ، هو من الدين المبدل ، ولهذا ذكر الله ذلك عنهم في سورة الأنعام ، بين أن من حرم ذلك فقد كذب على الله ، وذكر تعالى ما حرمه على لسان محمد وعلى لسان موسى في الأنعام : (قل لا أجد فيما أوحى إلي محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة) فقال : (أودما مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بمعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون) وكذلك قال بعد هذا : (وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل) .

فبين أن ما حرمه المشركون لم يحرمه على لسان موسى ولا لسان محمد ، وهذان هما اللذان جاءا بكتاب فيه الحلال والحرام كما قال تعالى : (قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه) وقال تعالى : (ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة) وقال تعالى : (قل من أنزل الكتاب الذي جاء به

موسى — إلى قوله — وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه) وقالت الجن لما سمعت القرآن: ((إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم) وقال ورقة بن نوفل: إن هذا الذى جاء به موسى ليخرجان من مشكاة واحدة. وكذلك قال للجاشي: فالقرآن والتوراة هما كتابان جاء من عند الله لم يأت من عنده كتاب أهدى منهما، كل منهما أصل مستقل والذى فيهما دين واحد، وكل منهما يتضمن إثبات صفات الله تعالى والامر بعبادته وحده لاشريك له ففيه التوحيد قولاً وعملاً كما في سورتي الإخلاص: (قل يا أيها الكافرون. وقل هو الله أحد).

وأما الزبور فإن داود لم يأت بغير شريعة التوراة، وإنما في الزبور ثناء على الله ودعاء وأمر ونهى بدينه وطاعته وعبادته مطلقاً، وأما المسيح فانه قال: (ولاحل لكم بعض الذى حرم عليكم) فأحل لهم بعض المحرمات وهو في الأكثر متبع لشريعة التوراة. ولهذا لم يكن بد من اتباع المسيح من أن يقرأ التوراة، ويتبع ما فيها إذ كان الإنجيل تبعاً لها.

وأما القرآن فانه مستقل بنفسه لم يحوج أصحابه إلى كتاب آخر، بل اشتمل على جميع ما في الكتب من المحاسن، وعلى زيادات كثيرة لا توجد في الكتب، فلهذا كان مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيئاً عليه، يقرر ما فيها من الحق، ويبطل ما حرف منها، وينسخ ما نسخ الله، فيقر الدين الحق وهو جمهور ما فيها، ويبطل الدين المبدل الذى لم يكن فيها، والقليل الذى نسخ فيها فإن المنسوخ قليل جداً بالنسبة إلى المحكم المقرر، والانبيااء كلهم دينهم واحد

وتصديق بعضهم مستلزم تصديق سائرهم ، وطاعة بعضهم تستلزم طاعة سائرهم ، وكذلك التكذيب والمعادية لا يجوز أن يكذب نبي نبياً ، بل إن عرفه صدقه ، وإلا فهو يصدق بكل ما أنزل الله مطلقاً وهو يأمر بطاعة من أمر الله بطاعته . ولهذا كان من صدق محمداً فقد صدق كل نبي ، ومن أطاعه فقد أطاع كل نبي ، ومن كذبه فقد كذب كل نبي ، ومن عصاه فقد عصى كل نبي ، قال تعالى : (إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون تؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً أولئك هم الكافرون حقاً) وقال تعالى : (أفؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون) .

ومن كذب هؤلاء تكذيباً بجنس الرسالة ، فقد صرح بأنه يكذب الجميع ولهذا يقول تعالى : (كذبت قوم نوح المرسلين) ولم يرسل إليهم قبل نوح أحد وقال تعالى : (وقو نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم) وكذلك من كان من الملاحدة والمتفلسفة طاعناً في جنس الرسل كما قدمنا ، بأن يزعم أنهم لم يعلموا الحق ، أو لم يبينوه فهو مكذب لجميع الرسل كالذين قال فيهم : (الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون إذا الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون) وقال تعالى : (فلما جاءهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ظلم بك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر

هنالك الكافرون) وقال تعالى عن الوليد : (إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر فقال إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر) .

وأهل الكتاب منهم من يؤمن بجنس الرسالة لكن يكذب بعض الرسل كالسيح ومحمد ، فهؤلاء لما آمنوا ببعض وكفروا ببعض كانوا كافرين حقاً وكثير من لا يكذب الرسل تكديباً صريحاً من الفلاسفة والباطنية ، وكثير من أهل الكلام والتصوف ولا يؤمن بحقيقة النبوة والرسالة ، بل يقر بفضلهم في الجملة مع كونه يقول أن غيرهم أعلم منهم ، أو أنهم لم يدينوا الحق أو لبسوه أو أن النبوة هي فيض يفيض على النفوس من العقل الفعال من جنس ما يراه النائم ، ولا يقر بملائكة مفضلين ولا بالجن ونحو ذلك ، فهؤلاء يقرون ببعض صفات الانبياء دون بعض بما أوتوه دون بعض ، لا يقرون بجميع ما أوتيه الانبياء ، وهؤلاء قد يكون أحدهم شراً من اليهود والنصارى الذين أقروا بجميع صفات النبوة ، لكن كذبوا ببعض الانبياء ، فان الذي أقربه هؤلاء مما جاءت به الانبياء أعظم وأكثر إذ كان هؤلاء يقرون بأن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام ، ويقرون بقيام القيامة ، ويقرون بأنه يجب عبادته وحده لا شريك له ، ويقرون بالشرائع المنطق عليها ، وأولئك يكذبون بهذا وإنما يقرون ببعض شرع محمد ، ولهذا كان اليهود والنصارى أقل كفراً من الملاحدة الباطنية المتفلسفة ونحوهم ، لكن من كان من اليهود والنصارى قد دخل مع هؤلاء فقد جمع نوعي الكفر ، لم يؤمن بجميع صفاتهم ولا بجميع أعيانهم ، وهؤلاء موجودون في دول الكفار كثيراً ، كما يوجد أيضاً في المنتسبين إلى الإسلام من هؤلاء وهؤلاء إذ كانوا في دولة

المسلمين ، وأهل الكتاب كانوا منافقين فيهم من النفاق بحسب ما فيهم من الكفر ، والنفاق يتبع بعض ، والكفر يتبع بعض ويزيد وينقص ، كما أن الإيمان يتبع بعض ويزيد وينقص ، قال الله تعالى : (إنما النسيء زيادة في الكفر) وقال : (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون) وقال : (ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً) وقال : (وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً) وقال : (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى) وقال : (في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً) وقال : (إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً) .

وكثير من المصنفين في الكلام لا يردون على أهل الكتاب إلا ما يقرولون لأنه يعلم بالعقل ، مثل : تثليث النصارى ، ومثل : تكذيب محمد ، ولا يناظرونهم في غير هذا من أصول الدين ، وهذا تقصير منهم مخالفة لطريقة القرآن ، فإن الله يبين في القرآن ما حالفوا به الأنبياء ويذمهم على ذلك ، والقرآن مملوء من ذلك ، إذ كان الكفر والإيمان يتعلق بالرسالة والنبوة ، فإذا تبين ما خالفوا فيه الأنبياء ظهر كفرهم ، وأولئك المتكلمون لما أصلوا لهم ديناً بما أحدثوه من الكلام ، كالاستدلال بالأعراض على حدوث الأجسام ، ظنوا أن هذا هو أصول الدين ، ولو كان ما قالوه حقاً لكان ذلك جزءاً من الدين فكيف إن كان باطلاً .

وقد ذكرت في الرد على النصارى من مخالفتهم للأنبياء كلهم مع مخالفتهم لصريح العقل ما يظهر به من كفرهم ما يظهر ، ولهذا قيل فيه الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح فخطبهم في مقامين :

أحدهما : تبديلهم لدين المسيح .

والثاني : تكذيبهم لمحمد صلى الله عليه وسلم ، واليهود خطابهم في تكذيب من بعد موسى إلى المسيح ، ثم في تكذيب محمد كما ذكر الله ذلك في سورة البقرة في قوله : (ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسول وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون وقالوا قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم قليلا ما يؤمنون) ثم قال : (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين) إلى أن ذكر أنهم أعرضوا عن كتاب الله مطلقا واتبعوا السحر ، فقال : (ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان - إلى قوله - ولقد علوا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ولبئس ما أشروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون) .

والنصارى نذمهم على الغلو والشرك الذي ابتدعوه وعلى تكذيب الرسول والرهانية التي ابتدعوها ، ولا نحمدهم عليها إذ كانوا قد ابتدعوها وكل بدعة ضلالة ، لكن إذا كان صاحبها قاصداً للحق فقد يعنى عنه فيبقى عمله ضائعا

لا فائدة فيه ، وهذا هو الضلال الذي يعذر صاحبه فلا يعاقب ولا يثاب ، ولهذا قال : (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) فان المغضوب عليه يعاقب بنفس الغضب ، والضال فانه المقصود وهو الرحمة والثواب ، ولكن قد لا يعاقب كما عوقب ذلك بل يكون ملعونا مطروداً ، ولهذا في حديث زيد ابن عمرو بن نفيل أن اليهود قالوا له : لن تدخل في ديننا حتى تأخذ نصيبك من غضب الله . وقالوا له النصارى : حتى تأخذ نصيبك من لعنة الله . وقال الضحاك وطائفة : أن جهنم طبقات فالعليا لعصاة هذه الامة والتي تليها للنصارى ، والتي تليها لليهود ، فجعلوا اليهود تحت النصارى ، والقرآن قد شهد بأن المشركين واليهود يوجدون أشد عداوة للذين آمنوا من الذين قالوا إنا نصارى ، وشدة العداوة زيادة في الكفر ، فاليهود أقوى كفرا من النصارى ، وإن كان النصارى أجهل وأضل ، لكن أولئك يعاقبون على علمهم إذ كانوا عرفوا الحق وتركوه عناداً فكانوا مغضوباً عليهم ، وهؤلاء بالضلال حرّموا أجر المهتدين ، ولعنوا وطرّدوا عما يستحقه المهتدون ثم إذا قامت عليهم الحجة فلم يؤمنوا استحقوا العقاب إذ كان اسم الضلال عاماً .

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في الحديث الصحيح في خطبة يوم الجمعة : « خير الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة » ولم يقل وكل ضلالة في النار ، بل يضل عن الحق من قصد الحق وقد اجتهد في طلبه فعيجز عنه فلا يعاقب ، وقد يفعل بعض ما أمر به فيكون له أجر على اجتجاهه وخطؤه الذي ضل فيه عن حقيقة الأمر . مغفور له .

وكثير من مجتهدى السلف والخلف قد قالوا وفعلوا ما هو بدعة ، ولم يعلموا أنه بدعة ، اما لاحاديث ضعيفة ظنوها صحيحة ، واما آيات فهموا منها ما لم يرد منها ، واما لرأى رأوه وفي المسألة نصوص لم تبلغهم .

ولذا اتقى الرجل ربه ما استطاع دخل في قوله : (ربنا لا تؤاخذنا ان فسينا أو أخطأنا) وفي الصحيح ان الله قال : قد فعلت . وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا أن الرسول بين جميع الدين بالكتاب والسنة ، وأن الاجماع لاجماع الامة حق ، فانها لا تجتمع على ضلالة ، وكذلك القياس الصحيح حق يوافق الكتاب والسنة .

والآية المشهورة التي يحتج بها على الاجماع قوله : (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى) ومن الناس من يقول انها لا تدل على مورد النزاع ، فان الذم فيها لمن جمع الامرين ، وهذا لا نزاع فيه ، أو لمن اتبع غير سبيل المؤمنين التي بها كانوا مؤمنين وهى متابعة الرسول وهذا لا نزاع فيه ، أو أن سبيل المؤمنين هو الاستدلال بالكتاب والسنة وهذا لا نزاع فيه فهذا ونحوه قول من يقول : لا تدل على محل النزاع . وآخرون يقولون : بل تدل على وجوب اتباع المؤمنين مطلقا ، وتكلفوا لذلك ما تكلفوه ، كما قد عرف من كلامهم ولم يحبسوا عن أسئلة أولئك بأجوبة شافية .

والقول الثالث : الوسط : أنها تدل على وجوب اتباع سبيل المؤمنين وتحريم

اتباع غير سييلهم ، ولكن مع تحريم مشاقة الرسول من بعد ما تبين له الهدى وهو يدل على ذم كل من هذا وهذا كما تقدم ، لكن لا تنفي تلازمهما كما ذكر في طاعة الله والرسول ، وحينئذ يقول الذم اما أن يكون لاحقاً لمشاقة الرسول فقط أو اتباع غير سييلهم فقط ، أو أن يكون الذم لا يلحق بواحد منهما بل بهما إذا اجتمعا ، أو يلحق الذم بكل منهما وإن انفرد عن الآخر أو بكل منهما لكونه مستلزماً للآخر ، والاولان باطلان لأنه لو كان المؤثر أحدهما فقط ، كان ذكر الآخر ضائماً لا فائدة فيه ، وكون الذم لا يلحق بواحد منهما باطل قطعاً ، فان مشاقة الرسول موجبة للوعيد مع قطع النظر عن أتبعه ، ولحوق الذم بكل منهما وإن انفرد عن الآخر لا تدل عليه الآية فان الوعيد فيها إنما هو على المجموع ، بقى القسم الآخر وهو أن كلا من الوصفين يقتضى الوعيد لأنه مستلزم للآخر ، كما يقال مثل ذلك فى معصية الله والرسول وخفاة القرآن والاسلام ، فيقال من خالف القرآن والاسلام ، أو من خرج عن القرآن والاسلام فهو من أهل النار ، وسأله قوله : (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضلّ ضلالاً بعيداً) فان الكفر بكل من هذه الأصول يستلزم الكفر بغيره ، فمن كفر بالله كفر بالجميع ، ومن كفر بالملائكة كفر بالكتب والرسل ، فكان كافراً بالله إذ كذب ومن رسله وكتبه ، وكذلك إذ كفر باليوم الآخر كذب الكتب والرسل ، فكان كافراً وكذلك قوله : (يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون) ذمهم على الوصفين وكل منهما مقتضى للذم وهما متلازمان ولهذا نهى عنهما جميعاً فى قوله : (ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون) فانه من لبس الحق بالباطل فغطاه به فغلط به لزم أن يكتم الحق

الذى تبين أنه باطل ، إذ لو بينه زال الباطل الذى لبس به الحق ، فهكذا مشاقة الرسول واتباع غير سبيل المؤمنين من شاقه فقد اتبع غير سبيلهم ، وهذا ظاهر ومن اتبع غير سبيلهم فقد شاقه أيضا ، فانه قد جعل له مدخلا في الوعيد فدل على أنه وصف مؤثر في الذم ، فن خرج عن اجماعهم فقد اتبع غير سبيلهم قطعاً ، والآية توجب ذم ذلك ، وإذا قيل هي إنما ذمته مع مشاقة الرسول . قلنا : لأنهما متلازمان ، وذلك لأن كل ما أجمع عليه المسلمون فانه يكون منصوحاً عن الرسول ، فالخالف لهم مخالف للرسول كما أن المخالف للرسول مخالف لله ، ولكن هذا يقتضى أن كل ما أجمع عليه قد بينه الرسول وهذا هو الصواب .

فلا يوجد قط مسألة بجمع عليها إلا وفيها بيان من الرسول ، ولكن قد يخفى ذلك على بعض الناس . ويعلم الإجماع فيستدل به كما أنه يستدل بالنص من لم يعرف دلالة النص ، وهو دليل ثان مع النص كالأمثال المضروبة في القرآن ، وكذلك الاجماع دليل آخر . كما يقال : قد دل على ذلك الكتاب والسنة والاجماع ، وكل من هذه الأصول يدل على الحق مع تلازمها فان ما دل عليه الاجماع ، فقد دل عليه الكتاب والسنة ، وما دل عليه القرآن فعن الرسول أخذ ، فالكتاب والسنة كلاهما مأخوذ عنه ولا يوجد مسألة يتفق الاجماع عليها إلا وفيها نص .

وقد كان بعض الناس يذكر مسائل فيها إجماع بلا نص ، كالمضاربة وليس كذلك ، بل المضاربة كانت مشهورة بينهم في الجاهلية لا سيما قريش فان الأغلب كان عليهم التجارة ، وكان أصحاب الأموال يدفعونها إلى العمال

ورسول الله صلى الله عليه وسلم قد سافر بمال غيره قبل النبوة ، كما سافر بمال خديجة ، والغير التي كان فيها أبو سفيان كان أكثرها مضاربة مع أبي سفيان وغيرها ، فلما جاء الاسلام أقرها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أصحابه يسافرون بمال غيرهم مضاربة ولم ينه عن ذلك ، والسنة قوله وفعله واقاراره فلما أقرها ، كانت ثابتة بالسنة والاثار المشهور فيها عن عمر الذي رواه مالك في الموطأ ، ويعتمد عليه الفقهاء لما أرسل أبو موسى بمال أقرضه لابنيه واتجروا فيه وربحا ، وطلب عمر أن يأخذ الربح كله للمسلمين ، لكونه خصهما بذلك دون سائر الجيش فقال له أحدهما : لو خسر المال كان علينا كيف يكون لك الربح وعلينا الضمان ، فقال له بعض الصحابة : اجعله مضاربا فجعله مضاربة ، وإنما قال ذلك لأن المضاربة كانت معروفة بينهم والعهد بالرسول قريب لم يحدث بعده ، فعلم انها كانت معروفة بينهم على عهد الرسول ، كما كانت الفلاحة وغيرها من الصناعات كالخياطة والجزارة وعلى هذا فالمسائل المجمع عليها قد تكون طائفة من المجتهدين لم يعرفوا فيها نصا ، فقالوا فيها باجتهاد الرأي الموافق للنص ، لكن كان النص عند غيرهم وابن جرير وطائفة يقولون : لا ينعقد الاجماع إلا عن نص نقلوه عن الرسول مع قولهم بصحة القياس .

ونحن لا نشترط أن يكونوا كلهم علموا النص فنقلوه بالمعنى كما تنقل الاخبار ، لكن استقرأنا موارد الاجماع فوجدنا كلها منصوصة ، وكثير من العلماء لم يعلم النص ، وقد وافق الجماعة كما أنه قد يحتاج بقياس ، وفيها اجماع لم يعلمه فيوافق الاجماع ، وكما يكون في المسألة نص خاص ، وقد

استدل فيها بعضهم بعموم كاستدلال ابن مسعود وغيره بقوله : (وأولات
الاحمال أجعلن أن يضعن حملن) وقال ابن مسعود سورة النساء القصص
نزلت بعد الطولي أى بعد البقرة وقوله : (أجعلن أن يضعن حملن) يقتضى
انحصار الاجل فى ذلك ، فلو أوجب عليها أن تعتد بأبعد الاجلين لم يكن أجلها
أن تضع حملها ، وعلى وابن عباس وغيرهما أدخلوها فى عموم الآيتين ، وجاء
النص الخاص فى قصة سبيعة الاسلمية بما يوافق قبول ابن مسعود .

وكذلك لما تنازعوا فى المفوضة إذا مات زوجها هل لها مهر المثل ، أفتى
ابن مسعود فيها برأيه : أن لها مهر المثل ، ثم رووا حديث بروع بنت واشق بما
يوافق ذلك ، وقد خالفه على وزيد وغيرهما . فقالوا : لا مهر لها .

ثبت أن بعض المجتهدين قد يفتى بعموم أو قياس ويكون فى الحادثة نص
خاص لم يملكه فيرافقه ، ولا تعلم مسألة واحدة اتفقوا على أنه لا نص فيها ،
بل عامة ما تنازعوا فيه كان بعضهم يحتج فيه بالنصوص ، أو تلك يحتجوا
بنص كالماتوفى عنها الحامل ، وهؤلاء احتجوا بشمول الآيتين لها ، والآخرين
قالوا : إنما يدخل فى آية الحمل فقط وإن آية الشهور فى غير الحامل كما أن آية
القروء فى غير الحامل .

وكذلك لما تنازعوا فى الحرام احتج من جعله ميئنا بقوله : (لم تحرم
ما أحل الله لك تبتغى مرضات أزواجك والله غفور رحيم قد فرض الله لكم
تحلة أيمانكم) .

وكذلك لما تنازعوا فى المبتوتة هل لها نفقة أو سكنى ، احتج هؤلاء بحديث .

فاطمة ، وبأن السكنى التي في القرآن الرجعية وأوائك قالوا بل هي لها ودلالات النصوص قد تكون خفية ، فخص الله بفهمهم بعض الناس كما قال علي : إلا فيما يؤتیه الله عبدا في كتابه .

وقد يكون النص بينا ويذهل المجتهد عنه كنييم الجنب ، فانه بين في القرآن في آيتين ، ولما احتج أبو موسى على ابن مسعود بذلك . قال : الحاضر مامدى عبد الله ما يقول ، إلا أنه قال لو أرخصنا لهم في هذا لأوشك أحدهم إذا وجد المرء البرد أن يقيم ، وقد قال ابن عباس وفاطمة بنت قيس وجابر : أن المطلقة في القرآن هي الرجعية بدليل قوله : (لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا) وأى أمر يحدثه بعد الثلاثة .

وقد احتج طائفة على وجوب العمرة بقوله : (وأتموا الحج والعمرة لله) واحتج بهذه الآية من منع الفسخ وآخرون يقولون : إنما أمر بالانتهاء فقط ، وكذلك أمر الشارع أن يتم ، وكذلك في الفسخ قالوا : من فسخ العمرة إلى غير حج فلم يتمها ، أما إذا فسخها ليحج من عامه فهذا قد أتى بما تم بما شرع فيه ، فانه شرع في حج مجرد فأتى بعمرة في الحج ، ولو لم يكن هذا لانتهاء لما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه عام حجة الوداع .

وتنازعوا في الذي بيده عقدة النكاح وفي قوله : (أو لامستم النساء) ونحو ذلك بما ليس هذا موضع استقصائه .

وأما مسألة مجردة اتفقوا على أنه لا يستدل فيها بنص جلي ولا خفي فهذا ما لا أعرفه .

والجد لما قال أكثرهم أنه أب استدلوا على ذلك بالقرآن بقوله : (كما أخرج أبو بكر من الجنة) وقال ابن عباس : لو كانت الجن تظن أن الانس تسمى أبا الأب جداً لما قالت : (وأنه تعالى جد ربنا) تقول إنما هو أب لكن أب أبعد من أب .

وقد روى عن علي وزيد أنهما احتجا بقياس ، فن ادعى اجماعهم على ترك العمل بالرأى والقياس مطلقاً فقد غلط ، ومن ادعى أن من المسائل ما لم يتكلم فيها أحد منهم إلا بالرأى والقياس فقد غلط ، بل كان كل منهم يتكلم بحسب ما عنده من العلم ، فن رأى دلالة الكتاب ذكرها ، ومن رأى دلالة الميزان ذكرها .

والدلائل الصحيحة لا تتناقض ، لكن قد يخفى وجه اتفاقها أو ضعف أحدها على بعض العلماء .

والصحابة فهم في القرآن يخفى على أكثر المتأخرين ، كما أن لهم معرفة بأمور من السنة ، وأحوال الرسول لا يعرفها أكثر المتأخرين ، فانهم شهدوا التنزيل وعايروا الرسول ، وعرفوا من أقواله وأفعاله وأحواله ما يستدلون به على مرادهم ما لم يعرفه أكثر المتأخرين الذين لم يعرفوا ذلك . فطلبوا الحكم بما اعتقدوه من اجماع أو قياس .

ومن قال من المتأخرين أن الاجماع مستند معظم الشريعة ، فقد أخبر عن حاله ، فانه لنقص معرفته بالكتاب والسنة احتاج إلى ذلك ، وهذا كقولهم : إن أكثر الحوادث يحتاج فيها إلى القياس لعدم دلالة النصوص عليها ، فانما هذا قول من لا معرفة له بالكتاب والسنة ودلائلها على الأحكام .

وقد قال الامام أحمد رضى الله عنه : أنه ما من مسألة إلا وقد تكلم فيها الصحابة أو في نظيرها ، فانه لما فتحت البلاد وانتشر الاسلام ، حدثت جميع أجناس الاعمال فتكلموا فيها بالكتاب والسنة ، وإنما تكلم بعضهم بالرأى في مسائل قليلة . والاجماع لم يكن يحتاج به عامتهم ولا يحتاجون اليه إذ هم أهل الإجماع فلا إجماع قبلهم ، لكن لما جاء التابعون كتب عمر إلى شريح : اقض بما في كتاب الله فان لم تجد فيها في سنة رسول الله فان لم تجد فيها به قضى الصالحون قبلك ، وفي رواية : فيها أجمع عليه الناس ، وعمر قال : قدم الكتاب ثم السنة ، وكذلك ابن مسعود قال مثل ما قال عمر قدم الكتاب ثم السنة ثم الاجماع ، وكذلك ابن عباس كان يفتي بما في الكتاب ثم بما في السنة ، ثم بسنة أبي بكر وعمر لقوله : « اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر » .

وهذه الآثار ثابتة عن عمر وابن مسعود وابن عباس ، وهم من أشهر الصحابة بالفتيا والقضاء وهذا هو الصواب ، ولكن طائفة من المتأخرين قالوا : يبدأ المجتهد بأن ينظر أولاً في الاجماع فان وجده لم يلتفت إلى غيره ، وإن وجد نصاً خالفه اعتقد أنه منسوخ بنص لم يبلغه ، وقال بعضهم بالإجماع نسخه .

والصواب طريقة السلف ، وذلك لأن الاجماع إذا خالفه نص فلا بد أن يكون مع الاجماع نص معروف به أن ذاك منسوخ ، فاما أن يكون النص المحكم قد ضيعته الأمة وحفظت النص المنسوخ فهذا لا يوجد قط ، وهو نسبة الأمة إلى حفظ ما نهيت عن اتباعه ، واضاعة ما أمرت باتباعه ، وهي معصومة عن ذلك .

ومعرفة الاجماع قد تتعذر كثيراً أو غالباً ، فمن ذا الذى يحيط بأقوال المجتهدين بخلاف التصوص فان معرفتها ممكنة متيسرة ، وهم إنما كانوا يقضون بالكتاب أولاً لان السنة لا تنسخ الكتاب ، فلا يكون فى القرآن شئ منسوخ بالسنة بل إن كان فيه منسوخ كان فى القرآن ناسخه ، فلا يقدم غير القرآن عليه ثم إذا لم يجد ذلك طلبه فى السنة ، ولا يكون فى السنة شئ منسوخ إلا بالسنة نسخته ، لا ينسخ السنة إجماع ولا غيره ولا تعارض السنة بإجماع وأكثر ألفاظ الآثار ، فان لم يجد فالطالب قد لا يجد مطلوبه فى السنة مع أنه فيها ، وكذلك فى القرآن فيجوز له إذا لم يجده فى القرآن أن يطلبه فى السنة ، وإذا كان فى السنة لم يكن ما فى السنة معارضاً لما فى القرآن ، وكذلك الاجماع الصحيح لا يعارض كتاباً ولا سنة .

ثم بحمد الله وعونه وصلواته على خير بريته محمد وآله .

تمت الرسالة الثانية

وربها الرسالة الثالثة : التبيان فى نزول القرآن

الرسالة الثالثة
التيبان في نزول القرآن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الإمام العلامة المحقق ؛ أبو العباس أحمد بن تيمية ، رحمه الله تعالى
ورضى عنه .

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين
أما بعد فهذا :

(فصل) في نزول القرآن ، ولفظ النزول حيث ذكر في كتاب الله
تعالى ، فإن كثيراً من الناس فسروا النزول في مواضع من القرآن بغير ما هو
معناه المعروف لاشتباه المعنى في تلك المواضع ، وصار ذلك حجة لمن فسر
نزول القرآن بتفسير أهل البدع .

فن الجهمية من يقول : أنزل : بمعنى خلق ، كقوله تعالى : (وأنزلنا الحديد
فيه بأس شديد) أو يقول : خلقه في مكان عال ثم أنزله من ذلك المكان .
ومن الكلاية من يقول : أنزله بمعنى الاعلام به وافهامه للملك أو
نزول الملك بما فهمه .

وهذا الذي قالوه باطل في اللغة والشرع والعقل ، والمقصود هنا
ذكر النزول .

فنقول وبالله التوفيق : النزول في كتاب الله عز وجل . ثلاثة أنواع :
نزول مقيد بأنه منه ، ونزول مقيد بأنه من السماء ، ونزول غير مقيد
لا بهذا ولا بهذا .

فالاول : لم يرد إلا في القرآن كما قال تعالى : (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق) وقال تعالى : (نزل روح القدس من ربك بالحق) وقال تعالى : (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) وفيها قولان : أحدهما : لا حذف في الكلام بل قوله : تنزيل الكتاب . مبتدأ وخبره : من الله العزيز الحكيم . والثاني : أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى هذا تنزيل الكتاب ، وعلى كلا القولين ، فقد ثبت أنه منزل منه ، وكذلك قوله : (حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) والتنزيل : بمعنى المنزل . تسمية للمفعول باسم المصدر وهو كثير ، ولهذا يقال : القرآن كلام الله ليس بمخلوق منه بدا ، قال أحمد وغيره : واليه يعود . أى هو المتكلم به . وقال : كلام الله من الله ليس بباتن منه ، أى لم يخلقه في غيره ، فيكون مبتدأ منزلا من ذلك المخلوق ، بل هو منزل من الله كما أخبر به ومن الله بدا لا من مخلوق ، فهو الذى تكلم به لخلقه .

وأما النزول المقيد بالسما بقوله : (وأنزلنا من السماء) والسماء اسم جنس لكل ما علا ، فإذا قيد بشئ معين لقوله في غير موضع من السماء مطلق أى في العلو ، ثم قد بينه في موضع آخر بقوله : (ما أنتم أنزلتموه من المزن) وقوله : (فترى الودق يخرج من خلاله) أى أنه منزل من السحاب وما يشبه نزول القرآن قوله : (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده) فنزول الملائكة هو نزولهم بالوحي من أمره الذى هو كلامه وكذلك : (تنزل الملائكة والروح فيها) يناسب قوله : (فيها يفرق كل أمر حكيم أمراً من عندنا انا كنا مرسلين) فهذا شبيه بقوله : (قل نزل روح القدس) .

وأما المطلق في مواضع ، منها ما ذكره من انزال السكينة لقوله : (فأُنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) وقوله : (هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين) إلى غير ذلك .

ومن ذلك إنزال الميزان ، ذكره مع الكتاب في موضعين ، وجمهور المفسرين على أن المراد به العدل ، وعن مجاهد رحمه الله هو ما يوزن به ولا منافاة بين القولين ، وكذلك العدل وما يعرف به العدل منزل في القلوب والملائكة قد تنزل على قلوب المؤمنين لقوله : (إذ يوحى ربك إلى الملائكة أأنى معكم فنبتوا الذين آمنوا) فذلك الثبات نزل في القلوب بواسطة الملائكة وهو السكينة ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من طلب القضاء واستعان عليه وكل إليه ومن لم يطلب القضاء ولم يستعن عليه أنزل الله عليه ملكا يسدده ، فالله ينزل عليه ملكا ، وذلك الملك يلهمه السداد وهو ينزل في قلبه .

ومنه حديث حذيفة رضي الله عنه الذي في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ان الله أنزل الأمانة في جذر قلوب الرجال فعملوا من القرآن وعلموا من السنة ، والأمانة هي الإيمان أنزلها في أصل قلوب الرجال وهو كإنزال الميزان والسكينة وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ، المحتثين إلى آخره فذكر أربعة عشر غشيان الرحمة ، وهي أن تغشاهم كما يغشى اللباس لابس ، وكما يغشى الرجل المرأة ، والليل النهار ثم قال : (ونزلت عليهم السكينة وهو أنزلها في قلوبهم : (وحققهم الملائكة) أي جلست حولهم وذكرهم الله فيمن عنده من الملائكة .

وذكر الله الغشيان في مواضع مثل قوله تعالى : (يغشى الليل النهار) وقوله : (فلما تغشاها حلت حلا خفيفا) وقوله : (والموتفكة أهوى فغشاها ما غشى) وقوله : (ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون) هذا كله فيه إحاطة من كل وجه .

وذكر تعالى أنزال النعاس في قوله : (ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون) هذا كله فيه إحاطة من كل وجه .

وذكر تعالى أنزال النعاس في قوله : (ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمانة نعاسا يغشى طائفة منكم) هذا يوم أحد . وقال في يوم بدر : (إذ يغشاكم النعاس أمانة منه) والنعاس ينزل في الرأس بسبب نزول الأبخرة التي تدخل في الدماغ فتعقد فيحصل منها النعاس .

وطائفة من أهل الكلام منهم : أبو الحسن الأشعري ومن اتبعه من أصحاب مالك والشافعي وأحمد ، جعلوا النزول والايان والمجيء حدثا يحدثه منفصلا عنه ، فذاك هو اتيانه واستواؤه على العرش فقالوا : استواؤه فعل يفعله في العرش يصير به مستويا من غير فعل يقوم بالرب ، لكن أكثر الناس خالفوه وقالوا : المعروف أنه لا يجيء شيء من الصفات والأعراض إلا بمجيء شيء فإذا قالوا جاء البرد وجاء الحر ، فقد جاء الهواء الذي يحمل الحر والبرد ، وهو عين قائمة بنفسها ، وإذا قالوا جاءت الحمى : فالحمى حر وبرد تقوم بعين قائمة بسبب أخلاط تتحرك وتتحول من حال إلى حال فيحدث الحر والبرد بذلك ، وهذا بخلاف العرض الذي يحدث بلا تحول من حامل مثل لون الفاكهة ، فانه لا يقال في هذا جاء به الحمرة والصفرة

والخضرة ، بل يقال أحمر وأصفر وأخضر ، وإذا كان كذلك فأنزله تعالى العدل والسكينة والنعاس والامانة ، وهذه صفات تقوم بالعباد إنما تكون إذا أفضى بها إليهم ، فأعيان قائمة توصف بالنزول كما توصف الملائكة بالنزول بالوحي والقرآن ، فاذا نزل بها الملائكة قيل أنها نزلت .

وكذلك لو نزل غير الملائكة كالهواء الذي نزل بالاسباب فيحدث الله منه البخار الذي يكون معه النعاس ، فكان قد أنزل النعاس سبحانه ما يحمله .

وقد ذكر سبحانه إنزال الحديد والحديد يخلق في المعادن .

وما يذكر عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن آدم عليه السلام نزل من الجنة ومعه خمسة أشياء من حديد : السندان والكلبتان والميقعة والمطرقة والابرة ، فهو كذب لا يثبت مثله .

وكذلك الحديث الذى رواه الثعلبي عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أن الله أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض . فأنزل الحديد والماء والنار والملح ، حديث موضوع مكذوب فى إسناده سيفه ابن محمد ابن أخت سفيان الثوري رحمه الله من الكذابين المعروفين بالكذب .

قال ابن الجوزي هو سيف بن محمد ابن أخت سفيان الثوري ، يروى عن الثوري وعاصم الاحول والاعمش قال أحمد رحمه الله : هو كذاب يضع الحديث ، وقال مرة ليس بشيء ، وقال يحيى كان كذابا خبيثا ، وقال مرة ليس بثقة ولا مأمون ، وقال الدارقطني ضعيف متروك ، والناس يشهدون

أن هذه الأمة تصنع من حديد المعادن ما يريدون ، فان قيل ان آدم عليه السلام نزل معه جميع الآلات ، فهذه مكابرة للبيان وان قيل بل نزل معه آلة واحدة وتلك لا تعرف ، فأى فائدة فى هذا لسائر الناس ثم ما يصنع بهذه الآلات إذا لم يكن ثم حديد موجود يطرُق بهذه الآلات ، وإذا خلق الله الحديد صنعت منه هذه الآلات ، مع أن المأثور أن أول من خط وخطا لإدريس عليه السلام ، وآدم عليه السلام لم يخط ثوبا فما يصنع بالآلة .

ثم أخبر أنه أنزل الحديد فكان المقصود الأكبر بذكر الحديد ، هو اتخاذ آلات الجهاد منه كالسيف والسنان والنصل وما أشبه ذلك ، الذى به ينصر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وهذا لم ينزل من السماء ، فان قيل نزلت الآلة التى يطبخ بها ، قيل قاله أخبر أنه أنزل الحديد لهذه المعانى المتقدمة ، والآلة وحدها لا تكفى بل لابد من مادة يصنع بها آلات الجهاد ، لكن لفظ النزول أشكل على كثير من الناس حتى قال قطرب رحمه الله معناه جعله نزلا ، كما يقال أنزل الأمر على فلان نزلا حسناً أى جعله نزلا ، قال ومثله قوله تعالى : (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) وهذا ضعيف فان النزول إنما يطلق على ما يؤكل لاعلى ما يقابل به قال الله تعالى : (فنزل من حميم) والضيافة سميت نزلا لان العادة أن الضيف يكون راكباً فينزل فى مكان يؤتى إليه بضيافته فيه ، فسميت نزلا لأجل نزوله ، ونزل بنى فلان ضيف ، ولهذا قال نوح عليه السلام : (رب أنزلنى نزلا مباركا وأنت خير المنزلين) لانه كان راكباً فى السفينة وسميت المواضع التى ينزل بها المسافرون منازل ، لأنهم يكونون ركباناً فينزلون والمشاة تبع للركبان ، وتسمى المساكن منازل .

وجعل بعضهم : نزول الحديد بمعنى الخلق لانه أخرجه من المعادن وعليهم
صنعتة ، فان الحديد إنما يخلق في المعادن ، والمعادن إنما تكون في الجبال ،
فالحديد ينزله الله من معادته التي في الجبال لينتفع به بنو آدم ، وقال تعالى :
(وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) .

وهذا مما أشكل أيضاً فمنهم من قال جعل ، ومنهم من قال خلق لكونها
تخلق من الماء ، فان به يكون النبات الذي ينزل أصله من السماء وهو الماء
وقال قطرب : جعلناه نزلا ولا حاجة إلا لإخراج اللفظ عن معناه المعروف
لغة ، فان الأنعام تنزل من بطون أمهاتها ومن أصلاب آبائها تأتي بطون
أمهاتها ، ويقال للرجل قد أنزل الماء ، وإذا أنزل وجب عليه الغسل ، مع
أن الرجل غالب لإنزاله ، وهو على جنب ، إما وقت الجماع وإما بالاحتلام ،
فكيف بالأنعام التي غالب لإنزالها مع قيامها على رجلها وارتفاعها على ظهور
الاناث .

وبما بين هذا أنه لم يستعمل النزول فيما خلق من السفليات ، فلم يقل
أنزل النبات ولا أنزل المرعى ، وإنما استعمل فيما يخلق في محل عال وأنزله
الله من ذلك المحل كالحديد والأنعام .

وقال تعالى : (يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً
الآية) وفيها قراءتان إحداهما بالنصب فيكون لباس التقوى أيضاً منزلاً ،
وأما قراءة الرفع فلا وكلتاها حق ، وقد قيل خلقناه ، وقيل أنزلنا أسبابه ،
وقيل ألهمناهم كيفية صنعتة ، وهذه الأقوال ضعيفة ، فان النبات الذي ذكروا
لم يحن فيه لفظ أنزلنا ولم يستعمل في كل ما يصنع أنزلنا ، فلم يقل أنزلنا

الدور وأنزلنا الطبخ ونحو ذلك ، وهو لم يقل انا أنزلنا كل لباس ورياش ، وقد قيل إن الريش والرياش المراد به اللباس الفاخر كلاهما بمعنى واحد مثل اللبس واللباس ، وقد قيل هما المال والخصب والمعاش ، وارتاش فلان حسنت حاله .

والصحيح أن الريش هو الاثاث والمتاع ، قال أبو عمر والعرب تقول : أعطاني فلان ريشه أى كسوته وجهازه ، وقال غيره الرياش في كلام العرب الاثاث وما ظهر من المتاع والثياب والفرش ونحوها ، وبمض المفسرين أطلق عليه لفظ المال ، والمراد به مال مخصوص قال ابن زيد جمالا ، وهذا لأنه مأخوذ من ريش الطائر وهو ما يروش به ويدفع عنه الحر والبرد ، وجمال الطائر ريشه ، وكذلك ما يبيت فيه الإنسان من الفرش وما يبسطه تحته ونحو ذلك ، والقرآن مقصوده جنس اللباس الذى يلبس على البدن وفي البيوت كما قال تعالى : (والله جعل لَكُمْ من بيوتكم سكنا الآية) فامتن سبحانه بما ينتفعون به من الانعام فى اللباس والاثاث ، وهذا والله أعلم معنى إنزاله ، فإنه ينزله من ظهور الانعام وهو كسوة الانعام من الاصواف والابواب والاشعار ، وينتفع به بنو آدم من اللباس والرياش ، فقد أنزلها عليهم ، وأكثر أهل الارض كسوتهم من جلود الدواب ، فهى لدفع الحر والبرد ، وأعظم مما يصنع من القطن والكتان والله تعالى ذكر فى سورة النحل إنعامه على عباده ، فذكر فى أول السورة أصول النعم التى لا يعيش بنو آدم إلا بها ، وذكر فى أثناءها تمام النعم التى لا يطيب عيشهم إلا بها فذكر فى أولها الرزق الذى لا بد لهم منه ، وذكر ما يدفع البرد من الكسوة يقوله : (والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنها تأكلون) ثم فى أثناء السورة

ذكر لهم المساكن ومنافع التي يسكنونها مساكن الحاضرة والبادية ومساكن المسافرين فقال تعالى : (والله جعل لكم من بيوتكم سكناً الآية) ثم ذكر إناعاه بالظلال التي تقيهم الحر والبأس فقال : (والله جعل لكم مما خلق ظلالاً وجعل لكم من الجبال أكنانا — إلى قوله — كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون) ولم يذكر هنا ما بقي من البرد لأنه قد ذكره في أول السورة وذلك في أصول النعم لأن البرد يقتل فلا يقدر أحد أن يعيش في البلاد الباردة بلا دفء بخلاف الحر ، فانه أذى لكنه لا يقتل كما يقتل البرد ، فإن الحر قد يتقى بالظلال واللباس وغيرهما ، وأهله أيضاً لا يحتاجون إلى وقاية كما يحتاج إليه البرد ، بل أذى وقاية تكفيهم وهم في الليل وطرفي النهار ، ولا يتأذون به تأذياً كثيراً بل لا يحتاجون إليه أحياناً حاجة قوية تجمع بينهما في قوله : (سراييل تقيمكم الحر . وسراييل تقيمكم بأسكم) ولا حذف في اللفظ ولا قصور في المعنى كما يظنه من لم يحسن القرآن ، بل لفظه أتم لفظ ومعناه أكمل المعاني فاذا كان اللباس والرياش يزل من ظهور الأنعام ، وكسوة الأنعام منزلة من الأصلاب والبطون كما تقدم ، فهو منزل من الجهتين فانه على ظهور الأنعام لا ينتفع به بنو آدم حتى ينزل .

فقد تبين أن ليس في القرآن ولا في السنة لفظ نزول إلا فيه معنى النزول المعروف ، هذا هو اللائق بالقرآن فإنه نزل بلغة العرب ولا تعرف العرب منزولاً إلا بهذا المعنى ، ولو أريد غير هذا المعنى لكان خطاباً بغير لغتها ، ثم هو استعمال اللفظ المعروف له معنى في معنى آخر بلا بيان ، وهذا لا يجوز بما ذكرنا ، وبهذا يحصل مقصود القرآن واللغة الذي أخبر الله تعالى أنه بينه

وجعله هدى للناس ، وليكن هذا آخره والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليماً كثيراً .

وسئل أيضاً رحمه الله تعالى : عن عرض الأديان عند الموت ، هل لذلك أصل في الكتاب والسنة أم لا . وقوله صلى الله عليه وسلم : « إنكم لتفتنون في قبوركم » ، ما المراد بالفتنة وإذا ارتد العبد والعياذ بالله تعالى هل يجازى بأعماله الصالحة قبل الردة أم لا .

الجواب : الحمد لله ، أما عرض الأديان على العبد وقت الموت فليس هو أمراً عاماً لكل أحد ، ولا هو أيضاً منتفياً عن كل أحد ، بل من الناس من تعرض عليه الأديان ، ومنهم من لا تعرض عليه ، وقد وقع ذلك لأقوام وذلك كله من فتنة الحيا والمات التي أمرنا أن نستعين منها في صلاتنا ، منها ما في الحديث الصحيح الذي أمرنا النبي صلى الله عليه وسلم أن نستعين في صلاتنا من أربع : من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة الحيا والمات ، ومن فتنة المسيح الدجال . ولكن وقت الموت يكون الشيطان أحرص ما يكون على إغواء ابن آدم لانه وقت الحاجة ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : « الأعمال بخواتيمها » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار وإن العبد ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة » ، ولهذا روى أن الشيطان أشد ما يكون على ابن آدم حين الموت ، يقول لأعوانه دونكم هذا فانه إن فاتكم لن تظفروا به أبداً ،

وحكاية عبد الله بن أحمد بن حنبل مع أبيه وهو يقول لا بعد لا بعد مشهورة ،
ولهذا يقال أن من لم يحج يخاف عليه من ذلك ، لما روى أنس بن مالك رضى
الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى
بيت الله الحرام ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً ، قال الله
تعالى : (والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله
غنى عن العالمين) قال عكرمة : لما نزلت هذه الآية : (ومن يبغ غير
الإسلام ديناً فلن يقبل منه) قالت اليهود والنصارى : نحن مسلمون .
فقال الله لهم : (والله على الناس حج البيت) فقالوا : لانحجه . فقال الله
تعالى : (ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين) .

وأما الفتنة في القبور ، ففي الامتحان والاختبار للبيت حين يسأله المملكان
فيقولان له : ما ربك وما دينك ومن نبيك ، ويقولان له : ما كنت تقول
في هذا الرجل الذي بعث فيكم محمد ، فيثبت الله الذين آمنوا بالقول
الثابت . فيقول المؤمن : الله ربي ، والإسلام ديني ، ومحمد نبي ، ويقول :
هو محمد رسول الله جاءنا بالبينات والهدى فأمنأ به واتبعناه ، فينتهرانه
انتهارة شديدة ، وهي آخر فتنة التي يفتن بها المؤمن فيقولان له كما
قال أولاً .

وقد تواترت الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الفتنة من
حديث البراء بن عازب وأنس بن مالك وأبي هريرة وغيرهم رضى الله عنهم ،
وهي عامة للمكلفين إلا النبيين فقد اختلف فيهم ، وكذلك اختلف في غير
المكلفين كالصبيان والمجانين . فقيل : لا يفتنون لأن المحنة إنما تكون للمكلفين

وهذا قول القاضي أبو يعلى وابن عقيل ، وعلى هذا فلا يلقنون بعد الموت ، وقيل بل يلقنون ويفتون أيضاً ، وهذا قول أبي حكيم وأبي الحسن بن عبيد ، ونقله عن أصحابه وهو مطابق لقول من يقول : أنهم مكلفون يوم القيامة ، كما هو قول أكثر أهل العلم ، وأهل السنة من أهل الحديث والكلام ، وهو الذى ذكره أبو الحسن الأشعرى عن أهل السنة واختاره ، وهو مقتضى فصوص الإمام أحمد .

وأما الردة عن الإيمان ، بأن يصير الرجل كافراً مشركاً ، أو كتيباً فانه إذا مات على ذلك والعياذ بالله تعالى حبط عمله باتفاق العلماء ، كما نطق بذلك القرآن فى غير موضع كقوله تعالى : (ومن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) وقوله : (ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله) وقوله : (ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون) وقوله : (لئن أشركت ليحبطن عملك) والمراد غير النبي صلى الله عليه وسلم ، ولكن التنازع فيها إذا ارتد ثم عاد إلى الإسلام ، هل تحبط الأعمال التى عملها قبل الردة ، ويجب عليه تحضاؤها ، أم لا تحبط إلا إذا مات مرتداً ، على قولين مشهورين هما قولان فى مذهب الإمام أحمد .

والجواب مذهب الإمامين مالك وأبي حنيفة ، وهو الراجح والوقف مذهب الشافعى ، وتنازع الناس أيضاً فى المرتد ، هل يقال كان له إيمان صحيح فحبط بالردة أم يقال بل الردة تبين أن إيمانه كان فاسداً وأن الإيمان الصحيح لا يزول البتة ، على قولين لطوائف من الناس ، وعلى ذلك

يفتني قول المستثنى: أنا مؤمن إن شاء الله ، هل يعود الاستثناء إلى كمال الإيمان في الحال ، أو يعود إلى الموافقة في المال ، والله أعلم .
قاله أحمد بن تيمية ، أحسن الله جزاءه وتوفيقه .

تمت الرسالة الثالثة

وبلغها الرسالة الرابعة : الوصية الصغرى

الرسالة الرابعة

الوصية الصغرى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سؤال أبي القاسم ، القاسم بن يوسف بن محمد التجيبي السبتي ؛ يتفضل سيدنا الشيخ الفقيه الإمام الفاضل العالم ، بقية السلف قدوة الخلف المبدع المغرب المغرب المفصح ، أعلم من لقيت ببلاد المشرق والمغرب ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية أبق الله علينا بركته ، بأن يوصيني بما يكون فيه صلاح ديني ودنياي ، ويرشدني إلى كتاب يكون عليه اعتمادى فى علم الحديث ، وكذلك فى غيره من العلوم الشرعية ، وينهينى على أفضل الأعمال الصالحة بعد الواجبات ويبين لى أرجح المسكاسب ، كل ذلك على قصد الإيماء والاختصار . والله تعالى يحفظه والسلام الكريم عليه ورحمة الله وبركاته .

قال شيخ الإسلام بجر العلوم ابن تيمية رحمه الله ورضى عنه :

الحمد لله رب العالمين ﴿ أما الوصية ﴾ فما أعلم وصية أنفع من وصية الله ورسوله لمن عقلها واتبعها قال الله تعالى : (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله) ووصى النبي صلى الله عليه وسلم معاذ لما بعثه إلى اليمن فقال يا معاذ : « اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن ، وكان معاذ رضى الله عنه من النبي صلى الله عليه وسلم بمنزلة عليه ، فإنه قال له : « يا معاذ والله إنى لأحبك ، وكان يردفه وراءه ، وروى فيه أنه أعلم الأمة بالحلال والحرام ، وأنه يحشر أمام العلماء برتبة : أى بخطوة . ومن فضله بعثه النبي صلى الله عليه وسلم مبلغاً عنه داعياً ومفتياً وحاكماً إلى أهل اليمن ، وكان يشبهه إبراهيم الخليل عليه

السلام ، وإبراهيم إمام الناس ، وكان ابن مسعود رضى الله عنه يقول : إن معاذاً كان أمة قاتناً خفيفاً ولم يك من المشركين . تشبيهاً له بإبراهيم ثم أنه وصاه هذه الوصية ، فعلم أنها جامعة وهى كذلك لمن عاقلها ، مع أنها تفسير الوصية القرآنية .

أما بيان جمعها فلأن العبد عليه حقان : حق لله عز وجل ، وحق لعباده ، ثم الحق الذى عليه لابد أن يخل ببعضه أحياناً ، أما ترك مأموره أو فعل منهى عنه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « اتق الله حيثما كنت » وهذه كلمة جامعة ، وفى قوله حيثما كنت تحقيق لحاجته إلى التقوى فى السر والعلاية ، ثم قال : « وأتبع السيئة الحسنة تمحها » فإن الطبيب متى تناول المريض شيئاً مضراً أمره بما يصلحه ، والذنب للعبد كأنه أمر حرم ، فالكيس هو الذى لا يزال يأتى من الحسنات بما يمحو السيئات ، وإنما قدم فى لفظ الحديث السيئة وإن كانت مفعولة ، لأن المقصود هنا محوها لافعل الحسنة ، فصار كقوله : « صبروا على بوله ذنوباً من ماء » .

وينبغى أن تكون الحسنات من جنس السيئات ، فإنه أبلغ فى المحو والذنوب يزول موجهها بأشياء . أحدها : التوبة . والثانى : الاستغفار من غير توبة ، فإن الله تعالى يغفر له لإجابة لدعائه وإن لم يتب ، فإذا اجتمعت التوبة والاستغفار فهو الكمال . الثالث : الأعمال الصالحة المغفرة ، أما الكفارات المقدرة كما يكفر المجامع فى رمضان ، والمظاهر والمرتكب لبعض محظورات الحج ، أو تارك بعض واجباته ، أو قاتل الصيد بالكفارات المقدرة وهى أربعة أجناس : هدى ، وعتق ، وصدقة ، وصيام . وأما

الكفارات المطلقة كما قال حذيفة لعمر : فتنة الرجل في أهله وماله وولده ، يكفرها الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد دل على ذلك القرآن والأحاديث الصحاح في التكفير بالصلوات الخمس والجمعة والصيام والحج وسائر الأعمال التي يقال فيها : من قال كذا وعمل كذا غفر له ، أو غفر له ما تقدم من ذنبه ، وهي كثيرة لمن تلقاها من السنن خصوصاً ما صنف من فضائل الأعمال .

واعلم أن العناية بهذا من أشد ما بالإنسان الحاجة إليه ، فإن الإنسان من حين يبلغ خصوصاً في هذه الأزمنة ، ونحوها من أزمنة الفترات التي تشبه الجاهلية من بعض الوجوه ، فإن الإنسان الذي ينشأ بين أهل علم ودين قد يتلطف من أمور الجاهلية بعدة أشياء ، فكيف بغير هذا وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث أبي سعيد رضى الله عنه : « لتبتعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » . قالوا : يا رسول الله اليهود والنصارى . قال : فمن هذا خبر تصديقه في قوله تعالى : (فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلافهم وخضتم كالذي خاضوا) ولهذا شواهد في الصحاح والحسان ، وهذا أمر قد يسرى في المنتسبين إلى الدين من الخاصة كما قال غير واحد من السلف منهم ابن عيينة ، فإن كثيراً من أحوال اليهود قد ابتلى به بعض المنتسبين إلى العلم ، وكثيراً من أحوال النصارى قد ابتلى به بعض المنتسبين إلى الدين ، كما يبصر ذلك من فهم دين الإسلام الذي بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم ثم نزل به على أحوال الناس ، وإذا كان الأمر كذلك : فمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه وكان ميتاً فأحياه الله وجعل له نوراً يمشى به في الناس لا بد أن

يلاحظ أحوال الجاهلية وطرفي الامتين المغضوب عليهم، والضالين من اليهود والنصارى فيرى أن قد ابتلى ببعض ذلك .

فأنفع ما للخاصة والعامة العلم بما يخلص النفوس من هذه الورطات ، وهو اتباع السيئات الحسنات ، والحسنات مآندب الله إليه على لسان خاتم النبيين من الأعمال والأخلاق والصفات ، وبما يزيل موجب الذنوب المصائب المكفرة ، وهي كل ما يؤلم من هم أو حزن أو أذى في مال أو عرض أو جسد أو غير ذلك ، لكن ليس هذا من فعل العبد .

فلما قضى بهاتين الكلمتين حق الله من عمل الصالح وإصلاح الفاسد قال :
« وخالق الناس بخلق حسن » وهو حق الناس .

وجماع الخلق الحسن مع الناس ، أن تصل من قطعك بالسلام والإكرام والدعاء له والاستغفار والثناء عليه والزيارة له ، وتعطى من حرمك من التعليم والمنفعة والمال ، وتعفو عن ظلمك في دم أو مال أو عرض ، وبعض هذا واجب وبعضه مستحب .

وأما الخلق العظيم الذى وصف الله به محمداً صلى الله عليه وسلم ، فهو الدين الجامع لجميع ما أمر الله به مطلقاً ، هكذا قال مجاهد وغيره وهو تأويل القرآن كما قالت عائشة رضى الله عنها : كان خلقه القرآن وحقيقته المبادرة إلى امتثال ما يحبه الله تعالى بطيب نفس وانشراح صدر .

وأما بيان أن هذا كله فى وصية الله ، فهو ان اسم تقوى الله يجمع فعل كل ما أمر الله به إيجاباً واستحباباً ، وما نهى عنه تحريماً وتنزيهاً ، وهذا يجمع

حقوق الله وحقوق العباد ، لكن لما كان تارة يعنى بالتقوى خشية العذاب المقتضية
 الانكفاف عن المحارم ، جاء مفسراً فى حديث معاذ ، وكذلك فى حديث
 أبى هريرة رضى الله عنهما الذى رواه الترمذى وصححه قيل : يا رسول الله
 ما أكثر ما يدخل الناس الجنة . قال : « تقوى الله وحسن الخلق » وقيل
 ما أكثر ما يدخل الناس النار . قال : « الأجر فان : الفم والفرج ، وفى الصحيح عن
 عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً » فجعل كمال الإيمان فى كمال حسن الخلق
 ومعلوم أن الإيمان كله تقوى الله ، وتفصيل أصول التقوى وفروعها لا يحتمله
 هذا الموضع ، فانها الدين كله لكن يذبوع الخير وأصله إخلاص العبد لربه
 عبادة واستعانة كما فى قوله : (إياك نعبد وإياك نستعين) وفى قوله :
 (فاعبده وتوكل عليه) وفى قوله : (عليه توكلت وإليه أنيب) وفى قوله :
 (فابتنوا عند الله الرزق واعبدوه) واشكروا له بحيث يقطع العبد تعلق
 قلبه من المخلوقين انتفاعاً بهم أو عملاً لأجلهم ، ويجعل همهته ربه تعالى ،
 وذلك بملازمة الدعاء له فى كل مطلوب ؛ من فاقة وحاجة وخافة وغير
 ذلك ، والعمل له بكل محبوب ، ومن أحكم هذا فلا يمكن أن يوصف
 ما يعقبه ذلك .

وأما ما سألت عنه من أفضل الأعمال بعد الفرائض : فإنه يختلف
 باختلاف الناس فيما يقدرون عليه وما يناسب أوقاتهم ، فلا يمكن فيه جواب
 جامع مفصل لكل أحد ، لكن مما هو كالإجماع بين العلماء بالله وأمره ملازمة
 ذكر الله دائماً ، هو أفضل ما شغل العبد به نفسه فى الجملة ، وعلى ذلك حديث
 أبى هريرة الذى رواه مسلم : « سبق المفردون . قالوا : يا رسول الله ومن

المفردون . قال : الناكرون الله كثيراً والذاكرات ، وفيما رواه أبو داود عن أبي الدرداء رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليكم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إعطاء الذهب والورق ومن أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم . قالوا : بلى يا رسول الله . قال : ذكر الله ، والدلائل القرآنية والإيمانية بصرأ وخبرأ ونظراً على ذلك كثيرة ، وأقل ذلك أن يلزم العبد الأذكار المأثورة عن معلم الخير وإمام المتقين صلى الله عليه وسلم ، الأذكار المؤقتة في أول النهار وآخره ، وعند أخذ المضجع ، وعند الاستيقاظ من المنام ، وأدبار الصلوات ، والأذكار المقيدة مثل ما يقال عند الأكل والشرب واللباس والجماع ودخول المنزل والمسجد والخلاء والخروج من ذلك وعند المطر والرعد إلى غير ذلك ، وقد صنفت له الكتب المسماة « بعمل يوم وليلة » ثم ملازمة الذكر مطلقاً وأفضله لا إله إلا الله ، وقد تعرض أحوال يكون بقية الذكر مثل : سبحان الله والحمد لله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله أفضل منه ، ثم يعلم أن كل ما تكلم به اللسان وتصوره القلب مما يقرب إلى الله من تعلم علم وتعليمه وأمر بمعروف ونهى عن منكر فهو من ذكر الله ، ولهذا من اشتغل بطلب العلم النافع بعد أداء الفرائض ، أو جلس مجلساً يتفقه أو يفقه فيه الفقه الذى سماه الله ورسوله فقهاً ، فهذا أيضاً من أفضل ذكر الله ، وعلى ذلك إذا تدبرت لم تجد بين الأولين فى كلماتهم فى أفضل الأعمال كبير اختلاف ، وما اشتبه أمره على العبد فعليه بالاستخارة المشروعة ، فما ندم من استخار الله تعالى ، وليكثر من ذلك يوم الدعاء فانه مفتاح كل خير ولا يعجل فيقول : قد دعوت فلم يستجبلى

ولينحر الاوقات الفاضلة كآخر الليل وأدبار الصلوات وعند الاذان ووقت نزول المطر ونحو ذلك .

(وأما أرجح المكاسب) فالتوكل على الله والثقة بكفايته وحسن الظن به ، وذلك أنه ينبغي للهتم بأمر الرزق أن يلجأ فيه إلى الله ويدعوه ، كما قال سبحانه فيما يآثر عنه نبيه : « كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم » ، وفيما رواه الترمذى عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى شسع نعله إذا انقطع فإنه إن لم يسره لم يتيسر » وقد قال الله تعالى فى كتابه : (واسألوا الله من فضله) وقال سبحانه : (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله) وهذا وإن كان فى الجمعة فعناه قائم فى جميع الصلوات ، ولهذا والله أعلم أمر النبي صلى الله عليه وسلم للذى يدخل المسجد أن يقول : اللهم افتح لى أبواب رحمتك . وإذا خرج أن يقول : اللهم إنى أسألك من فضلك ، وقد قاله الخليل صلى الله عليه وسلم : « فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له » وهذا أمر والأمر يقتضى الإيجاب فالاستعانة بالله واللجأ إليه فى أمر الرزق وغيره أصل عظيم .

ثم ينبغى له أن يأخذ المال بسخاوة نفس ليبارك له فيه ، ولا يأخذه بأشراف وهلع ، بل يكون المال عنده بمنزلة الخلاء الذى يحتاج اليه من غير أن يكون له فى القلب مكانة ، والسعى فيه إذا سعى كاصلاح الخلاء .

وفى الحديث المرفوع رواه الترمذى وغيره : « من أصبح والدنيا

أكبر همه شئت الله عليه شمله وفرق عليه ضيعته ولم يأت من الدنيا إلا ما كتب له ومن أصبح والآخرة أكبر همه جمع الله عليه شمله وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة ، وقال بعض السلف : أنت محتاج إلى الدنيا وأنت إلى نصييك من الآخرة أخرج . فان بدأت بنصييك من الآخرة مر على نصييك من الدنيا فانتظمه انتظاما قال الله تعالى : (وما خلقت الجن والإانس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) .

فأما تعيين مكسب على مكسب من صناعة أو تجارة أو بناية أو حراثة أو غير ذلك ، فهذا يختلف باختلاف الناس ، ولا أعلم في ذلك شيئا عاما لكن إذا عن الإنسان جهة فليستخر الله تعالى فيها الاستخارة المتلقاة عن معلم الخير صلى الله عليه وسلم ، فان فيها من البركة ما لا يحاط به ثم ما ييسر له فلا يتكلف غيره إلا أن يكون منه كراهة شرعية .

وأما ما تعتمد عليه من الكتب في العلوم ، فهذا باب واسع وهو أيضاً يختلف باختلاف نشأ الإنسان في البلاد ، فقد ييسر له في بعض البلاد من العلم أو من طريقه ومذهبه فيه ما لا ييسر له في بلد آخر ، لكن جماع الخير أن يستعين بالله سبحانه في تلقى العلم الموروث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فانه هو الذى يستحق أن يسمى علماً ، وماسواه إما أن يكون علماً فلا يكون نافعا ، وإما أن لا يكون علماً وإن سمي به ، ولإن كان علماً نافعا فلا بد أن يكون في ميراث محمد صلى الله عليه وسلم ما يغنى عنه ، بما هو مثله وخير منه ، ولتكن همته فهم مقاصد الرسول في أمره ونهيه وسائر كلامه ، فاذا

اطمأن قلبه أن هذا هو مراد الرسول فلا يعدل عنه فيما بينه وبين الله تعالى، ولا مع الناس إذا أمكنه ذلك .

وليجتهد أن يعتصم في كل باب من أبواب العلم بأصل مأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وإذا اشتبه عليه بما قد اختلف فيه الناس فليدع بما رواه مسلم في صحيحه عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا قام يصلى من الليل : د اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون إهدنى لما اختلف فيه من الحق باذنك أنت تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم ، فان الله تعالى قد قال فيما رواه عنه رسوله : د يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم .

وأما وصف الكتب والمصنفين ، فقد سمع منا فى أثناء المذاكرة ما يسهره الله سبحانه ، وما فى الكتب المصنفة المبوبة كتاب أنفع من صحيح محمد ابن إسماعيل البخارى ، لكن هو وحده لا يقوم بأصول العلم ، ولا يقوم بنوام المقصود للمتبحر فى أبواب العلم ، إذ لابد من معرفة أحاديث آخر ، وكلام أهل الفقه وأهل العلم فى الأمور التى يختص بعلمها بعض العلماء . وقد أوعبت الأمة فى كل فن من فنون العلم إيعابا من نور الله ، قلبه هداه بما يبلغه من ذلك ، ومن أعماه لم تزد كثرة الكتب إلا حيرة وضلالا ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لابن لبيد الانصارى : د أوليست التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى فإذا تغنى عنهم ، ففسأل الله العظيم أن يرزقنا الهدى والسداد ، ويلهمنا رشدنا ، ويقينا شر أنفسنا ، وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ

هدانا ، ويهب لنا من لدنه رحمة ، إنه هو الوهاب . والحمد لله رب العالمين ،
وصلواته على أشرف المرسلين .

وجد بأصله ما نصه

سمع هذه الوصية على مصنفها شيخنا إمام الأئمة الاعلام شيخ الإسلام ،
سيد الحفاظ والمحدثين ، قدوة المسلمين مفتي الفرق ، علم الهدى ، تقي الدين
أبي العباس أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن تيمية الحاراني رضي الله عنه ،
أخوه الإمام العالم شرف الدين أبو محمد عبدالله ، والشيخ الإمام العالم الزاهد
شمس الدين محمد بن أبي العباس الدباهي ، وعز الدين عبد العزيز بن عبد اللطيف
ابن عبد العزيز بن عبد السلام بن تيمية ، ونور الدين محمد بن شرف الدين محمد
ابن علاء الدين محمد بن عبد القادر بن عبد الخالق الأنصاري ابن الصائغ ،
والشيخ أبو بكر بن قاسم بن أبي بكر الرحبي السكتاني ، وزين الدين عبادة
ابن عبد الغني بن منصور بن منصور بن إبراهيم بن سلامة الحاراني ، وجريرو
ابن سعيد بن حميد الغساني ، وعبد المجيد بن محمود بن أحمد الجيلي ، وناصر الدين
محمد بن أحمد بن عبد الغني بن العلائي الحاراني . وذلك بقراءة القاسم بن محمد
ابن يوسف البرزالي في ليلة ثالث شهر ربيع الآخر سنة سبع وتسعين وستمائة
بدار الحديث بالقصاعين بدمش .

والحمد لله رب العالمين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلى
الله على محمد ، وآله وصحبه وسلم انتهى .

تمت الرسالة الرابعة . ويلها الرسالة الخامسة : التية

الرسالة الخامسة

النية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مسألة في النية : في الطهارة ، والصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، والعتق ، والجهاد وغير ذلك ، فهل محل ذلك القلب أم اللسان ، وهل يجب أن يجهر بالنية أم يستحب ذلك ، أو قال أحد من المسلمين : إن لم يفعل ذلك بطلت صلاته وغيرها ، أو قال أحد : أن صلاة الجاهر أفضل من صلاة الخافت إماما كان أو مأموماً أو منفرداً ، والتلفظ بها : هل هو واجب أولاً أو قال أحد من الأئمة الأربعة أو غيرهم من أئمة المسلمين : إن لم يتلفظ بالنية بطلت صلاته ، وإن كانت غير واجبة ، فهل يستحب التلفظ بها ، وما السنة التي كان عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون في ذلك ، وإذا أصر على الجهر بهامعتداً أن ذلك مشروع ، فهل هو مبتدع مخالف لشريعة الاسلام ، وهل يستحق التعزير على ذلك والعقوبة عليه إذا لم ينته أم لا .

فأجاب عنها الشيخ الإمام العالم الزاهد العابد الورع شيخ الاسلام ، مفتي الانام أوجد عصره وفريد دهره ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن تيمية الحراني رضي الله عنه وأرضاه ، في شهر صفر سنة خمس وعشرين وسبعمائة وهو في دمشق المحروسة .

الحمد لله رب العالمين . محل النية : القلب دون اللسان باتفاق أئمة المسلمين في جميع العبادات : الطهارة والصلاة والزكاة والصيام والحج والعتق والجهاد وغير ذلك ، ولو تكلم بلسانه بخلاف ما نوى في قلبه ، كان الاعتبار بما نوى لا بما لفظ ، ولو تكلم بلسانه بالنية ولم تحصل النية في قلبه لم يحز ذلك باتفاق

أئمة المسلمين ، فإن النية هي من جنس القصد والعزم ، تقول العرب : نواك الله بخير أى قصدك بخير ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه ، مراده صلى الله عليه وسلم بالنية : النية التي في القلب دون اللسان ، باتفاق أئمة المسلمين الأربعة وغيرهم ، وسبب الحديث يدل على ذلك ، فإن سبه أن رجلاً هاجر من مكة إلى المدينة ليتزوج امرأة يقال لها أم قيس ، فسمى مهاجر أم قيس ، فخطب النبي صلى الله عليه وسلم الناس على المنبر وذكر هذا الحديث فهذا كانت نيته في قلبه .

والجهر بالنية لا يجب ولا يستحب ، باتفاق المسلمين ولا تبطل صلاة من لم يجهر بها عند أحد من المسلمين ، بل الجاهر بالنية مبتدع مخالف للشرعة إذ يفعل ذلك معتقداً أنه من الشرع ، فهل جاهل ضال مستحق التمييز والعقوبة على ذلك إذا أصر على ذلك بعد تعزيره والبيان له ، لا سيما إذا آذى من إلى جانبه برفع صوته ، أو كرر ذلك مرة بعد مرة ، فإنه يستحق التعزير البالغ على ذلك ، ولم يقل أحد من المسلمين أن صلاة الجاهر أفضل من صلاة المخافت بها ، سواء كان إماماً أو مأموماً أو منفرداً ، وأما التلطف بها سرّاً فلا يجب أيضاً عند الأئمة الأربعة وسائر أئمة المسلمين ، ولم يقل أحد من الأئمة أن التلطف بالنية واجب لا في طهارة ولا صلاة ولا صيام ولا حج ، ولا يجب على المصل أن يقول بلسانه أصلي الظهر أو العصر ، ولا يقول إماماً ولا مأموماً ، ولا يقول بلسانه فرضاً ولا نفلاً ولا غير ذلك بل يكفي أن تكون نيته في قلبه والله يعلم ما في القلوب ، وكذلك نية الغسل من الجنابة والوضوء يكفي فيه نية القلب ، وكذلك نية

الصيام في رمضان ، لا يجب على أحد أن يقول بلسانه أنا صائم غدا باتفاق الأئمة بل يكفي نية قلبه ، والنية تبليغ العلم فمن علم ما يريد أن يفعله فلا بد أن ينويه ، فإذا علم المسلم أن غدا من رمضان فهو ممن يصوم رمضان فلا بد أن ينوي الصيام ، فإذا علم أن غدا العيد لم ينو الصيام تلك الليلة وكذلك الصلاة إذا علم أن الصلاة القائمة صلاة الفجر أو الظهر وهو يعلم أنه يريد صلاة الفجر أو الظهر ، فانه إنما ينوي تلك الصلاة لا يمكنه أن يعلم أنها الفجر وينوي الظهر ، وكذلك إذا علم أنه يصلي إماماً أو مأموماً فانه لا بد أن ينوي ذلك ، وان علم أنه يصلي وحده فلا بد أن ينوي ذلك ، والنية يتبع العلم والاعتقاد اتباعاً ضرورياً إذا كان يعلم ما يريد أن يفعله ، فإذا كان يعلم أنه يريد أن يصلي الظهر ، وقد علم أن تلك الصلاة صلاة الظهر امتنع أن يقصد غيرها ، ولو اعتقد أن الوقت باق فنوى الصلاة في وقتها فتبين أن الوقت قد خرج أجزأته صلاته باتفاق الأئمة ، ولو اعتقد أنه خرج فنوى الصلاة بعد الوقت فتبين أنها في الوقت أجزأته الصلاة باتفاق الأئمة ، وإذا كان قصده أن يصلي خلف الإمام بعينه ، مثل زيد فكان الإمام غيره لم يكن قد صلى خلف ذلك ، وإنما إذا كان قصده أن يصلي خلف الإمام الحاضر أى إمام كان واعتقد أنه زيد فظهر أنه عمر لم يضره ذلك ، وكذلك لو كان مقصوده ، أن يصلي على الجنازة الحاضرة أى جنازة كانت فظن أنها رجلا فكانت امرأة صححت صلاته ، بخلاف ما إذا كان مقصوده أن لا يصلي إلا على من يعتقد أنه فلان ، فصلى على من يعتقد أنه فلان فتبين غيره ، فانه هنا لم يقصد الصلاة على ذلك الحاضر .

والمقصود هنا أن التلفظ بالنية لا يجب عند أحد من الأئمة ، ولكن

بعض المتأخرين خرج وجها من مذهب الشافعى لوجوب ذلك ، غلطه جماهير
أئمة أصحاب الشافعى ، وكان غلطه أن الشافعى قال : ان الصلاة لابد من النطق
فى أولها ، فظن هذا الغالط أن الشافعى أراد النطق بالنية ففعله أصحاب الشافعى
جميعهم ، ولكن التلفظ بها هل هو مستحب أم لا فيه قولان معروفان
للفقهاء ، منهم من استحَب التلفظ بها كما ذكر ذلك من ذكره من أصحاب
أبى حنيفة والشافعى وأحمد ، وقالوا التلفظ بهاؤكد واستحبوا التلفظ بها فى
الصلاة والصيام والحج وغير ذلك ، ومنهم من لم يستحب التلفظ بها كما قال
ذلك من قال من أصحاب مالك وأحمد وغيرهما وهذا هو المنصوص عن مالك
وأحمد وغيرهما من الأئمة ، وقال أبو داود قلت لأحمد : أقول قبل التكبير
شيئا. قال: لا . وهذا القول هو الصواب ، فان النبى ﷺ لم يكن يقول قبل التكبير
شيئا. ولم يكن يتلفظ بالنية لا فى الصلاة ولا فى الحج ولا غيرهما من العبادات، ولا
خلفاؤه ولا أمرأحد أن يتلفظ بالنية ، بل قال لمن عليه الصلاة إذا قلت إلى الصلاة
فكبر ، وكان إذا قام إلى الصلاة كبر كافى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها
قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفتح الصلاة بالتكبير ، ويفتح
القراءة بالحمد لله رب العالمين ، ولم يتلفظ قبل التكبير بنية ولا غيرها
ولا علم ذلك أحدًا من المسلمين ، ولو كان ذلك مستحبا لفعله ولعله للمسلمين ،
وكذلك فى الحج إنما كان يفتح الاحرام بالتلبية ويشرع للمسلمين أن يلبوا
فى أول الحج ، وقال لضباعة بنت الزبير: حجي واشترطى فقولى لبيك اللهم
لبيك ومحلى حيث حبستى ، فأمرها أن تشرط بعد التلبية ، ولم يشرع لأحد
أن يقول قبل التلبية شيئا ، لا يقول اللهم انى أريد العمرة أو الحج أو العمرة
والحج ، ولا أن يقول فيسره على وتقبل منى ، ولا أن يقول نويت الحج والعمرة

أو نويتها جميعا ، ولا أن يقول أحرمت لله ولا غير ذلك من العبارات ، ولأن
يقول قبل التلبية شيئا ، بل جعل التلبية في الحج كالتكبير في الصلاة ، وكان هو
وأصحابه يقولون : فلان أهل بالحج أهل بالعمرة وأهل بهما ، كما يقال :
كبر للصلاة ، والاهلال رفع الصوت بالتلبية ، وكان يقول في تليته :
لييك عمرة وحجا . فيسمى ما يريد فعله بعد التلبية لاقبلها ، وجميع ما أحدثه
الناس من التلفظ بالنية قبل التكبير ، وقبل التلبية وفي الطهارة وسائر
العبادات ، فهي البدع التي لم يشرعها ، وكل ما يحدث في العبادات المشروعة
من الزيادات التي لم يشرعها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل كان يداوم في
العبادات على تركها ففعلها والمداومة عليها بدعة وضلالة من وجهين ، من
حيث اعتقاد المعتقد أن ذلك مشروعا مستحبا ، يكون فعله خيرا من تركه مع
أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يفعله البته ، فينبغي حقيقة هذا القول أن
ما فعلناه أكل وأفضل مما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد سأل رجل
مالك بن أنس عن الاحرام قبل الميقات . فقال : أخاف عليه الفتنة فقال له
السائل : وأي فتنة في ذلك وإنما هي زيادة امتثال في طاعة الله . فقال : وأي
فتنة أعظم من أن تظن في نفل أنك خصصت بفضل لم يفعله رسول الله صلى
الله عليه وسلم وتلا قوله تعالى : (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن
تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) .

وقد ثبت عنه في الصحيحين أنه قال : « من رغب عن سنتي فليس مني »
أي من ظن أن غير سنتي أفضل من سنتي فرغب عما سننته معتقدا أن ما رغب
فيه أفضل مما رغب عنه فليس مني ، إلا إن خير الكلام كلام الله وخير الهدي هدي
محمد ، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان يخطب بذلك يوم الجمعة ،

فن قال أن هدى غير محمد أفضل من هدى محمد فهو مفتون ضال قال تعالى :
 (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم)
 وهو قد أمر المسلمين باتباعه ، وأن يعتقد وجوب ما أوجبه واستجاب
 ما أحبه وأنه لا أفضل من ذلك ، فن لم يعتقد هذا فقد عصى أمره ، وفي
 صحيح مسلم عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « قد هلك
 المتنطعون قالها ثلاثا » ، وقال أبي بن كعب وابن مسعود : اقتصاد في سنة خير
 من اجتهد في بدعة ، وفي صحيح مسلم عن ابن عمر أنه قال : « صلاة السفر
 ركعتان من خالف السنة فقد كفر » ، أى من اعتقد أن الركعتين في السفر
 لا تجزئ المسافر فقد كفر .

الوجه الثاني : من حيث المداومة على خلاف ما داوم عليه رسول الله
 صلى الله عليه وسلم في العبادات فإن هذا بدعة باتفاق الأئمة ، وإن ظن الظان
 أن فيه زيادة خير كما أحدث بعض المتقدمين الأذان والاقامة في العيدين
 فنهى عن ذلك وكرهه أئمة الإسلام ، وكألو صلى عقب السعى ركعتين قياساً
 على ركعتي الطواف ، وقد استحب ذلك بعض المتأخرين من أصحاب الشافعى ،
 واستحب بعض المتأخرين من أصحاب أحمد في الحاج إذا دخل المسجد الحرام أن
 يفتح بتحية المسجد ، بخالف الأئمة والسنة ، وإنما السنة أن يفتح المحرم
 بالطواف ، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم لما دخل المسجد ، بخلاف المقيم
 الذى يريد الصلاة فيه دون الطواف ، فهذا إذا صلى تحية المسجد فحسن .

وفي الجملة فالنبي صلى الله عليه وسلم قد أكمل الله له ولامته الدين وأتم
 عليهم به النعمة ، فن جعل عملاً واجباً ما لم يوجه الله ورسوله أو مستحباً

ما لم يستحبه الله ورسوله فهو غلط ، كما أن جعل حراما أو مكروها ما لم يحرمه الله ورسوله أو لم يكرهه الله ورسوله فهو غلط ، لجماع الدين لأحكام إلا ما حرمه الله ورسوله ، ولادين إلا ما شرعه الله ورسوله ، ومن خرج عن هذا وهذا فقد دخل في حزب من شرع من الدين ما لم يأذن به الله وحرم ما لم يحرمه الله .

وهذا من دين أهل الجاهلية المخالفين للرسول الذين ذمهم الله في سورة الأنعام والأعراف وغيرهما من السور ، حيث شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله ، وحرموا ما لم يحرمه الله وأحلوا ما حرمه الله فذمهم الله وعابهم على ذلك ، فلهذا كان دين المؤمنين بالله ورسوله أن الأحكام الخمسة : الإيجاب ، والاستحباب ، والتحليل ، والكراهة ، والتحريم . لا تؤخذ إلا عن الله ورسوله ، فلا واجب إلا ما أوجبه الله ورسوله ، ولا مستحب إلا ما أحبه الله ورسوله ، ولا حلال إلا ما أحله الله ورسوله ، ولا مكروه إلا ما كرهه الله ورسوله ، ولا محرم إلا ما حرمه الله ورسوله ، فمن ذلك ما اتفق عليه أئمة الدين ومنه ما تنازعوا فيه ، فما تنازعوا فيه رد إلى الله ورسوله كما قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فان تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) وأما من تكلم بجهل وبما خالف اتفاق الأئمة ، ينهى عن ذلك ويؤدب على الإصرار كما يفعل بأمثاله من الجهال ولا يقتدى في خلاف الشريعة بأحد من أئمة الغلاة وإن كان مشهوراً بالفقه والعلم ، بل يسأل عما عنده من العلم كما قال بعض السلف : لا تنظر إلى عمل الفقيه ولكن سلّه يصدقك ، والحمد لله وحده .

وهذه فتوى أخرى في المسألة السابقة

سئل الشيخ الامام العالم العلامة شيخ الاسلام مفتي الانام ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن تيمية رضى الله عنه وأرضاه ، بالديار المصرية سنة ثمان وسبعائة .

في رجل يحجر بالنية ويقول : أصلى فرض كذا وكذا ويعين الصلاة بعينها وبعد الركعات بحيث يشوش على من إلى جانبه ، فأنكر عليه رجل وقال : هذا لم يأمر الله به ولا رسوله . فقال له : بل هذا بما أمر الله به ورسوله وكان يحجر الامام بالتلاوة وهو يقرأ خلفه ، فهل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ، أو أحد من الصحابة ، أو أحد من الأئمة الأربعة وغيرهم ، فإذا لم يكن فعله أحد من أئمة المسلمين وعلمائهم فإذا يجب على من ينسب هذا إليهم ويقول كل من يعمل في دينه ما يشئ بل أنت جاهل فيما تكبره انتهى .

أجاب رضى الله عنه وأرضاه :

الحمد لله رب العالمين . الجهر بلفظ النية ليس بمشروع ولا نقل ذلك أحد من علماء المسلمين ولا فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أحد من الخلفاء الراشدين وأصحابه وسلف الأئمة وأئمتها ، ومن ادعى أن ذلك دين الله أو أنه واجب ، فإنه يجب تعريفه الشريعة واستنابته من هذا القول ، فإن أصر على ذلك قتل ، بل النية الواجبة في العبادات : كالوضوء ، والغسل ، والصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والكفارة وغير ذلك ، محلها القلب باتفاق أئمة المسلمين إذ النية هي القصد والإرادة ، والقصد والإرادة محلها القلب دون اللسان باتفاق العقلاء ، فلو نوى بقلبه خلاف ما تكلم به بلسانه كانت العبارة بما نواه

لا باللفظ ، ومتى نوى بقلبه ولم يتلفظ بلسانه صحت نيته عند الأئمة الأربعة وسائر أئمة المسلمين من الأولين والآخرين ، وليس في ذلك خلاف عند أحد ممن يقتدى به ويفتي بقوله ، ولكن بعض المتأخرين من أتباع الأئمة زعم أن اللفظ بالنية واجب ولم يقل أن الجهر بها واجب ، ومع هذا فهذا القول خطأ صريح مخالف لإجماع المسلمين ، إنما علم بالاضطرار من دين الاسلام عند من يعلم سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنة خلفائه ، وكيف كان يصلى الصحابة والتابعون ، فإن كل من يعلم ذلك يعلم أنهم لم يكونوا يتلفظون بالنية . ولا أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ، ولا علمه لأحد من أصحابه بل قد ثبت في الصحيحين وغيرهما أنه قال للاعرابي المسمى في صلاته : « إذا قمت إلى الصلاة فكبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ، وفي السنن عنه أنه قال : « مفتاح الصلاة الطهور وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم ، وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يفتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين ، وقد ثبت بالنقل المتواتر وإجماع المسلمين أن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة كانوا يفتحون الصلاة بالتكبير ولم ينقل مسلم لا عن النبي ﷺ ولا عن أحد من الصحابة أنه تلفظ قبل التكبير بلفظ النية لاجرها ولا سرا ولا أنه أمر بذلك ، مع أنه من المعلوم أن الهمم والدواعي متوفرة على نقل ذلك لو كان ، وأنه يمتنع على أهل التواتر عادة وشرعاً كتمان نقل ذلك ، فإذا لم ينقله أحد علم قطعاً أنه لم يكن . ولهذا يتنازع الفقهاء المتأخرون في التلفظ بالنية هل هو مستحب مع النية التي في القلب ، فاستحب طائفة من أصحاب أبي حنيفة والشافعي وأحمد قالوا : لأنه أوكد وأتم تحقيقاً للنية . ولم يستحب طائفة من أصحاب مالك وأحد وغيرهم . بل رأوا أنه

بدعة مكروهة قالوا : لأنه لو كان مستحباً لفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا مر به، فانه صلى الله عليه وسلم قد بين كل ما يقرب إلى الله لا سيما الصلاة التي إنماتؤخذ صفتها عنه. وقد ثبت عنه في الصحيح أنه قال : « صلوا كما رأيتموني أصلي » ، فزيادة هذا وأمثاله في صفة الصلاة بمنزلة سائر الزيادات المحدثه في العبادات ، كمن زاد في العيدين الأذان والاقامة ومن زاد في السعي صلاة ركعتين على المروة وأمثال ذلك . قالوا : وأيضاً فإن التلظظ بالنية فاسد في العقل فان قول القائل : أنوى أن أفعل كذا وكذا بمنزلة قوله : أنوى أني آكل هذا الطعام لأشبع واني ألبس هذا الثوب لاستتر ، وأمثال ذلك من النيات الموجودة في القلب التي يستقبح النطق بها وقد قال تعالى : (قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السموات وما في الأرض) وقال طائفة من السلف في قوله : (إنما نطعمكم لوجه الله) قالوا : لم يقولوا بأسمئهم وإنما علمه الله من قلوبهم .

وبالجملة فلا بد من النية في القلب بلا نزاع ، وأما التلظظ بها سرّاً فهل يكرهه أو يستحب فيه نزاع بين المتأخرين ، وأما الجهر بها فهو مكروه منهى عنه غير مشروع باتفاق المسلمين ، وكذلك تكريرها وسواء الامام والمأموم والمنفرد ، فكل هؤلاء لا يشرع لأحد منهم أن يجهر بلفظ النية ولا يكررها باتفاق المسلمين بل ينهون عن ذلك ، بل جهر المنفرد بالقراءة إذا كان فيه أذى لغيره لم يشرع كما خرج النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه وهم يصلون فقال أيها الناس : « كلّمكم يناجى ربه فلا يجهر بعضهم على بعض بالقراءة » ، وأما المأموم فصفته الخافتة باتفاق المسلمين ، لكن إذا جهر أحياناً بشيء من الذكر فلا بأس ، كالإمام إذا أسمعهم أحياناً الآية في صلاة السر ، فقد ثبت في الصحيح عن أبي قتادة أنه أخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان في

صلاة الظهر والعصر يسمعهم الآية أحيانا ، وثبت في الصحيح أن من الصحابة المأمومين من جهر بدعاء حين افتتاح الصلاة وعند رفع رأسه من الركوع ، ولم ينكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك .

ومن أصر على فعل البدع وتحسينها ، فانه ينبغي أن يعزر تعزيراً يردعه وأمثاله عن مثل ذلك ، ومن نسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الباطل خطأ فانه يعرف ، فان لم يفته عوقب ولا يحل لأحد أن يتكلم في الدين بلا علم ، ولا يدين من تكلم في الدين بلا علم ، أو أدخل في الدين ما ليس منه .

وأما قول القائل : كل من يعمل في دينه ما يشتهي ، ففي كلمة عظيمة يجب أن يستتاب منها وإلا عوقب ، بل الإصرار على اعتقاد مثل هذه الكلمة توجب القتل ، فليس لأحد أن يعمل في الدين إلا ما شرعه الله ورسوله دون ما يشتهي ويهواه قال تعالى : (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله وإن كثيراً ليضلون باهوائهم بغير علم) وقال : (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) وقال : (ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل) وقال تعالى : (أفأريت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً) وقد قال تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً) وقد روى عنه أنه قال : « والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » ، وقد قال تعالى : (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكوا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً

ولإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا (وقال تعالى : (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله) وقال تعالى : (المص كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون) وقال تعالى : (ولواتبع الحسق أهواءهم نقصت السموات والأرض ومن فيهن) وأمثال هذا في القرآن كثير بين أن على العبد أن يتبع الحق الذي بعث الله به رسوله ، ولا يجعل دينه تبعاً لهواه والله تعالى أعلم .

وأجاب عن المسألة المذكورة أيضاً ، الشيخ الإمام العالم قاضي القضاة جمال الدين أبو الربيع سليمان بن عمر الشافعي رضي الله عنه وأرضاه .

الحمد لله رب العالمين الله الموفق . النية المعتبرة في الصلاة وجميع العبادات محلها القلب ، فلا يضر عدم النطق بها كما لو نوى بقلبه الظهر وسبق لسانه إلى العصر ، ولا يكفي النطق بها مع غفلة القلب ، وإنما استحب بعض أصحابنا مساعدة اللسان القلب من غير جهر ، وقد شذ صاحب الانصاح بما نقله عن بعض أصحابنا أنه لا بد من التلفظ بها في الصلاة ، وهو خلاف قول جمهور الأصحاب ، وأما الجهر بها وبالقرأة خلف الإمام فليس من السنة بل مكروه ، فإن حصل به تشويش على المصلين فحرام ومن قال بأن الجهر بلفظ النية من السنة فهو مخطئ ، ولا يحل له ولا لغيره أن يقول في دين الله تعالى بغير علم ، ولا يجوز لأحد اعانة من قال في الدين بغير علم وقوله : كل من يعمل في دينه ما يشتهي . فهذا قول جاهل يعزر على ذلك ،

إذ ليس لأحد أن يعمل في دين الله تعالى إلا ما شرعه الله تعالى ورسوله ، ومن فعل غير ذلك فقد اتبع هواه نعوذ بالله تعالى من اتباع الهوى ، وقد تكرر في الكتاب العزيز الذم والانكار على من اتبع هواه ، وقد قال سبحانه وتعالى : (ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل) وقال تعالى : (وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم) إلى غير ذلك مما ورد في القرآن من أمثاله والله أعلم والحمد لله وحده .

وأجاب عنها الشيخ الإمام العالم العلامة ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن الحريري الأنصاري عفا الله عنه .

الحمد لله رب العالمين اللهم وفق والطف . ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك ولا أحد من أصحابه رضي الله عنهم ولا أحد من الأئمة الأربعة ، ولا علماء المسلمين تفعل مثل ذلك ، والنبة هي الإرادة والشرط أن يعلم قلبه أي صلاة يصلي ، أما الذكر باللسان فلا معتبر به ويحسن ذلك لاجتماع عزيمته ، فإن زعم الفاعل لذلك أن هذا هو دين الله تعالى ، فقد كذب على الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وأدخل في دين الله تعالى ما ليس فيه ، يستتاب بعد التعريف وتزاح عنه هذه الشبهة التي عرضت له ، فإن تاب ولم أقتل بذلك ، والجهر بالتلاوة خلف الإمام لا يجوز ، ولا نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن أحد من أصحابه ، والعلاء على خلافه ويجب تذييره على ذلك ، ولا يحل لأحد أن يعينه على هذا ومن آجاء وجب تذييره ، وقوله : كل من يعمل في دينه ما يشتهي . فقد كذب على الشريعة

المطهرة بل يجب علينا اتباع ما جاء به كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فان اعتقد أن هذا هو الدين فقد كفر بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فيستتاب فان تاب وإلا قتل والحالة هذه والله أعلم .

وأجاب عنها الشيخ الإمام العالم العلامة شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم التونسي المالكي رحمه الله تعالى .

الحمد لله اللهم ارحم ووفق. النية من أعمال القلوب ، فالجهر بها بدعة مع ما في ذلك من التشويش على الناس ، وكذلك الجهر بالقرآن فيزجر عن ذلك ويلزم بالاتباع للسنة ، وانكاره على المنكر عليه جهل ودعوى باطلية ، وقوله: كل من يعمل في دينه ما يشتهي . فهذا أمر شنيع يقارب الكفر يجب تأديبه عليه وأن يتوب منه ، ونعوذ بالله من الجهل واتباع الهوى ، ونسأله الهدى والعصمة ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وأجاب عنها الشيخ الإمام العالم العلامة علاء الدين ابن العطار عفا الله عنه .

الحمد لله لا يشرع تعيين عدد الركعات ولا الجماعة في النية ، وأما التلفظ بها من غير تشويش فلا بأس به ، إذا كان مطابقا للقلب ولا يشترط ولا يجب ، ورفع الصوت به مع التشويش على المصلين حرام لإجماعا ، ومع عدمه بدعة قبيحة ، فان قصد به الرياء كان حراما من وجهين كبيرة من الكبائر ، والمنكر عليه مصيب ومصوبه مخطيء ، ونسبته إلى دين الله تعالى اعتقادا ككفر وغير اعتقاد معصية ، ولا يحل ترك كل أحد ودينه خصوصا إذا كان قدوة وعمله

بخلاف السنة، بل يجب على كل مؤمن تمكن في زجره زجره ومنعه وردعه، ولم ينقل هذا النقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن أحد من أصحابه، ولا عن أحد ممن يقتدى به من علماء الإسلام وأصل النية مشروع في جميع الأعمال الصلاة وغيرها ومحطها القلب، وهل يشترط مقارنتها لأول العباداة بمعنى أنها جزء العباداة أو لا يشترط ذلك ويجعلها شرطاً لصحة العباداة، لا يضر تقدمها عليها، مذهب الشافعي رحمه الله الأول، ومذهب بعض أصحابه وجماعة من العلماء الثاني، ومن فعل النية على ما ذكر في الاستفتاء فعمله غير صحيح. قال معاذ بن جبل رضى الله عنه الذى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه: أعلم أمتى بالحلل والحرام. قال معاذ: العمل الصالح هو الذى يسبقه العلم والنية والصبر والاخلاص مشتمل عليه، فكل عمل لم يشتمل على هذه الأربعة فليس بصالح، ونية هذا الرجل ليس على وفق العمل ولا قصد بها الصبر على مقتضاه ولا إخلاص فيها لله تعالى، والله يعلم المفسد من المصلح.

تمت الرسالة الخامسة

وبلها الرسالة السادسة: العرشية

الرسالة السادسة
العرشية

—

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سئل شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى، عن العرش هل هو كرى أم لا؟ فإذا كان كرىا والله من وراءه محيط به بائن عنه، فما فائدة أن العبد يتوجه إلى الله تعالى حين دعائه، فيقصد العلو دون التحت، فلا فرق حينئذ وقت الدعاء بين قصد جهة العلو وغيرها من الجهات التي تحيط بالداعى، ومع هذا نجد قلوبنا قصداً تطلب العلو لا تلتفت يمينه ولا يسرة، فأخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا، فقد فطرنا عليها أدام الله النفع بكم وبعلومكم آمين.

فأجاب رحمه الله تعالى بما نصه :

الحمد لله رب العالمين . الجواب عن هذا السؤال بثلاث مقالات: إحداها: ان القائل الذى يقول لم يثبت بدليل يعتمد عليه ، أن العرش فلك من الافلاك المستديرة الكرية الشكل ، لا بدليل شرعى ولا بدليل عقلى ، وإنما ذكر هذا طائفة من المتأخرين الذين نظروا فى علم الهيئة وغيرها من الفلسفة، فرأوا أن الافلاك تسعة وأن التاسع وهو الاطلس يحيط بها مستديراً كاستدارتها ، وهو الذى يحركها الحركة الشوقية ، وإن كان لكل فلك حركة تخصه غير هذه الحركة العامة ، ثم سمعوا من أخبار الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم ذكر عرش الله وكرسیه وذكر السموات السبع . فقالوا بطريق الظن : أن العرش هو الفلك التاسع ، لاعتقادهم أنه ليس وراء التاسع

شئ إما مطلقاً ، وإما أنه ليس وراءه مخلوق ، ثم أن منهم من رأى أن التاسع هو الذى يحرك الافلاك كلها ، فجعلوه مبدأ الحوادث ، وزعموا أن الله يحدث فيه ما يقدره فى الارض أو يحدثه فى النفس التى زعموا أنها متعلقة ، أو فى العقل الذى زعموا أنه الذى صدر عنه هذا الفلك ، وربما سماه بعضهم الروح ، وربما جعل بعضهم النفس هى الروح ، وربما جعل بعضهم النفس هى اللوح المحفوظ كما يجعل العقل هو القلم ، وتارة يجعلون اللوح العقل الفعال العاشر الذى لفلك القمر . أو النفس المتعلقة به ، وربما جعلوا ذلك بالنسبة إلى الحق كالدهان بالنسبة إلى الإنسان ، يقدر فيه ما يفعله قبل أن يكون إلى غير ذلك من المقالات التى شرحناها وبيننا فسادها فى غير هذا الموضع . ومنهم من يدعى أنه علم ذلك بطريق الكشف والمشاهدة ويكون كاذباً فيما يدعيه ، وإنما أخذ ذلك عن هؤلاء المتفاسدة تقليداً لهم أو موافقة لهم على طريقتهم الفاسدة ، كما فعل أصحاب رسائل اخوان الصفا وأمثالهم . وقد يتخيل فى نفسه ما يقلده عن غيره فيظنه كنهاً كما يتخيل النصرانى التثليث الذى يعتقد . وقد يرى ذلك فى منامه فيظنه كشفاً ، وإنما هو تخيل لما اعتقده ، وكثير من أرباب الاعتقادات الفاسدة إذا ارتاضوا صقلت الرياضة نفوسهم . فيتمثل لهم اعتقاداتهم فيظنونها ككشفاً ، وقد بسطنا الكلام على هذا فى غير ما موضع .

والمقصود هنا أن ما ذكروه من أن العرش هو الفلك التاسع ، قد يقال أنه ليس لهم عليه دليل لا عقلى ولا شرعى ، أما العقل فإن أئمة الفلاسفة مصرحون بأنه لم يبق عندهم دليل على أن الافلاك هى تسعة فقط ، بل يجوز أن تكون أكثر من ذلك ولكن دللتهم الحركات والكسوفات ونحو ذلك

على ما ذكروه ، وما لم يكن لهم دليل على ثبوته فهم لا يعلمون ثبوته ولا انتفاءه ، مثال ذلك أنهم علموا أن هذا الكوكب تحت هذا بأن السفلى يكشف العلوى من غير عكس ، فاستدلوا بذلك على أنه من فلك فوقه ، كما استدلوا بالحركات المختلفة على أفلاك مختلفة ، حتى جعلوا في الفلك الواحد عدة أفلاك كفلك التدوير وغيره ، فأما ما كان موجوداً فوق هذا ولم يكن لهم ما يستدلون به على ثبوته ، فهم لا يعلمون نفيه ولا إثباته بطريقهم ، وكذلك قول القائل أن حركة التاسع مبدأ الحوادث خطأ وضلال على أصولهم ، فانهم يقولون أن الثامن له حركة تخصه بما فيه من الثوابت ، ولذلك الحركة قطبان غير قطبي التاسع ، وكذلك السابع والسادس ، وإذا كان لكل فلك حركة تخصه والحركات المختلفة هي سبب الاشكال الحادثة المختلفة الفلكية فلك الاشكال سبب الحوادث السفلية ، كانت حركة التاسع جزء السبب لحركة غيره . والاشكال الحادثة في الفلك كمقارنة الكوكب لكوكب في درجة واحدة ومقابلته له إذا كان بينهما نصف الفلك ، وهو مائة وثمانون درجة وتثليثه له إذا كان بينهما ثلث الفلك ، وهو مائة وعشرون درجة ، وتربيعه له إذا كان بينهما رבעه تسعون درجة ، وتسديسه له إذا كان بينهما سدس الفلك ستون درجة ، وأمثال ذلك من الاشكال إنما حدثت بحركات مختلفة وكل حركة ليست عن الأخرى ، إذ حركة الثامن التي تخصه ليست عن حركة التاسع ، وإن كان تابعا له في الحركة الكلية ، كالإنسان المتحرك في السفينة إلى خلاف حركتها ، وكذلك حركة السابع التي تخصه ليست عن التاسع ولا عن الثامن ، وكذلك سائر الأفلاك فكيف يجوز أن يجعل مبدأ الحوادث كلها مجرد حركة التاسع كما زعمه من ظن أنه العرش ، كيف والملك التاسع

عندهم بسيط متشابه الاجزاء لا اختلاف فيه أصلاً ، فكيف يكون سبباً
لامور مختلفة لا باعتبار القوابل وأسباب آخر .

ولكن هم قوم ضالون يجعلونه مع هذا ثلاثمائة وستين درجة ، ويجعلون
لكل درجة من الأثر ما يخالف الأخرى ، لا باختلاف القوابل كمن يحىء
إلى ماء واحد فيجعل لبعض أجزائه من الأثر ما يخالف الآخر لا بحسب
القوابل ، بل يجعل أحد أجزائه مسخاً والآخر مبرداً ، والآخر مسعداً
والآخر مشقياً ، وهذا مما يعلمون هم وكل عاقل أنه باطل وضلال ، وإذا كان
هؤلاء ليس عندهم ما ينفي وجود شيء آخر فوق الأفلاك التسعة ، كان
الجزم بأن ما أخبرت به الرسل من أن العرش هو الفلك التاسع رجماً بالغيب
تجاوزاً بلا علم ، هذا كله بتقدير ثبوت الأفلاك التسعة على المشهور عند
أهل الهيئة إذ في ذلك من النزاع والاضطراب ، وفي أدلة ذلك ما ليس هذا
موضعه ، وإنما نتكلم على هذا التقدير والأفلاك في أشكالها وإحاطة بعضها
ببعض من جنس واحد ، فنسبة السابع إلى السادس كنسبة السادس إلى
الخامس ، وإذا كان هناك فلك تاسع فنسبته إلى الثامن كنسبة الثامن
إلى التاسع .

وأما العرش : فالأخبار تدل على مباينته لغيره من المخلوقات ، وأنه ليس
نسبة إلى بعضها كنسبة بعضها إلى بعض قال الله تعالى : (الذين يحملون
العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به) الآية وقال سبحانه :
(ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) فأخبر أن للعرش حملة اليوم ويوم
القيامة ، وأن حملته ومن حوله يسبحون ويستغفرون للمؤمنين ، ومعلوم أن
قيام ذلك من الأفلاك بقدرة الله تعالى كقيام سائر الأفلاك ، لافرق في ذلك

بين كرة وكرة وإن قدر أن لبعضها ملائكة في نفس الامر تحملها ، فحكم
حكم نظيره وقال تعالى : (وترى الملائكة حافين من حول العرش) الآية
فذكر هناك أن الملائكة تحف من حول العرش ، وذكر في موضع آخر
أن له حملة وجمع في موضع ثالث بين حملته ومن حوله فقال : (الذين يحملون
العرش ومن حوله) وأيضا فقد أخبر أن عرشه كان على الماء قبل أن يخلق السموات
والأرض كما قال تعالى : (وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان
عرشه على الماء) وقد ثبت في صحيح البخارى رحمه الله تعالى عن عمران بن
حصين رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كان الله ولم يكن
شيء غيره وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء وخلق السموات
والأرض ، وفي رواية له : « كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على
الماء ثم خلق السموات والأرض وكتب في الذكر كل شيء ، وفي رواية لغيره
صحيحة : « كان الله ولم يكن شيء معه وكان عرشه على الماء ثم كتب في
الذكر كل شيء ، وفي صحيح مسلم رحمه الله تعالى عن عبد الله بن عمرو رضى
الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ان الله قدر مقادير الخلائق
قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، انتهى .

تمت الرسالة السادسة

ويليها الرسالة السابعة : الوصية الكبرى

الرسالة السابعة
الوصية الكبرى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

من أحمد بن تيمية عفا الله عنه إلى من يصل إليه هذا الكتاب من المسلمين
المنتسبين إلى السنة والجماعة ، المنتمين إلى جماعة الشيخ العارف القدوة
أبي البركات عدي بن مسافر الأموي رحمه الله ومن نحا نحوم ، وفقهم الله
لسلوك سبيله ، وأعانهم على طاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ،
وجعلهم معتمدين بحبله المتين ، مهتدين لأصراط الذين أنعم الله عليهم من
النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وجنبهم طريق أهل الضلال
والاعوجاج الخارجين عما بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم من الشرعة
والمنهاج حتى يكونوا بمن أعظم عليهم المنة بمتابعة الكتاب والسنة ، سلام عليكم
ورحمة الله وبركاته .

وبعد : فانا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، وهو للحمد أهل وهو
على كل شيء قدير ، ونسأله أن يصلى على خاتم النبيين وسيد ولد آدم
صلى الله عليه وسلم وأكرم الخلق على ربه ، وأقربهم إليه زلفى وأعظمهم
عنده درجة ؛ محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم
تسليماً كثيراً .

أما بعد : فان الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق
ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً ، وأنزل عليه الكتاب بالحق مصدقاً
لما بين يديه من الكتاب ومبيناً عليه ، وأكمل له ولايته الدين وأتم عليهم
النعمة ، وجعلهم خير أمة أخرجت للناس فهم يوفون سبعين أمة هم خيرها

وأكرمها على الله ، وجعلهم أمة وسطا أى عدلا وخياراً ، ولذلك جعلهم
شهداء على الناس هداهم لما بعث به رسله جميعهم من الدين الذى شرعه لجميع
خلقه ، ثم خصهم بعد ذلك بما ميزهم به وفضلهم من الشرعة والمنهاج الذى
جعلهم لهم ، فالأولى مثل أصول الإيمان وأعلاها وأفضلها هو التوحيد ، وهو
شهادة أن لا إله إلا الله كما قال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول
إلا يوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقال تعالى : (ولقد بعثنا فى كل
أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وقال تعالى : (واسأل من
قد أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) وقال
تعالى : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك
وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى) وقال تعالى : (يا أيها الرسل كلوا
من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم وان هذه أمتكم أمة واحدة
وأنا ربكم فاتقون) ومثل الإيمان بجميع كتب الله وجميع رسله كما قال تعالى :
(قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق
ويعقوب والاسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم
لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) ومثل قوله تعالى : (قل آمنت بما
أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم) ومثل قوله تعالى : (آمن الرسول
بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق
بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) إلى
آخرها . ومثل الإيمان باليوم الآخر وما فيه من الثواب والعقاب كما أخبر
عن إيمان من تقدم من مؤمنى الأمم به حيث قال : (إن الذين آمنوا والذين
هádوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم

أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) ومثل أصول الشرائع كما ذكر في سورة الأنعام والأعراف وسبحان وغيرهن من السور المكية ، من أمره بعبادته وحده لا شريك له ، وأمره ببر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والعدل في المقال ، وتوفية الميزان والمكيال ، وإعطاء السائل والمحروم ، وتحريم قتل النفس بغير الحق ، وتحريم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وتحريم الأثم والبغى بغير الحق ، وتحريم الكلام في الدين بغير علم ، مع ما يدخل في التوحيد من إخلاص الدين لله والتوكل على الله ، والرجاء لرحمة الله ، والخوف من الله ، والصبر لحكم الله ، والقيام لأمر الله ، وأن يكون الله ورسوله أحب إلى العبد من أهله وماله والناس أجمعين ، إلى غير ذلك من أصول الإيمان التي أنزل الله ذكرها في مواضع من القرآن ، كالسور المكية وبعض المدنية . وأما الثاني : فما أنزل الله في السور المدنية من شرائع دينه وما سنه الرسول صلى الله عليه وسلم لأمرته ، فإن الله سبحانه أنزل عليه الكتاب والحكمة وأمن على المؤمنين بذلك ، وأمر أزواجه نبيه بذكر ذلك فقال : (وأنزل عليك الكتاب والحكمة وعلّمك ما لم تكن تعلم) وقال : (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) وقال : (وإذا قرأ ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة) قال غير واحد من السلف : الحكمة هي السنة لأن الذي كان يتلى في بيوت أزواجه رضى الله عنهن سوى القرآن ، هو سنته صلى الله عليه وسلم ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : « ألا أني أوتيت الكتاب ومثله معه ، وقال حسان بن عطية : كان جبريل عليه السلام ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم بالسنة كما ينزل بالقرآن ، فيعلمه إياها كما يعلمه القرآن .

وهذه الشرائع التي هدى الله بها هذا النبي وأمة ، مثل الوجهة والمنفك والمنهاج ، وذلك مثل الصلوات الخمس في أوقاتها بهذا العدد ، وهذه القراءة والركوع والسجود واستقبال الكعبة ، ومثل فرائض الزكاة ونصبتها التي فرضها في أموال المسلمين من الماشية والحبوب والثمار والتجارة والذهب والفضة ، ومن جعلت له حيث يقول : (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم) ومثل صيام شهر رمضان ، ومثل حج البيت الحرام ، ومثل الحدود التي حدتها لهم في المناكح والموارث والعقوبات والمبايعات ، ومثل السنن التي سنّها لهم من الأعياد والجماعات والجماعات في المكتوبات والجماعات في الكسوف والاستسقاء وصلاة الجنائز والتواريخ وما سنّه لهم في العادات مثل المطاعم والملابس والولادة والموت ، ونحو ذلك من السنن والآداب والأحكام التي هي حكم الله ورسوله بينهم في الدماء والأموال والإبضاع والأعراض والمنافع والأبشار ، وغير ذلك من الحدود والحقوق إلى غير ذلك بما شرعه لهم على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، وحجب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم * فجعلهم متبعين لرسوله صلى الله عليه وسلم وعصمهم أن يجتمعوا على ضلالة كما ضلت الأمم قبلهم ، إذ كانت كل أمة إذا ضلت أرسل الله تعالى رسولا إليهم كما قال تعالى : (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وقال تعالى : (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) .

ومحمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء لاني بعده ، فمصم الله أمته أن تجتمع على ضلالة ، وجعل فيها من تقوم به الحجة إلى يوم القيامة ، ولهذا

كان إجماعهم حجة كما كان الكتاب والسنة حجة ، ولهذا امتاز أهل الحق من هذه الأمة والسنة والجماعة عن أهل الباطل الذين يزعمون أنهم يتبعون الكتاب ، ويعرضون عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمامته عليه جماعة المسلمين .

فإن الله أمر في كتابه باتباع سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولزوم سبيله ، وأمر بالجماعة والاتلاف ونهى عن الفرقة والاختلاف فقال تعالى : (من قطع الرسول فقد أطاع الله) وقال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا ليطيع بأذن الله) وقال تعالى : (إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) وقال تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلبوا تسليماً) وقال تعالى : (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) وقال تعالى : (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء) وقال تعالى : (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة) وقال تعالى : (وإن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) وقال تعالى في أم الكتاب : (اهتدوا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) .

وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون » .

فأمر سبحانه في أم الكتاب ، التي لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل (١٨ — مجموعة الرسائل)

ولا في الزور ولا في الفرقان مثلها ، التي أعطيتها نبينا صلى الله عليه وسلم من كبر تحت العرش ، التي لا تجزى صلاة إلا بها أن نسأله أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم غير المغضوب عليهم كاليهود ، ولا الضالين كالنصارى .

وهذا الصراط المستقيم : هو دين الإسلام المحض ، وهو ما في كتاب الله تعالى وهو السنة والجماعة ، فإن السنة المحضة هي دين الإسلام المحض ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم روى عنه من وجوه متعددة رواها أهل السنن والمسائيد ، كالإمام أحمد وأبي داود والترمذي وغيرهم . أنه قال : « ستفترق هذه الأمة على اثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة » وفي رواية : « من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي » .

وهذه الفرقة الناجية : أهل السنة وهم وسط في النحل ، كما أن ملة الإسلام وسط في الملل ، فالمسلمون وسط في أنبياء الله ورسله وعباده الصالحين ، لم يغفلوا فيهم كما غلت النصارى ، فاتخذوا أجبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ، ولا جفوا عنهم كما جفت اليهود فكانوا يقتلون الأنبياء بغير حق ، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ، وكلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم كذبوا فريقاً وقتلوا فريقاً .

بل المؤمنون : آمنوا برسل الله وعزروهم ونصروهم ووقروهم وأجروهم وأطاعوهم ، ولم يعبدوهم ولم يتخذوهم أرباباً كما قال تعالى : (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من

دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيا أمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون .

ومن ذلك : أن المؤمنين توسطوا في المسيح فلم يقولوا : هو الله ، ولا ابن الله ، ولا ثالث ثلاثة ، كما تقوله النصارى ، ولا كمرأته وقالوا على مريم بهتاناً عظيماً ، حتى جعلوه ولدغية ، كما زعمت اليهود بل قالوا هذا عبد الله ورسوله وكلته ألقاها إلى مريم العذراء البتول وروح منه .

وكذلك المؤمنون ؛ وسط في شرائع دين الله ، فلم يحرموا على الله أن يفسخ ما شاء ويمحو ما شاء ويثبت كما قاله اليهود ، كما حكى الله تعالى ذلك عنهم بقوله : (سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها) وبقوله : (وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم) ولا جوزوا لأكابر علمائهم وعبادهم أن يغيروا دين الله فيأمروا بما شاءوا وينهوا عما شاءوا ، كما يفعله النصارى كما ذكر الله ذلك عنهم بقوله : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) قال عدي بن حاتم رضى الله عنه : قلت يا رسول الله ما عبدوهم . قال : ما عبدوهم ولكن أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم . والمؤمنون قالوا : لله الخلق والأمر ، فكما لا يخلق غيره لا يأمر غيره ، وقالوا : سمعنا وأطعنا فأطاعوا كل ما أمر الله به . وقالوا : إن الله يحكم ما يريد . وأما المخلوق فليس له أن يبدل أمر الخالق تعالى ولو كان عظيماً .

وكذلك في صفات الله تعالى ، فان اليهود وصفوا الله تعالى بصفات المخلوق الناقصة . فقالوا : هو فقير ونحن أغنياء . وقالوا : يد الله مغلولة . وقالوا : انه تعب من الخلق فاستراح يوم السبت إلى غير ذلك . والنصارى وصفوا المخلوق بصفات الخالق المختصة به فقالوا : انه يخلق ويرزق ويغفر ويرحم ويتوب على الخلق ويثيب ويعاقب ، والمؤمنون آمنوا بالله سبحانه وتعالى ليس سمى ولاند ، ولم يكن له كفواً أحد ، وليس كمثل شيء ، فانه رب العالمين وخالق كل شيء ، وكل ماسواه عباد له فقراء إليه : (إن كل من في السموات والأرض إلا آت الرحمن عبداً لقد أحصاهم وعدهم عدداً وكلهم آتية يوم القيامة فرداً) .

ومن ذلك أمر الحلال والحرام ، فان اليهود كما قال الله تعالى : (فظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) فلا يأكلون ذوات الظفر مثل : الإبل والبط ، ولا شحم الثرب والكيتين ، ولا الجدى في لبن أمه إلى غير ذلك ، مما حرم عليهم من الطعام واللباس وغيرهما حتى قيل أن المحرمات عليهم ثلاثمائة وستون نوعاً ، والواجب عليهم مائتان وثمانية وأربعون أمراً ، وكذلك شدد عليهم في النجاسات حتى لا يؤثوا كلوا الحائض ولا يجامعوها في البيوت ، وأما النصارى فاستحلوا الحبائث وجميع المحرمات وباشروا جميع النجاسات ، وإنما قال لهم المسيح : (ولا حل لكم بعض الذي حرم عليكم) ولهذا قال تعالى : (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) وأما المؤمنون فكما نعمت الله به في قوله : (ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون

ويؤمنون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون) وهذا باب يطول وصفه .

وهكذا أهل السنة والجماعة في الفرق ، فهم في باب أسماء الله وآياته وصفاته وسط بين أهل التعطيل الذين يلحدون في أسماء الله وآياته ، ويسطلون حقائق مانعت الله به نفسه حتى يشبهونه بالعدم والموات ، وبين أهل التثليل الذين يضربون له الأمثال ويشبهونه بالخلوقات .

فيؤمن أهل السنة والجماعة بما وصف الله به نفسه ، وما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف وتمثيل .

وهم في باب خلقه وأمره وسط بين المكذبين بقدره الله الذين لا يؤمنون بقدرته الكاملة ومشيبته الشاملة وخلقهم لكل شيء ، وبين المفسدين لدين الله الذين يجعلون العبد ليس له مشيئة ولاقدرة ولا عمل ، فيعطلون الأمر والنهي والثواب والعقاب ، فيصـيرون بمنزلة المشركين الذين قالوا : (لو شاء الله ما أشركنا ولا آباءنا ولا حرمنا من شيء) .

فيؤمن أهل السنة بأن الله على كل شيء قدير، فيقدر أن يهدي العباد ويقطب قلوبهم ، وأنه ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فلا يكون

في ملكه مالا يريد ولا يعجز عن إنفاذ مراده ، وأنه خالق كل شيء من الأعيان والصفات والحركات .

ويؤمنون أن العبد له قدرة ومشيئة وعمل ، وأنه مختار ولا يسمونه مجبوراً إذ المجبور من أكره على خلاف اختياره ، والله سبحانه جعل العبد مختاراً لما يفعله ، فهو مختار مرید والله خالقه وخالق اختياره وهذا ليس له نظير ، فإن الله ليس كمثل شيء لافي ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله .

وهم في باب الأسماء والأحكام والوعد والوعيد ، وسط بين الوعيدية الذين يجعلون أهل الكبائر من المسلمين مخلدين في النار ويخرجونهم من الإيمان بالسكينة ويكذبون بشفاعته النبي صلى الله عليه وسلم ، وبين المرجئة الذين يقولون إيمان الفساق مثل إيمان الأنبياء ، والأعمال الصالحة ليست من الدين والإيمان ، ويكذبون بالوعد والعقاب بالسكينة .

فيؤمن أهل السنة والجماعة بأن فساق المسلمين ، معهم بعض الإيمان وأصله ، وليس معهم جميع الإيمان الواجب الذي يستوجبون به الجنة وأنهم لا يخلدون في النار ، بل يخرج منها من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان أو مثقال خردلة من إيمان .

وأن النبي صلى الله عليه وسلم ادخر شفاعته لأهل الكبائر من أمته .

وهم أيضاً في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم ، وسط بين الغالية الذين يغالون في علي رضي الله عنه ، فيفضلونه على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، ويعتقدون أنه الإمام المعصوم دونهما وأن السحابة

ظلموا وفسقوا وكفروا الامة بعدهم ، كذلك وربما جعلوه نبياً أو إلهاً وبين الجافية الذين يعتقدون كفره ، وكفر عثمان رضي الله عنهما ويستحلون دماءهما ودماء من تولاها ، ويستحبون سب علي وعثمان ونحوهما ، ويقدمون في خلافة علي رضي الله عنه وإمامته .

وكذلك في سائر أبواب السنة وهم وسط لانهم متمسكون بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وما اتفق عليه السابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم بإحسان .

(فصل) وأنتم أصلحكم الله ، قد من الله عليكم بالانتساب إلى الاسلام الذي هو دين الله ، وعافاكم الله عما ابتلي به من خرج عن الإسلام من المشركين وأهل الكتاب ، والاسلام أعظم النعم وأجلها فان الله لا يقبل من أحد ديناً سواه : (ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين) وعافاكم الله بانتسابكم إلى السنة من أكثر البدع المضلة ، مثل كثير من بدع الروافض والجهمية والخوارج والقدرية ، بحيث جعل عندكم من البغض لمن يكذب بأسماء الله ، وصفاته ، وقضائه ، وقدره ، أو يسب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما هو من طريقة أهل السنة والجماعة ، وهذا من أكبر نعم الله على من أفهم عليه بذلك ، فان هذا من تمام الإيمان وكمال الدين ، ولهذا كثر فيكم من أهل الصلاح والدين وأهل القتال المجاهدين ما لا يوجد مثله في طوائف المتدعين ، وما زال في عساكر المسلمين المنصورة وجنود الله المؤيدة منكم ، من يؤيد الله به الدين ويمز به المؤمنين ، وفي أهل الزهادة والعبادة منكم ، من له الأحوال الزكية والطريقة المرضية ، وله

المكاشفات والتصرفات ، وفيكم من أولياء الله المتقين من له لسان صدق في العالمين ، فإن قدماء المشايخ الذين كانوا فيكم مثل الملقب بشيخ الإسلام أبي الحسن علي بن أحمد بن يوسف القرشي الهكاري ، وبعده الشيخ العارف القدوة عدي بن مسافر الأموي ومن سلك سبيلهما ، فيهم من الفضل والدين والصلاح والاتباع للسنة ، ما عظم الله به أقدارهم ورفع به منارهم ، والشيخ عدي قدس الله روحه كان من أفاضل عباد الله الصالحين ، وأكابر المشايخ المتبعين ، وله من الأحوال الزكية والمناقب العلية ما يعرفه أهل المعرفة بذلك ، وله في الأمة صيت مشهور ، ولسان صدق مذكور وعقيدته المحفوظة عنه لم يخرج فيها عن عقيدة من تقدمه من المشايخ الذين سلك سبيلهم كالشيخ الإمام الصالح أبي الفرج عبد الواحد بن محمد بن علي الأنصاري الشيرازي ، ثم الدمشقي وكشيخ الإسلام الهكاري ونحوهما ، وهؤلاء المشايخ لم يخرجوا في الأصول الكبار عن أصول أهل السنة والجماعة ، بل كان لهم من الترغيب في أصول أهل السنة والدعاء إليها والحرص على نشرها ، ومناذرة من خالفها مع الدين والفضل والصلاح ، مارفع الله به أقدارهم وأعلامناهم وغالب ما يقولونه في أصولها الكبار جيد ، مع أنه لا بد وأن يوجد في كلامهم وكلام نظرائهم من المسائل المرجوحة ، والدلائل الضعيفة كأحاديث لا تثبت ، ومقاييس لا تطرد ، ما يعرفه أهل البصيرة .

وذلك أن كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأسباب المتأخرون من الأمة الذين لم يحكموا معرفة الكتاب والسنة والفقه فيها ، ويميزوا بين صحيح الأحاديث وسقيمها ، وناتج المقاييس وعقيمها ، مع ما ينضم إلى ذلك من غلبة الأهواء ، وكثرة الآراء وتغلظ

الاختلاف والافتراق ، وحصول العداوة والشقاق فان هذه الاسباب ونحوها
 بما يوجب قوة الجهل والظلم ، اللذين نعت الله بهما الانسان في قوله : (وحلها
 الانسان لانه كان ظلوما جهولا) فاذا من الله على الانسان بالعلم والعدل
 أنقذه من هذا الضلال وقد قال سبحانه : (والمصر إن الانسان لفي خسر
 إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر)
 وقد قال تعالى : (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا
 يوقنون) .

وأتم تعلمون أصلحكم الله ، أن السنة التي يجب اتباعها ويحمد أهلها ويذم
 من خالفها ، هي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمور الاعتقادات ،
 وأمور العبادات وسائر أمور الديانات ، وذلك إنما يعرف بمعرفة أحاديث
 النبي صلى الله عليه وسلم الثابتة عنه في أقواله وأفعاله ، وماتركه من قول وعمل ،
 ثم ما كان عليه السابقون والتابعون لهم بإحسان وذلك في دواوين الإسلام
 المعروفة ، مثل صحيح البخاري ، ومسلم ، وكتب السنن مثل : سنن أبي داود
 والنسائي ، وجامع الترمذي ، وموطأ الإمام مالك ، ومثل المسانيد المعروفة
 كمثل : مسند الإمام أحمد وغيره ، ويوجد في كتب التفسير والمغازي
 وسائر كتب الحديث جملة وأجزائها من الآثار ما يستدل ببعضها على بعض
 وهذا أمر قد أقام الله له من أهل المعرفة من اعتنى به حتى حفظ الله الدين
 على أهله .

وقد جمع طوائف من العلماء الأحاديث والآثار المروية في أبواب عقائد
 أهل السنة ، مثل حماد بن سلية ، وعبد الرحمن بن مهدي ، وعبد الله بن عبد الرحمن

الدارمي ، وعثمان بن سعيد الدارمي وغيرهم في طبقتهم ، ومثلهما بابوب عليه البخاري ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن ماجه وغيرهم في كتبهم ، ومثل : مصنفات أبي بكر الاثرم ، وعبد الله بن أحمد ، وأبي بكر الخلال ، وأبي القاسم الطبراني ، وأبي الشيخ الاصبهاني ، وأبي بكر الأجرى ، وأبي الحسن الدارقطني ، وأبي عبد الله بن منده ، وأبي القاسم اللالكائي ، وأبي عبد الله ابن بطه ، وأبي عمر الطلنكي ، وأبي نعيم الاصبهاني ، وأبي بكر البيهقي ، وأبي ذر الهروي ، وإن كان يقع في بعض هذه المصنفات من الأحاديث الضعيفة ما يعرفه أهل المعرفة .

(وقد) يروى كثير من الناس في الصفات وسائر أبواب الاعتقادات وعامة أبواب الدين ، أحاديث كثيرة تكون مكذوبة موضوعة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي قسبان :

منها ما يكون كلاما باطلا لا يجوز أن يقال ، فضلا عن أن يضاف إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

والقسم الثاني ؛ من الكلام ما يكون قد قاله بعض السلف أو بعض العلماء أو بعض الناس ، ويكون حقاً أو بما يسوغ فيه الاجتهاد أو مذهباً لقائله ، فيعزى إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا كثير عند من لا يعرف الحديث ، مثل المسائل التي وضعها الشيخ أبو الفرج عبد الواحد بن محمد بن علي الانصاري ، وجعلها محنة يفرق فيها بين السني والبدعي ، وهي مسائل معروفة ، عمل بعض الكذابين وجعل لها إسطاداً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعلها من كلامه بهذا يعلمه من له أدنى معرفة أنه مكذوب

مفتري ، وهذه المسائل وإن كان غالبها موافقاً لأصول السنة ، ففيها ما إذا خالفه الإنسان لم يحكم بأنه مبتدع ، مثل أول نعمة أنعم بها على عبده فإن هذه المسألة فيها نزاع بين أهل السنة ، والنزاع فيها لفظي لأن مبناها على أن اللذة يعقبا ألم هل تسمى نعمة أم لا ، وفيها أيضاً أشياء مرجوحة .

فالواجب أن يفرق بين الحديث الصحيح والحديث الكذب ، فإن السنة هي الحق دون الباطل ، وهي الأحاديث الصحيحة دون الموضوعة فهذا أصل عظيم لأهل الإسلام عموماً ولمن يدعى السنة خصوصاً .

(فصل) وقد تقدم أن دين الله وسط بين الغالى فيه والجافى عنه ، والله تعالى ما أمر عباده بأمر إلا اعترض الشيطان فيه بأمرين لا يبالى بأيهما ظفر ، أما إفراط فيه ، ولما تقرّط فيه ، وإذا كان الإسلام الذي هو دين الله لا يقبل من أحد سواه ، قد اعترض الشيطان كثيراً بمن ينسب إليه حتى أخرجه عن كثير من شرائعه ، بل أخرج طوائف من أعبد هذه الأمة وأورعها عنه ، حتى مرقوا منه كما يمرق السهم من الرمية ، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتال المارقين منه ، فثبت عنه في الصحاح وغيرها من رواية أمير المؤمنين على بن أبي طالب ، وأبي سعيد الخدري ، وسهيل بن خفيف ، وأبي ذر الغفاري ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر ، وابن مسعود رضي الله عنهم وغير هؤلاء ، أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر الخوارج فقال : « يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية أينما لقيتموهم فاقتلوهم أو فقتلوهم فإن في قتلهم أجراً عند الله لمن قتلهم يوم القيامة

لئن أدركتهم لأقتلهم قتل عاد ، وفي رواية : شر قتلى تحت أديم السماء خير قتلى من قتلوه وفي رواية : لو يعلم الذين يقاتلونهم ما زوى لهم على لسان محمد صلى الله عليه وسلم لنسكلوا عن العمل ، وهؤلاء لما خرجوا في خلافة أمير المؤمنين علي بن جلاب رضى الله عنه ، قاتلهم هو وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر النبي صلى الله عليه وسلم وتحضيضه على قتالهم ، واتفق على قتلهم جميع أئمة الإسلام .

وهكذا كل من فارق جماعة المسلمين وخرج عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشريعتة من أهل الأهواء المضلة والبدع المخالفة ، ولهذا قاتل المسلمون أيضاً الرافضة الذين هم شر من هؤلاء ، وهم الذين يكفرون بجاهلهم المسلمين ، مثل الخلفاء الثلاثة وغيرهم ، ويزعمون أنهم هم المؤمنون ومن سواهم فر ، ويكفرون من يقول أن الله يرى في الآخرة ، أو يؤمن بصفات الله وقدرته السكاملة ومشيتته الشاملة ، ويكفرون من خالفهم في بدعهم التي هم عليها ، فأنهم يمسحون القدمين ولا يمسحون على الحف ، ويؤخرون الفطور والصلاة إلى طلوع النجم ، ويجمعون بين الصلاتين من غير عذر ، ويقتنون في الصلوات الخمس ، ويحرمون الفقاع وذبائح أهل الكتاب ، وذبائح من خالفهم من المسلمين ، لأنهم عندهم كفار ، ويقولون على الصحابة رضى الله عنهم أقوالاً عظيمة لا حاجة إلى ذكرها هنا ، إلى أشياء أخر . فقاتلهم المسلمون بأمر الله ورسوله .

فاذا كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين ، قد انتسب إلى الإسلام من مرق منه مع عبادته العظيمة ، حتى أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتالهم ، فيعلم أن المنتسب إلى الإسلام أو السنة في هذه الأزمان

قد يمرق أيضاً من الإسلام والسنة حتى يدعى السنة من ليس من أهلها ، بل قد مرق منها وذلك بأسباب :

منها : الغلو الذى ذمه الله تعالى فى كتابه حيث قال : (يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه — إلى قوله — وكفى بالله وكيلاً) وقال تعالى : (يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل) وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إياكم والغلو فى الدين فانما أهلك من كان قبلكم الغلو فى الدين ، وهو حديث صحيح .

ومنها : التفريق والاختلاف الذى ذكره الله تعالى فى كتابه العزيز .

ومنها : أحاديث تروى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهى كذب عليه باتفاق أهل المعرفة ، يسمعا الجاهل بالحديث فيصدق بها لموافقة ظنه وهواه .

وأضل الضلال : اتباع الظن والهوى كما قال الله تعالى فى حق من ذمهم : (ان يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى) وقال فى حق نبيه صلى الله عليه وسلم : (والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى) فنزعه عن الضلال والغواية اللذين هما الجهل والظلم ، فالضلال هو الذى لا يعلم الحق ، والغاوى الذى يتبع هواه ، وأخبر أنه ما ينطق عن هوى النفس ، بل هو وحي أوحاه الله إليه فوصفه بالعلم ونزعه عن الهوى .

وأنا أذكر جرامع من أصول الباطل التي ابتدعها طوائف ممن يتنسب إلى السنة ، وقد مرق منها وصار من أكابر الظالمين وهي فصول .

الفصل الأول — أحاديث رويها في الصفات زائدة على الأحاديث التي في دواوين الإسلام ، مما نعلم باليقين القاطع أنها كذب وبهتان ، بل كفر شنيع ، وقد يقولون من أنواع الكفر مالا يروون فيه حديثا مثل حديث يروونه : أن الله ينزل عشية عرفة على جبل أورق يصافح الركبان ويعانق المشاة . وهذا من أعظم الكذب على الله ورسوله صلى الله عليه وسلم . وقائله من أعظم القائلين على الله غير الحق ، ولم يرو هذا الحديث أحد من علماء المسلمين أصلا ، بل أجمع علماء المسلمين وأهل المعرفة بالحديث على أنه مكذوب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال أهل العلم بكابن قتبية وغيره : هذا وأمثاله إنما وضعه الزنادقة ليشتنبوا به أهل الحديث ويقولون أنهم يروون مثل هذا .

وكذلك حديث آخر فيه : انه رأى ربه حين أفاض من مزدلفة يمشى أمام الحجيح وعليه جبة صوف أو ما يشبه هذا البهتان والافتراء على الله ، الذي لا يقوله من عرف الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

وهكذا حديث فيه : أن الله يمشى على الأرض فإذا كان موضع خضرة قالوا هذا موضع قدميه ويقرءون قوله تعالى (فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها) هذا أيضا كذب باتفاق العلماء ولم يقل الله فانظر إلى آثار خطي الله ، وإنما قال أثر رحمة الله ورحمته هنا النبات .

وهكذا أحاديث في بعضها : أن محمدا صلى الله عليه وسلم رأى ربه في

الطواف وفي بعضها أنه رآه وهو خارج من مكة ، وفي بعضها أنه رآه في بعض سكك المدينة إلى أنواع أخر .

وكل حديث فيه أن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى ربه بعينه في الأرض ، فهو كذب باتفاق المسلمين وعلماهم ، هذا شيء لم يقله أحد من علماء المسلمين ولا رواه أحد منهم .

ولأنما كان النزاع بين الصحابة في أن محمداً صلى الله عليه وسلم هل رأى ربه ليلة المعراج ، فكان ابن عباس رضى الله عنهما وأكثر علماء السنة يقولون : أن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى ربه ليلة المعراج ، وكانت عائشة رضى الله عنها وطائفة معها تسكر ذلك ، ولم ترو عائشة رضى الله عنها في ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً ولا سأله عن ذلك ، ولا نقل في ذلك عن الصديق رضى الله عنه ، كما يروونه ناس من الجهال أن أباهما سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال : نعم . وقال لعائشة : لا . فهذا الحديث كذب باتفاق العلماء ، ولهذا ذكر القاضي أبو يعلى وغيره أنه اختلفت الرواية عن الإمام أحمد رحمه الله ، هل يقال أن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى ربه بعيني رأسه ، أو يقال بعين قلبه ، أو يقال رآه ولا يقال بعين رأسه ولا بعين قلبه ، على ثلاث روايات .

وكذلك الحديث الذي رواه أهل العلم أنه قال : رأيت ربي في صورة كذا وكذا . يروى من طريق ابن عباس ومن طريق أم الطفيل وغيرهما ، وفيه أنه وضع يده بين كفتي حتى وجدت برد أنامله على صدري ، هذا الحديث لم يكن ليلة المعراج ، فإن هذا الحديث كان بالمدينة ، وفي الحديث

أن النبي صلى الله عليه وسلم نام عن صلاة الصبح ثم خرج إليهم وقال : رأيت كذا وكذا وهو من رواية من لم يصل خلفه إلا بالمدينة كأم العفيل وغيرها ، والمعراج إنما كان من مكة باتفاق أهل العلم ، وبئس القرآن والسنة المتواترة كما قال الله تعالى : (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) .

فعلم أن هذا الحديث كان رؤيا منام بالمدينة كما جاء مفسراً في كثير من طرقه أنه كان رؤيا منام ، مع أن رؤيا الأنبياء وحى لم يكن رؤيا يقظة ليلة المعراج ، وقد اتفق المسلمون على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم ير ربه بعينه في الأرض ، وأن الله لم ينزل له إلى الأرض ، وليس عن النبي صلى الله عليه وسلم قط حديث فيه أن الله نزل له إلى الأرض .

بل الأحاديث الصحيحة أن الله يدنو عشية عرفة ، وفي رواية إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه ، من يستغفرني فأغفر له .

وثبت في الصحيح أن الله يدنو عشية عرفة ، وفي رواية إلى سماء الدنيا ، فيباهي الملائكة بأهل عرفة . فيقول : انظروا إلى عبادي أتوني شعثاً غبراً ما أراد هؤلاء ، وقد روى أن الله ينزل ليلة النصف من شعبان إن صح الحديث فإن هذا مما تكلم فيه أهل العلم .

وكذلك ما روى بعضهم أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزل من حرام قعدى له ربه على كرسى بين السماء والأرض ، غلط باتفاق أهل العلم بل الذي

في الصحاح : أن الذي تبدى له الملك الذي جاءه بحراء في أول مرة وقال له :
 اقرأ . فقلت : لست بقارىء . فأخذنى فغطى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى .
 فقال : اقرأ . فقلت : لست بقارىء . فأخذنى فغطى حتى بلغ منى الجهد ثم
 أرسلنى . فقال : (اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق اقرأ
 وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) فهذا أول ما نزل
 على النبي صلى الله عليه وسلم ثم جعل النبي صلى الله عليه وسلم يحدث عن فترة
 الوحي قال : « فبينما أنا أمشى إذ سمعت صوتاً فرفعت رأسى فإذا الملك الذى
 جاءنى بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض ، رواه جابر رضى الله
 عنه في الصحيحين فأخبر أن الملك الذى جاءه بحراء رآه بين السماء والأرض ،
 وذكر أنه رعب منه فوقع في بعض الروايات الملك ، فظن القارىء أنه الملك
 وأنه الله ، وهذا غلط وباطل .

وبالجملة ان كل حديث فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى ربه بعينه
 في الأرض ، وفيه أنه نزل له إلى الأرض ، وفيه أن رياض الجنة من
 خطوات الحق ، وفيه أنه وطئ على صخرة بيت المقدس ، كل هذا كذب
 باطل باتفاق علماء المسلمين من أهل الحديث وغيرهم .

وكذلك كل من ادعى أنه رأى ربه بعينه قبل الموت ، فدعواه باطل
 باتفاق أهل السنة والجماعة ، لأنهم اتفقوا جميعهم على أن أحداً من المؤمنين
 لا يرى ربه بعينه رأسه حتى يموت ، وثبت ذلك في صحيح مسلم عن الثوراس
 ابن سمعان عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لما ذكر الدجال قال : « واعلموا
 أن أحداً منكم لن يرى ربه حتى يموت » وكذلك روى هذا عن النبي صلى الله
 عليه وسلم من وجوه أخر يحذر أمته فتنة الدجال ، وبين لهم أن أحداً منهم
 (١٩ - مجموعة الرسائل)

إن يرى ربه حتى يموت، فلا يظن أحد أن هذا الدجال الذى رآه هو ربه، ولكن الذى يقع لاهل حقائق الإيمان من المعرفة بالله ويقين القلوب ومشاهدتها وتجلياتها هو على مراتب كثيرة قال النبي صلى الله عليه وسلم لما سأله جبريل عليه السلام عن الاحسان قال: «الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

وقد يرى المؤمن ربه فى المنام فى صور متنوعة على قدر إيمانه وبقينه، فإذا كان إيمانه صحيحا لم يره إلا فى صورة حسنة، وإذا كان فى إيمانه نقص رأى ما يشبه إيمانه، ورؤيا المنام لها حكم غير رؤيا الحقيقة فى اليقظة، ولها تعبير وتأويل لما فيها من الامثال المضروبة للحقائق.

(وقد) يحصل لبعض الناس فى اليقظة أيضا من الرؤيا نظير ما يحصل للنائم فى المنام، فيرى بقلبه مثل ما يرى النائم. وقد يتجلى له من الحقائق ما يشهده بقلبه فهذا كله يقع فى الدنيا.

وربما غلب أحدهم ما يشهده بقلبه وتجمعه حواسه، فيظن أنه رأى ذلك بعينى رأسه حتى يستيقظ، فيعلم أنه منام وربما علم فى المنام أنه منام.

فكذا من العباد من يحصل له مشاهدة قلبية تغلب عليه حتى تفنيه عن الشعور بحواسه فيظنها رؤية بعينه، وهو غلط فى ذلك وكل من قال من العباد المتقدمين أو التأخرين أنه رأى ربه بعينى رأسه، فهو غلط فى ذلك باجماع أهل العلم والإيمان.

نعم رؤية الله بالابصار هى للمؤمنين فى الجنة، وهى أيضا للناس فى

عرصات القيامة كما تواترت الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال : « إنكم سترون ربكم كما ترون الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب وكما ترون القمر ليلة البدر صحوً ليس دونه سحاب » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « جنات الفردوس أربع جنتان من ذهب آنيتهما وحليتهما وما فيهما وجنتان من فضة آنيتهما وحليتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه فيتمولون ما هو ألم بيض وجوهنا ويثقل موازيننا ويدخلنا الجنة ويخرنا من النار فيكشف الحجاب فينظرون إليه فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه وهي الزيادة » .

وهذه الأحاديث وغيرها في الصحاح وقد تلقاها السلف والأئمة بالقبول ، واتفق عليها أهل السنة والجماعة ، وإنما يكذب بها أو يحرفها الجهمية ومن تبعهم من المعتزلة والرافضة ونحوهم ، الذين يكذبون بصفات الله تعالى وبرؤيته وغير ذلك ، وهم المعطلة شرار الخلق والحليقة .

ودين الله وسط بين تكذيب هؤلاء بما أخبر به رسوله صلى الله عليه وسلم في الآخرة ، وبين تصديق الغالية بأنه يرى بالعيون في الدنيا وكلاهما باطل .

وهؤلاء الذين يزعم أحدهم أنه يراه بعيني رأسه في الدنيا ، هم ضلال كما تقدم ، فإن ضموا إلى ذلك أنهم يرونه في بعض الأشخاص ، أما بعض الصالحين أو بعض المردان أو بعض الملوك أو غيرهم ، عظم ضلالهم

وكفرهم وكانوا حينئذ أضل من النصارى الذين يزعمون أنهم رأوه في صورة عيسى ابن مريم ، بل هم أضل من أتباع الدجال الذى يكون في آخر الزمان ويقول للناس أنا ربكم ويأمر السماء فتمطر والأرض فتذب وتخرج كنوزك فتتبعه كدروزها ، وهذا هو الذى حذر منه النبي صلى الله عليه وسلم أمته وقال : « ما من خلق آدم إلى قيام الساعة فتنة أعظم من الدجال » وقال : « إذا جلس أحدكم في الصلاة فليستعذ بالله من أربع ليقول : اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم وأعوذ بك من عذاب القبر وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ، فهذا ادعى الربوبية وأتى بشبهات فتن بها الخلق حتى قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم : « انه أعور وان ربكم ليس بأعور واعلموا أن أحدا منكم لن يرى ربه حتى يموت » فذكر لهم علامتين ظاهرتين يعرفهما جميع الناس ، لعله صلى الله عليه وسلم بأن من الناس من يضل فيجوز أن يرى ربه في الدنيا في صورة البشر كهؤلاء الضلال الذين يعتقدون ذلك ، وهؤلاء قد يسمون الحلولية والاتحادية .

وهم صنفان : قوم يخصونه بالحلول أو الاتحاد في بعض الاشياء كما يقوله النصارى في المسيح عليه السلام ، والغالبية في على رضى الله عنه ونحوه ، وقوم في أنواع من المشايخ ، وقوم في بعض الملوك ، وقوم في بعض الصور الجيلة إلى غير ذلك من الأقوال التي هي شر من مقالة النصارى .

وصنف يعمون فيقولون : بحلوله أو اتحاده في جميع الموجودات حتى الكلاب والخنازير والبهائم وغيرها ، كما يقول ذلك قوم من الجهمية ومن تبعهم من الاتحادية كأصحاب ابن عربي ، وابن سبعين ، وابن الفارض ، والتلمساني ، والبلباني وغيرهم .

ومذهب جميع المرسلين ومن تبعهم من المؤمنين وأهل الكتب ، أن الله سبحانه خالق العالمين ورب السموات والأرض وما بينهما ، ورب العرش العظيم ، والخلق جميعهم عباده وهم فقراء إليه .

وهو سبحانه فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه ، ومع هذا فهو معهم أينما كانوا كما قال سبحانه وتعالى : (هو الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير) .

فهؤلاء الضلال الكفار الذين يزعم أحدهم أنه يرى ربه بعينه ، وربما زعم أنه جالسه وحادثه أو ضاجعه ، وربما يعين أحدهم آدمياً اما شخصاً أو صديقاً أو غير ذلك ، ويزعم أنه كلهم يستتابون ، فان تابوا وإلا ضربت أعناقهم ، وكانوا كفاراً إذ هم أكفر من اليهود والنصارى الذين قالوا : (إن الله هو المسيح ابن مريم) فان المسيح رسول كريم وجيه عند الله فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ، فاذا كان الذين قالوا : انه هو الله وانه اتحد به أو حل فيه قد كفرهم وعظم كفرهم ، بل الذين قالوا : انه اتخذ ولداً حتى قال : (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئا إدا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً أن دعوا للرحمن ولداً وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً ان كل من فى السموات والأرض إلا آت الرحمن عبداً) فكيف بمن يزعم فى شخص من الأشخاص أنه هو هذا أكفر من الغالية الذين يزعمون أن علياً رضى الله عنه أو غيره من أهل البيت هو الله .

وهؤلاء هم الزنادقة الذين حرقهم على رضى الله عنه بالنار ، وأمر بأخاديد خدت لهم عند باب كنده ، وقذفهم فيها بعد أن أجلمهم ثلاثا ليتوبوا ، فلما لم يتوبوا أحرقهم بالنار ، وانفقت الصحابة رضى الله عنهم على قتلهم ، لكن ابن عباس رضى الله عنهما كان مذهبه أن يقتلوا بالسيف بلا تحريق ، وهو قول أكثر العلماء وقصتهم معروفة عند العلماء .

فصل — وكذلك الغلو في بعض المشايخ ، اما في الشيخ عدى ويونس القنى أو الحلاج وغيرهم ، بل الغلو في على بن أبي طالب رضى الله عنه ونحوه ، بل الغلو في المسيح عليه السلام ونحوه ، فكل من غلا في حى أو في رجل صالح كئل على رضى الله عنه أو عدى أو نحوه ، أو في من يعتقد فيه الصلاح كالحلاج أو الحاكم الذى كان بمصر ، أو يونس القنى ونحوهم ، وجعل فيه نوعا من الإلهية مثل أن يقول : كل رزق لا يرزقنيه الشيخ فلان ما أريده ، أو يقول إذا ذبح شاة باسم سيدى أو يعبد بالسجود له أو لغيره ، أو يدعوه من دون الله تعالى ، مثل أن يقول ياسيدى فلان اغفرلى أو ارحنى أو انصرنى أو ارزقنى أو أغثنى أو أجرنى أو توكلت عليك أو أنت حسبي أو أنا في حسبك ، أو نحو هذه الأقوال والأفعال التى هى من خصائص الربوبية التى لا تصلح إلا لله تعالى ، فكل هذا شرك وضلال يستتاب صاحبه ، فإن تاب وإلا قتل فإن الله إنما أرسل الرسل ، وأنزل الكتب لتعبد الله وحده لا شريك له ولا نجعل مع الله إلها آخر .

والذين كانوا يدعون مع الله آلهة أخرى مثل : الشمس والقمر والكواكب والعزير والمسيح والملائكة واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ينفوث ويعوق ونسرا وغير ذلك ، لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق

الخلائق ، أو أنها تنزل المطر أو أنها تثبت الثبات ، وإنما كانوا يعبدون الأنبياء والملائكة والكواكب والجن والتمثيل المصورة لهؤلاء ، أو يعبدون قبورهم ويقولون إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى .

ويقولون : هم شفعاؤنا عند الله ، فأرسل الله رسله تنهى أن يدعى أحد من دونه لا دعاء عبادة ، ولا دعاء استغاثة وقال تعالى : (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا) .

قال طائفة من السلف : كان أقوام يدعون المسيح وعزيراً والملائكة فقال الله لهم : هؤلاء الذين تدعونهم يتقربون إلى كما تقتربون ويرجون رحمتي كما ترجون رحمتي ويخافون عذابي كما تخافون عذابي . وقال تعالى : (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم بهما من شرك وما له منهم من ظهير ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) فأخبر سبحانه أن ما يدعى من دون الله ليس له مثقال ذرة في الملك ولا شرك في الملك ، وأنه ليس له من الخلق عون يستعين به ، وأنه لا تنفع الشفاعة عنده إلا بأذنه .

وقال تعالى : (وكم من ملك في السموات لا تنفع شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) وقال تعالى : (أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون قل الله الشفاعة جميعاً له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون) وقال تعالى : (ويعبدون من دون

الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبؤون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض (الآية .

وعباد الله وحده هي أصل الدين ، وهو التوحيد الذي بعث الله به الرسل ، وأنزل به الكتب فقال تعالى : (وأسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) وقال تعالى : (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وقال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا يوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحقق التوحيد ويعلمه أمته حتى قال له رجل : ما شاء الله وشئت فقال : « أجعلتنى لله نداً بل ما شاء الله وحده » ، وقال : « لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد ولكن ما شاء الله ثم ما شاء محمد » ، ونهى عن الحلف بغير الله فقال : « من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » ، وقال : « من حلف بغير الله فقد أشرك » ، وقال : « لا تطرونى كما اطرت النصارى عيسى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » .

ولهذا اتفق العلماء على أنه ليس لأحد أن يحلف بمخلوق كالكمبة ونحوها .

ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن السجود له ، ولما سجد بعض أصحابه نهاه عن ذلك وقال : « لا يصلح السجود إلا لله » ، وقال : « لو كنت امرأةً أهدأ أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها » ، وقال لمعاذ بن جبل رضى الله عنه : « أرايت لو مررت بقبرى أكنت ساجداً له قال لا قال فلا تسجد لى » .

ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن اتخاذ القبور مساجد فقال فى مرض

موته : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذر ما فعلوا قالت عائشة رضی الله عنها : ولولا ذلك لأبرز قبره ، ولكن كره أن يتخذ مسجداً وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال قبل أن يموت بخمس : « ان من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا ببنى عيدا ولا ببيوتكم قبوراً وصلوا على حيثما كنتم فان صلاتكم تبلغني » ولهذا اتفق أئمة الاسلام على أنه لا يشرع بناء المسجد على القبور ، ولا يشرع الصلاة عند القبور ، بل كثير من العلماء يقول : الصلاة عندها باطلة .

والسنة في زيارة قبور المسلمين ، نظير الصلاة عليهم قبل الدفن قال الله تعالى في كتابه عن المنافقين : (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره) فكان دليل الخطاب أن المؤمنين يصلون عليهم ويقام على قبورهم .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم أصحابه إذا زاروا القبور أن يقولوا : « السلام عليكم أهل دار قوم مؤمنين ، وانا إن شاء الله بكم لاحقون ، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين ، نسأل الله لنا ولكم العافية ، اللهم لا تحرمنا أجرهم ولا تفتنا بعدهم واغفر لنا ولهم » .

وذلك أن من أكبر أسباب عبادة الأوثان كان التعظيم للقبور بالعبادة ونحوها ، قال الله تعالى في كتابه : (وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا) .

قال طائفة من السلف : كانت هذه أسماء قوم صالحين فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم وعبدوها .

ولهذا أنفق العلماء على أن متى سلم على النبي صلى الله عليه وسلم عند قبره ، أنه لا يتمسح بحجرته ولا يقبلها ، لأن الثقل والاستلام إنما يكون لأركان بيت الله الحرام فلا يشبه بيت المخلوق بيت الخالق .

وكذلك الطواف والصلاة والاجتماع للعبادات ، إنما تقصد في بيوت الله وهي المساجد التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، فلا تقصد بيوت المخلوقين فتتخذ عيداً كما قال ﷺ : « لا تتخذوا بيتي عيداً ، كل هذا لتحقيق التوحيد الذي هو أصل الدين ورأسه الذي لا يقبل الله عملاً إلا به ، ويغفر لصاحبه ولا يغفر لمن تركه وكما قال تعالى : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً) .

ولهذا كانت كلمة التوحيد أفضل الكلام وأعظمه ، فأعظم آية في القرآن آية الكرسي : (الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم) وقال صلى الله عليه وسلم : « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة ، والإله الذي يأله القلب عبادة له واستعانة ورجاء له وخشية واجلالاً وإكراماً .

فصل — ومن ذلك الاقتصاد في السنة واتباعها كما جاءت بلا زياد ولا نقصان ، مثل الكلام في القرآن وسائر الصفات ، فإن مذهب سلف الأمة وأهل السنة : أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق منه بدا وإليه يعود ، هكذا قال غير واحد من السلف ، روى عن أبي سفيان بن عيينة عن عمرو ابن دينار وكان من التابعين الأعيان قال : ما زلت أسمع الناس يقولون ذلك .

والقرآن الذي أنزله الله على رسوله ﷺ ، هو هذا القرآن الذي يقرؤه المسلمون ويكتبونه في مصاحفهم ، وهو كلام الله لا كلام غيره ، وإن تلاه العباد وبلغوه

بحركاتهم وأصواتهم ، فان الكلام لمن قاله مبتدئاً لامن قاله مبلغاً مؤدياً قال الله تعالى : (وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه) وهذا القرآن في المصاحف كما قال تعالى : (بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ) وقال تعالى : (يتلو صحفا مطهرة فيها كتب قيمة) وقال : (انه لقرآن كريم في كتاب مكنون) والقرآن كلام الله بحروفه ونظمه ومعانيه ، كل ذلك يدخل في القرآن وفي كلام الله ، واعراب الحروف هو من تمام الحروف كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من قرأ القرآن فأعربه فله بكل حرف عشر حسنات » ، وقال أبو بكر وعمر رضي الله عنهما : حفظ لأعراب القرآن أحب إلينا من حفظ بعض حروفه .

وإذا كتب المسلمون مصحفاً فان أحبوا أن لا ينقطوه ولا يشكلوه جاز ذلك كما كان الصحابة يكتبون المصاحف من غير تنقيط ولا تشكيل ، لأن القوم كانوا عرباً لا يلحنون ، وهكذا هي المصاحف التي بعث بها عثمان رضي الله عنه إلى الأمصار في زمن التابعين .

ثم فشا اللحن فنقطت المصاحف وشكلت بالنقط الحمر ، ثم شكلت بمثل خط الحروف ، فتنازع العلماء في كراهة ذلك ، وفيه خلاف عن الإمام أحمد رحمه الله وغيره من العلماء . قيل : يكره ذلك لأنه بدعة . وقيل : لا يكره للحاجة إليه . وقيل : يكره النقط دون الشكل لبيان الأعراب ، والصحيح أنه لا بأس به .

والتصديق بما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم : ان الله يتكلم بصوت وينادي آدم عليه السلام بصوت ، إلى أمثال ذلك من الأحاديث فهذه الجملة كان عليها سلف الأمة وأئمة السنة .

وقال أئمة السنة : القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق حيث تلى وحيث كتب ، فلا يقال لتلاوة العبد بالقرآن أنها مخلوقة لأن ذلك يدخل فيه القرآن المنزل ، ولا يقال غير مخلوقة لأن ذلك يدخل فيه أفعال العباد .

ولم يقل قط أحد من أئمة السلف : أن أصوات العباد بالقرآن قديمة ، بل أنكروا على من قال لفظ العبد بالقرآن غير مخلوق ، وأما من قال : أن المداد قديم ، فهذا من أجهل الناس وأبعدهم عن السنة قال الله تعالى : (قل لو كان البحر مدداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً) فأخبر أن المداد يكتب به كلماته .

وكذلك من قال : ليس القرآن فى المصحف وإنما فى المصحف مداد وورق أو حكاية وعبرة ، فهو مبتدع ضال ، بل القرآن الذى أنزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم هر ما بين الدفتين ، والكلام فى المصحف على الوجه الذى يعرفه الناس له خاصة يمتاز بها عن سائر الأشياء .

وكذلك من زاد على السنة فقال : أن ألفاظ العباد وأصواتهم قديمة ، فهو مبتدع ضال كمن قال : أن الله لا يتكلم بحرف ولا بصوت ، فإنه أيضاً مبتدع منكر للسنة .

وكذلك من زاد وقال : أن المداد قديم فهو ضال ، كمن قال ليس فى المصاحف كلام الله ، وأما من زاد على ذلك من الجهال الذين يقولون : أن الورق والجلد والوتد وقطعة من الحائط كلام الله ، فهو بمنزلة من يقول : ما تكلم الله بالقرآن ولا هو كلامه ، هذا الغلو من جانب الإثبات يقابل التكذيب من جانب النفى ، وكلاهما خارج عن السنة والجماعة .

وكذلك أفراد الكلام في النقطة والشكلة بدعة نفيًا وإثباتًا ، وإنما حدثت هذه البدعة من مائة سنة أو أكثر بقليل . فان من قال ان المداد الذي تنقط به الحروف ويشكل به قديم فهو ضال جاهل ، ومن قال ان اعراب حروف القرآن ليس من القرآن فهو ضال مبتدع .

بل الواجب أن يقال : هذا القرآن العربي هو كلام الله ، وقد دخل في ذلك حروفه باعرابها كما دخلت معانيه ، ويقال ما بين اللوحين جميعه كلام الله ، فان كان المصحف منقوطة مشكولا أطلق على ما بين اللوحين جميعه أنه كلام الله ، وان كان غير منقوط ولا مشكول كالمصاحف القديمة التي كتبها الصحابة كان أيضاً ما بين اللوحين هو كلام الله ، فلا يجوز أن تلقى الفتنة بين المسلمين بأمر يحدث ونزاع لفظي لاحقيقة له ، ولا يجوز أن يحدث في الدين ما ليس منه .

فصل — وكذلك يجب الاقتصاد والاعتدال في أمر الصحابة والقراءة رضى الله عنهم ، فان الله تعالى أتى على أصحاب نبيه صلى الله عليه وسلم من السابقين والتابعين لهم بإحسان ، وأخبر أنه رضى عنهم ورضوا عنه وذكركم في آيات من كتابه مثل قوله تعالى : (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيماً) وقال تعالى : (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً) .

وفي الصحاح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » .

وقد اتفق أهل السنة والجماعة على ما تواتر عن أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر رضي الله عنهما ، واتفق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيعه عثمان بعد عمر رضي الله عنهما ، وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خلافة النبوة ثلاثون سنة ثم يصير ملكا » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فان كل بدعة ضلالة » .

وكان أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضي الله عنه ، آخر الخلفاء الراشدين المهديين .

وقد اتفق عامة أهل السنة من العلماء والعباد والامراء والاجناد ، على أن يقولوا : أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم على رضي الله عنهم ، ودلائل ذلك وفضائل الصحابة كثير ليس هذا موضعه .

وكذلك نؤمن بالامساك عما شجر بينهم ، ونعلم أن بعض المنقول في ذلك كذب ، وهم كانوا مجتهدين إما مصيدين لهم أجران ، أو مثابين على عملهم الصالح مغفور لهم خطوهم ، وما كان من السيئات . وقد سبق لهم من الله الحسن . فإن الله يغفرها لهم إما بتوبة أو بحسنات ماحية أو مصائب مكفرة أو غير ذلك . فإنهم خير قرون هذه الأمة كما قال صلى الله عليه وسلم :

« خير القرون قرنى الذى بعثت فيهم ثم الذين يلونهم وهذه خير أمة أخرجت للناس » .

وتعلم مع ذلك أن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، كان أفضل وأقرب إلى الحق من معاوية ومن قائله معه لما ثبت في الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يمرق مارقة على حين فرقة من المسلمين تقتلهم أدنى الطائفتين إلى الحق » ، وفي هذا الحديث دليل على أنه مع كل طائفة حق ، وأن علياً رضى الله عنه أقرب إلى الحق .

وأما الذين قعدوا عن القتال في الفتنة كسعد بن أبى وقاص وابن عمر وغيرهما رضى الله عنهم فاتبعوا النصوص التي سمعوها في ذلك عن القتال في الفتنة . وعلى ذلك أكثر أهل الحديث .

وكذلك آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لهم من الحقوق ما يجب رعايتها . فإن الله جعل لهم حقاً في الخس والنبي ، وأمر بالصلاة عليهم مع الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لنا : « قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد » ، وآل محمد هم الذين حرمت عليهم الصدقة . هكذا قال الشافعى وأحمد بن حنبل وغيرهما من العلماء رحمهم الله ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد ، وقد قال الله تعالى في كتابه : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) » وحرم الله عليهم الصدقة لأنها أوساخ الناس ، وقد قال بعض السلف : حب أبى بكر وعمر إيمان وبغضهما نفاق .

وفي المسانيد والسنن أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للعباس لما شكأ إليه جفوة قوم لهم قال : « والذي نفسى بيده لا يدخلون الجنة حتى يحبوكم من أجلي » .

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله اصطفى بنى اسماعيل واصطفى بنى كنانة من بنى اسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى بنى هاشم من قريش واصطفانى من بنى هاشم » .

وقد كانت الفتنة لما وقعت بمقتل عثمان واقتراق الأمة بعده ، صار قوم عن يحب عثمان ويغلو فيه ، ينحرف عن على رضى الله عنه ، مثل كثير من أهل الشام من كان إذ ذاك يسب علياً رضى الله عنه ويغضه .

وقوم من يحب علياً رضى الله عنه ويغلو فيه ، ينحرف عن عثمان رضى الله عنه مثل كثير من أهل العراق ، من كان يغض عثمان ويسبه رضى الله عنه .

ثم تغلظت بدعتهم بعد ذلك ، حتى سبوا أبا بكر وعمر رضى الله عنهما حوزاد البلاء بهم حينئذ .

والسنة محبة عثمان وعلى جميعاً ، وتقديم أبى بكر وعمر عليهما رضى الله عنهما ، لما خصهما الله به من الفضائل التى سبقا بها عثمان وعلياً جميعاً ، وقد نهى الله فى كتابه عن التفرق والتشتت ، وأمر بالاعتصام بحبله .

فهذا موضع يجب للؤمن أن يتثبت فيه ويمتصم بحبل الله ، فإن السنة جنبها على العلم والعدل والاتباع لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . فالرافضة لما كانت تسب الصحابة ، دار العلماء يأمرون بعقوبة من يسب

الصحابه ، ثم كفرت الصحابة وقالت عنهم أشياء قد ذكرنا حكمهم فيها في غير هذا الموضع .

ولم يكن أحد إذ ذاك يتكلم في يزيد بن معاوية ، ولا كان الكلام فيه من الدين ، ثم حدثت بعد ذلك أشياء ، فصار قوم يظهرون لعنة يزيد بن معاوية ، وربما كان غرضهم بذلك التطرق إلى لعنة غيره ، فكره أكثر أهل السنة لعنة أحد بعينه ، فسمع بذلك قوم ممن كان يتسنن ، فاعتقد أن يزيد كان من كبار الصالحين وأئمة الهدى ، وصار الغلاة فيه على طرفي نقيض ، هؤلاء يقولون أنه كافر زنديق وأنه قتل ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقتل الانصار وأبناءهم بالحرة ليأخذ بثأر أهل بيته الذين قتلوا كفاراً ، مثل جده لأمه عتبة بن ربيعة ، وخاله الوليد وغيرهما ، ويدكرون عنه من الاشتهار بشرب الخمر وإظهار الفواحش أشياء ، وأقوام يمتقدون أنه كان إماماً عادلاً هادياً مهدياً ، وأنه كان من الصحابة أو أكابر الصحابة ، وأنه كان من أولياء الله تعالى ، وربما اعتقد بعضهم أنه كان من الأنبياء ويقولون : من وقف في يزيد وقفه الله على نار جهنم ، ويروون عن الشيخ حسن بن عدى : أنه كان كذا وكذا ولياً وقفوا على النار لقولهم في يزيد ، وفي زمن الشيخ حسن زادوا أشياء باطلة نظماً ونثراً ، وغلوا في الشيخ عدى وفي يزيد بأشياء مخالفة لما كان عليه الشيخ عدى الكبير قدس الله روحه ، فان طريقته كانت سليمة لم يكن فيها من هذه البدع ، وابتلوا بروافض عادوهم وقتلوا الشيخ حسناً ، وجرت فتن لا يحبها الله ولا رسوله .

وهذا الغلو في يزيد من الطرفين ، خلاف لما أجمع عليه أهل العلم بالآيمان .

فان يزيد بن معاوية ولد في خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ولم يدرك النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا كان من الصحابة باتفاق العلماء ، ولا كان من المشهورين بالدين والصلاح وكان من شان المسلمين ، ولا كان كافراً ولا زنديقاً ، وتولى بعد أبيه على كراهة من بعض المسلمين ، ورضا من بعضهم ، وكان فيه شجاعة وكرم ، ولم يكن مظهراً للفواحش كما يحكى عنه خصوصه .

وجرت في إمارته أمور عظيمة ، أحدها مقتل الحسين رضى الله عنه ، وهو لم يأمر بمقتل الحسين ، ولا أظهر الفرح بقتله ، ولا نسكت بالقضيب على ثناباه رضى الله عنه ، ولا حمل رأس الحسين رضى الله عنه إلى الشام ، لكن أمر بمنع الحسين رضى الله عنه وبدفعه عن الأمر ، ولو كان بقتاله فواد النواب على أمره ، وحض الشمرذى الجيوش على قتله لعبيد الله بن زياد فاعتدى عليه عبيد الله بن زياد ، فطلب منهم الحسين رضى الله عنه أن يجيء إلى يزيد ، أو يذهب إلى الثغر مرابطاً ، أو يعود إلى مكة . فنعوه رضى الله عنه إلا ان يستأسر لهم ، وأمر عمر بن سعد بقتاله فقتلوه مظلوماً له ولطائفة من أهل بيته رضى الله عنهم .

وكان قتله رضى الله عنه من المصائب العظيمة ، فان قتل الحسين وقتل عثمان قبله كانا من أعظم أسباب الفتن في هذه الأمة ، وقتلتهما من شرار الخلق عند الله ، ولما قدم أهلهم رضى الله عنهم على يزيد بن معاوية ، أكرمهم وسيرهم إلى المدينة ، وروى عنه أنه لعن زياداً على قتله وقال : كنت أرى رضى من طاعة أهل العراق بدون قتل الحسين ، لكنه مع هذا لم يظهر منه إنكار قتله والانتصار له والاختذ بثأره ، كان هو الواجب عليه ، فصار أهل الحق

يلومونه على تركه للواجب ، مضافا إلى أمور أخرى وأما خصومه فيزيدون عليه من الفرية أشياء .

وأما الأمر الثاني : فإن أهل المدينة النبوية نقضوا بيعته وأخرجوا نوابه وأهله ، فبعث إليهم جيشاً وأمره إذا لم يطيعوه بعد ثلاث أن يدخلها بالسيف ويبيحها ثلاثاً ، فصار عسكره في المدينة النبوية ثلاثاً يقتلون وينهبون ويفتضون الفروج المحرمة ، ثم أرسل جيشاً إلى مكة المشرفة فحاصروا مكة ، وتوفي يزيد وهم محاصرون مكة ، وهذا من العدوان والظلم الذي فعل بأمره .

ولهذا كان الذي عليه مقتصد أهل السنة وأئمة الامة أنه لا يسب ولا يجب . قال صالح بن أحمد بن حنبل : قلت لأبي إن قوما يقولون : أنهم يحبون يزيد . قال : يا بني وهل يحب يزيد أحد يؤمن بالله واليوم الآخر . فقلت : يا أبتى فلماذا لا تلغنه . قال : يا بني ومتى رأيت أباك يلعن أحداً .

وروى عنه : قيل له تكتب الحديث عن يزيد بن معاوية . فقال : لا . ولا كرامة ، أو ليس هو الذي فعل بأهل المدينة ما فعل .

فيزيد عند علماء أئمة المسلمين ملك من الملوك ، لا يحبونه بحجة الصالحين وأولياء الله ، ولا يسبونهم فانهم لا يحبون لعنة المسلم المعين لما روى البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « أن رجلاً كان يدعى حماراً وكان يكثر شرب الخمر وكان كلما أتى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم ضربه فقال رجل لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا تلغنه فانه يحب الله ورسوله ، »

ومع هذا فطائفة من أهل السنة يجيزون لعنته ، لأنهم يعتقدون أنه فعل من الظلم ما يجوز لعنة فاعله ، وطائفة أخرى ترى محبته لأنه مسلم تولى على عهد الصحابة وبإيعامه الصحابة ، ويقولون لم يصح عنه ما نقل عنه وكانت له محاسن ، ولم يصح عنه ما نقل عنه أو كان مجتهداً فيها فعله .

والصواب هو ما عليه الأئمة ، من أنه لم يخص بمحبة ولا يلعن ، ومع هذا فإن كان فاسقاً أو ظالماً فإله يغفر للفاسق والظالم لاسيما إذا أتى بحسنات عظيمة .

وقد روى البخارى فى صحيحه عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أول جيش يغزو القسطنطينية مغفور له ، وأول جيش غزاها كان أميرهم يزيد بن معاوية ، وكان معه أبو أيوب الانصارى رضى الله عنه .

وقد يشبه يزيد بن معاوية بعمر يزيد بن أبي سفيان ، فإن يزيد ابن أبي سفيان كان من الصحابة ، وكان من خيار الصحابة وهو خير آل حرب وكان أحد أمراء الشام الذين بعثهم أبو بكر رضى الله عنه فى فتوح الشام ، ومشى أبو بكر فى ركابه يوصيه مشيعاً له . فقال له : يا خليفة رسول الله إيا أن تركب وإيا أن أنزل . فقال : لست براكب ولست بنازل إني أحتسب خطاى هذه فى سبيل الله ، فلما توفى بعد فتوح الشام فى خلافة عمر ، ولى عمر رضى الله عنه مكانه أخاه معاوية ، وولد له يزيد فى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وأقام معاوية بالشام إلى أن وقع ما وقع .

فالواجب الاقتصار في ذلك ، والاعراض عن ذكر يزيد بن معاوية وامتحان المسلمين به ، فان هذا من البدع المخالفة لاهل السنة والجماعة ، فانه بسبب ذلك اعتقد قوم من الجهال أن يزيد بن معاوية من الصحابة ، وأنه من أكابر الصالحين وأئمة العدل وهو خطأ بين .

فصل — وكذلك التفريق بين الامة وامتحانها بما لم يأمر الله به ولا رسوله ، مثل أن يقال للرجل أنت شكيلى أو قرفندى ، فان هذه أسماء باطلة ما أنزل الله بها من سلطان ، وليس في كتاب الله ولا سنة رسوله ولا في الآثار المعروفة عن سلف الائمة لاشكيلى ولا قرفندى ، والواجب على المسلم إذا سئل عن ذلك أن يقول : لا أنا شكيلى ولا قرفندى بل أنا مسلم متبع لكتاب الله وسنة رسوله .

وقد روينا عن معاوية بن أبى سفيان أنه سأل عبد الله بن عباس رضى الله عنهما فقال: أنت على ملة على أو ملة عثمان . فقال : لست على ملة على ولا على ملة عثمان بل أنا على ملة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذلك كان كل من السلف يقولون : كل هذه الأهواء فى النار . ويقول أحدهم : ما أبالى أى التعمتين أعظم على أن هدانى الله للإسلام ، أو أن جنبى هذه الأهواء والله تعالى قد سمانا فى القرآن المسلمين المؤمنين عباد الله ، فلا نعدل عن الاسماء التى سمانا الله بها إلى أسماء أحدثها قوم وسموها هم وآباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان .

بل الاسماء التى قد يسوغ التسمى بها مثل : انتساب الناس إلى إمام كالخنى والمالكى والشافعى والحنبل ، أو إلى شيخ كالقصادرى والعدوى

ونحوهم ، أو مثل الانتساب إلى القبائل كالفيسي والياني ، وإلى الامصار كالشامي والعراقي والمصري .

فلا يجوز لاحد أن يمتحن الناس بها ، ولا يوالى بهذه الاسماء ، ولا يعادى عليها ، بل أكرم الخلق عند الله أقاتهم من أى طائفة كان .

وأولياء الله الذين هم أولياؤه هم الذين آمنوا وكانوا يتقون ، فقد أخبر سبحانه أن أولياءه هم المؤمنون المتقون وقد بين المتقين في قوله تعالى : (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين اليأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) والتقوى هى فعل ما أمر الله به ، وترك ما نهى الله عنه .

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن حال أولياء الله ، وما صاروا به أولياء فى صحيح البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله تبارك وتعالى من عادى لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة وما تقرب إلى عبدى بمثل آداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش ولان سألنى لأعطينه ولان استعاذنى لأعيننه وما ترددت عن شيء أنا

فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه .

فقد ذكر فى هذا الحديث أن التقرب إلى الله تعالى على درجتين : إحداهما : التقرب إليه بالفرائض . والثانية : هى التقرب إلى الله بالتواضع بعد أداء الفرائض . فالأولى : درجة المقتصدى الأبرار أصحاب اليمين . والثانية : درجة السابقين المؤمنين كما قال الله تعالى : (إن الأبرار لفي نعم على الآرائك ينظرون تعرف فى وجوههم نضرة النعيم يسقون من رحيق محتوم ختامه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافسون) .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : يمزج لأصحاب اليمين مزجاً ، ويشربه المقربون صرفاً .

وقد ذكر الله هذا المعنى فى عدة مواضع من كتابه ، فكل من آمن بالله ورسوله ، واتقى الله فهو من أولياء الله .

والله سبحانه قد أوجب موالاة المؤمنين بعضهم لبعض ، وأوجب عليهم معاداة الكافرين فقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فىهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم أنهم لمعكم حطبت أعمالهم فأصبحوا خاسرين يا أيها الذين آمنوا من يرد منكم

عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون .

فقد أخبر سبحانه أن ولي المؤمن هو الله ورسوله وعباده والمؤمنين ، وهذا عام في كل مؤمن موصوف بهذه الصفة ، سواء كان من أهل نسبة أو بلدة أو مذهب أو طريقة أو لم يكن . وقال الله تعالى : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) وقال تعالى : (إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم أنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض — إلى قوله — والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم) وقال تعالى : (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا — إلى قوله تعالى — فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون) .

وفي الصحاح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مثل المؤمن في توأدهم وتراحيمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحسنى والسهر » ، وفي الصحاح أيضاً أنه قال : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً وشبك بين أصابعه » ، وفي الصحاح أيضاً أنه قال : « والذي نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ، وقال

صلى الله عليه وسلم : « المسلم أخو المسلم لا يسله ولا يظلمه ، وأمثال هذه النصوص في الكتاب والسنة كثيرة .

وقد جعل الله فيها عباده المؤمنين بعضهم أولياء بعض ، وجعلهم أخوة وجعلهم متناصرين متراحين متعاطفين ، وأمرهم سبحانه بالائتلاف ، ونهاهم عن الافتراق والاختلاف فقال : (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) .

وقال : (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله) الآية .

فكيف يجوز مع هذا لامة محمد صلى الله عليه وسلم أن تفترق وتختلف ، حتى يوالى الرجل طائفة ويبغض طائفة أخرى ، بالظن والهوى بلا برهان من الله تعالى ، وقد برأ الله نبيه صلى الله عليه وسلم عن كان هكذا .

فهذا فعل أهل البدع ، كالخوارج الذين فارقوا جماعة المسلمين ، واستحلوا دماء من خالفهم .

وأما أهل السنة والجماعة فهم متصمون بحبل الله ، وأقل ما في ذلك أن يفضل الرجل من يوافقه على هواه وإن كان غيره أبقى لله منه .

ولئلا الواجب أن يقدم من قدمه الله ورسوله ، ويؤخر من أخره الله ورسوله ، ويجب ما أحبه الله ورسوله ، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله ، وينهى عما نهى الله عنه ورسوله ، وأن يرضى بما رضي الله به ورسوله ، وأن يكون المسلمون يداً واحدة ، فكيف إذا بلغ الأمر ببعض الناس إلى أن

يضلل غيره ويكفره ، وقد يكون الصواب معه وهو الموافق للكتاب والسنة ، ولو كان أخوه المسلم قد أخطأ في شيء من أمور الدين فليس كل من أخطأ يكون كافراً ولا فاسقاً ، بل قد عفا الله لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان وقد قال تعالى في كتابه في دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين : (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) وثبت في الصحيح أن الله قال : قد فعلت .

لأسيما وقد يكون من يوافقكم في أخص من الإسلام ، مثل أن يكون مثلكم على مذهب الشافعي ، أو منتسباً إلى الشيخ عدي ، ثم بعد هذا قد يخالف في شيء وربما كان الصواب معه ، فكيف يستحل عرضه ودمه وأوماله ، مع ما قد ذكر الله تعالى من حقوق المسلم والمؤمن .

وكيف يجوز التفريق من الأمة بأسماء مبتدعة لأصل لها في كتاب الله ، ولا سنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

وهذا التفريق الذي حصل من الأمة علمائها ومشايخها وأمرائها وكبرائها ، هو الذي أوجب تسلط الأعداء عليها ، وذلك بتركهم العمل بطاعة الله ورسوله كما قال تعالى : (ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم ففسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء) .

ففي ترك الناس بعض ما أمرهم الله به ، وقعت بينهم العداوة والبغضاء ، وإذا تفرق القوم فسدوا وهلكوا ، وإذا اجتمعوا صلحوا وملكوا ، فإن أجماعة رحمة والفرقة عذاب .

وجماع ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كما قال تعالى : (يا أيها

الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا — إلى قوله — ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون .

فن الأمر بالمعروف : الأمر بالامتثال والاجتماع ، والنهي عن الاختلاف والفرقة ، ومن النهي عن المنكر : إقامة الحدود على من خرج من شريعة الله تعالى .

فن اعتقد في بشر أنه إله ، أو دعا ميتاً أو طلب منه الرزق والنصر والهداية وتوكل عليه أو سجد له فانه يستتاب فان تاب وإلا ضربت عنقه . ومن فضل أحداً من المشايخ على النبي صلى الله عليه وسلم ، أو اعتقد أن أحداً يستغنى عن طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم استتيب ، فان تاب وإلا ضربت عنقه .

وكذلك من اعتقد أن أحداً من أولياء الله يكون مع محمد صلى الله عليه وسلم ، كما كان الخضر مع موسى عليه السلام فانه يستتاب ، فان تاب وإلا ضربت عنقه ، لأن الخضر لم يكن من أمة موسى عليه السلام ، ولا كان يجب دليه طاعته ، بل قال له : إني على علم من علم الله علنيه الله لا تعلمه ، وأنت على علم من علم الله علمه الله لا أعلمه ، وكان مبعوثاً إلى بني إسرائيل كما قال نبينا صلى الله عليه وسلم : « وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة » .

ومحمد صلى الله عليه وسلم مبعوث إلى جميع الثقلين لأنهم وجنهم ، فن اعتقد أنه يسوع لأحد الخروج عن شريعته وطاعته فهو كافر يجب قتله .

وكذلك من كفر المسلمين أو استحل دماءهم وأموالهم ببدعة ابتدعها ،
ليست في كتاب الله ولا سنة رسوله ، فإنه يجنب عن ذلك ، وعقوبته بما يزرجه ،
ولو بالقتل أو القتال ، فإنه إذا عوقب المعتقون من جميع الطوائف ،
وأكرم المتقون من جميع الطوائف ، كان ذلك من أعظم الأسباب التي
ترضى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ويصلح أمر المسلمين ، ويجب على
أولى الأمورهم علماء كل طائفة وأمرائها ومشايخها ، أن يقوموا عامتهم
ويأمرهم بالمعروف ، وينهونهم عن المنكر ، فيأمرونهم بما أمر الله به
ورسوله ، وينهونهم عما نهى الله عنه ورسوله صلى الله عليه وسلم .

فالاول مثل شرائع الإسلام . وهي الصلوات الخمس في مواقيتها ،
 وإقامة الجمعة والجماعات من الواجبات والسنن الراتبات كالأعياد ، وصلاة
الكسوف والاستسقاء والتراويح وصلاة الجنائز وغير ذلك ، وكذلك
الصدقات المشروعة والصوم المشروع وحج البيت الحرام ، ومثل الإيمان
بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والإيمان بالقدر خيره وشره ،
ومثل الاحسان وهو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ،
ومثل سائر ما أمر الله به ورسوله من الأمور الباطنة والظاهرة ، ومثل
إخلاص الدين لله والتوكل على الله . وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما
سواهما ، والرجاء لرحمة الله والخشية من عذابه ، والضرب لحكم الله والتسليم
لأمر الله ، ومثل صدق الحديث والوفاء بالعهود وأداء الأمانات إلى أهلها ،
وبر الوالدين وصلة الأرحام ، والتعاون على البر والتقوى والإحسان إلى
الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والصاحب والزوجة والمملوك ، والعدل
في المقال والفعال ثم التدب إلى مكارم الاخلاق مثل : أن تصل من قطعك

وتعطى من حرمك ، وتعفو عن ظلمك قال الله تعالى : (وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبنغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور) .

وأما المنكر الذي نهى الله عنه ورسوله فأعظمه الشرك بالله ، وهو أن يدعو مع الله إلها آخر أما الشمس وأما القمر أو الكواكب ، أو ملكا من الملائكة ، أو نبيا من الأنبياء أو رجلا من الصالحين ، أو أحدا من الجن ، أو تماثيل هؤلاء أو قبورهم ، أو غير ذلك مما يدعى من دون الله تعالى أو يستغاث به أو يسجد له ، فكل هذا وأشباهه من الشرك الذي حرمه الله على لسان جميع رسله .

وقد حرم الله قتل النفس بغير حقها ، وأكل أموال الناس بالباطل أما بالغصب وأما بالربا ، أو الميسر كالبيع والمعاملات التي نهى عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذلك قطيعة الرحم ، وعقوق الوالدين ، وتطيف المكيا والميزان ، والاثم والبغى بغير الحق .

وكذلك ما حرمه الله تعالى أن يقول الرجل على الله ما لا يعلم ، مثل أن يروى عن الله ورسوله أحاديث يحزم بها وهو لا يعلم صحتها ، أو يصف الله بصفات لم ينزل بها كتاب من الله ، ولا إثارة من علم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سواء كانت من صفات النقي ، والتعطيل مثل قول الجهمية أنه ليس فرق العرش ولا فوق السموات ، وأنه لا يرى في الآخرة ، وأنه لا يتكلم

ولا يجب ، ونحو ذلك مما كذبوا به الله ورسوله أو كانت من صفات الاثبات والتثبيل مثل من يزعم أنه يمشى في الأرض ، أو يجالس الخلق أو أنهم يرون بأعينهم أو أن السموات تحويه وتحيط به أو أنه سار في مخلوقاته إلى غير ذلك من أنواع الفرية على الله .

وكذلك العبادات المبتدعة التي لم يشرعها الله ورسوله صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى : (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله) فان الله شرع لعباده المؤمنين عبادات ، فأحدث لهم الشيطان عبادات ضاهاها بها مثل : أنه شرع لهم عبادة الله وحده لا شريك له ، فشرع لهم شركاء وهي عبادة ما سواه والاشراك به ، وشرع لهم الصلوات الخمس وقراءة القرآن فيها والاستماع له ، والاجتماع لسماع القرآن خارج الصلاة أيضاً ، فأول سورة أنزلها على نبيه صلى الله عليه وسلم : (اقرأ باسم ربك الذي خلق) أمر في أولها بالقراءة وفي آخرها بالسجود بقوله تعالى : (فاسجد واقترب) .

ولهذا كان أعظم الأذكار التي في الصلاة : قراءة القرآن . وأعظم الأفعال : السجود لله وحده لا شريك له وقال تعالى : (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا) وقال تعالى : (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون) .

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اجتمعوا أمروا واحداً منهم أن يقرأ والباقي يستمعون ، وكان عربن الخطاب يقول لأبي موسى رضي الله عنهما : ذكرنا ربنا فيقرأ وهم يستمعون ، ومر النبي صلى الله عليه وسلم بأبي موسى رضي الله عنه وهو يقرأ فجعل يستمع لقراءته فقال : يا أبا موسى

مررت بك البارحة فجعلت أستمع لقراءتك . فقال : لو علمت لخبرته لك تحبيراً ، وقال : لله أشد أذناً — آى استماعاً — إلى الرجل يحسن الصوت بالقرآن من صاحب القيمة إلى قيمته .

وهذا هو سماع المؤمنين وسلف الامة وأكابر المشايخ كعروف الكرخي والفضيل بن عياض وأبي سليمان الداراني ونحوهم ، وهو سماع المشايخ المتأخرين الاكابر كالشيخ عبد القادر والشيخ عدى بن مسافر والشيخ أبي مدين وغيرهم من المشايخ رحمهم الله ، وأما المشركون فكان سماعهم كما ذكره الله تعالى في كتابه بقوله تعالى : (وما كان صلاتهم عند البيت لإلامكاه وتصدية) .

قال السلف : المسكاه : الصغير . والتصدية : النصفيق باليد . فكان المشركون يجتمعون في المسجد الحرام يصفقون ويصوتون ، يتخذون ذلك عبادة وصلوة ، فذمهم الله على ذلك وجعل ذلك من الباطل الذي نهى عنه .

فمن اتخذ نظير هذا السماع ، عبادة وقربة يتقرب بها إلى الله ، فقد ضاها هؤلاء في بعض أمورهم ، وكذلك لم تفعله القرون الثلاثة التي أتت عليها النبي صلى الله عليه وسلم ولا فعله أكابر المشايخ .

وأما سماع الغناء على وجه اللعب ، فهذا من خصوصية الأفراح للنساء والصبيان كما جاءت به الآثار ، فان دين الاسلام واسع لا حرج فيه .

وعمد الدين الذي لا يقوم إلا به ، هو الصلوات الخمس المكتوبات ، ويجب على المسلمين من الاعتناء بها ما لا يجب من الاعتناء بغيرها .

كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يكتب إلى عماله : أن أهم أمركم عندي

الصلاة ، فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ، ومن ضيعها كان لما سواها من عمله أشد إضاعة .

وهي أول ما أوجه الله من العبادات ، والصلوات الخمس تولى الله إيجابها بمخاطبة رسوله ليلة المعراج ، وهي آخر ما وصى به النبي صلى الله عليه وسلم أمته وقت فراق الدنيا جعل يقول : « الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم » ، وهي أول ما يحاسب عليه العبد من عمله ، وآخر ما يفقد من الدين ، فإذا ذهبت ذهب الدين كله ، وهي عمود الدين فتي ذهبت سقط الدين .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله » ، وقد قال الله في كتابه : (تخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا) .

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وغيره : أضاعتها : تأخيرها عن وقتها ولو تركوها كانوا كفاراً وقال تعالى : (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) والمحافظة عليها : فعلها في أوقاتها وقال تعالى : (فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون) وهم الذين يؤخرونها حتى يخرج الوقت .

وقد اتفق المسلمون على أنه لا يجوز تأخير صلاة النهار إلى الليل ، ولا تأخير صلاة الليل إلى النهار ، لا للمسافر ولا للمريض ولا غيرهما ، لكن يجوز عند الحاجة أن يجمع المسلم بين صلاتي النهار ، وهي الظهر والعصر في وقت إحداها ، ويجمع بين صلاتي الليل وهي المغرب والعشاء في وقت إحداها وذلك لمثل المسافر والمريض ، وعند المطر ونحو ذلك من الأعذار .

وقد أوجب الله على المسلمين أن يصلوا بحسب طاقتهم كما قال الله تعالى :
(اتقوا الله ما استطعتم) فعلى الرجل أن يصلى بطهارة كاملة ، وقراءة
كاملة ، وركوع وسجود كامل ، فإن كان عادماً للماء ، أو يتضرر باستعماله
لمرض أو برداً أو غير ذلك ، وهو يحدث أو جنب يقيم الصعيد الطيب ، وهو
التراب يمسح به وجهه ويديه ، ويصلى ولا يؤخرها عن وقتها باتفاق العلماء .

وكذلك إذا كان محبوساً أو مقيداً أو زمنياً أو غير ذلك صلى على
حسب حاله ، وإذا كان بازاء عدوه صلى أيضاً صلاة الخوف قال الله تعالى :
(وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن
خفتم أن يفتكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدواً مبيناً وإذا
كنت فيهم فأقت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك - إلى قوله - وليأخذوا
حذرهم وأسلحتهم - إلى قوله - فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة
كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً) .

ويجب على أهل القدرة من المسلمين أن يأمرُوا بالصلاة كل أحد من الرجال
والنساء حتى الصبيان .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « مروهم بالصلاة لسبع واضربوهم على تركها
لعشر وفرقوا بينهم في المضاجع » .

والرجل البالغ إذا امتنع من صلاة واحدة من الصلوات الخمس ، أو
ترك بعض فرائضها المتفق عليها فإنه يستتاب ، فإن تاب وإلا قتل .

فمن العلماء من يقول : يكون مرتدّاً كافراً لا يصلى عليه ولا يدفن
(٢١ - مجموعة الرسائل)

بين المسلمين ، ومنهم من يقول يكون كقاطع الطريق وقاتل النفس والزاني المحصن ، وأمر الصلاة عظيم شأنها أن تذكر هنا ، فانها قوام الدين وعماده وتعظيمه تعالى لها في كتابه فوق جميع العبادات ، فانه سبحانه يخصها بالذكر تارة ويقرنها بالزكاة تارة ، وبالصبر تارة ، وبالنسك تارة كقوله تعالى : (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) وقوله : (واستعينوا بالصبر والصلاة) وقوله : (فصل لربك وانحر) وقوله : (ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) وتارة يفتح بها أعمال البر ويختتمها بها كما ذكره في سورة سأل سائل ، وفي أول سورة المؤمنين قال تعالى : (قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم على صلواتهم يحافظون أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) .

نسأل الله العظيم : أن يجعلنا وإياكم من الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

تمت الرسالة السابعة

وبلها الرسالة الثامنة : الإرادة والأمر

الرسالة الثامنة
الإرادة والأمر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سؤال ورد على الشيخ تقي الدين رضى الله عنه من الديار المصرية ، في سؤال سنة أربع عشرة وسبعمائة ، في حسن إرادة الله تعالى لخلق الخلق وإنشاء الأنام ، وهل يخلق لعة أو لغير علة ، فإن قيل لالعة فهو عبث تعالى الله عنه ، وإن قيل لعة فإن قلتم انها لم تزل لزم أن يكون العلول لم يزل ، وإن قلتم أنها محدثة لزم أن يكون لها علة والتسلسل محال .

الجواب : الحمد لله رب العالمين . هذه المسألة من أجل المسائل الكبار التي تسلك فيها الناس وأعظمها شعوباً وفروعاً ، وأكثرها شياً ومجارات فان لها تعلقاً بصفات الله تعالى وأسمائه وأفعاله وأحكامه ، من الأمر والنهى ، والوعد والوعيد ، وهى داخلة فى خلقه وأمره ، فكل ما فى الوجود متعلق بهذه المسألة فان المخلوقات جميعها متعلقة بها ، وهى متعلقة بالحقائق سبحانه ، وكذلك الشرائع كلها : الأمر والنهى ، والوعد والوعيد متعلق بها ، وهى متعلقة بمسائل القدر والأمر ، ومسائل الصفات والأفعال ، وهذه جوامع علوم الناس ، فعمل الفقه هو الأمر والنهى .

وقد تسلك الناس فى تعليل الأحكام الشرعية والأمر والنهى ، كالأمر بالتوحيد والصدق والعدل والصلاة والزكاة والصيام والحج ، والنهى عن الشرك والكذب والظلم والفواحش ، هل أمر بذلك لحكمة وهى مصلحة وعلة اقتضت ذلك ، أم ذلك لمحض المشيئة وصرف الإرادة ، وهل علل الشرع بمعنى الداعى والباعث ، أو بمعنى الأمانة والعلامة .

وهل يسوغ في الحكمة أن ينهى الله عن التوحيد والصدق والعدل ، ويأمر بالشرك والكذب والظلم أم لا .

وتكلم الناس في تنزيه الله تعالى عن الظلم ، هل هو منزّه عنه مع قدرته عليه ، أم الظلم تمتع لنفسه لا يمكن وقوعه ، وتكلموا في محبة الله ورضاه ، وغضبه وسخطه ، هل هو بمعنى إرادته وهو الثواب والعقاب المخلوق ، أم هذه صفات أخص من الإرادة .

وتنازعوا فيما وقع في الأرض من الكفر والفسوق والعصيان ، هل يريدّه ويحبّه ويرضاه كما يريد ويحب سائر ما يحدث ، أم هو واقع بدون قدرته ومشيتّه وهو لا يقدر أن يهدي ضالاً ولا يضل مهتدياً ، أم هو واقع بقدرته ومشيتّه ولا يكون في ملكه ما لا يريد ، وله في جميع خلقه حكمة بالغة وهو يغيضه ويكرهه ويمقت فاعله ، ولا يحب الفساد ولا يرضى لعباده الكفر ، ولا يريدّه الإرادة الدينية المتضمنة لمحبه ورضاه ، وإن إرادة الإرادة الكونية التي تناول ما قدره وقضاه ، وفروع هذه المسألة كثيرة ولأجل تجاذب الأصل ووقوع الاشتباه فيه صار الناس فيه إلى التقديرات الثلاثة المذكورة في سؤال البائل ، وكل تقدير قال به طوائف من بني آدم من المسلمين وغير المسلمين .

(فالتقدير الأول) هو قول من يقول : خلق المخلوقات وأمر بالمأمورات لا لعل ولا لداع ولا باعث ، بل فعل ذلك لمحض المشيئة وصرف الإرادة ، وهذا قول كثير ممن يثبت القدر وينسب إلى السنة من أهل الكلام والفقه وغيرهم ، وقد قال بهذا طوائف من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وغيرهم

وهو قول الأشعري وأصحابه وقول كثير من نفاة القياس الظاهرية كابن حزم وأمثاله .

ومن حجة هؤلاء أنه لو خلق الخلق لعل له كان ناقصاً بدونها مستكلاً بها ، فإنه إما أن يكون وجود تلك العلة وعدمها بالنسبة إليه سواء ، أو يكون وجودها أولى به ، فإن كان الأول امتنع أن يفعل لاجلها ، وإن كان الثاني ثبت أن وجودها أولى به فيكون مستكلاً بها فيكون قبلها ناقصاً .

ومن حججهم ما ذكره السائل من أن العلة إن كانت قديمة وجب قدم المعلول لأن العلة الغائية وإن كانت متقدمة على المعلول في العلم والقصد كما يقال : أول الفكرة آخر العمل وأول البغية آخر الدرك ويقال : إن العلة الغائية بها صار الفاعل فاعلاً ، فلا ريب أنها متأخرة في الوجود عن العمل ، فمن فعل فعلاً لمطلوب يطلبه بذلك الفعل كان حصول المطلوب بعد الفعل ، فإذا قدر أن ذلك المطلوب الذي هو العلة قديماً كان الفعل قديماً بطريق الأولى (فلو قيل) : أنه يفعل لعل قديمة لزوم أن لا يحدث شيء من الحوادث وهو خلاف المشاهدة ، وإن قيل أنه فعل لعل حادثاً لزوم محذور أن أحدها أن يكون محلاً للحوادث فإن العلة إذا كانت منفصلة عنه فإن لم يعد إليه منها حكم امتنع أن يكون وجودها أولى به من عدمها ، وإذا قدر أنه عاد إليه منها حكم كان ذلك حادثاً ، فيقوم به الحوادث ، والمحذور الثاني : أن ذلك يستلزم التسلسل من وجهين : أحدهما : أن تلك العلة الحادثة المطلوبة بالفعل ، هي أيضاً عما يحدثه الله تعالى بقدرته ومشيشه ، فإن كانت لغير علة لزوم العبث كما تقدم ، وإن كان لعل عاد التقسيم فيها ، فإذا كان كلما أحدثه أحدثه لعل والعلة بما

أحدثه ، لزم تسلسل الحوادث . الثاني : أن تلك العلة إما أن تكون مرادة لنفسها أو لعلّة أخرى ، فإن كانت مرادة لنفسها امتنع حدوثها لأن ما أرواه الله تعالى لذاته وهو قادر عليه لا يؤخر إحداثه ، وإن كانت مرادة لغيرها ، فالقول في ذلك الغير كالقول فيها ، ويلزم التسلسل ، وهذا ونحوه من حجج من ينفي تعليل أفعال الله تعالى وأحكامه .

والتقدير الثاني : قول من يجعل العلة الغائية قديمة كما يجعل العلة الفاعلية قديمة ، كما يقول ذلك طوائف من المسلمين ، كما سيأتي بيانه كما يقول ذلك من يقوله من المتفلسفة القائلين بقدم العالم ، وهؤلاء أصل قولهم إن المبدع للعالم علة تامة تستلزم معلولها لا يجوز أن يتأخر عنها معلولها ، وأعظم حججهم قولهم : إن جميع الأمور المعتبرة في كونه فاعلا إن كانت موجودة في الأزل لزم وجود المفعول في الأزل ، لأن العلة التامة لا يتأخر عنها معلولها ، فانه لو تأخر لم تكن جميع شروط الفعل وجدت في الأزل ، فانا لانعني بالعلة التامة إلا ما يستلزم المعلول فإذا قدر أنه تخلف عنها المعلول لم تكن تامة ، وإن لم تكن العلة التامة التي هي جميع الأمور المعتبرة في الفعل وهي المقتضى التام لوجود الفعل ، وهي جميع شروط الفعل التي يلزم من وجودها وجود الفعل ، وإن لم يكن جميعها في الأزل فلا بد إذا وجد المفعول بعد ذلك من تجديد سبب ، وإلا لزم ترجيح أحد طرفي الممكن بلا مرجح ، وإذا كان هناك سبب حادث فالقول في حدوثه كالقول في الحادث الأول ، ويلزم التسلسل قالوا : فالقول بانتفاء العلة التامة المستلزمة للمفعول يوجب إما التسلسل وإما الترجيح بلا مرجح .

ثم أكثر هؤلاء يثبتون علة غائية للفعل ، وهى بعينها الفاعلة لكونهم متاقضين فإنهم يثبتون له العلة الغائية ويثبتون لفعله العلة الغائية ، ويقولون مع هذا ليس له إرادة بل هو موجب بالذات لافعال بالاختيار .

وقولهم باطل من وجوه كثيرة . منها أن يقال: هذا القول يستلزم أن لا يحدث شيء ، وإن كان كلما حدث حدث بغير إحداث محدث ، ومعلوم أن بطلان هذا بين من بطلان التسلسل وبطلان الترجيح بلا مرجح ، وذلك أن العلة التامة المستلزمة لمعد لها يقترن بها معلولها ، ولا يجوز أن يتأخر عنها شيء من معلولها ، فكل ما حدث من الحوادث لا يجوز أن يحدث عن هذه العلة التامة ، وليس هناك ما يصدر عنه الممكنات سوى الواجب بنفسه الذى سماه هؤلاء علة تامة ، فإذا امتنع صدور الحوادث عنه وليس هناك ما يحدثها غيره لزم أن يحدث بلا محدث ، وأيضاً فلو قدر أن غيره أحدثها ، فإن كان واجباً بنفسه كان القول فيه كالقول فى الواجب الاول ، وأصل قولهم أن الواجب بنفسه علة تامة تستلزم مقارنة معلوله له ، فلا يجوز أن يصدر على قولهم عن العلة التامة حادث لا بواسطة ولا بغير واسطة ، لأن تلك الواسطة إن كانت من لوازم وجود كانت قديمة معه فامتنع صدور الحوادث عنها وإن كانت حادثه كان القول فيها كالقول فى غيرها ، وإن قدر أن المحدث لحوادث غير واجب بنفسه ، كان ممكناً مفتقراً إلى موجب يجب به ، ثم إن قيل أنه محدث كان من الحوادث ، وإن قيل أنه قديم كان له علة تامة مستلزمة له وامتنع حينئذ حدوث الحوادث عنه ، فإن الممكن لا يوجد هو ولا شيء من صفاته وأفعاله إلا عن الواجب بنفسه فإذا قدر حدوث الحوادث عن ممكن قديم لمعلول لعل قديمة قيل : هل حدث فيه سبب يقتضى الحدوث أم لا فإن قيل

لم يحدث سبب لزوم الترجيح بلا مرجح وإن قيل حدث سبب لزوم التسلسل كما تقدم .

الوجه الثاني: الذي يبين بطلان قولهم أن يقال مضمون الحجة أنه إذا لم يكن ثم علة قديمة لزوم التسلسل أو الترجيح بلا مرجح والتسلسل عندكم جائز، فإن أصل قولهم أن هذه الحوادث متسلسلة شيئاً بعد شيء، وأن حركات الفلك توجب استعداد القوابل لأن تفيض عليها الصور الحادثة من العلة القديمة، سواء قلتم هي العقل الفعال أو هي الواجب الذي يصدر عنه بتوسط العقول أو غير ذلك من الوسائط، وإذا كان التسلسل جائز عندكم لم يتمتع حدوث الحوادث من غير علة موجبة للمعلول، وإن لزوم التسلسل بل هذا خير في الشرع والعقل من قولكم وذلك أن الشرع أخبر أن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام وهذا بما اتفق عليه الملل المسلمون واليهود والنصارى . فإن قيل: أنه خلقها بسبب حادث قبل ذلك، كان خيراً من قولهم: أنها قديمة أزلية معه في الشرع، وكان أولى في العقل، لأن العقل ليس فيه ما يدل على قدم هذه الأفلاك، حتى يعارض الشرع، وهذه الحجة العقلية إنما تقتضي أنه لا يحدث شيء إلا بسبب حادث، فإذا قيل إن السموات والأرض خلقها الله تعالى بما حدث قبل ذلك، لم يكن في حجتم العقلية ما يبطل هذا .

الوجه الثالث: أن يقال حدوث حادث بعد حادث بلا نهاية، إما أن يكون ممكناً في العقل أو ممتعاً، فإن كان ممتعاً في العقل لزوم أن الحوادث جميعها لها أول كما يقول ذلك من يقوله من أهل الكلام وبطل قولهم بقدم

حركات الأفلاك ، وإن كان محدثاً أمكن أن يكون حدوث ما أحدثه الله تعالى كالسموات والأرض موقوفاً على حوادث قبل ذلك كما تقولون أنتم فيما يحدث في هذا العالم من الحيوان والنبات والمعادن والمطر والسحاب وغير ذلك فيلزم فساد حجتكم على التقديرين، ثم يقال إما أن تثبتوا المبدع العالم حكمة وغاية مطلوبة، وإما أن لا تثبتوا، فإن لم تثبتوا بطل قولكم بإثبات العلة الغائية وبطل ما تذكرونه من حكمة البارئ تعالى في خلق الحيوان وغير ذلك من المخلوقات وأيضاً فالوجود يبطل هذا القول ، فإن الحكمة الموجودة في الوجود أمر يفوق العد والإحصاء ، كاحدائه سبحانه لما يحدثه من نعمته ورحمته وقت حاجة الخلق إليه ، كاحداث المطر وقت الشتاء بقدر الحاجة وإحداثه للإنسان الآلات التي يحتاج إليها بقدر حاجته ، وأمثال ذلك مما ليس هذا موضع بسطه، وإن أثبتتم له حكمة مطلوبة وهي باصطلاحكم العلة الغائية لزمكم أن تثبتوا له المشيئة والإرادة بالضرورة ، فإن القول بأن الفاعل فعل كذا لحكمة كذا بدون كونه مريداً لتلك الحكمة المطلوبة جمع بين التقيضين، وهؤلاء المتفلسفة من أكثر الناس تناقضاً ، ولهذا يجعلون العلم هو العالم ، والعلم هو الإرادة، والإرادة هي القدرة وأمثال ذلك .

وأما التقدير الثالث : وهو أنه فعل المفعولات وأمر بالمأمورات لحكمة محدودة فهذا قول أكثر الناس من المسلمين وغير المسلمين، وقول طوائف من أصحاب أبي حنيفة والشافعي ومالك وأحمد وغيرهم ، وقول طوائف من أهل الكلام من المعتزلة والكرامية والمرجئة وغيرهم ، وقول أكثر أهل الحديث والتصوف وأهل التفسير وأكثر قدماء الفلاسفة وكثير من متأخريهم كأبي البركات وأمثاله، لكن هؤلاء على أقوال : منهم من قال إن الحكمة المطلوبة

مخلوقة منفصلة عنه أيضاً كما يقول ذلك من يقوله من المعتزلة والشيعة ومن وافقهم وقالوا: الحكمة في ذلك إحسانه إلى الخلق والحكمة في الأمر تعريض المكلفين للثواب وقالوا: إن فعل الإحسان إلى الغير حسن محمود في العقل نخلق الخلق لهذه الحكمة من غير أن يعود إليه من ذلك حكم ولا قام به فعل ولا نعت فقال لهم الناس: أنتم متناقضون في هذا القول لأن الإحسان إلى الغير محمود لكونه يعود منه على فاعله حكم يحمده لأجله، إما لتكميل نفسه بذلك، وإما لقصده الحمد والثواب بذلك، وإما لرقه وألم يجده في نفسه يدفع بذلك الإحسان الألم وإما لالتذاده وسروره وفرحه بالإحسان، فإن النفس الكريمة تفرح وتسر وتلتذ بالخير الذي يحصل منها إلى غيرها، فالإحسان إلى الغير محمود لكون المحسن يعود إليه من فعله هذه الأمور، أما إذا قدر أن وجود الإحسان وعدمه بالنسبة إلى الفاعل سواء، لم يعلم أن مثل هذا الفعل يحسن منه، بل مثل هذا يعد عبثاً في عقول العقلاء، وكل من فعل فعلاً ليس فيه لنفسه لذة ولا مصلحة ولا منفعة بوجه من الوجوه لا عاجلة ولا آجلة، كان عبثاً ولم يكن محموداً على هذا وأنتم علمتم أفعاله فراراً من العبث فوقعتم في العبث فإن العبث هو الفعل الذي ليس فيه مصلحة ولا منفعة ولا فائدة تعود على الفاعل، ولهذا لم يأمر الله تعالى ولا رسوله صلى الله عليه وسلم ولا أحد من العقلاء أحداً بالإحسان إلى غيره ونحو ذلك، إلا لما له في ذلك من المنفعة والمصلحة، وإلا فأمر الفاعل بفعل لا يعود إليه منه لذة ولا سرور ولا منفعة ولا فرح بوجه من الوجوه لا في العاجل ولا في الآجل لا يستحسن من الأمر.

ونشأ من هذا الكلام نزاع بين المعتزلة وغيرهم ومن وافقهم في مسألة

التحسين والتقييح العقلي، فأثبت ذلك المعتزلة وغيرهم ومن وافقهم من أصحاب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وأهل الحديث وغيرهم، وحكوا ذلك عن أبي حنيفة نفسه ونفى ذلك الأشعرية ومن وافقهم من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وغيرهم، وافق الفريقان على أن الحسن والقبح إذا فسر بكون الفعل نافعاً للفاعل ملائماً له، وكونه ضاراً للفاعل منافراً له، أنه يمكن معرفته بالعقل كما يعرف بالشرع، وظن من ظن من هؤلاء أن الحسن والقبح المعلوم بالشرع خارج عن هذا وهذا ليس كذلك، بل جميع الأفعال التي أوجبها الله تعالى ونادب إليها، هي نافعة لفاعلها ومصلحة لهم، وجميع الأفعال التي نهى الله عنها هي ضارة لفاعلها ومفسدة في حقهم، والثواب المترتب على طاعة الشارع نافع للفاعل ومصلحة له، والذم والعقاب المترتب على معصيته ضار للفاعل ومفسدة له.

والمعتزلة أثبتت الحسن في أفعال الله تعالى، لا بمعنى حكم يعود إليه من أفعاله، ومنازعهم لما اعتقدوا أن لاحسن ولاقبح إلا ما عاد إلى الفاعل منه حكم، نفوا ذلك وقالوا: القبيح في حق الله تعالى هو الممتنع لذاته، وكل ما يقدر بمكان من الأفعال فهو حسن، إذ لا فرق بالنسبة إليه عندهم بين مفعول ومفعول، وأولئك أثبتوا حسناً وقبحاً لا يعود إلى الفاعل منه حكم يقوم بذاته، إذ عندهم لا يقوم بذاته وصف ولا فعل ولا غير ذلك، وإن كانوا قد يتناقضون ثم أخذوا يقيسون ذلك على ما يحسن من العبد ويضج، فجعلوا يوجبون على الله سبحانه ما يوجبون على العبد، ويحرمون عليه من جنس ما يحرمون على العبد، ويسمون ذلك العدل والحكمة، مع قصور عقولهم عن معرفة حكمته، فلا يثبتون له مشيئة عامة ولا قدرة تامة،

فلا يجعلونه على كل شيء قدبراً ، ولا يقولون ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، ولا يقولون بأنه خالق كل شيء ، ويثبتون له من الظلم ما نزه نفسه عنه سبحانه فانه قال : (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً) أى لا يخاف أن يظلم فيحمل عليه من سيئات غيره ولا يهضم من حسناته وقال تعالى : (ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد) وقال صلى الله عليه وسلم في حديث البطاقة الذى رواه الترمذى وغيره : ه يحاء برجل من أمتى يوم القيامة فتنشر له تسعة وتسعون سجلاً كل سجل مد البصر فيقال له هل تنكر من هذا شيئاً فيقول لا يارب فيقال له لا ظلم عليك اليوم ويؤتى بطاقة فيها شهادة أن لا إله إلا الله فتوضع البطاقة فى كفة والسجلات فى كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ، فقد أخبر النبى صلى الله عليه وسلم أنه لا يظلم بل يثاب على ما أتى به من التوحيد كما قال تعالى : (فن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) .

وجهور هؤلاء الذين يسمون عدلية يقولون : من فعل كبيرة واحدة أخطت جميع حسناته وخلد فى نار جهنم ، فهذا الذى سماه الله ورسوله ظلماً ، يصفون الله به مع دعواهم تزيمه عن الظلم ، ويسمون تخصيصه من يشاء برحمته وفضله وخلقه ما خلقه لما فيه من الحكمة البالغة ظلماً .

والكلام فى هذه الامور مبسوط فى غير هذا الموضع ، لكن نهنا على مجامع أصول الناس فى هذا المقام ، وهؤلاء المعتزلة ومن وافقهم من الشيعة يوجبون على الله سبحانه أنه يفعل بكل عبد ما هو الاصلح فى دينه ،

وتتازعوا في وجوب الأصلح في دنياه ، ومذهبهم أنه لا يقدر أن يفعل مع مخلوق من المصلحة الدينية غير ما فعل ، ولا يقدر أن يهدي ضالاً ولا يضل مهتدياً .

وأما سائر الطوائف الذين يقولون بالتعليل من الفقهاء وأهل الحديث والصوفية وأهل الكلام وغيرهم والمتفلسفة أيضاً فلا يوافقونهم على هذا ، بل يقولون : أنه يفعل ما يفعل سبحانه لحكمة يعلمها وهو يعلم العباد أو بعض العباد من حكمته ما يطلعهم عليه وقد لا يعلمون ذلك ، والأمور العامة التي يفعلها تكون لحكمة عامة ورحمة عامة كإرساله محمداً صلى الله عليه وسلم فانه كما قال تعالى : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) فان إرساله كان من أعظم النعمة على الخلق ، وفيه أعظم حكمة للخالق ورحمة منه لعباده ، كما قال تعالى : (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) وقال تعالى : (وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين) وقال تعالى : (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً قالوا هو محمد صلى الله عليه وسلم .

فاذا قال القائل : فقد تضرر برسائله طائفة من الناس كالذين كذبوه من المشركين وأهل الكتاب .

كان عن هذا جوابان : أحدهما : أنه نفهم بحسب الامكان ، فانه أضعف شرهم الذي كانوا يفعلونه لولا الرسالة باظهار الحجج والآيات التي زلزلت ما في قلوبهم ، وبالجهد والجزية التي أخافتهم وأذلتهم حتى قل شرهم ،

ومن قتله منهم مات قبل أن يطول عمره في الكفر فيعظم كفره ، وكان ذلك تقليلاً لشره ، والرسل صلوات الله عليهم بعثوا لتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها بحسب الإمكان .

والجواب الثاني : أن ما حصل من الضرر أمر مغمور في جنب ما حصل من النفع ، كالمطر الذي نفعه إذا خرب به بعض البيوت أو احتبس به بعض المسافرين والمكتسبين كالقصارين ونحوهم ، وما كان نفعه ومصلحته عامة كان خيراً مقصوداً ورحمة مجسوبة ، وإن تضرر به بعض الناس ، وهذا الجواب أجاب به طوائف من المسلمين وأهل الكلام والفقه ، وغيرهم من الحنفية والحنبلية وغيرهم ، ومن الكرامية والصوفية وهو جواب كثير من المتفلسفة .

وقال هؤلاء : جميع ما يحدثه في الوجود من الضرر فلا بد فيه من حكمة قال تعالى : (صنع الله الذي أتقن كل شيء) وقال : (الذي أحسن كل شيء خلقه) والضرر الذي يحصل به حكمة مطلوبة لا يكون شراً مطلقاً ، وإن كان شراً بالنسبة إلى من تضرر به .

ولهذا لا يجهل في كلام الله تعالى ، وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم لإضافة الشر وحده إلى الله ، بل لا يذكر الشر إلا على أحد وجوه ثلاثة : إما أن يدخل في عموم المخلوقات ، فانه إذا دخل في العوالم أفاد عموم القدرة والمشيئة والخلق ، وتضمن ما اشتمل عليه من حكمة تتعلق بالعوالم ، وأما أن يضاف إلى السبب الفاعل ، وإما أن يحذف فاعله فالأول كقوله تعالى : (الله خالق كل شيء) ونحو ذلك .

ومن هذا الباب : أسماء الله المقترنة كالمعطى المانع ، والضرار النافع ، المعز المذل ، الخافض الرافع . فلا يفرد الاسم المانع عن قرينه ، ولا الضرار عن قرينه ، لأن اقترانها يدل على العموم ، وكل مافي الوجود من رحمة ونفع ومصلحة فهو من فضله تعالى ، ومافي الوجود من غير ذلك فن عدله ، فكل نعمة منه فضل ، وكل نقمة منه عدل . كما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يمين الله - لا يغيثها نفقة سحاء الليل والنهار أرايتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم ينض مافي يمينه والقسط بيده الأخرى يخفض ويرفع ، فأخبر أن يده اليمنى فيها الاحسان إلى الخلق ، ويده الأخرى فيها العدل والميزان الذي به يخفض ويرفع ، تخفضه ورفعته من عدله وإحسانه إلى خلقه من فضله .

وأما حذف الفاعل فمثل قول الجن : (وأنا لا ندرى أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا) وقوله تعالى : (صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) ونحو ذلك .

وإضافته إلى السبب كقوله : (من شر ما خلق) وقوله : (فأردت أن أعيها) مع قوله : (فأراد ربك أن يبلغنا أشدهما ويستخرجا كنزهما) وقوله تعالى : (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) وقوله : (ربنا ظلمنا أنفسنا) وقوله تعالى : (أو لمأ أصابكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم) وأمثال ذلك .

ولهذا ليس في أسماء الله الحسنى اسم يتضمن الشر ، وإنما يذكر الشر في مفعولاته كقوله : (نبيء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو) (٢٢ - مجموعة الرسائل)

العذاب الآليم) وقوله : (ان ربك لسريع العقاب وانه لغفور رحيم)
 وقوله : (اعلما أن الله شديد العقاب) الآية وقوله : (ان بطش ربك
 لشديد انه هو يبدى ويعيد وهو الغفور الودود) فبين سبحانه ان بطشه
 شديد ، وانه هو الغفور الودود .

واسم المنتقم ليس من أسماء الله الحسنى الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم
 وإنما جاء في القرآن مقيدا كقوله تعالى : (إنا من المجرمين منتقمون) وقوله
 (إن الله عزيز ذو انتقام) والحديث الذى فى عدد الاسماء الحسنى الذى يذكر
 فيه المنتقم ، ، وذكر فى سياقه البر التواب المنتقم العفو الرؤوف ، ليس هو
 عند أهل المعرفة بالحديث ، من كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، بل هذا ذكره
 الوليد بن مسلم عن بعض شيوخه ، ولهذا لم يزوه أحد من أهل الكتب
 المشهورة إلا الترمذى ، رواه من طريق الوليد بن مسلم بسياق ، ورواه غيره
 باختلاف فى الاسماء وفى ترتيبها بين أنه ليس من كلام النبي صلى الله عليه
 وسلم ، وسائر من روى هذا الحديث عن أبي هريرة ثم عن الأعرج ثم عن
 أبي الزناد ، لم يذكرُوا أعيان الاسماء ، بل ذكروا قوله صلى الله عليه وسلم :
 « أن الله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة » وهكذا
 أخرجه أهل الصحيح كالبخارى ومسلم وغيرهما ، ولكن روى عدد الاسماء
 من طريق أخرى من حديث محمد بن سيرين عن أبي هريرة ورواه ابن ماجه
 واسناده ضعيف ، يعلم أهل الحديث أنه ليس من كلام النبي صلى الله عليه
 وسلم وليس فى عدد الاسماء عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا هذان الحديثان
 كلاهما مرويان من طريق أبي هريرة ، وهذا مبسوط فى موضعه .

والمقصود هنا التفتيه على أصول تقع في معرفة هذه المسألة فان نفوس بني آدم لا تزال يحول فيها من هذه المسألة أمر عظيم .

وإذ علم العبد من حيث الجملة أن الله فيما خلقه وما أمر به حكمة عظيمة كفاه هذا ، ثم كلما ازداد علماً وإيماناً ظهر له من حكمة الله ورحمته ما يبهر عقله ويبين له تصديق ما أخبر الله به في كتابه حيث قال : (سنبهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) فانه صلى الله عليه وسلم قال في الحديث الصحيح : « الله أرحم بعباده من الوالدة بولدها » وفي الصحيحين عنه أنه قال : « إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة فيها يترحم الخلق حتى إن الدابة لترفع حافرهما عن ولدها من تلك الرحمة واحتبس عنده تسعة وتسعين رحمة فاذا كان يوم القيامة جمع هذه إلى تلك فرحم بها عباده » أو كما قال .

ثم هؤلاء الجمهور من المسلمين وغيرهم ، كآئمة المذاهب الأربعة وغيرهم من السلف والعلماء الذين يثبتون حكمة فلا ينفونها كما نفاها الأشعرية ونحوهم الذين يثبتون إرادة بلا حكمة ، ومشية بلا رحمة ، ولا محبة ولا رضا ، وجعلوا جميع المخلوقات بالنسبة إليه سواء لا يفرقون بين الإرادة والمحبة والرضا ، بل ما وقع من الكفر والفسوق والعصيان قالوا : أنه يحبه ويرضاه كما يريد ، وإذا قالوا لا يحبه ولا يرضاه ديناً قالوا : انه لا يريد ديناً ، وما لم يقع من الإيمان والتقوى فانه لا يحبه ولا يرضاه عندهم كما لا يريد ، وقد قال تعالى : (إذ يبيتون ما لا يرضى من القول) فآخبر أنه لا يرضاه مع أنه قد رده وقضاه ، ولا يوافقون المعتزلة على إنكار قدر الله تعالى وعموم خلقه ومشيته وقدرته

ولا يشبهونه بخلقه فيما يحب ويحرم كما فعل هؤلاء ، ولا يسلبونه ما وصف به نفسه من صفاته وأفعاله ، بل أثبتوا له ما أثبتته لنفسه من الصفات والأفعال ونزهوه عما نزه نفسه من الصفات والأفعال وقالوا : ان الله خالق كل شيء ومليكه وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وهو على كل شيء قدير ، وهو يحب المحسنين والمتقين ويرضى عن السابقين الاولين من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان ، ولا يرضى لعباده الكفر ولا يرضى بالقول المخالف لأمر الله ورسوله وقالوا : مع أنه خالق كل شيء وربهم ومليكه ، فقد فرق بين المخلوقات أعيانها وأفعالها كما قال تعالى : (أفجعل المسلمين كالمجرمين) وكما قال : (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون) وقال تعالى : (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الارض أم نجعل المتقين كالفجار) وقال : (وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل والخروج وما يستوى الأحياء ولا الأموات) وأمثال ذلك مما يبين الفرق بين المخلوقات وانقسام الخلق الى شقي وسعيد كما قال تعالى : (هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن) وقال تعالى : (فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة) وقال تعالى : (يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً) وقال تعالى : (ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون فاما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون) ونظائر هذا في القرآن كثير .

وينبغي أن يعلم أن هذا المقام زل فيه طوائف من أهل الكلام والتصوف وصاروا فيه إلى ما هو شر من قول المعتزلة ونحوهم من القدرية ، فان هؤلاء

يعظمون الأمر والنهي والوعد والوعيد وطاعة الله ورسوله ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، لكن ضلوا في القدر واعتقدوا أنهم إذا أثبتوا مشيئة عامة وقدرة شاملة وخلقاً متاولاً لكل شيء لزم من ذلك القدح في عدل الرب وحكمته وغلطوا في ذلك ، فقابل هؤلاء قوم من العلماء والعباد وأهل الكلام والنصوف فأثبتوا القدر ، وآمنوا بأن الله رب كل شيء ومليكه وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وأنه خالق كل شيء . وهذا حسن وصواب لكنهم قصروا في الأمر والنهي والوعد والوعيد وأفرطوا حتى غلبهم إلى الإلحاد ، فصاروا من جنس المشركين الذين قالوا : (لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء) فأولئك القدريه وإن كانوا يشبهون المجوس من حيث أنهم أثبتوا فاعلاً لما اعتقدوه شراً غير الله سبحانه ف هؤلاء شابهوا المشركين الذين قالوا : (لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء) فالمشركون شر من المجوس ، فإن المجوس يقرون بالجزئية باتفاق المسلمين ، وذهب بعض العلماء إلى حل نسائهم وطعامهم ، وأما المشركون فاتفقت الأمة على تحريم نكاح نسائهم ، ومذهب الشافعي وأحمد في المشهور عنه وغيرهما أنهم لا يقرون بالجزئية ، وجمهور العلماء على أن مشركي العرب لا يقرون بالجزئية وإن أقرت المجوس ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقبل الجزئية من المشركين بل قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وإني رسول الله فإذا قالوا عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل » .

والمقصود هنا أن من أثبت القدر واحتج به على إبطال الأمر والنهي فهو شر من أثبت الأمر والنهي ولم يثبت القدر ، وهذا متفق عليه بين المسلمين وغيرهم من أهل الملل بل جميع الخلق ، فإن من احتج بالقدر وشهد الربوبية

العامة لجميع المخلوقات، ولم يفرق بين المأمور والمحظور، والمؤمن والكافر، وأهل الطاعة وأهل المعصية، لم يؤمن بأحد من الرسل ولا بشيء من الكتب وكان عنده آدم وإبليس سواء، ونوح وقومه سواء، وموسى وفرعون سواء والسابقون الأولون والكافرون سواء، وهذا الضلال قد كثرت في كثير من أهل التصوف والزهد والعبادة، لاسيما إذا قرئوا به توحيد أهل الكلام المثبتين للقدر والمشيئة من غير إثبات المحبة والبغض والرضا والسخط، الذين يقولون التوحيد هو توحيد الربوبية، والإلهية عندهم هي القدرة على الاختراع، ولا يعرفون توحيد الإلهية ولا يعلمون أن الإله هو المألوه المعبود، وأن مجرد الإقرار بأن الله رب كل شيء لا يكون توحيداً حتى تشهد أن لا إله إلا الله كما قال تعالى: (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) قال عكرمة نسا لهم من خلق السموات والأرض فيقولون: الله وهم يعبدون غيره.

وهؤلاء يدعون التوحيد والفناء في التوحيد ويقولون: إن هذا نهاية المعرفة وأن العارف إذا صار في هذا المقام لا يستحسن حسنة، ولا يستقبح سيئة لشهوده الربوبية العامة والقيومية الشاملة.

وهذا الموضع وقع فيه من الشيوخ الكبار، من شاء الله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وهؤلاء غاية توحيدهم هو توحيد المشركين الذين كانوا يعبدون الأصنام الذين قال تعالى عنهم (قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون) يقولون لله قل أفلا تذكرون قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم يقولون لله قل أفلا تتقون قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون يقولون لله قل فاني تسحرون) وقال تعالى: (ولئن

سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى
يؤفكون) وقال : (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله
قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون) وقال تعالى : (قل من يرزقكم من السماء
والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج
الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله قل أفلا تتقون فذلكم الله
ربكم الحق فاذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون كذلك حقك ربك
على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده
قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق
قل الله يهدى للحق أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدى إلا أن
يهدى فالكم كيف تحكمون) وقال تعالى : (أمن خلق السموات والأرض
وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تذنبوا
شجرها ألمه مع الله بل هم قوم يعدلون أم من جعل الأرض قراراً وجعل
خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً ألمه مع الله
بل أكثرهم لا يعلمون أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف
السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ألمه مع الله قليلاً ما تذكرون أم من يهديكم
في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ألمه مع الله
تعالى الله عما يشركون أم من يبدء الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء
والأرض ألمه مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) فان هؤلاء
المشركين كانوا مقرين بأن الله خالق السموات والأرض وخالقهم، وبإيده
ملكوت كل شيء وكانوا مقرين بالقدر .

فان العرب كانوا يثبتون القدر في الجاهلية ، وهو معروف عنهم في

النظم والنثر ، ومع هذا فلما لم يكونوا يعبدون الله وحده لا شريك له ، بل عبدوا غيره كانوا مشركين شرأ من اليهود والنصارى .

ففى كان غاية توحيدہ وتحقیقه هو هذا التوحيد ، كان غاية توحيدہ توحيد المشركين .

وهذا المقام : مقام وأى مقام زلت فيه أقدام ، وضلت فيه أفهام وبدل فيه دين المسلمين ، والتبس فيه أهل التوحيد بعباد الاصنام على كثير من يدعون نهاية التوحيد والتحقيق والمعرفة والكلام .

ومعلوم عند كل من يؤمن بالله ورسوله أن المعتزلة والشيعة القدرية المثبتين للأمر والنهي والوعد والوعيد ، خير من يسرى بين المؤمنين والكافرين والبر والفاجر ، والنبي الصادق والمنفي الكاذب ، وأولياء الله وأعدائه الذين ذمهم السلف ، بل هم أحق بالذم من المعتزلة كما قال الخلال فى كتاب السنة فى الرد على القدرية ، وقولهم ان الله أجبر العباد على المعاصى وذكر المروزي قال : قلت لأبي عبد الله رجل يقول ان الله أجبر العباد فقال : **هكذا** لا نقول ، وأنكر ذلك وقال : يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء .

وذكر عن المروزي أن رجلاً قال : ان الله لم يجبر العباد على المعاصى فرد عليه آخر فقال : ان الله جبر العباد ، أراد بذلك اثبات القدر فسألوا عن ذلك أحمد بن حنبل : فأنكر عليهما جميعاً حتى قال : أو أمر أن يقال يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء ، وذكر عن عبد الرحمن بن مهدي قال أنكر سفيان الثوري جبر وقال ان الله جبل العباد .

قال المروزي أراد قول النبي صلى الله عليه وسلم لا شئ عبد القيس .
يعنى قوله : ان فيك لخلقين يحبهما الله الحلم والاناة . فقال : أخلقين تخلقت
بهما أم خلقين جبلت عليهما فقال : بل خلقين جبلت عليهما فقال : الحمد لله
الذى جبلنى على خلقين يحبهما .

وذكر عن أبي اسحاق الفزاري قال : قال الاوزاعي أتاني رجلان
فسألاني عن القدر فأجبت أن آتيك بهما تسمع كلامهما وتجيهم ما قلت :
رحمك الله أنت أولى بالجواب قال : فأتاني الاوزاعي ومعه الرجلان . فقال :
تكلمما فقالا : قدم علينا ناس من أهل القدر فتازعونا في القدر ونازعناهم
فيه حتى بلغ بنا وبهم إلى أن قلنا : الله جبرنا على ما نهانا عنه ، وحال بيننا
وبين ما أمرنا به ، ورزقنا ما حرم علينا . فقلت : يا هؤلاء إن الذين أتوكم بما
أتوكم به قد ابتدعوا بدعة وأحدثوا حدثا ، وإنى أراكم قد خرجتم من البدعة
إلى مثل ما خرجوا إليه . فقال : أصبت وأحسننت يا أبا اسحاق .

وذكر عن بغية بن الوليد قال : سألت الزبيدي والاوزاعي عن
الجبر . فقال الزبيدي : أمر الله أعظم وقدرته أعظم من أن يجبر أو يعضل
ولكن يقضى وبقدر ، ويخلق ويجهل عبده على ما أحب .

وقال الاوزاعي : ما أعرف للجبر أصلا من القرآن والسنة فأهاب
أن أقول ذلك ، ولكن القضاء والقدر ، والخلق والجبر ، فهذا يعرف في
القرآن والحديث . وقال مطرف بن الشخير : لم نوكل إلى القدر وإليه نصير .
وقال ضمرة بن ربيعة : لم نوامر أن نتوكل على القدر وإليه نصير .

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما منكم من أحد إلا وقد علم مقعده من الجنة ومقعده من النار . قالوا : يا رسول الله أفلا ندع العمل وتشكل على الكتاب ، فقال : لا تعملوا فكل ميسر لما خلق له » وهذا باب واسع .

والمقصود هنا أن الحلال وغيره أدخلوا القائلين بالجبر في مسمى القدرية وإن كانوا لا يحتجون بالقدر على المعاصي ، فكيف بمن يحتج به على المعاصي ومعلوم أنه يدخل في ذم من ذم الله من القدرية من يحتج به على إسقاط الأمر والنهي أعظم مما يدخل فيه المنكر له ، فإن ضلال هذا أعظم ولهذا قرنت القدرية بالمرجئة في كلام غير واحد من السلف . وروى في ذلك حديث مرفوع لأن كلام هاتين البدعتين تفسد الأمر والنهي ، والوعد والوعيد ، فالأرجاء يضعف الإيمان بالوعد ويهون أمر الفرائض والمحارم ، والقدرى إن احتج به كان عوناً للمرجىء ، وإن كذب به كان هو والمرجىء قد تقابلا ، هذا يبالغ في التشديد حتى لا يجعل العبد يستعين بالله على فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه ، وهذا يبالغ في الناحية الأخرى .

ومن المعلوم أن الله تعالى أرسل الرسل ، وأنزل الكتب لتصديق الرسل فيما أخبرت ، وتطاع فيما أمرت كما قال تعالى : (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بأذن الله) وقال تعالى : (ومن يطع الرسول فقد أطاع الله) والإيمان بالقدر من تمام ذلك ، فمن أثبت القدر وجعل ذلك معارضا للأمر فقد أذهب الأصل ومعلوم أن من أسقط الأمر والنهي الذي بعث الله به رسوله فهو كافر باتفاق المسلمين واليهود والنصارى ، بل هؤلاء قولهم متناقض

لا يمكن أحدهم أن يعيش به ، ولا تقوم به مصلحة أحد من الخلق ولا يتعاشر عليه اثنان ، فان القدر ان كان حجة فهو حجة لكل أحد ولا فليس حجة لأحد فاذا قدر أن الرجل ظلمه ظالم ، أو شتمه شاتم ، أو أخذ ماله أو أفسد أهله أو غير ذلك ، فتي لامة أو ذمه أو طلب عقوبته أبطل الاحتجاج بالقدر ، ومن ادعى أن العارف إذا شهد الإرادة سقط عنه الأمر ، كان هذا الكلام من الكفر الذي لا يرضاه اليهود ولا النصارى ، بل ذلك يتمتع في العقل محال في الشرع ، فان الجائع يفرق بين الخبز والتراب ، والعطشان يفرق بين الماء والشراب فيحب ما يشبعه ويرويه دون ما لا ينفعه ، والجميع مخلوق لله تعالى ، فالحي وإن كان من كان لا بد أن يفرق بين ما ينفعه وينعمه ويسره ، وبين ما يضره ويشقيه ويؤلمه ، هذا حقيقة الأمر فان الله تعالى أمر العباد بما ينفعهم ونهاهم عما يضرهم .

(والناس في الشرع والقدر على أربعة أنواع) فشر الخلق من يحتاج بالقدر لنفسه ولا يراه حجة لغيره ، يستند اليه في الذنوب والمعائب ولا يطمئن اليه في المصائب ، كما قال بعض العلماء : أنت عند الطاعة قدرى وعند المعصية جبرى أى ذهب وافق هواك تمذهبت به ، وبازاء هؤلاء خير الخلق الذين يصبرون على المصائب ويستغفرون من المعائب كما قال تعالى (فاصبر ان وعد الله حق واستغفر لذنبك) وقال : (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل محتال فخور) . وقال تعالى : (ما أصاب من مصيبة إلا باذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه) قال بعض السلف : هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى

ويسلم . قال تعالى : (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون) .

وقد ذكر الله تعالى عن آدم عليه السلام أنه لما فعل ما فعل قال : (بنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) وعن إبليس أنه قال : (فبما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولا غوينهم أجمعين) فمن تاب أشبه أباه آدم ، ومن أصر واحتج بالقدر أشبه إبليس .

(والحديث الذي في الصحيحين في احتجاج آدم وموسى عليهما السلام) لما قال له موسى : أنت آدم أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وعليك أسماء كل شيء لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة فقال له آدم : أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه وخط لك التوراة بيده فبكم وجدت مكتوبا على قبل أن أخلق وعصى آدم ربه فغوى قال : بكذا وكذا سنة قال : فحج آدم موسى . وهذا الحديث في الصحيحين من حديث أبي هريرة وقد روى بإسناد جيد عن عمر رضى الله عنه ، فأدم إنما حج موسى لأن موسى لأمه على ما فعل لأجل ما حصل لهم من المصيبة بسبب أكله من الشجرة ، ولم يكن لومه لأجل حق الله في الذنب ، فان آدم كان قد تاب من الذنب كما قال تعالى : (فلتق آدم من ربه كلمات فتاب عليه) وقال تعالى : (ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدي) ومن هو دون موسى عليه السلام يعلم أنه بعد التوبة والمغفرة لا يبقى ملام على الذنب ، وآدم أعلم بالله من أن يحتج بالقدر على الذنب ، وموسى عليه السلام أعلم بالله تعالى من أن يقبل هذه الحجة ، فان هذه لو كانت

حجة على الذنب لكانت حجة لإبليس عدو آدم ، وحجة لفرعون عدو موسى ،
وحجة لكل كافر وبطل أمر الله ونهيه ، بل إنما كان القدر حجة لآدم على موسى ،
لأنه لام غيره لأجل المصيبة التي حصلت له بفعل ذلك ، وتلك المصيبة كانت
مكتوبة عليه . وقد قال تعالى : (ما أصاب من مصيبة إلا باذن الله ومن يؤمن
بالله يهد قلبه) وقال أنس : خدمت النبي صلى الله عليه وسلم عشرين عاماً قال لي
أف قط ، ولا قال لي شيء فعلته لم فعلته ، ولا شيء لم أفعله لم لا فعلته .
وكان بعض أهله إذا عتبنى على شيء يقول : د دعوه فلو قضى شيء لكان ،
وفي الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها قالت : ما ضرب رسول الله صلى الله
عليه وسلم يده خادماً ولا امرأة ولا دابة ولا شيئاً قط إلا أن يجاهد في
سبيل الله ولا نيل منه قط شيء فانتقم لنفسه إلا أن تنتهك محارم الله ، فإذا
انتهكت محارم الله لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله . وقد قال صلى الله عليه
وسلم : د لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ، ففي أمر الله ونهيه
يسارع إلى الطاعة ويقيم الحدود على من تعدى حدود الله ولا تأخذه في الله
لومة لائم ، وإذا آذاه مؤذ أو قصر مقصر في حقه عفا عنه ولم يؤاخذه نظراً إلى
القدر ، فهذا سبيل الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء
والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ، وهذا واجب فيما قدر من المصائب بغير
فعل آدمي كالمصائب السماوية ، أو بفعل لا سبيل فيه إلى العقوبة ، كفعل آدم
عليه السلام فإنه لا سبيل إلى لومه شرعاً لأجل التوبة ، ولا قدرأ لأجل القضاء
والقدر ، وأما إذا ظلم رجل رجلاً فلا بد أن يستوفى مظلمته على وجه العدل ،
وإن عفا عنه كان أفضل له كما قال تعالى : (والجروح قصاص) فمن تصدق
به فهو كفارة له .

وأما الصنف الثالث : فهم الذين لا ينظرون إلى القدر لافى المعائب ولا فى المصائب التى هى من أفعال العباد ، بل يضيفون ذلك إلى العبد وإذا أساءوا استغفروا وهذا حسن ، لكن إذا أصابتهم مصيبة بفعل العبد لم ينظروا إلى القدر الذى مضى بها عليهم ، ولا يقولون لمن قصر فى حقهم دعوه فلو قضى شيء لكان ، لا سيما وقد تكون تلك المصيبة بسبب ذنوبهم ، فلا ينظرون إليها وقد قال تعالى : (أو لما أصابكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم) وقال تعالى : (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) وقال تعالى : (وان تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فان الإنسان كفور) ومن هذا قوله تعالى : (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة وان تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وان تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فإلهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) .

فان هذه الآية تنازع فيها كثير من مثبتى القدر ونفاته ، هؤلاء يقولون الأفعال كلها من الله لقوله تعالى : (قل كل من عند الله) وهؤلاء يقولون الحسنة من الله والسيئة من نفسك لقوله : (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) وقد يحججهم الأولون بقراءة مكذوبة ، فمن نفسك بالفتح على معنى الاستفهام ، وربما قدر بعضهم تقديرا ، أى أفن نفسك ، وربما قدر بعضهم القول فى قوله تعالى : (وما أصابك) فيقولون تقدير الآية : فإلهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا يقولون فيحرفون لفظ القرآن ومعناه ويجعلون ماهوم من قول الله قول الصدق من قول المنافقين الذين أنكر الله قولهم ، ويضمرون فى القرآن ما لا دليل على ثبوته بل سياق

السكرام ينفيه ، من هاتين الطائفتين جاهلة بمعنى القرآن وبحقيقة المذهب الذي ينصره ، وأما القرآن فالمراد هنا بالحسنات والسيئات النعم والمصائب ، ليس المراد الطاعات والمعاصي وهذا كقوله تعالى : (إن تمسكم حسنة تؤمهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتقوا لا يضركم كيدهم شيئا) وكقوله : (إن تصبكم حسنة تؤمهم وإن تصبكم مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرا من قبل ويتولوا وهم فرحون قل إن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا) الآية ومنه قوله تعالى : (وبلوناكم بالحسنات والسيئات لعلمهم يرجعون) كما قال تعالى : (ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون) أى بالنعم والمصائب هذا بخلاف قوله تعالى : (من جاء بالحسنة فله خير منها) وقوله تعالى : (ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها) وأمثال ذلك فإن المراد بها الطاعة والمعصية ، وفي كل موضع ما يبين المراد باللفظ ، فليس في القرآن العزيز بحمد الله تعالى اشكال بل هو مبين .

وذلك أنه إذا قال ما أصابك وما مسك ونحو ذلك ، كان من فعل غيرك بك كما قال : (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) وكما قال تعالى : (إن تصبكم حسنة تؤمهم) وقال تعالى : (وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم) وإذا قال من جاء بالحسنة كانت من فعله لأنه هو الجاني بها ، فهذا يكون فيما فعله العبد لا فيما فعل به ، وسباق الآيتين يبين ذلك فانه ذكر هذا في سياق الحضر على الجهاد وذم المتخلفين عنه فقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا وإن منكم لمن ليبطئن فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله على إذ لم أكن معهم شيئا ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كان لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتني

كنت معهم فأفوز فوزا عظيما) فأمر سبحانه بالجهاد وذم المشركين ، وذكر ما يصيب المؤمنين تارة من المصيبة فيه ، وتارة من فضل الله فيه كما أصابهم يوم أحد فقال : (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثلها قلتم أئى هذا قل هو من عند أنفسكم) وأصابهم يوم بدر فضل من الله بنصره لهم وتأيدته كما قال تعالى : (ولقد نصركم الله بدر وأنتم أذلة) ثم انه سبحانه قال : (فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة) الآية وقال تعالى : (وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان - إلى قوله - أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك) فهذا من كلام الكفار والمنافقين إذا أصابهم نصر وغيره من النعم قالوا : هذه من عند الله وإن أصابهم ذل وخوف وغير ذلك من المصائب قالوا : هذه من عند محمد بسبب الدين الذى جاء به فان الكفار كانوا يضيفون ما أصابهم من المصائب إلى فعل أهل الإيمان ، وقد ذكر نظير ذلك فى قصة موسى وفرعون قال تعالى : (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون فاذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه) ونظيره قوله تعالى فى سورة يس : (قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون وما علينا إلا البلاغ المبين قالوا إنا تطيرنا بكم لناتخذوا لكم الثمنا لعلهم يذوقون عذاب أليم) فأنظر الله تعالى أن الكفار كانوا يتطرون بالمؤمنين ، فاذا أصابهم بلاء جعلوه بسبب أهل الإيمان ، وما أصابهم من الخير جعلوه من الله عز وجل فقال تعالى : (فالهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا) والله تعالى نزل أحسن الحديث ، فلو فهموا القرآن لعلموا أن الله أمرهم بالمعروف ونهاهم عن

المشكر ، أمر بالخير ونهى عن الشر ، فليس فيما بعث الله به رسله ما يكون سبباً للشر بل الشر حصل بذنوب العباد فقال تعالى : (ما أصابك من حسنة فمن الله) أى ما أصابك من نصر ورزق وعافية فمن الله نعمة أنعم بها عليك ، وإن كانت بسبب أعمالك الصالحة فهو الذى هداك وأعانك ويسرك لليسرى ، ومن عليك بالإيمان وزينه فى قلبك ، وكره اليك الكفر والفسوق والعصيان ، وفى آخر الحديث الصحيح الإلهى حديث أبى ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم فيها يروى عن ربه تبارك وتعالى : يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفىكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه .

وفى الصحيح : سيد الاستغفار اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبي فاغفر لى ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت من قالها إذا أصبح موقناً بها فأت من يومه دخل الجنة ومن قالها إذا أمسى موقناً بها فأت من ليلته دخل الجنة ، ثم قال تعالى : (وما أصابك من سيئة) من ذل وخوف وهزيمة كما أصابهم يوم أحد (فمن نفسك) أى بذنوبك وخطاياك وإن كان ذلك مكتوباً مقدراً عليك .

فإن القدر ليس حجة لأحد على الله ولا على خلقه ، ولو جاز لأحد أن يحتج بالقدر على ما يفعله من السيئات لم يعاقب ظالم ، ولم يقتل مشرك ، ولم يقم حد ، ولم يكف أحد عن ظلم أحد ، وهذا من الفساد فى الدين والدنيا المعلوم ضرورة ، وافساده بصريح المعقول المطابق لما جاء به الرسول ، فالقدر (٢٣ — مجموعة الرسائل)

يؤمن به ولا يحتاج به ، فمن لم يؤمن بالقدر ضارح المجوس ، ومن احتج به ضارح المشركين ، ومن أقر بالامر والقدر وطعن في عدل الله وحكمته كان شبيهاً بإبليس ، فإن الله تعالى ذكر عنه طعن في حكمته وعارضه برأيه وهواه وأنه قال : (فبما أغويتني لأزين لهم في الأرض) .

وقد ذكر طائفة من أهل الكتاب وبعض المصنفين في المقالات كالشهرستاني أنه ناظر الملائكة في ذلك معارضا لله تعالى في خلقه وأمره ، لكن هذه المناظرة بين إبليس والملائكة التي ذكرها الشهرستاني في أول المقالات ، ونقلها عن بعض أهل الكتاب ، ليس لها استناد يعتمد عليه ولو وجدناها في كتب أهل الكتاب ، لم يجوز أن نصدقها لمجرد ذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم ثبت عنه في الصحيح أنه قال : إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم فاما أن يحدثوكم بحق فتكذبونه واما أن يحدثوكم بباطل فتصدقونه ، ويشبه والله أعلم أن تكون المناظرة من وضع بعض المكذبين بالقدر ، اما من أهل الكتاب واما من المسلمين ، والشهرستاني نقلها من كتب المقالات والمصنفون في المقالات ينقلون كثيرا من المقالات من كتب المعتزلة ، كما نقل الأشعري وغيره ما نقله في المقالات من كتب المعتزلة ، فانهم من أكثر الطوائف وأولها تصنيفاً في هذا الباب ، ولهذا توجد المقالات منقولة بعباراتهم فوضعوا هذه المناظرة على لسان إبليس ، كما رأينا كثيراً منهم يضع كتاباً أو قصيدة على لسان بعض اليهود أو غيرهم ، ومقصودهم بذلك الرد على المثبتين للقدر يقولون : ان حجة الله على خلقه لا تتم الا بالكذب بالقدر كما وضعوا في مثالب ابن كلاب : أنه كان نصرانياً لانه أثبت الصفات ، وعندهم من أثبت

الصفات فقد أشبه النصرارى وتلقى أمثال هذه الحكايات بالقبول من المنقسين إلى السنة ممن لم يعرف حقيقة أمرها .

والمقصود هنا أن الآية الكريمة حجة على هؤلاء وهؤلاء على من يحتاج بالقدر ، فإن الله تعالى أخبر أنه عذبهم بذنوبهم فلو كانت حججهم مقبولة لم يعذبهم بذنوبهم ، وحجة على من كذب بالقدر ، فإنه سبحانه أخبر أن الحسنة من الله وأن السيئة من نفس العبد ، والقدرية متفقون على أن العبد هو المحدث للمعصية كما هو المحدث للطاعة ، والله عندهم ما أحدث هذا ولا هذا ولا هذا ، بل أمر بهذا ونهى عن هذا ، وليس عندهم لله نعمة أنعمها على عباده المؤمنين في الدين ، إلا وقد أنعم بمثلها على الكفار ، فعندهم أن على بن أبى طالب رضى الله عنه وأباهب مستريان في نعمة الله الدينية ، إذ كل منهما أرسل إليه الرسول وأقدر على الفعل وأجبر عليه ، لكن هذا فعل الإيمان بنفسه من غير أن يخصه بنعمة آمن بها ، وهذا فعل الكفر بنفسه من غير أن يفضل الله عليه ذلك المؤمن ، ولا خصه بنعمة آمن لاجلها ، وعندهم أن الله حجب الإيمان إلى الكفار كأبي لهب وأمثاله كما حجب إلى المؤمنين كعلي رضى الله عنه وأمثاله ، وزينه في قلوب الطائفتين ، وكره الكفر والفسوق والعصيان إلى الطائفتين سواء ، لكن هؤلاء كرهوا ما كرهه الله إليهم بغير نعمة خصهم بها ، وهؤلاء لم يكرهوا ما كرهه الله إليهم .

ومن توهم منهم أو من نقل عنهم أن الطاعة من الله والمعصية من العبد فهو جاهل بمذهبهم ، فإن هذا لم يقله أحد من علماء القدرية ولا يمكن أن يقوله فإن أصل قولهم أن فعل العبد للطاعة كفعله للمعصية كتابهما فعله بقدره

تحصل له من غير أن يخصه بإرادة خلقها فيه تختص بأحدهما ، فإذا احتجوا بهذه الآية على مذهبهم كانوا جاهلين بمذهبهم وكانت الآية حجة عليهم لالهم لأنه قال تعالى : (قل كل من عند الله) وعندهم ليس الحسنات المفعولة ولا السيئات المفعولة من عند الله ، بل كلاهما من العبد وقوله تعالى : (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) مخالف لقولهم ، فإن عندهم الحسنة المفعولة من العبد لا من الله سبحانه وتعالى .

وكذلك من احتج من مثبتة القدر بالآية على اثباته إذا احتج بقوله تعالى : (قل كل من عند الله) كان غلطاً فإن الله ذكر هذه الآية رداً على من يقول : الحسنة من الله والسيئة من العبد ، ولم يقل أحد من الناس أن الحسنة المفعولة من الله والسيئة المفعولة من العبد ، وأيضاً فإن نفس فعل العبد وإن قال أهل الإثبات أن الله خلقه وهو مخلوق له ومفعول له ، فإنهم لا ينكرون أن العبد هو المتحرك بالأفعال وبه قامت ومنه نشأت ، وإن كان الله خلقها ، وأيضاً فإن قوله بعد هذا : (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) يمتنع أن يفسر بالطاعة والمعصية ، فإن أهل الإثبات لا يقولون إن الله خلق أحدهما دون الأخرى بل يقولون : بأن الله خالق لجميع الأفعال وكل الحوادث .

(وما ينبغي أن يعلم) أن مذاهب سلف الأمة مع أن قولهم : الله خالق كل شيء وربه ومليكه ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه على كل شيء قدير ، وأنه هو الذي خلق العبد هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً ونحو ذلك ، أن العبد فاعل حقيقة وله مشيئة وقدرة قال تعالى : (لن

شاء منكم أن يستقيم وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين) وقال تعالى :
(إن هذه تذكرة فمن شاء ذكره وما يذكرون إلا أن يشاء الله هو أهل
التقوى وأهل المغفرة) .

وهذا الموضع اضطرب فيه الحائضون في القدر فقالت المعتزلة ونحوهم
من النفاة : الكفر والفسوق والعصيان أفعال قبيحة ، والله منزّه عن فعل
القيح باتفاق المسلمين ، فلا يكون فعلاً له ، وقال من رد عليهم من المائلين إلى
الجبر : بل هي فعله وليست أفعالا للعباد بل هي كسب للعبد . وقالوا : إن قدرة
العبد لا تأثير لها في حدوث مقدورها ولا في صفة من صفاتها ، وأن الله أجرى
العادة بخلق مقدورها مقارناً لها ، فيكون الفعل خلقاً من الله وإبداعاً ، واحداً
وكسباً من العبد لوقوعه مقارناً لقدرة .

وقالوا : أن العبد ليس محدثاً لأفعاله ولا موجداً لها ، ومع هذا فقد
يقولون أنا لا نقول بالجبر المحض بل نثبت للعبد قدرة حادثة ، والجبر المحض
الذي لا يثبت للعبد قدرة ، وأخذوا يفرقون بين الكسب الذي أثبتوه وبين
الخلق . فقالوا : الكسب عبارة عن اقتران المقدور بالقدرة الحادثة ، والخلق
هو المقدور بالقدرة القديمة . وقالوا أيضاً : الكسب هو الفعل القائم بمحل
القدرة عليه ، والخلق هو الفعل الخارج عن محل القدرة عليه ، فقال لهم
الناس : هذا لا يوجب فرقاً بين كون العبد كسباً ، وبين كونه فعلاً وأوجد
وأحدث وصنع وعمل ونحو ذلك ، فإن فعله وإحداثه وعمله وصنعه هو أيضاً
مقدور بالقدرة الحادثة وهو قائم في محل القدرة الحادثة ، وأيضاً فهذا فرق
لاحقيقة له ، فإن كون المقدور في محل القدرة أو خارجاً عن محلها لا يعود
إلى تأثير القدرة فيه ، وهو مبني على أصليين : أن الله لا يقدر على فعل يقوم

بنفسه وإن خلقه للعالم هو نفس العالم ، وأكثر العقلاء من المسلمين وغيرهم ، على خلاف ذلك . والثاني : أن قدرة العبد لا يكون مقدورها خارجاً عن محلها وفي ذلك نزاع طويل ليس هذا موضعه ، وأيضاً فإذا فسر التأثير بمجرد الاقتران فلا فرق بين أن يكون الفارق في المحل أو خارجاً عن المحل ، وأيضاً قال لهم المنازعون من المستقر في فطر الناس ، أن من فعل العدل فهو عادل ، ومن فعل الظلم فهو ظالم ، ومن فعل الكذب فهو كاذب ، فإذا لم يكن العبد فاعلاً لكذبه وظلمه وعدله بل الله هو فاعل ذلك ، لزم أن يكون هو المتصف بالكذب والظلم .

قالوا : وهذا كما قلتم أنتم وسائر الصفاتية من المستقر في فطر الناس أن من قام به العلم فهو عالم ، ومن قامت به القدرة فهو قادر ، ومن قامت به الحركة فهو متحرك ، ومن قام به التكلم فهو متكلم ، ومن قامت به الإرادة فهو مريد ، وقلتم : إذا كان الكلام مخلوقاً كان كلاماً للمحل الذي خلقه فيه كسائر الصفات ، فهذه القاعدة المطردة فيمن قامت به الصفات ، نظيرها أيضاً من فعل الأفعال . وقالوا أيضاً : القرآن مملوء بذكر إضافة هذه الأفعال إلى العباد كقوله تعالى : (جزاء بما كنتم تعملون) وقوله : (اعملوا ما شئتم) وقوله : (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم) وقوله : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وأمثال ذلك . وقالوا أيضاً : إن الشرع والعقل متفقان على أن العبد يحمّد ويذم على فعله ويكون حسنة له ، فلو لم يكن إلا فعل غيره لكان ذلك الغير هو المحمود المذموم عليها .

وفي المسألة كلام ليس هذا موضع بسطه ، لكن نذبه على نكت نافعة في هذا الموضع المشكل .

فنتقول : قول القائل : هذا فعل هذا وفعل هذا لفظ فيه إحمال ، فانه تارة يراد بالفعل نفس الفعل ، وتارة يراد به مسمى المصدر فيقول : فعلت هذا أفعله فعلاً ، وعملت هذا أعمله عملاً ، فإذا أريد بالعمل نفس الفعل الذي هو مسمى المصدر كصلاة الانسان وصيامه ونحو ذلك ، فالعمل هنا المعمول قال تعالى : (يعملون لمعايشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات) فجعل هذه المصنوعات معمولة للجن ومن هذا الباب قوله تعالى : (والله خلقكم وما تعملون) فانه في أصح القولين ما بمعنى الذي والمراد به ما تحتونه من الاصنام كما قال تعالى : (أتعبدون ما تحتون والله خلقكم وما تعملون) أى والله خلقكم وخلق الاصنام التي تحتونها ، ومنه حديث حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أن الله خالق كل صانع وصنعة ، لكن قد يستدل بالآية على أن الله خلق أفعال العباد من وجه آخر . فيقال : إذا كان خالقاً لما يعملونه من المنحوتات لزم أن يكون هو الخالق للتأليف الذي أحدثوه فيها ، فانها إنما صارت معمولة بذلك التأليف ، وإلا فهي بدون ذلك ليست معمولة لهم ، وإذا كان خالقاً لما يعملونه من المنحوتات لزم أن يكون هو الخالق للتأليف الذي أحدثوه فيها ، فانها إنما صارت معمولة بذلك التأليف وإلا فهي بدون ذلك ليست معمولة لهم ، وإذا كان خالقاً للتأليف كان خالقاً لأفعالهم .

والمقصود أن لفظ الفعل والعمل والصنع أنواع ، وذلك كلفظ البناء والخياطة والنجارة تقع على نفس مسمى المصدر وعلى المفعول ، وكذلك لفظ النلاوة والقراءة والكلام والقول يقع على نفس مسمى المصدر ، وعلى

ما يحصل بذلك من نفس القول والكلام ، فيراد بالتلاوة والقراءة المقروء والمتلو كما يراد بها مسمى المصدر .

والمقصود هنا أن القائل إذا قال هذه التصرفات فعل الله أو فعل العبد ، فإن أراد بذلك أنها فعل الله بمعنى المصدر فهذا باطل باتفاق المسلمين وبصريح العقل ، ولكن من قال هو فعل الله أراد به أنها مفعولة مخلوقة لله كسائر المخلوقات ، ثم من هؤلاء من قال أنه ليس لله فعل يقوم به فلا فرق عنده بين فعله ومفعوله وخلقه ومخلوقه .

وأما الجمهور الذين يفرقون بين هذا وهذا يقولون : هذه مخلوقة لله ومفعولة ليست هي نفس فعله ، وأما العبد فهي فعله القائم به وهي أيضاً مفعولة له إذا أريد بالفعل المفعول ، فمن لم يفرق في حق الرب تعالى بين الفعل والمفعول إذا قال أنها فعل الله تعالى وليس لمسمى فعل الله عنده معنيان ، فيثبت فلا تكون فعلاً للعبد ولا مفعولة له بطريق الأولى .

وبعض هؤلاء قال : هي فعل للرب وللعبد فأثبت مفعولاً بين مفعولين ، وأكثر المعتزلة يوافقون هؤلاء على أن فعل الرب تعالى لا يكون إلا بمعنى مفعوله مع أنهم يفرقون بين الفعل والمفعول ، فلهذا عظم النزاع وأشكلت المسألة على الطائفتين ، وحاروا فيها .

وأما من قال : خلق الرب تعالى لمخلوقاته ليس هو نفس مخلوقاته قال إن أفعال العباد مخلوقة كسائر المخلوقات ومفعولة للرب كسائر المفعولات ، ولم يقل أنها نفس فعل الرب وخلقها بل قال : إنها نفس فعل العبد وعلى هذا نزول الشبهة فانه يقال الكذب والظلم ونحو ذلك من القبائح ، يتصف بها

من كانت فعلا له كما يفعلها العبد وتقوم به ، ولا يتصف بها من كانت مخلوقة له إذا كان قد جعلها صفة لغيره ، كما أنه سبحانه لا يتصف بما خلقه في غيره من الطعوم والألوان والروائح والأشكال والمقادير والحركات وغير ذلك ، فإذا كان قد خلق لون الانسان لم يكن هو المتلون به ، وإذا خلق رائحة منتنة أو طعماً مرّاً أو صورة قبيحة ونحو ذلك عما هو مكروه مذموم مستقبح ، لم يكن هو متصفاً بهذه المخلوقات القبيحة المذمومة المكروهة والأفعال القبيحة ومعنى قبحها كونها ضارة لفاعلها وسبباً لذمه وعقابه وجالبة لآله وعذابه ، وهذا أمر يعود على الفاعل الذى قامت به لاعلى الخالق الذى خلقها فعلا لغيره .

ثم على قول الجمهور الذين يقولون : له حكمة فيما خلقه في العالم مما هو مستقبح وضار ومؤذ ، يقولون له فيما خلقه من هذه الأفعال القبيحة الضارة لفاعلها حكمة عظيمة ، كما له حكمة عظيمة فيما خلقه من الأمراض والغموم ، ومن يقول لا تمل أفعاله ، لا يعلل لا هذا ولا هذا .

يوضح ذلك أن الله تعالى إذا خلق في الإنسان عى ومرضاً وجوعاً وعطشاً ووصباً ونصباً ونحو ذلك ، كان العبد هو المريض الجائع العطشان التألم ، فضرر هذه المخلوقات وما فيها من الأذى والكراهة ، عاد اليه ولا يعود إلى الله تعالى شيء من ذلك ، فكذلك ما خلق فيه من كذب وظلم وكفر ونحو ذلك ، هي أمور ضارة مكروهة مؤذية وهذا معنى كونها سيئات وقبائح أى أنها تسو صاحبها وتضره وقد تسو أيضاً غيره وتضره ، كما أن مرضه وتن ربحه ونحو ذلك قد يسو غيره ويضره ، يبين ذلك أن القدرية سلوا

أن الله تعالى قد يخلق في العبد كفراً أو فسوقاً على سبيل الجزاء كما في قوله تعالى: (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) وقوله: (في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً) وقوله: (فلما زاغوا عن الله قلوبهم) ثم أنه من المعلوم أن هذه المخلوقات تكون فعلاً للعبد وكسباً له ، يجزى عليها ويستحق الذم عليها والعقاب وهي مخلوقة لله تعالى ، فالقول عند أهل الإثبات فيما يخلقه من أعمال العباد ابتداء ، كالقول فيما يخلقه جزاء من هذا الوجه وإن اختلفا من وجه آخر ، وهم لا يمكنهم أن يفرقوا بينهما بفرق يعود إلى كون هذا فعلاً لله دون هذا ، وهذا فعل للعبد دون هذا ، لكن يقولون هذا يحسن من الله تعالى لكونه جزاء للعبد ، وذلك لا يحسن منه لكونه ابتداء للعبد بما يضره ، وهم لا يقولون لا يحسن منه أن يضر الحيوان إلا بجرم سابق أو عوض لاحق ، وأما أهل الإثبات للقدر فن لم يعلل منهم لا يفرق بين مخلوق ومخلوق .

وأما القائلون بالحكمة وهم الجمهور فيقولون : الله تعالى فيما يخلقه من الحيوان حكم عظيمة كما له حكم في غير هذا ، ونحن لا نحصر حكمته في الثواب والعوض ، فإن هذا قياس الله تعالى على الواحد من الناس وتمثيل لحكمة الله وعدله بحكمة الواحد من الناس وعدله ، والمعتزلة مشبهة في الأفعال معطلة في الصفات . ومن أصولهم الفاسدة: أنهم يصفون الله بما يخلقه في العالم إذ ليس عندهم صفة لله قائمة به ، ولا فعل قائم به يسمونه به ويصفونه بما يخلقه في العالم . مثل قولهم : هو متكلم بكلام يخلقه في غيره ، ومريد بإرادة يحدتها إلا في محل . وقولهم : إن رضاه وغضبه وجه وبضه ، هو نفس المخلوق الذي يخلقه من الثواب والعقاب . وقولهم : أنه لو كان خالفاً لظلم

العبد وكذبه لكان هو الظالم الكاذب ، وأمثال ذلك من الأقوال التي إذا تدبرها العاقل علم فسادها بالضرورة .

ولهذا اشتد تكبير السلف والأئمة عليهم ، لاسيما لما أظهروا القول بأن القرآن مخلوق ، وعلم السلف أن هذا في الحقيقة هو إنكار لكلام الله تعالى ، وأنه لو كان كلامه هو ما يخلفه للزم أن يكون كل كلام مخلوق كلاما له ، فيكون انطافه للجلود يوم القيامة ، وانطافه للجبال والحصا بالتسييح ، وشهادة الأبدى والأرجل ونحو ذلك كلاما له ، وإذا كان خائفا لكل شيء كان كل كلام موجود كلامه ، وهذا قول الحلولية والجهمية كصاحب الفصوص وأمثاله ولهذا يقولون :

وكل كلام في الوجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه

علم بصريح المعقول ، أن الله تعالى إذا خلق صفة في محل كانت صفة لذلك المحل ، فإذا خلق حركة في محل كان ذلك المحل هو المتحرك بها ، وإذا خلق لونا أو ريحا في جسم كان هو المتلون المتروح بذلك ، وإذا خلق علما أو قدرة أو حياة في محل كان ذلك المحل هو العالم القادر الحى ، فكذلك إذا خلق لإرادة وحبا وبغضا في محل كان هو المريد المحب المبغض ، فإذا خلق فعلا لعبد كان العبد هو الفاعل ، فإذا خلق له كذبا وظلما وكفرا كان هو الكاذب الظالم الكافر ، وإن خلق له صلاة وصوما وحجبا كان العبد هو المصلى الصائم الحاج ، والله تعالى لا يوصف بشيء من مخلوقاته بل صفاته قائمة بذاته ، وهذا مطرد على أصول السلف وجهود المسلمين من أهل السنة وغيرهم . ويقولون : إن خلق الله السموات والأرض ليس هو نفس السموات

والارض ، بل الخلق غير المخلوق لاسيما مذهب السلف والائمة وأهل السنة الذين وافقهم على إثبات صفات الله وأفعاله ، فان المعتزلة ومن وافقهم من الجهمية القدرية ، نقضوا هذا الأصل على من لم يقل أن الخلق غير المخلوق كالاشعري ومن وافقه . فقالوا : إذا قلتم ان الصفة إذا قامت بمحل عاد حكمها على ذلك المحل دون غيره ، كما ذكرتم في الحركة والعلم والقدرة وسائر الاعراض ، انتقض ذلك عليكم بالعدل والإحسان وغيرهما من أفعال الله تعالى ، فانه يسمى عادلا بمدل خلقه في غيره ، محسنا بإحسان خلقه في غيره فكذا يسمى متكلمًا بكلام خلقه في غيره .

والجمهور من أهل السنة وغيرهم يجيبون بالترام هذا الأصل . ويقولون : إنما كان عادلا بالعدل الذي قام بنفسه ، ومحسنا بالإحسان الذي قام بنفسه ، وأما المخلوق الذي حصل للعبد فهو أثر ذلك ، كما أنه رحن رحيم بالرحمة التي هي صفته ، وأما ما يخلقه من الرحمة فهو أثر تلك الرحمة ، واسم الصفة تقع تارة على الصفة التي هي المصدر وتقع تارة على متعلقها الذي هو مسمى المفعول ، كلفظ الخلق يقع تارة على الفعل وعلى المخلوق أخرى ، والرحمة تقع على هذا وهذا ، وكذلك الأمر يقع على أمره الذي هو مصدر أمر يأمر أمراً ، ويقع على المفعول تارة كقوله تعالى : (وكان أمر الله قدراً مقدوراً) وكذلك لفظ العلم يقع على المعلوم ، والقدرة تقع على المقدور ونظائر هذا متعددة .

وقد استدل أحمد وغيره من أئمة السنة ، في جملة ما استدلوا على أن كلام الله غير مخلوق بقوله عليه الصلاة والسلام : « أعوذ بكلمات الله التامات »

ونحو ذلك ، وقالوا الاستعاذة لا تحصل لمخلوق وطرده هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم : « اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وبك منك » .

ومن تدبر هذا الباب وجد أهل البدع والضلال لا يستطيعون على فريق منتسبين إلى السنة والهدى إلا بما دخلوا فيه من نوع بدعة أخرى وضلال آخر لا سيما إذا وافقهم على ذلك ، فيحتجون عليهم بما وافقهم عليه من ذلك ويطلبون لوازمه حتى يخرجوهم من الدين أن استطاعوا خروج الشعرة من العجين ، كما فعلت القرامطة الباطنية والفلاسفة وأمثالهم بفريق فريق من طوائف المسلمين ، والمعتزلة استطالوا على الأشعرية ونحوهم من المثبتين للصفات والقدر بما وافقهم عليه من نفي الأفعال القائمة بالله تعالى ، فنقضوا بذلك أصلهم الذي استدلوا به عليهم من أن كلام الله غير مخلوق ، وأن الكلام وغيره من الأمور إذا خلق بمحل عاد حكمه على ذلك المحل ، واستطالوا عليهم بذلك في مسألة القدر واضطروهم إلى أن جعلوا نفس ما يفعله العبد من القبيح فعلا لله رب العالمين دون العبد .

ثم أثبتوا كسبا لا حقيقة له ، فانه لا يعقل من حيث تعلق القدرة بالمقدور فرق بين الكسب والفعل ، ولهذا صار الناس يسخرون بمن قال هذا ويقولون : ثلاثة أشياء لا حقيقة لها طرفة النظام وأحوال أبي هاشم وكسب الأشعرى ، اضطروهم إلى أن فسروا تأثير القدرة في المقدور بمجرد الاقتران العادى ، والاقتران العادى يقع بين كل ملزوم ولازمه ويقع بين المقدور والقدرة ، فليس جعل هذا مؤثراً في هذا الباب بأولى من العكس ،

ويقع بين المعلول وعلته الانفصلة عنه مع أن قدرة العباد عنده لا يتجاوز بمحلها ، ولهذا فر القاضى أبو بكر إلى قول ، وأبو إسحاق الاسفراينى إلى قول ، وأبو المعالى الجوينى إلى قول ، لما رأوا فى هذا القول من التناقض ، والكلام على هذا مبسوط فى موضعه والمقصود هنا التنبيه .

ومن التكت فى هذا الباب ، أن لفظ التأثير ولفظ الجبر ولفظ الرزق ونحو ذلك ألفاظ مجملة ، فإذا قال القائل : هل قدرة العبد مؤثرة فى مقدورها أم لا . قيل له : أولا لفظ القدرة يتناول نوعين . أحدهما : القدرة الشرعية المصححة للفعل التى هى مناط الأمر والنهى . والثانى القدرة القدرية الموجبة للفعل التى هى مقارنة للمقدور لا يتأخر عنها ، فالأولى هى المذكورة فى قوله تعالى : (والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا) فان هذه الاستطاعة لو كانت هى المقارنة للفعل لم يجب حج البيت إلا على من حج ، فلا يكون من لم يحج عاصياً بترك الحج سواء كان له زاد وراحلة وهو قادر على الحج أو لم يكن ، وكذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم لعمران بن حصين : « صل قائماً فان لم تستطع فقاعداً فان لم تستطع فعلى جنب » وكذلك قوله تعالى : (فاتقوا الله ما استطعتم) وقوله صلى الله عليه وسلم : « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » لو أراد استطاعة لا تكون إلا مع الفعل لكان قد قال : فافعلوا منه ما تفعلون ، فلا يكون من لم يفعل شيئاً عاصياً له ، وهذه الاستطاعة المذكورة فى كتب الفقه ولسان العموم والناس متازعون فى مسمى الاستطاعة والقدرة ، فمنهم من لا يثبت استطاعة الا ما قارن الفعل ، وتجد كثيراً من الفقهاء يتناقضون . فإذا خاضوا مع من يقول من المتكلمين المثبتين للقدرة أن الاستطاعة لا تكون إلا مع الفعل وافقوهم على ذلك ، وإذا

خاضوا في الفقه ، ثبتوا الاستطاعة المتقدمة التي هي مناط الأمر والنهي ، وعلى هذا تفرع مسألة تكليف مالا يطاق ، فان الطاقة هي الاستطاعة وهي لفظ مجمل ، فالاستطاعة الشرعية التي هي مناط الأمر والنهي لم يكلف الله أحداً شيئاً بدونها ، فلا يكلف مالا يطاق بهذا التفسير ، وأما الطاقة التي لا تكون إلا مقارنة للفعل ، لجميع الأمر والنهي تكليف مالا يطاق بهذا الاعتبار ، فان هذه ليست مشروطة في شيء من الأمر والنهي باتفاق المسلمين ، وكذا تنازعهم في العبد : هل هو قادر على خلاف المعلوم . فاذا أريد بالقدر القدرة الشرعية التي هي مناط الأمر والنهي كالاستطاعة المذكورة في قوله تعالى : (فأتقوا الله ما استطعتم) فكل من أمره الله ونهاه فهو مستطيع بهذا الاعتبار وإن علم أنه لا يطيعه ، وإن أريد بالقدرة القدرة القدسية التي لا تكون إلا مقارنة للمفعول ، فمن علم أنه لا يفعل الفعل لم تكن هذه القدرة ثابتة له .

ومن هذا الباب تنازع الناس في الأمر والإرادة ، هل يأمر بما لا يريد أو لا يأمر إلا بما يريد ، فان الإرادة لفظ فيه احوال يراد بالإرادة الإرادة الكونية الشاملة لجميع الحوادث كقول المسلمين : ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وكقوله تعالى : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء) وقول نوح عليه السلام : (ولا تنفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم) ولا ريب أن الله يأمر العباد بما لا يريد به هذا التفسير والمعنى كما قال تعالى : (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) ندل على أنه لم يوث كل نفس هداها مع أنه أمر كل نفس بهداها . وكما اتفق العلماء على أن من حلف بالله

ليقضين دين غريمه غدا إن شاء الله ، أوليردن وديعته أو غصبه ، أوليصلين الظهر أو العصر إن شاء الله ، أو ليصومن رمضان إن شاء الله ونحو ذلك بما أمره الله به ، فانه إذا لم يفعل المحلوف عليه لا يحنث مع أن الله أمره به لقوله : إن شاء الله . فلم أن الله لم يشأ مع أمره به ، وأما الارادة الدينية فهي بمعنى المحبة والرضا ، وهي ملازمته للأمر كقوله تعالى : (يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم) ومنه قول المسلمين هذا يفعل شيئاً لا يريد الله ، إذا كان يفعل بعض الفواحش ، أى أنه لا يجبه ولا يرضاه بل ينهى عنه ويكرهه .

وكذلك لفظ الجبر ، فيه إجمال يراد فيه اكراه الفعل على الفعل بدون رضاه . كما يقال : ان الالب يجبر المرأة على النكاح ، والله تعالى أجل وأعظم من أن يكون مجبراً بهذا التفسير ، فانه يخلق للعبد الرضا والاختيار بما يفعله وليس ذلك جبراً بهذا الاعتقاد ، ويراد بالجبر خلق ما فى النفوس من الاعتقادات والارادات . كقول محمد بن كعب القرظى : الجبار الذى جبر العباد على ما أراد ، كما فى الدعاء المأثور عن على رضى الله عنه : جبار القلوب على فطرتها شقيها وسعيدها ، والجبر ثابت بهذا التفسير فلما كان لفظ الجبر بجملا نهى الائمة عن اطلاق اثباته أو نفيه ، وكذلك لفظ الرزق فيه إجمال ، فقد يراد بلفظ الرزق ما أباحه الله أو ملكه فلا يدخل الحرام فى مسمى هذا الرزق كما فى قوله تعالى : (وبما رزقناهم ينفقون) وقوله تعالى : (وأنفقوا بما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت) وقوله : (ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سرّاً وجهراً) وأمثال ذلك ، وقد يراد بالرزق ما ينفق به الحيوان وإن لم يكن هناك إباحة ولا تمليك فيدخل فيه الحرام كما فى قوله

تعالى : (وما من دابة في الارض إلا على الله رزقها) وقوله عليه الصلاة والسلام في الصحيح : « فيكتب رزقه وعمله وأجله وشق أو سعيد ، ولما كان لفظ الجبر والرزق ونحوهما فيه إجمال ، منع الأئمة من اطلاق ذلك نفياً وإثباتاً كما تقدم عن الازاعى وأبي اسحاق الفزارى وغيرهما ، وكذا لفظ التأخير فيه إجمال فان القدرة مع المقدور ، كالسبب مع المسبب ، والعلّة مع المعلول ، والشرط مع المشروط ، فان أريد بالقسرة القدرة الشرعية المصححة للفعل المتقدمة للفعل ، فتلك شرط للفعل وسبب من أسبابه وعلّة ناقصة له ، وان أريد بالقدرة القدرة المقارنة للفعل المستلزمة له ، فتلك علّة للفعل وسبب ومعلوم انه ليس في المخلوقات شيء هو وحده علّة تامة وسبب قام للحوادث ، بمعنى أن وجوده مستلزم لوجود الحوادث ، بل ليس هذا إلا مشيئة الله تعالى خاصة ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

وأما الاسباب المخلوقة كالنار في الاحراق ، والشمس في الاشراق ، والطعام والشراب في الاشباع والارواء ، فجميع هذه الأمور سبب لا يكون الحادث به وحده ، بل لابد أن ينضم إليه سبب آخر ، ومع هذا فلهما موانع تمنعهما عن الأثر ، فكل سبب فهو موقوف على وجود الشروط وانتفاء الموانع ، وليس في المخلوقات واحد يصدر عنه وحده شيء .

وهذا مما يبين لك خطأ المتفلسفة الذين قالوا : الواحد لا يصدر عنه إلا واحد ، واعتبر ذلك بالاسباب الطبيعية كالسخن والمبرد ونحو ذلك ، فان هذا غلط فان التسخين لا يكون إلا بشيئين : أحدهما : فاعل كالنار . والثاني : قابل كالجسم القابل للسخونة والاحتراق ، وإلا فالنار إذا وقعت على السندل

(٢٤ — مجموعة الرسائل)

والياقوت لم تحرقه ، وكذلك الشمس فان شعاعها مشروط بالجسم المقابل للشمس الذي ينعكس عليه الشعاع ، وله موانع من السحاب والسقوف وغير ذلك ، فهذا الواحد الذي قدره في أنفسهم لا وجود له في الخارج ، وقد بسط هذا في موضع آخر ، فان الواحد العقلي الذي يشبهه الفلاسفة ، كالوجود المجرد عن الصفات ، وكالعقول المجردة وكالكليات التي يدعون تركيب الانواع منها ، وكالمادة والصورة العقليتين وأمثال ذلك لا وجود لها في الخارج ، بل إنما توجد في الأذهان لافى الأعيان ، وهى أشد بعداً عن الوجود من الجوهر الفرد الذى يشبه من يشبه من أهل الكلام ، فان هذا الواحد لا حقيقة له في الخارج ، وكذلك الواحد كما قد بسط في موضعه .

والمقصود هنا أن التأثير إذا فسر بوجود شرط الحادث ، أو بسبب يتوقف حدوث الحادث به على سبب آخر وانتفاء موانع ، وكل ذلك بخلق الله تعالى ، فهذا حق وتأثير قدرة العبد في مقدورها ثابت بهذا الاعتبار ، وان فسر التأثير بأن المؤثر مستقل بالأثر من غير مشارك معاون ولا معاوق مانع فليس شيء من المخلوقات مؤثراً ، بل الله وحده خالق كل شيء فلا شريك له ولا ند له ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن : (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا فى الأرض وما لهم فيها من شرك وما له منهم من ظهير ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له قل أفأرأيتم ما تدعون من دون الله ان أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون) ونظائر هذا فى القرآن كثيرة ، فإذا عرف ما فى لفظ التأثير من الاجمال والاشتراك

ارتفعت الشبهة ورفع العدل المتوسط من الطائفتين ، فن قال ان المؤمن والكافر سواء فيما أنعم الله عليهما من الاسباب المقتضية للإيمان ، وأن المؤمن لم يخصه الله بقدرة ولا إرادة آمن بها ، وان العبد إذا آمن لم تحدث له معرفة من الله وإرادة لم تكن قبل الفعل ، فقوله معلوم الفساد ، وقيل لهؤلاء : فعل العبد جملة الحوادث والممكنات ، فكل ما به يعلم أن الله تعالى أحدث غيره يعلم به أن الله أحدثه ، فيكون العبد فاعلا بعد أن لم يكن أمر ممكن حادث ، فان أنكر صدور هذا الممكن بدون محدث واجب يحدثه ويرجع وجوده على عدمه أمكن ذلك في غيره فانتقض دليل إثبات الصانع ولا ريب أن كثيراً من متكلمة الإثبات القائلين بالقدر ، سلوا للعزلة أن القادر المختار يمكنه ترجيح أحد مقدوريه على الآخر بلا مرجح ، وقالوا في مسألة إحداث العالم أن القادر المختار أو الإرادة القديمة التي نسبتها إلى جميع الحوادث والأزمنة نسبة واحدة ، رجحت أنواعاً من الممكنات في الوقت الذي رجحته بلا حدوث سبب اقتضى الرجحان ، وادعوا أن القادر المختار يمكنه الترجيح بلا مرجح ، أو الإرادة القديمة ترجح بلا مرجح آخر ، فاعترض عليهم هناك من نازعهم من أهل الملل والفلاسفة القائلين بأن الله لم يحدث الحوادث بأفعال تقوم بنفسه ، وأن الله خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، والقائلين بقدم العالم قالوا : هذا الذي قلموه معلوم الفساد بالضرورة ، وتجويز هذا يقتضى جواز حدوث الحوادث بلا سبب والرجح بلا مرجح ، وذلك يسد باب إثبات الصانع .

ثم ان هؤلاء المثبتين للقدر احتجوا بهذه الحجة على نفاة القدر وقالوا : حدوث فعل العبد بعد أن لم يكن لا بد له من محدث مرجح قام غير العبد ،

فان ما كان من العبد فهو محدث وعند وجود ذلك المحدث المرجح التام يجب وجود فعل العبد ، وهذا الذى قالوه حق وهو حجة قاطعة على القدريّة ، لكنهم نقضوه وتناقضوا فيه فى فعل الرب تعالى ، وادعوا هناك أن البدئية فرقت بين فعل القادر وبين الموجب بالذات ، فان كان هذا الفرق صحيحاً بطلت حجّتهم على المعتزلة ولم يبطل قول القدريّة ، وإن كان باطلاً بطل قولهم فى احداث الله وفعله للعالم ، وهذا هو الباطل فى نفس الامر ، فان القول بأن الممكن لا يترجع وجوده على عدمه إلا بمرجح تام أمر معلوم بالفطرة الضرورية لا يمكن القدح فيه ، وهو عام لا تخصيص فيه فالفرق المذكور باطل ، وذلك يبطل قولهم بأن خلق العالم هو العالم وانه حدث بعد ان لم يكن بغير سبب حادث ، ومن قال ان قدرة العبد وغيرها من الاسباب التى خلق الله تعالى بها المخلوقات ليست أسباباً أو أن وجودها كعدمها ، وليس هناك إلا مجرد اقتران عادى كاقتران الدليل بالمدلول ، فقد جحد ما فى خلق الله وشرعه من الاسباب والحكم ، ولم يجعل فى العين قوة تمايز بها عن الحد تبصر بها ، ولا فى القلب قوة يمتاز بها عن الرجل يعقل بها ، ولا فى النار قوة تمايز بها عن التراب تحرق بها ، وهؤلاء ينكرون ما فى الاجسام المطبوعة من الطبايع والفرائز ..

قال بعض الفضلاء : تكلم قوم من الناس فى إبطال الاسباب والقوى والطبايع فأضحكوا المقلد على عقولهم ، ثم أن هؤلاء يقولون لا ينبغي للإنسان أن يقول أنه شيع بالخيز وروى بالماء ، بل يقول شيعت عنده ورويت عنده ، فان الله يخلق الشيع والرى ونحو ذلك من الحوادث عند هذه المقترنات بها عادة لا بها ، وهذا خلاف الكتاب والسنة فان الله تعالى يقول :

(وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات) الآية وقال تعالى : (وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها) وقال تعالى : (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم) وقال : (ونحن نقرص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا) وقال : (ونزلنا من السماء ماء فأنبتنا به جنات وحب الحصيد) وقال : (وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء) وقال : (هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسمون) نبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات) وقال تعالى : (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما — إلى قوله — يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً) وقال : (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام) ومثل هذا فى القرآن كثير ، وكذلك فى الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم كقوله : « لا يعمى من أحد منكم إلا آذنتموني حتى أصلى عليه فان الله جاعل بصلاتي عليه بركة ورحمة » وقال صلى الله عليه وسلم : « إن هذه القبور مملوءة على أهلها ظلمة وإن الله جاعل بصلاتي عليهم نوراً » ومثل هذا كثير .

ونظير هؤلاء الذين أبطلوا الأسباب المقدورة فى خلق الله من إبطال الأسباب المشروعة فى أمر الله ، كالذين يظنون أن ما يحصل بالدعاء والأعمال الصالحة وغير ذلك من الخيرات إن كان مقدراً حصل بدون ذلك ، وإن لم يكن مقدراً لم يحصل بذلك ، وهؤلاء كالذين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : أفلا ندع العمل وتنسكل على الكتاب . فقال : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » وفى السنن أنه قيل يا رسول الله رأيت أدوية تتداوى بها وأرقية

فسترقى بها وثقاة تنقيها هل ترد من قدر الله شيئاً فقال : « هي من قدر الله ، ولهذا قال من قال من العلماء الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ومحو الأسباب أن تكون أسباباً تغيير في وجوه العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع ، والله سبحانه خلق الأسباب والمسببات ، وجعل هذا سبباً لهذا فإذا قال القائل : إن كان هذا مقدوراً حصل بدون السبب ولماذا لم يحصل .

جوابه : أنه مقدور بالسبب وليس مقدوراً بدون السبب كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله خلق الجنة خلقاً خلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم ويعمل أهل النار يعملون » وقال صلى الله عليه وسلم : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق : « إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات فيكتب رزقه وعمله وأجله وشقياً أو سعيداً ثم ينفخ في الروح فوالذي نفسي بيده إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها ، فبين صلى الله عليه وسلم أن هذا يدخل الجنة بالعمل الذي يعمل ويحتم له به ، وهذا يدخل النار بالعمل الذي يعمل ويحتم له به كما قال صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالخواتيم » وذلك لأن جميع الحسنات

تجبط بالردة ، وجميع السيئات تغفر بالتوبة ، ونظير ذلك من صام ثم أفطر قبل الغروب أو صلى وأحدث عمداً قبل كمال الصلاة ثم أبطل عمله ، وبالجملة فالذى عليه سلف الأمة وأئمتها ما بعث الله به رسله وأنزل كتبه ، فيؤمنون بخلق الله وأمره بقدره وشرعه بحكمه الكونى وحكمه الدينى وإرادته الكونية والدينية كما قال فى الأول : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء) وقال نوح عليه السلام : (ولا ينفمكم فصيحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم) وقال تعالى فى الإرادة الدينية : (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وقال : (يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم) وقال : (ما يريد الله ليجعل عليكم فى الدين من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم) وهم مع إقرارهم بأن الله خالق كل شيء وربهم ومليكهم وأنه خلق الأشياء بقدرته ومشيته ، يقرون بأنه لا إله إلا هو ، لا يستحق العبادة غيره ، ويعطيونه ويعطون رسله ، ويحجونه ويرجونه ويخشونه ويتكلمون عليه وينيبون إليه ويوالون أوليائه ويعادون أعداءه ، ويقرون بحجته لما أمر به ، ولعباده المؤمنين أيضاً ورضاه بذلك وبغضه لمن أبغى عنه والكافرين وسخطه لذلك ومقتله له ، ويقرون بما استفاض عن النبي صلى الله عليه وسلم : « من أن الله أشد فرحاً بتوبة عبده التأب من رجل أضل راحلته ، بأرض دوية مهاكة عليها طعامه وشرابه فطلبها فلم يجدها فقال تحت شجرة فلما استيقظ إذا بدابته عليها طعامه وشرابه ، فأنه أشد فرحاً بتوبة عبده من هذا براحلته » .

فهو إلههم الذى يعبدونه وربههم الذى يسألونه كما قال تعالى : (الحمد لله

رب العالمين - إلى قوله - إياك نعبد وإياك نستعين) فهو المعبود المستعان والعبادة تجمع كمال الحب مع كمال الذل ، فهم يحبونه أعظم مما يحب كل محب لمحبيه كما قال تعالى : (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله) وكل ما يحبونه سواء فأنما يحبونه لأجله كما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا الله ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار ، وفي الترمذى وغيره : « أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله ومن أحب الله وأبغض الله وأعطي الله ومنع الله فقد استكمل الإيمان ، وهو سبحانه يحب عباده المؤمنين .

وكال الحب هو الخلقة التي جعلها الله لابراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم ، فإن الله اتخذ ابراهيم خليلاً واستفاض عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصحيح من غير وجه انه قال : « إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ ابراهيم خليلاً ، وقال : « لو كنت متخذاً خليلاً من أهل الأرض لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الله ، يعنى نفسه ولهذا اتفق سلف الامة وأئمتها وسائر أهل السنة وأهل المعرفة ، ان الله نفسه يحب ويحب وأنكرت الجهمية ومن تبعهم محبة ، وأول من أنكر ذلك : الجعد بن درهم شيخ الجهم بن صفوان ، فضحى به خاله ابن عبد الله القسرى بواسط وقال : يا أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم فاني مضح بالجعد بن درهم انه زعم أن الله لم يتخذ ابراهيم خليلاً ولم يكلم موسى تكليماً ، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً ، ثم نزل فذبجه وهذا أصل مسألة ابراهيم الذي جعله الله إماماً للناس قال تعالى : (وإذا تبلى

إبراهيم ربه بكلمات فأتى من قال إني جاعلك للناس إماماً (وقال : (ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلاً) ومن قال ان المراد بمحبة الله محبة التقرب إليه فقوله متناقض ، فان محبة التقرب إليه تبع لمحبة ، فمن أحب الله نفسه أحب التقرب إليه ، ومن كان لا يحبه نفسه امتنع أن يحب التقرب إليه ، وأما من كان لا يطبعه ولا يمثل أمره إلا لأجل غرض آخر ، فهو في الحقيقة إنما يحب ذلك الغرض الذي عمل لأجله ، وقد جعل طاعة الله وسيلة إليه ، وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد يا أهل الجنة ان لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه فيقولون ما هو ألم يبيض وجوهنا ويثقل موازيننا ويدخلنا الجنة ويخرنا من النار فيكشف الحجاب فينظرون إليه فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ، وهو الزيادة فأخبر ان النظر إليه أحب إليهم من كل ما يتنعمون فيه ، ومحبة النظر إليه تبع لمحبة ، فانما أحبوا النظر إليه لمحبتهم إياه ، وما من مؤمن إلا ويجد في قلبه محبة الله وطمأنينة بذكره وتعملاً بمعرفته ولذة وسروراً بذكره ومناجاته ، وذلك يقوى ويضعف ويزيد وينقص بحسب إيمان الخلق ، فكل من كان إيمانه أكمل كان تنعمه بهذا أكمل ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه أحمد وغيره : « حُب إلى من دنياكم النساء والطيب — ثم قال — وجعلت قرة عيني في الصلاة ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول : « أرحنا بالصلاة يا بلال ، وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن عباده المؤمنين يحبونه وهو يحبهم سبحانه ، وحبيب له بحسب فعلهم لما يحبه كما في صحيح البخارى عن أبي هريرة عن النبي صلى الله

عليه وسلم قال : « يقول الله تعالى من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة وما تقرب إلى عبدي بمثل أداء ما انتقضت عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها فبي يسمع وبني يبصر وبني يبطش وبني يمشي ولئن سألتني لآعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه ، .

فقد بين أن العبد إذا تقرب إلى الله بما يحبه من النوافل بعد الفرائض أحبه الله ، فحب الله لعبده بحسب فعل العبد لما يحبه الله وما يحبه الله من عبادته وطاعته فهو تبع لحب نفسه ، وحب ذلك هو سبب حب عباده المؤمنين فكان حبه للمؤمنين تبعاً لحب نفسه ، فالمؤمنون وإن كانوا يحمدون ربهم ويثنون عليه فهم لا يحصون ثناء عليه ، بل هو كما أتى على نفسه كما في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : « اللهم اني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وبك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ، وفي الصحيح أنه قال : « لا أحد أحب إليه المدح من الله ، من أجل ذلك مدح نفسه ، وقال له الأسود بن سريع : إني حمدت ربّي فقال : إن ربك يحب الحمد فهو يحب حمد العباد له وحمده لنفسه أعظم من حمد العباد له ويجب ثناءهم عليه وثناؤه على نفسه أعظم من ثنائهم عليه ، وكذلك حبه لنفسه وتعظيمه لنفسه فهو سبحانه أعلم بنفسه من كل أحد ، وهو الموصوف بسمات الكمال التي لا يبلغها عقول الخلاق ، فالعظمة إزاره ، والكبرياء رداؤه وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ : « وما تذرنا الله حق قدره

والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه قال : يقبض الله الأرض ويطوى السموات بيمينه ثم يهزهن ثم يقول : أنا الملك أنا القدوس أنا السلام أنا المؤمن أنا المهيمن أنا الذى بدأت الدنيا ولم تك شيئاً أنا الذى أعيدها ، وفي رواية : يحمد الرب نفسه فهو يحمد نفسه ويثنى عليها ويمجد نفسه سبحانه ، وهو الغنى بنفسه لا يحتاج إلى أحد غيره بل كل ماسواه فقير إليه يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن وهو الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، فإذا فرح بتوبة التائب وحب من تقرب إليه بالنوافل ورضى عن السابقين الأولين ، لم يجز أن يقال هو مفتقر بذلك إلى غيره ولا مستكمل بسواه ، فانه هو الذى خلق هؤلاء وهداهم وأعانهم حتى فعلوا ما يرضاه ويرضاه ويفرح به ، فهذه المحبوبات لم تحصل إلا بقدرته ومشيتته وخلقته ، فله الملك لأشريك له ، وله الحد فى الأولى والآخرة ، وله الحكم وإليه ترجعون ، فهذا ونحوه يحتاج به الجمهور الذين يثبتون لأفعاله حكمة تتعلق به يحبها ويرضاها ويفعل لأجلها قالوا وقول القائل : إن هذا يقتضى أنه مستكمل بغيره فيكون ناقصاً قبل ذلك .

فمنه أجوبة . أحدها : أن هذا منقوض بنفس ما يفعله من المفعولات ، فـ 'كان جواباً فى المفعولات كان جواباً عن هذا ، ونحن لا نقول فى الشاهد فاعلاً لاستكمالاً بفعله .

الثانى : أنهم قالوا : كماله أن يكون لا يزال قادراً على الفعل بحكمة ، فلو قدر كونه غير قادر على ذلك لكان ناقصاً .

الثالث : قول القائل : أنه مستكمل بغيره باطل ، فان ذلك إنما حصل بقدرته ومشيئته لاشريك له في ذلك ، فلم يكن في ذلك محتاجاً إلى غيره ، وإذا قيل كل بفعله الذي لا يحتاج فيه إلى غيره ، كان كما لو قيل كل بصفاته أو بذاته .

الرابع : قول القائل : كان قبل ذلك ناقصاً ، ان أراد به عدم ما تجدد فلا نسلم أن عدمه قبل ذلك الوقت الذي اقتضت الحكمة وجوده فيه يكون نقصاً ، وان أراد بكونه ناقصاً معنى غير ذلك فهو ممنوع ، بل يقال عدم الشيء في الوقت الذي لم تقتض الحكمة وجوده فيه من الكمال ، كما أن وجوده في وقت اقتضاء الحكمة وجود كمال ، فليس عدم كل شيء نقصاً بل عدم ما يصلح وجوده هو النقص ، كما أن وجود ما لا يصلح وجوده نقص ، فتبين أن وجود هذه الامور حين اقتضت الحكمة عدمها هو النقص ، لا أن عدمها هو النقص ، ولهذا كان الرب تعالى موصوفاً بالصفات الثبوتية المتضمنة لكماله ، وموصوفاً بالصفات السلبية المستلزمة لكماله أيضاً ، فكان عدم ما ينفي عنه هو من الكمال ، كما أن وجود ما يستحق ثبوته من الكمال ، وإذا عقل مثل هذا في الصفات فكذلك في الأفعال ونحوها ، وليس كل زيادة يقدرها الذهن من الكمال ، بل كثير من الزيادات تكون نقصاً في كمال الميزد كما يفعل مثل ذلك في كثير من الموجودات ، والانسان قد يكون وجود أشياء في وقت نقصاً وعيباً في حقه ، وفي وقت آخر كاملاً ومدحاً في حقه ، كما يكون في وقت مضرة له وفي وقت منفعة له .

الخامس : أنا إذا قدرنا من يقدر على إحداث الحوادث لحكمة ، ومن

لا يقدر على ذلك كان معلوماً ببدئية العقل ، أن القادر على ذلك أكمل ، مع أن الحوادث لا يمكن وجودها إلا حوادث لا تكون قديمة ، وإذا كانت القدرة على ذلك أكمل ، وهذا المقدور لا يكون إلا حادثاً كان وجوده هو الكمال وعدمه قبل ذلك من تمام الكمال ، وعدم الممتنع الذي هو شرط في وجود الكمال .

ثم الجمهور القائلون بهذا الأصل هنا ثلاث فرق : فرقة تقول : إرادته وحبه ورضاه ونحو هذا قديم ولم يزل راضياً عن علم أنه يموت مؤمناً ، ولم يزل ساخطاً على من علم أنه يموت كافراً ، كما يقول ذلك من يقوله من الكلالية وأهل الحديث والفقهاء والصوفية ، فهؤلاء لا يلزمهم التسلسل لأجل حلول الحوادث ، لكن يعارضهم الأكثرون الذين ينازعونهم في الحكمة المحبوبة كما ينازعونهم في الإرادة ، فانهم قالوا إذا كانت الإرادة قديمة لم تزل ونسبتها إلى جميع الأزمنة والحوادث سواء ، فاختصاص زمان دون زمان بالحدوث ، ومفعول دون مفعول تخصيص بلا مخصص قال أولئك : الإرادة من شأنها أن تخصص . قال لهم المعارضون : من شأنها جنس التخصيص ، وأما تخصيص هذا المعين على هذا المعين فليس من لوازم الإرادة ، بل لابد من سبب يوجب اختصاص أحدهما بالإرادة دون الآخر ، والإنسان يجد من نفسه أنه يخص بارادته ولكنه يعلم أنه لا يريد هذا دون هذا إلا لسبب اقتضاء التخصيص ، وإلا فلو تساوى ما يمكن إرادته من جميع الوجوه امتنع تخصيص الإرادة لواحد من ذلك دون أمثاله ، فان هذا ترجيح بلا مرجح ، ومتى جوز هذا انسد باب إثبات الصانع . قالوا : ومن تدبر هذا وأمعن النظر فيه علمه حقيقة ، وإنما ينازع فيه من يقلد قولاً

قاله غيره من غير اعتبار لحقيقته ، وهكذا يقول الجمهور إذا كان الله تعالى راضياً في أزاله ومحباً وفرحاً بما يحدثه قبل أن يحدثه ، فإذا أحدثه هل حصل بأحدثه حكمة يحبها ويرضاها ويفرح بها أو لم يحصل إلا ما كان في الأزل ، فإن قلتم لم يحصل إلا ما كان في الأزل قيل : ذاك كان حاصلًا بدون ما أحدثه من المفعولات ، فامتنع أن تكون المفعولات فعلت لكي يحصل ذاك فقولكم كما تضمن أن المفعولات تحدث بلا سبب يحدثه الله ، تتضمن أنه يفعلها بلا حكمة يحبها ويرضاها . قالوا : فقولكم يتضمن نفى إرادته المقارنة ومحبته وحكمته التي لا يحصل الفعل إلا بها .

والفرقة الثانية : قالوا ان الحكمة المتعلقة به تحصل بمشيئته وقدرته كما يحصل الفعل بمشيئته وقدرته ، كما يقول ذلك من يقوله من الكلائية وأهل الحديث والصوفية . قالوا : وإن قام ذلك بذاته فهو كقيام سائر ما أخبر به من صفاته وأفعاله بذاته ، والمعتزلة تنفي قيام الصفات والأفعال به ، وتسمى الصفات أعراضاً والأفعال حوادث ، ويقولون : لا تقوم به الأعراض ولا الحوادث ، فيتهم من لم يعرف حقيقة قولهم أنهم ينزهون الله تعالى عن النقائص والعيوب والآفات ، ولا ريب أن الله يجب تنزيهه عن كل عيب ونقص وآفة ، فانه القدوس السلام الصمد السيد الكامل في كل نعمت من نعمت الكمال ، كما لا يدرك الخلق حقيقته منزهاً عن كل نقص تنزيهاً لا يدرك الخلق كماله ، وكل كمال ثبت لوجود من غير استلزام نقص فالخالق تعالى أحق به وأكمل فيه منه ، وكل نقص تنزه عنه مخلوق فالخالق أحق بتنزيهه عنه وأولى ببراءته منه .

روينا من طريق غير واحد كعثمان بن سعيد الدارمي وأبي جعفر الطبري

والبيهقي وغيرهم ، في تفسير علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى :
 (الصمد) قال السيد الذي كمل في سؤدده ، والشريف الذي قد كمل في شرفه ،
 والعظيم الذي قد كمل في عظمته ، والحكيم الذي قد كمل في حكمته ، والغنى
 الذي قد كمل في غناه ، والمختار الذي قد كمل في جبروته ، والعالم الذي قد
 كمل في علمه ، والحليم الذي قد كمل في حلمه ، وهو الذي قد كمل في أنواع
 الشرف والسؤدد ، وهو الله عز وجل ، هذه صفته لا تنبغي إلا له ليس له
 كفؤ ولا كمثل شيء سبحانه الواحد القهار ، وهذا التفسير ثابت عن عبد الله
 ابن أبي صالح عن علي بن أبي طلحة الوالبي ، لكن يقال أنه لم يسمع التفسير
 عن ابن عباس ، ولكن مثل هذا الكلام ثابت عن السلف ، وروى عن
 سعيد بن جبيرة أنه قال : (الصمد) الكامل في صفاته وأفعاله ، وثبت عن
 أبي وائل شقيق ابن سلية أنه قال : (الصمد) السيد الذي انتهى سؤدده ، وهذه
 الأقوال وما أشبهها لا تنافي ما قاله كثير من السلف كسعيد بن المسيب ،
 وابن جبير ، ومجاهد ، والحسن ، والسدي ، والضحاك وغيرهم ، من أن
 (الصمد) هو الذي لا جوف له ، وهذا منقول عن ابن مسعود وعن عبد الله
 ابن بريدة عن أبيه موقوفاً أو مرفوعاً فإن كلا القولين حق كما بسط الكلام
 عليه ، ولفظ الاعراض في اللغة قد يفهم منه ما يعرض للانسان من الامراض
 ونحوها ، وكذلك لفظ الحوادث والمحدثات قد يفهم منه ما يحدثه الانسان من
 الافعال المذمومة والبدع التي ليست مشروعة ، أو ما يحدث بالانسان من
 الامراض ونحو ذلك ، والله تعالى يحب تنزيهه عما هو فوق ذلك مما فيه نوع
 نقص ، فكيف تنزيهه عن هذه الامور ، ولكن لم يكن مقصود المعتزلة بقولهم هو منزّه
 عن الاعراض والحوادث إلا نفي صفاته وأفعاله ، فنعدم لا يقوم به علم ولا

قدرة ولا مشيئة ولا رحمة ولا حب ولا رضاء ولا فرح ولا خلق ولا إحسان ولا عدل ولا إتيان ولا بجنء ولا نزول ولا استواء ولا غير ذلك من صفاته وأفعاله ، وجاهير المسلمين يخالفونهم في ذلك ، ومن الطوائف من ينازعهم في الصفات دون الأفعال ، ومنهم من ينازعهم في بعض الصفات دون بعض ، ومن الناس من ينازعهم في العلم القديم ويقول أن فعله قديم وإن كان المفعول محدثاً كما يقول في نظير من يقوله في الإرادة ، وبسط هذه الأقوال وذكر قائلها وأدلتهم مذكورة في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا التنبيه على مجامع أجوبة الناس عن السؤال المذكور ، وهذا الفريق الثاني إذا قال لهم الناس إذا أثبتتم حكمة حدثت بعد أن لم تكن لكم التسلسل . قالوا : القول في حدوث الحكمة كالقول في سائر ما أحدثته من المفعولات ، ونحن نخطب من يسلم لنا أنه إذا أحدث المحدثات بعد أن لم تكن ، فإذا قلنا أنه أحدثها بحكمة حادثة لم يكن له أن يقول هذا يستلزم التسلسل ، بل يقول له القول في حدوث الحكمة كالقول في حدوث المفعول الذي ترتبت عليه الحكمة فما كان جوابك عن هذا كان جوابنا عن هذا .

فلما خصم الفريق الثاني للفريق الأول ، قال لهم الفريق الثالث من أئمة الحديث والفقهاء والصوفية وأهل الكلام هذه حجة جدلية إلزامية ولم تشفوا الغليل بهذا الجواب ، وليس معكم في الأدلة الشرعية ولا العقلية ما ينفي مثل هذا التسلسل ، بل التسلسل نوعان ، والدور نوعان ، أحدهما: التسلسل في العلل والمعلولات فهذا ممتنع وفاقاً . والثاني: التسلسل في الشروط والآثار ، فهذا في جوازه

قولان معروفان للمسلمين وغيرهم ، وطوائف من أهل الكلام والحديث والفلسفة يجوزون هذا ، ومن هؤلاء السلف والأئمة الذين يقولون لم يزل الله متكلماً إذا شاء ، وأنه لم يزل يقوم به ما يتعلق بمشيئته وقدرته من الأفعال وغيرها ، وبين هؤلاء أن ما استدل به منازعهم على نفي التسلسل في الآثار، امتناع وجود مالا يتناهى في الماضى أدلة ضعيفة كدليل : المطابقة بين الجملتين مع زيادة أحدهما وكزيادة الشفع والوتر ونحو ذلك من الأدلة التي بين هؤلاء فسادها، ونقضوها عليهم بالحوادث في المستقبل، وبفقود الأعداد وبمعلومات الله مع مقدوراته وغير ذلك مما قد بسط في موضعه .

والدور نوعان: فالدور القبل السبق بمتنع ، وأما الدور المعى الاقتراني وهو أن لا يكون هذا إلا مع هذا ، فهذا الدور في الشروط وما أشبهها من المتضايقات والمتلازمات ، ومثل هذا جائز ، فهذه مجامع أجوبة الناس عن هذا السؤال وهي عدة أقوال :

الأول : قول من لا يعمل لا أفعاله ولا أحكامه .

والثاني : قول من يعمل ذلك بأمور مباينة له منفصلة عنه من جملة مفعولاته .

والثالث : قول من يعمل ذلك بأمور قائمة به متعلقة بقدرته ومشيئته لكن يقول جنسها حادث .

والرابع : قول من يعمل ذلك بأمور متعلقة بمشيئته وقدرته فان كان الفعل المقضى للحكمة حادث النوع كانت الحكمة كذلك ، وإن قدر أنه قام (٢٥ — مجموعة الرسائل)

به كلام أو فعل متعلق بمشيئته وأنه لم يزل كذلك كانت الحكمة كذلك ،
ويكون النوع قديماً وإن كانت آحاده حادثة .

ويمكن الجواب عن السؤال بتقسيم حاصر بأن يقال : لا ريب أن الله عز وجل يحدث مفعولات لم تكن ، فإما أن تكون الأفعال المحدثه يجب أن يكون لها ابتداء ، ويجوز أن تكون غير متناهية في الابتداء كما هي غير متناهية في الانتهاء ، فإن وجب أن يكون لها ابتداء أمكن حدوث الحوادث بدون تسلسلها ، فإذا قال القائل : لو فعل لعلة محدثة لكان القول في حدوث تلك العلة كالقول في حدوث معلولها ويلزم التسلسل ، كان جوابه على هذا التقدير : أن الحوادث يجب أن يكون لها ابتداء ، وإذا فعل الفعل لحكمة محدثة كان الفعل وحكمته محدثين ، ولا يجب أن يكون للعلة المحدثه علة محدثة إلا إذا جاز أن لا يكون للحوادث ابتداء ، فأما إذا جاز أن لا يكون لها ابتداء بطل هذا السؤال ، فكيف إذا وجب أن يكون لها ابتداء وإن قيل يجوز أن تكون الحوادث غير متناهية في الابتداء ، كما أنها غير متناهية في الانتهاء عند المسلمين وسائر أهل الحق ، ولم ينازع في ذلك إلا بعض أهل البدع الذين يقولون بفناء الجنة والنار كما يقوله الجهم بن صفوان ، أو بفناء حركات أهل الجنة كما يقوله أبو الهذيل ، فإن هذين أوجباً أن يكون لجنس الحوادث انتهاء ، كما يجوز أن يكون لها عندهم ابتداء ، وأكثر الذين وافقهم على وجوب الابتداء خالفهم في الانتهاء وقالوا : لها ابتداء وليس لها انتهاء ، والأقوال الثلاثة معروفة في طوائف المسلمين .

والمقصود هنا أن الجواب يحصل على التقديرين ، فمن جوز أن يكون لها

نهاية في الابتداء يجوز تسلسل الحوادث وقال : هذا تسلسل في الآثار والشروط لا تسلسل في العلل والمؤثرات ، والممتنع إنما هو الثاني دون الأول ، وقال : أنه لا يقوم دليل على امتناع الثاني كما يقول ذلك طوائف من متقدمي أهل الكلام ومتأخريهم ، ومن أوجب أن يكون لها ابتداء قال في حدوث العلة ما يقوله في حدوث المفعول ، إذ لا فرق بينهما في هذا المعنى .

ومن الاجوبة الحاصرة أن يقال : خلق الله إما أن يجوز تعليله أولاً ، فإن لم يجوز تعليله كان هذا هو التقدير الأول ، وعلى هذا التقدير فلا يسمى هذا عبثاً ، وإذا سماه المسمى عبثاً لم تكن تسميته عبثاً قدحاً فيما تحقق فانا نتكلم على تقدير امتناع التعليل ، وإذا كان التعليل ممتنعاً وجب القول به ، ولو سماه المسمى بأى شيء سماه ، وإن جاز تعليله فلا يخلو إما أن يجوز تعليله بعلة حادثة ، وإما أن لا يجوز ، فإن قيل لا يجوز ذلك لزم كون العلة قديمة ، وامتنع على هذا التقدير قدم المعلول ، فانا نتكلم على تقدير جواز تعليل المفعول الحادث بعلة قديمة ، وإن قيل يجوز تعليله بعلة حادثة أمكن القول بذلك ، ثم إما أن يقال يجوز تعليل الحوادث بعلة متناهية للفاعل لئلا يلزم أن يقوم به شيء حادث يجب أن يقوم به لحكمة وإن كانت مقدورة مرادة له ، فإن قيل بالأول لزم كون العلة الحادثة منفصلة عنه ، ولزم على هذا كون الفاعل يحدث الحوادث بعد أن لم تكن لعللة حادثة بغيره من غير حدوث سبب يوجب أول الحوادث ، ولا قيام حادث بالحدث ، وإن قيل بل لا يجوز أن يحدث الحوادث لغير معنى يعود إليه ، بل يجب أن يقوم به ما هو السبب والحكمة في حدوث الحوادث فانه يجب القول بذلك ، ثم

إما أن يقال هذا يستلزم التسلسل أو لا يستلزمه ، فإن قيل لا يستلزمه أم
 يمكن التسلسل على هذا التقدير محذوراً ، لأن التقدير أنه يجوز تعليل أفعاله
 بعلة حادثة وأن ذلك يستلزم التسلسل ، ومن المعلوم أن الأمر الجائز لا يستلزم
 ممتعاً ، فإنه لو استلزم ممتعاً لكان ممتعاً بغيره وإن كان جائزاً بنفسه ،
 والتقدير أنه جائز جوازاً مطلقاً لا امتناع فيه ، وما كان جائزاً جوازاً مطلقاً
 لا امتناع فيه لم يلزمه ما يمتنع ثبوته ، فيكون التسلسل على هذا التقدير غير
 ممتنع ، فهذا جواب عن السؤال من غير التزام قول بعينه ، بل نبين أنه
 ليس في نفس الأمر محذور ، ولكن السؤال مبني على ست مقدمات :
 لزوم العبث وأنه منتف ، ولزوم قدم المفعول وأنه منتف ، ولزوم التسلسل
 وأنه منتف ، فصاحب القول الأول يقول : لا أسلم أنه يلزم العبث ،
 وصاحب القول الثاني يقول : لا أسلم أنه يلزم قدم المفعول ، وصاحب القول
 الثالث يقول : لا أسلم أنه يلزم التسلسل أو يقول : لا أسلم أن التسلسل في
 الآثار ممتنع ، فهذه أربع ممانعات لا بد منها ، ويمتنع أن تكون كلها فاسدة
 بل لا بد من صحة واحد منها ، وأياً صح اندفع السؤال به وهو المقصود
 لأن القسمة العقلية تحصر من الأقسام فيما ذكر ، فمن توجه عنده أحد
 الأقسام قال به ، ونحن قد بسطنا الكلام على أصول هذه المسألة ولوازمها ،
 وأقوال الناس فيها في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا الذب عن مجموع المسلمين ، فإن هذا السؤال مما أورده على
 الناس القائلون بقدم العالم ، وقد ذكرنا عنه أجوبة متعددة فيما كتبناه في
 جواب شبهة القائلين بقدم العالم .

ومن جملة أجوبتهم أن يقال : هذا السؤال ليس محتصاً بحدوث العالم ،

بل هو وارد في كل ما يحدث في الوجود من الحوادث ، والحدوث مشهود محسوس متفق عليه بين العقلاء ، فكل ما يورده المورد على حدوث خلق السموات والأرض ، يورد عليه نظيره في الحوادث المشهودة .

وقد نهينا عن جنس ما تحتاج به كل طائفة من الطوائف في هذا المقام ، لكن استقصاء الكلام في ذلك لا تسعه هذه الأوراق ، ومن فهم ما كتب انفتح له الكلام في هذا الباب ، وأمكنه أن يحصل تمام الكلام في جنس هذه المسائل ، فإن الكلام فيها بالتدرج مقاماً بعد مقام هو الذي يحصل به المقصود ، وإلا فاذا هجم على القلب الجزم بمقالات لم يحكم أدلتها وطرقها والجواب عما يعارضها ، كان إلى دفعها والتكذيب بها أقرب منه إلى التصديق بها ، فلهذا يجب أن يكون الخطاب في المسائل المشكلة بطريق ذكر كل قول ومعارضة الآخر له ، حتى يتبين الحق بطريقه لمن يريد هدايته ، ومن لم يجعل الله له نوراً أفاله من نور ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

تمت الرسالة الثامنة

ويليها الرسالة التاسعة : العقيدة الواسطية

الرسالة التاسعة
العقيدة الواسطية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إقراراً به وتوحيداً ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً مزيداً .

اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة

أهل السنة والجماعة

الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والإيمان بالقدر خيره وشره .

ومن الإيمان بالله : الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه ، وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، بل يؤمنون بأن الله ليس كمثل شيء وهو السميع البصير ، فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه ، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ويلحدون في أسماء الله وآياته ، ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه لأنه سبحانه لا يسمى له ولا كقول ولا ندله ، ولا يمتاس بخلق سبحانه وتعالى ، فانه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلاً وأحسن حديثاً من خلقه ، ثم رسله صادقون مصدقون بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون ، ولهذا قال سبحانه وتعالى : (سبحانه وربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين) فسيح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل ، وسلام على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب ، وهو سبحانه قد جمع فيها وصف وسمى به نفسه

بين النفي والاثبات ، فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاءت به المرسلون فانه الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وقد دخل في هذه الجملة ما وصف به نفسه في سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن حيث يقول : (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) وما وصف به نفسه في أعظم آية من كتاب الله حيث يقول : (الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بأذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما) (أى لا يكرئه ولا يشغله) وهو العلى العظيم) فلماذا كان من قرأ هذه الآية في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ ولا يقربه شيطان حتى يصبح ، وقوله سبحانه وتعالى : (وتوكل على الحى الذى لا يموت) وقوله سبحانه : (هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم) وقوله سبحانه : (هو العليم الخبير يعلم ما بلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يمرج فيها وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) وقوله : (ليعلموا أن الله على كل شيء قدير . وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً) وقوله : (إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) وقوله : (ليس كمثل شيء وهو السميع البصير) . (إن الله نعماً يعظمكم به إن الله كان سمياً بصيراً) وقوله : (ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله) . (ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات

ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر). (ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد). (أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير على الصيد وأنتم حرم إن الله يحكم ما يريد). (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره الإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء) وقوله : (وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) . (وأقسطوا إن الله يحب المقسطين). (فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين). (إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين). (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه). (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص). (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحبكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) وقوله : (رضى الله عنهم ورضوا عنه) وقوله : (بسم الله الرحمن الرحيم) . (ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً) . (وكان بالمؤمنين رحيماً) . (كتب ربكم على نفسه الرحمة) . (وهو الغفور الرحيم). (فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين) وقوله : (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه) وقوله : (ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه) وقوله : (فلما آسفونا انتقمنا منهم ولكن كره الله اتباعهم فبسطهم) وقوله : (كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) وقوله : (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور) . (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك) . (كلا إذا دكت الأرض دكا دكا وجاء ربك والملك صفاً صفاً) . (يوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً) وقوله : (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) ، (كل شيء هالك إلا وجهه) وقوله :

(ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي) . (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء) وقوله : (واصبر لحكم ربك فانك باعيننا) وقوله : (وحملناه على ذات ألواح ودسر تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر) . (وألقيت عليك حبة منى ولتصنع على عيني) وقوله : (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما) . (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا) . (أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بل ورسلنا لديهم يكتبون) . (انني معكما أسمع وأرى) وقوله : (ألم تعلم بأن الله يرى) . (الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين) . (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) وقوله : (شديد المحال) وقوله : (ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون) وقوله : (انهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً) وقوله : (إن تبدوا خيراً أو تحفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفواً قديراً) . (وليعفوا وليصْفَحُوا لا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) وقوله : (فله العزة ولرسوله) . (فبعزتك لأغوينهم أجمعين) وقوله : (تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام) وقوله : (فاعبدوه واصطبروا عبادته هل تعلم له سمياً) . (ولم يكن له كفواً أحد) . (فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) . (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله) . (وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الدن ولا كبره تكبيراً) . (يسبح لله ما في السموات وما في الأرض) . (له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير) . (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً الذي له ملك السموات والأرض ولم

يتخذ ولدأ) . (وخلق كل شيء فقدره تقديرا) . (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون) . (لا فضر بوالله إلا مثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون) (قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق وأن تشرکوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) وقوله : (الرحمن على العرش استوى) . (ثم استوى على العرش) . في هتة مواضع : (يا عيسى اني متوفيك ورافعك إلى) . (بل رفعه الله إليه) . (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) . (يا هامان ابن لي صرحا لعلی أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا) . (أأنتم من في السماء أن يحسف بكم الأرض فإذا هي تمور أم أنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير) وقوله : (هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير) . (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم يفثهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم) . (لا تحزن إن الله معنا) . (إني معكم أسمع وأرى) . (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) . (واصبروا إن الله مع الصابرين) . (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين) وقوله : (ومن أصدق من الله حديثا) . (ومن أصدق من الله قيلا) . (وإذا قال الله يا عيسى بن مريم) . (وتمت كلمت ربك صدقا وعدلا) . (وكلام الله

موسى تكليماً) . (منهم من كلم الله) . (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه) .
 (وناديناه من جانب الطور الايمن وقربناه نجياً) . (وإذ نادى ربك
 موسى أن ائت القوم الظالمين) . (وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما
 الشجرة) . (ويوم يناديهم فيقول أين شركائ الذين كنتم تزعمون) .
 (ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين) . (وإن أحد من المشركين
 استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) . (وقد كان فريق منهم يسمعون
 كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه) . (يريدون أن يبدلوا كلام الله قل
 لن تتبعوننا) . (واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته) .
 (إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل) . (وهذا كتاب أنزلناه مبارك) .
 (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله) . (وإذا
 بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون) .
 (قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى
 للسلين) . (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون
 إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين) . (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها
 ناظرة) . (على الآرائك ينظرون) . (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) .
 (لهم ما يشاءون عند ربهم) . (لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد) .

وهذا الباب فى كتاب الله تعالى كثير من تدبر القرآن طالب الهدى منه
 تبين له طريق الحق ، ثم ستر رسول الله صلى الله عليه وسلم تفسر القرآن وتبينه
 وتدل عليه وتبرهنه ، وما وصف الرسول به ربه من الأحاديث الصحاح
 التى تلقاها أهل المعرفة بالقبول وجب الإيمان بها ، كذلك مثل قوله صلى الله
 عليه وسلم : « ينزل ربنا إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر

فيقول من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له ، متفق عليه وقوله صلى الله عليه وسلم : « الله أشد فرحاً بتوبة عبده من أحدكم براحتيه ، الحديث متفق عليه وقوله صلى الله عليه وسلم : « يضحك الله إلى رجلين أحدهما يقتل الآخر كلاهما يدخل الجنة ، متفق عليه وقوله : « عجب ربنا من قنوط عباده وقرب خيره ينظر اليكم أذلين قنطين يظل يضحك يعلم أن فرحكم قريب ، حديث حسن وقوله صلى الله عليه وسلم : « لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه — وفي رواية عليها قدمه — فينزوي بعضها إلى بعض وتقول قط قط ، متفق عليه وقوله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله يا آدم فيقول لبيك وسعديك فينادي بصوت إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار ، متفق عليه وقوله في رقية المريض : « ربنا الله الذي في السماء تقدس اسمك أملك في السماء والأرض كما رحمتك في السماء اجعل رحمتك في الأرض اغفر لنا حوبتنا وخطايانا أنت رب الطيبين أنزل رحمة من رحمتك وشفاء من شفائك على هذا الوجع ، رواه أبو داود وقوله صلى الله عليه وسلم : « ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء ، رواه البخاري وغيره وقوله : « والعرش فوق ذلك والله فوق ذلك والله فوق عرشه وهو يعلم ما أنتم عليه ، رواه أبو داود والترمذي وغيرهما وقوله صلى الله عليه وسلم : « للجارية أين الله قالت في السماء قال من أنا قالت أنت رسول الله قال أعقها فانها مؤمنة ، رواه مسلم وقوله صلى الله عليه وسلم : « أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت ، حديث حسن وقوله : « إذا قام أحدكم إلى الصلاة فإن الله قبل وجهه فلا يصبق قبل وجهه ولا عن يمينه ولكن عن يساره أو تحت قدمه ، متفق عليه وقوله صلى الله عليه وسلم : « اللهم

رب السموات السبع ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شيء فالق الحب والنوى منزل التوراة والإنجيل والقرآن أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء اقض عني الدين واغنني من الفقر ، رواء مسلم وقوله لما رفع أصحابه أصواتهم بالذكر : « أيها الناس أربعوا على أنفسكم فانكم لا تدعون أصم ولا غائبا إنما تدعون سميعا قريبا ان الذين تدعونه أقرب الى أحدكم من عنق راحلته ، متفق عليه وقوله : « انكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته فان استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة بعد غروبها فافعلوا ، متفق عليه الى أمثال هذه الأحاديث التي يخبر فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه بما يخبر به .

(فان الفرقة الناجية) أهل السنة والجماعة يؤمنون بذلك كما يؤمنون بما أخبر الله به في كتابه من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، بل هم الوسط في فرق الأمة كما أن الأمة هي الوسط في الأمم ، فهم وسط في باب صفات الله سبحانه وتعالى بين أهل التعطيل الجهمية ، وأهل التمثيل المشبهة ، وهم وسط في باب أفعال الله تعالى بين القدرية والجبرية ، وفي باب وعيد الله بين المرجئة وبين الوعيدية من القدرية وغيرهم ، وفي باب الإيمان والدين بين الحرورية والمعتزلة وبين المرجئة والجهمية ، وفي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الخوارج وبين الروافض .

وقد دخل فيها ذكرناه من الإيمان بالله، الإيمان بما أخبر الله به في كتابه

وتواتر عن رسوله صلى الله عليه وسلم وأجمع عليه سلف الامة ، من أنه سبحانه فوق سمواته على عرشه على* على خلقه وهو معهم سبحانه أينما كانوا ، يعلم ما هم عاملون كما جمع بين ذلك في قوله : (هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم . والله بما تعملون بصير) وليس معنى قوله : وهو معكم أينما كنتم . أنه محتلط بالخلق فان هذا لا توجهه اللغة ، وهو خلاف ما أجمع عليه سلف الامة ، وخلاف ما فطر الله عليه الخلق ، بل القمر آية من آيات الله من أصغر مخلوقاته هو موضوع فى السماء ، وهو مع المسافر أينما كان ، وهو سبحانه فوق العرش رقيب على خلقه مبين عليهم مطلع اليهم ، إلى غير ذلك من معاني ربوبيته ، وكل هذا الكلام الذى ذكره الله من أنه فوق العرش وأنه معنا ، حق على حقيقته لا يحتاج إلى تحريف ، ولكن يسان عن الظنون الكاذبة ، ودخل فى ذلك الإيمان بأنه قريب من خلقه كما قال تعالى : (وإذا سألك عبادى عنى فاقرب أجيب دعوة الداعى إذا دعانى فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلمهم يرشدون) وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الذى تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته ، وما ذكر فى الكتاب والسنة من قربه ومعينه لا ينافى ما ذكر من علوه وفوقيته ، فانه سبحانه ليس كمثل شئ فى جميع نعوته ، وهو على* فى دنوه ، قريب فى علوه .

ومن الإيمان به وبكتبه : الإيمان بأن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق ، منه بدا واليه يعود ، وان الله تكلم به حقيقة ، وان هذا القرآن الذى أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم هو كلام الله حقيقة لا كلام غيره ، ولا يجوز (٢٦ - مجموعة الرسائل)

اطلاق القول بأنه حكاية عن كلام الله أو عبارة ، بل إذا قرأه الناس أو كتبوه في المصاحف ، لم يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله حقيقة ، فإن الكلام إنما يضاف حقيقة إلى من قاله مبتدئاً لا إلى من قاله مبلغاً مؤدياً ، وقد دخل أيضاً فما ذكرناه من الإيمان به وبكتبه وبرسله ، والإيمان بأن المؤمنين يرونه يوم القيامة عياناً بأبصارهم ، كما يرون الشمس محوً ليس دونها سحب ، وكما يرون القمر ليلة البدر لا يضامون في رؤيته ، يرونه سبحانه وهم في عرصات القيامة ، ثم يرونه بعد دخول الجنة كما يشاء الله سبحانه وتعالى .

ومن الإيمان باليوم الآخر: الإيمان بكل ما أخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم بما يكون بعد الموت ، فيؤمنون بفتنة القبر ، وبعذاب القبر وبنعيمه ، فأما الفتنة : فإن الناس يفتنون في قبورهم فيقال للرجل : من ربك وما دينك ومن نبيك ، فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت . فيقول المؤمن : الله ربي ، والإسلام ديني ، ومحمد نبيي صلى الله عليه وسلم ، وأما المراتب فيقول آه آه لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته ، فيضرب بمرزبة من حديد يصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان ولو سمعها الإنسان لصعق ، ثم بعد هذه الفتنة إما نعيم وإما عذاب إلى يوم القيامة الكبرى ، فتعاد الأرواح إلى الأجساد ، فتقوم القيامة التي أخبر الله تعالى بها في كتابه على لسان رسوله ﷺ وأجمع عليها المسلمون ، فيقوم الناس من قبورهم لرب العالمين : حفاة عراة غرلا وتدنون منهم الشمس ، ويلجهم العرق وتنصب الموازين ، فتوزن فيها أعمال العباد ، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون ، وتنفخ الصور وتنادي الدواب وهي صحائف الأعمال فأخذ كتابه يمينه ، وأخذ كتابه بشماله ، أو من وراء ظهره ، كما قال سبحانه :

(وكل إنسان الزمان طائر في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا
 اقرأ كتابك كنى بنفسك اليوم عليك حسيبا) ويحاسب الله الخلائق ويخلو بعبد
 المؤمن فيقرره بذنوبه كما وصف ذلك في الكتاب والسنة ، وأما الكفار
 فلا يحاسبون حساب من توزن حسناته وسيئاته فانهم لاحسنات لهم ، ولكن
 تعد أعمالهم وتحصر فيوقفون عليها ويقررون بها ويجزون بها ، وفي عرصة
 القيامة الحوض المورود لمحمد صلى الله عليه وسلم ، ماؤه أشد بياضا من اللبن
 وأحلى من العسل ، آيته عدد نجوم السماء ، طوله شهر ، وعرضه شهر ، من
 شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا ، والصراط منصوب على متن جهنم ،
 وهو الجسر الذي بين الجنة والنار يمر الناس عليه على قدر أعمالهم ، فمنهم من
 يمر كالحب البصر ، ومنهم من يمر كالبرق ، ومنهم من يمر كالريح ، ومنهم من
 يمر كالفرس الجواد ، ومنهم من يمر كركاب الابل ، ومنهم من يعدو عدوا
 ومنهم من يمشي مشيا ، ومنهم من يزحف زحفا ، ومنهم من يخطف فيلقى في جهنم
 فان الجسر عليه كلاليب تخطف الناس بأعمالهم ، فمن مر على الصراط دخل
 الجنة ، فاذا عبروا عليه وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص لبعضهم
 بعض ، فاذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة .

وأول من يستفتح باب الجنة محمد صلى الله عليه وسلم وأول من
 يدخل الجنة .

وله في القيامة ثلاث شفاعات : أما الشفاعة الاولى : فيشفع في أهل
 الموقف حتى يقضى بينهم بعد أن يتراجع الانبياء : آدم ، نوح ، وإبراهيم ،
 وموسى ، وعيسى بن مريم -- الشفاعة حتى تنتهي اليه ، وأما الشفاعة الثانية :
 فيشفع في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة ، وهاتان الشفاعتان خاصتان له وأما

الشفاعة الثالثة : فيشفع فيمن استحق النار ، وهذه الشفاعة له ولسائر التبيين والصديقين وغيرهم ، فيمن استحق النار أن لا يدخلها ، ويشفع فيمن دخلها أن يخرج منها ، ويخرج الله من النار أقواما بغير شفاعة بل بفضل رحمته ، ويبقى في الجنة فضل عن دخلها من أهل الدنيا ، فينشيء الله له أقواما فيدخلهم الجنة وأصناف ما تضمنه الدار الآخرة من الحساب والعقاب والجنة والنار ، وتفصيل ذلك مذكورة في الكتب المنزلة من السماء والآثارة من العلم الماثورة عن الأنبياء ، وفي العلم الموروث عن محمد صلى الله عليه وسلم من ذلك ، ما يشفي ويكفي فمن ابتغاه وجده .

وتؤمن الفرقة الناجية من أهل السنة والجماعة بالقدر خيره وشره ، والايان بالقدر على درجتين : كل درجة تتضمن شيئين فالدرجة الأولى : الايمان بأن الله تعالى علم ما الخلق عاملون بعلمه القديم الذي هو موصوف به أزلا وأبداً ، وعلم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال ، ثم كتب الله تعالى في اللوح المحفوظ مقادير الخلاق فأول ما خلق الله القلم فقال : اكتب . فقال : ما أكتب؟ قال : اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة ، فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، جفت الأقلام وطويت الصحف كما قال سبحانه : (ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير) وقال : (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها) وهذا التقدير التابع لعلمه سبحانه يكون في مواضع جملة وتفصيلا ، فقد كتب في اللوح المحفوظ ما شاء ، فإذا خلق جسد الجنين قبل نفخ الروح فيه ، بعث إليه ملكا فيؤمر بأربع كلمات فيقال له : اكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقي أم سعيد ونحو

ذلك ، فهذا القدر قد كان ينكره غلاة القدرية قديماً ومنكروه اليوم قليل ، وأما الدرجة الثانية : فهو مشيئة الله تعالى النافذة ، وقدرته الشاملة ، وهو الإيمان بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه ما في السموات والأرض من حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله سبحانه ، لا يكون في ملكه إلا ما يريد ، وأنه سبحانه وتعالى على كل شيء قدير من الموجودات والمعدومات ، فما من مخلوق في الأرض ولا في السماء إلا الله خالقه سبحانه لا خالق غيره ولا رب سواه ، وقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسله ، ونهاهم عن معصيته ، وهو سبحانه يحب للمتقين والمحسنين والمقسطين ، ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ولا يرضى عن القوم الفاسقين ، ولا يأمر بالفحشاء ، ولا يرضى لعباده الكفر ، ولا يحب الفساد .

والعباد فاعلون حقيقة ، والله خالق أفعالهم ، والعبد هو المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، والمصلئ والصائم ، وللعباد قدرة على أعمالهم وإرادة ، والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم كما قال : (لمن شاء منكم أن يستقيم . وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين) وهذه الدرجة من القدرية يكذب بها عامة القدرية الذين سماهم النبي صلى الله عليه وسلم مجوس هذه الأمة ، ويفلو فيها قوم من أهل الإثبات حتى يسلبوا العبد قدرته واختياره ، ويخرجون عن أفعال الله وأحكامه حكمها ومصالحها .

ومن أصول الفرقة الناجية ، أن الدين والإيمان قول وعمل ، قول القلب واللسان ، وعمل القلب واللسان والجوارح ، وأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ، وهم مع ذلك لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر كما

يفعله الخوارج ، بل الاخوة الإيمانية ثابتة مع المعاصي كما قال سبحانه في آية القصص : (فن عني له من أخيه شيء) وقال : (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تنفي إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين . إنما المؤمنون إخوة) .

ولا يسلبون الفاسق الملى اسم الإيمان بالكلية ويخلدونه في النار كما تقول المعتزلة ، بل الفاسق يدخل في اسم الإيمان في مثل قوله : (فتحرير رقبة) ولا يدخل في اسم الإيمان المطلق كما في قوله : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) وقول النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يرزى الزاني حين يرزى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا يذهب نهبه ذات شرف يرفع الناس إليها فيها أبصارهم وهو حين يذهبها مؤمن ، ويقولون هو مؤمن ناقص الإيمان أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته ، فلا يعطى الاسم المطلق ، ولا يسلب مطلق الاسم .

ومن أصول أهل السنة والجماعة : سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كما وصاهم الله في قوله : (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم) وطاعة النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : « لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » ، ويقبلون ما جاء به الكتاب أو السنة أو الاجماع من فضائلهم ومراتبهم ، فيفضلون من أنفق من قبل الفتح وقاتل

وهو صلح الحديبية ، على من أنفق بعده وقاتل ، ويقدمون المهاجرين على الأنصار .

ويؤمنون بأن الله قال لأهل بدر وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر : « اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » .

وبأنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة ، كما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم ، بل قد رضى عنهم ورضوا عنه وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة .

ويشهدون بالجنة لمن شهد له النبي صلى الله عليه وسلم كالعشرة ، وكثابت بن قيس بن شماس وغيرهم من الصحابة .

ويقرون بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضى الله عنه وغيره ، من أن خير هذه الأمة بعد نبيها : أبو بكر الصديق ، ثم عمر ، ثم يثلاثون بعثمان ، ويربعون بعلى ، كما دلت عليه الآثار وكما أجمعت الصحابة على تقديم عثمان في البيعة ، مع أن بعض أهل السنة كانوا قد اختلفوا في عثمان وعلى بعد اتفاقهم على أبي بكر وعمر أيهما أفضل : فقدم قوم عثمان وسكتوا أو ربيعوا بعلى ، وقدم قوم علياً وقوم توقفوا ، لكن استقر أمر أهل السنة على تقديم عثمان ثم على ، وإن كانت هذه المسألة مسألة عثمان وعلى ، ليست من الأصول التي يضل المخالف فيها عند جمهور أهل السنة ، لكن المسألة التي يضل المخالف فيها مسألة الخلافة ، وذلك بأنهم يؤمنون أن الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم على . ومن طعن في خلافة أحد من هؤلاء الأئمة ، فهو أضل من حمار أهله .

ويحبون أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويتولونهم ويحفظون فيهم وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال في يوم غدیر خم : « أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي » ، وقال أيضا للعباس عمه وقد شكوا إليه أن بعض قريش تجفون بني هاشم فقال : « والذى نفسى بيده لا يؤمنون حتى يحبونكم لله ولقرايتي » ، وقال : « إن الله اصطفى بنى إسماعيل واصطفى من بنى إسماعيل كنانة واصطفى من كنانة قريشاً واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفاني من بنى هاشم » .

ويتولون أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم أمهات المؤمنين ، ويقرون بأنهم أزواجه في الآخرة ، خصوصاً خديجة أم أكثر الأولاد ، وأول من آمن به وعرضه على أمره ، وكان لها منه المنزلة العلية ، والصديقة بنت الصديق ، التي قال النبي صلى الله عليه وسلم فيها : « فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » .

ويتبرعون من طريقة الروافض الذين يبغضون الصحابة ويسبونهم ، وطريقة النواصب الذين يؤذون أهل البيت بقول أو عمل .

ويمسكون عما شجر بين الصحابة ويقولون : إن هذه الآثار المروية في مساوئهم منها ما هو كذب ، ومنها ما قد زيد ونقص وغير من وجهه ، والصحيح منهم فيه معذورون ، إما مجتهدون مصيبون ، وإما مجتهدون مخطئون ، وهم مع ذلك لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كباير الإثم وصغائره ، بل يجوز عليهم الذنوب في الجملة ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم إن صدر ، حتى أنه يغفر لهم من السيئات ما لا يغفر لمن بعدهم ، لأن لهم من الحسنات ما ليس لمن بعدهم ، وقد ثبت بقوله

رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنهم خير القرون ، فإن المد من أحدهم إذا تصدق به كان أفضل من جبل أحد ذهباً من بعدهم ، ثم إذا كان صدر عن أحد منهم ذنب فيكون قد تاب منه أو أتى بحسنات تمحوه ، أو غفر له بفضل سابقته أو بشفاعته محمد صلى الله عليه وسلم الذين أحق الناس بشفاعته ، أو ابتلى ببلاء في الدنيا كفر عنه ، فإذا كان هذا في الذنوب المحققة فكيف بالأمور الذي كانوا فيها مجتهدين إن أصابوا ظلم أجران ، وإن أخطؤوا ظلم أجر واحد والخطأ مغفور .

ثم القدر الذي ينكر من فضل بعضهم قليل نزر مغفور في جنب فضائل القوم ومحاسنهم من الايمان بالله ورسوله ، والجهاد في سبيله والهجرة والنصرة والعلم النافع والعمل الصالح ، ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة وما من الله به عليهم من الفضائل ، علم يقيناً أنهم خير الخلق بعد الانبياء ، لا كان ولا يكون مثلهم ، فانهم الصفوة من قرون هذه الأمة ، التي هي خير الأمم وأكرمها على الله .

ومن أصول أهل السنة : التصديق بكرامات الأولياء وما يجري الله على أيديهم من خوارق العادات ، في العلوم والمكاشفات وأنواع القدرة والتأثيرات ، كل المأثور عن سالف الأمم في سورة الكهف وغيرها . وعن صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين وسائر فرق الأمة ، وهي موجودة فيها إلى يوم القيامة .

ثم من طريقة أهل السنة والجماعة ، اتباع آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم باطنا وظاهراً ، واتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، واتباع وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال : « عليكم بسنتي وسنة

الخلفاء الراشدين من بعدى تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة . .

ويعلمون أن أصدق الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويؤثرون كلام الله على غيره من كلام أخبار الناس ، ويقدمون هدى محمد صلى الله عليه وسلم على هدى كل أحد .

وبهذا سموا أهل الكتاب والسنة ، وسموا أهل الجماعة ، لأن الجماعة هي الاجتماع وضدها الفرقة . ، وإن كان لفظ الجماعة قد صار إسماءً لنفس القوم المجتمعين ، والاجتماع هو الأصل الثالث الذى يعتمد عليه فى العلم والدين .
وهم يزنون بهذه الأصول الثلاثة جميع ما عليه الناس من أعمال وأفعال ، باطنة أو ظاهرة بما له تعلق بالدين .

والاجتماع الذى ينضبط هو ما كان عليه السلف الصالح ، إذ بعدهم كثر الاختلاف وانتشرت الأمة .

ثم هم مع هذه الأصول : يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، على ما توجبه الشريعة . ويرون إقامة الحج والجهاد والجمع والاعیاد مع الأمراء ، أيراراً كانوا أو جباراً ويحافظون على الجماعات . ويدينون بالنصيحة للأمة ، ويعتقدون معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً وشبك بين أصابعه » ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحيمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحصى والسهر » . ويأمرون بالصبر عند البلاء ، والشكر عند الرخاء ، والرضا بمر القضاء . ويدعون إلى مكارم الاخلاق ومحاسن الاعمال . ويعتقدون معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : « أكمل المؤمنين إيماناً

أحسنهم خلقاً ، ويندبون إلى أن تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ،
وتعفو عن ظلك . ويأمرون ببر الوالدین ، وصلة الأرحام ، وحسن الجوار ،
والإحسان إلى اليتامى والمساكين وابن السبيل ، والرفق بالمملوك ، وبنهون
عن الفخر والخيلاء والبغى ، والاستطالة على الخلق بحق أو بغير حق .
ويأمرون بمعالى الأخلاق وبنهون عن سفاسفها . وكل ما يقولونه أو يفعلونه
من هذا أو غيره فإنما هم فيه متبعون الكتاب والسنة ، وطريقتهم هي دين
الاسلام الذى بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم ، لكن لما أخبر صلى الله
عليه وسلم : أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلهم فى النار إلا واحدة
وهى الجماعة ، وفى حديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « هم من كان على
مثل ما أنا عليه وأصحابى » صار المتمثلون بالاسلام المحض الخالص عن المشوب :
أهل السنة والجماعة . وفيهم الصديقون والشهداء والصالحون ، ومنهم أعلام
الهدى ومصابيح الدجى ، أولو المناقب الماثورة والفضائل المذكورة ، وفيهم
الأبدال ، وفيهم الأئمة الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم ، وهم الطائفة
المنصورة التى قال فيها النبى صلى الله عليه وسلم : « لا تزال طائفة من أمتى
ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة » .

فدسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم ، وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إزهدانا ،
ويهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب . والحمد لله رب العالمين ، وصلواته
وسلامه على سيدنا محمد وآله وصحبه وعلى سائر النبيين وآل كل وسائر
الصالحين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

تمت الرسالة التاسعة

ويلبها الرسالة العاشرة : المناظرة فى العقيدة الواسطية

الرسالة العاشرة
المناظرة في العقيدة الواسطية



بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر ما وقع في هذه العقيدة المباركة من الأبحاث التي جلاها جامعها
للنعتريين .

نقل الشيخ علم الدين، أن الشيخ قدس سره قال في مجلس السلطنة الأفرم
لما سأله عن اعتقاده ، وكان أحضر الشيخ عقيدته الواسطية . قال : هذه كتبها
من نحو سبع سنين قبل مجيء التتار إلى الشام فقرئت في المجلس ، ثم نقل علم
الدين عن الشيخ أنه قال : كان سبب كتابتها بعض قضاة واسط من أهل الخير
والدين ، شكى ما الناس فيه ببلادهم في دولة التتار ، من غلبة الجهل والظلم ،
ودروس الدين والعلم ، وسألني أن أكتب له عقيدة . فقلت له : قد كتب
الناس عقائد آتمة السنة فألح في السؤال وقال : ما أحب إلا عقيدة تكتبها
أنت ، فكتب له هذه العقيدة وأنا قاعد بعد العصر ، فأشار الأمير لكتابه
فقرأها على الحاضرين حرفا حرفا ، فاعترض بعضهم على قولي فيها :

ومن الإيمان بالله ؛ الإيمان بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله من
غير تحريف ولا تعطيل ولا تكليف ولا تمثيل ، ومقصوده أن هذا ينفي
التأويل الذي هو صرف اللفظ عن ظاهره ، إما وجوبا وإما جوازا . فقلت :
إني عدلت عن لفظ التأويل إلى لفظ التحريف ، لأن التحريف اسم جاء
القرآن بذكره ، وأنا تحريت في هذه العقيدة : اتباع الكتاب والسنة ، فنفيت
ما ذمه الله من التحريف ، ولم أذكر فيها لفظ التأويل لأنه لفظ له عدة معان
كما بينته في موضعه من القواعد ، فان معنى لفظ التأويل في كتاب الله غير

لفظ التأويل في اصطلاح المتأخرين من أهل الأصول والفقه ، وغير معنى لفظ التأويل في اصطلاح كثير من أهل التفسير والسلف .

وقلت لهم : ذكرت في النفي التمثيل ولم أذكر التشبيه ، لأن التمثيل نفاه الله بنص كتابه حيث قال : (ليس كمثل شيء) وأخذوا يذكرون نفي التشبيه والتجسيم ويطالبون في هذا ، ويعرضون بما ينسبه بعض الناس إلينا من ذلك .

فقلت قولي من غير تكليف ولا تمثيل ينفي كل باطل ، وإنما اخترت هذين الاسمين لأن التكليف مأثور نفيه عن السلف كما قال : ربيعة ومالك وابن عيينة وغيرهم المقالة التي تلقاها العلماء بالقبول : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

فاتفق هؤلاء السلف على أن الكيف غير معلوم لنا ، فنفيت ذلك اتباعا لسلف الامة وهو أيضا منفي بالنص ، فان تأويل آيات الصفات يدخل فيها حقيقة الموصوف ، وحقيقة صفاته غير معلومة ، وهذا من التأويل الذي لا يعلمه إلا الله ، كما قررت ذلك في قاعدة مفردة ذكرتها في التأويل والمعنى ، والفرق بين علمنا بمعنى الكلام ، وبين علمنا بتأويله .

وكذلك التمثيل منفي بالنص والاجماع القديم ، مع دلالة العقل على نفيه ونفي التكليف ، إذ كنه الباري غير معلوم للبشر .

وذكرت في ضمن ذلك كلام الخطابي الذي نقل انه مذهب السلف ، وهو إجراء آيات الصفات وأحاديثها على ظاهرها ، مع نفي الكيفية والتشبيه عنها ، إذ الكلام في الصفات فرع الكلام في الذات يحتمل حذوه ، ويتبع فيه

مثاله ، فإذا كان إثبات الذات وجوداً لإثبات تكيف ، فكذلك إثبات الصفات لإثبات وجود لإثبات تكيف .

فقال أحد كبراء المخالفين : فينتد يجوز أن يقال هو جسم لا كالأجسام . فقلت له أنا وبعض الفضلاء : إنما قيل أنه يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله ، وليس في الكتاب والسنة أن الله جسم حتى يلزم هذا .

وأول من قال أن الله جسم : هشام بن الحكم الرافضي ، وأما قولنا فهو فيهم الوسط في فرق الأمة ، كما أن الأمة هي الوسط في الأمم ، فهم وسط في باب صفات الله بين أهل التعطيل الجهمية ، وأهل التشبيل المشبهة .

فقيل لي : أنت صنف اعتقاد الإمام أحمد . وأرادوا قطع النزاع لكونه مذهبا متبوعا . فقلت : ما خرجت إلا عقيدة السلف الصالح جميعهم ليس للإمام أحمد اختصاص بهذا .

وقلت : قد أمهلت من خالفني في شيء منها ثلاث سنين ، فإن جاء بحرف واحد عن القرون الثلاثة يخالف ما ذكرته فانا أرجع عن ذلك ، وعلى أن آتي بنقول جميع الطوائف عن القرون الثلاثة يوافق ما ذكرته ، من الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية والأشعرية وأهل الحديث وغيرهم .

ثم طلب المنازع الكلام في مسألة الحرف والصوت . فقلت : هذا الذي يحكي عن أحد أصحابه ، أن صوت القارئ ومداد المصاحف قديم أزلي كذب مفترى ، لم يقل ذلك أحمد ولا أحد من علماء المسلمين ، وأخرجت كراسا (٢٧ — مجموعة الرسائل)

وفيه ما ذكره أبو بكر الخلال في كتاب السنة عن الإمام أحمد ، وما جمعه صاحبه أبو بكر المروزي من كلام أحد وكلام أئمة زمانه في أن من قال : لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي ، ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع . قلت : فكيف بمن يقول لفظي أزل فكيف بمن يقول صوتي قديم .

فقال المنازع : إنه انتسب إلى أحد أناس من الحشوية والمشبهة ونحو هذا الكلام .

قلت : المشبهة والمجسمة في غير أصحاب الإمام أحمد أكثر منهم فيهم ، فهؤلاء أصناف الأكراد كلهم شافعية ، وفيهم من التشبيه والتجسيم ما لا يوجد في صنف آخر ، وأهل جيلان فيهم شافعية وحنبلية ، وأما الحنبلية المحضة فليس فيهم من ذلك ما في غيرهم ، والكرامية المجسمة كلهم حنفية .

وقلت له : من في أصحابنا حشوى بالمعنى الذي تريده ؟ الأثرم . أبو داود . المروزي . الخلال . أبو بكر بن عبد العزيز . أبو الحسن التميمي . ابن حامد . القاضي أبو يعلى . أبو الخطاب . ابن عقيل ؟

ورفعت صوتي وقلت : سمهم قلل من هم .

أبكذب ابن الخطيب وافترائه على الناس في مذاهبهم تبطل الشريعة وتدرس معالم الدين ، كما نقل هو وغيره عنهم أنهم يقولون : القرآن القديم هو أصوات القارئ ، ومداد الكاتبين ، وإن الصوت والمداد قديم أزل .

من قال هذا وفي أي كتاب وجد منهم هذا قل لي ، وكما نقل عنهم أن الله لا يرى في الآخرة ، بالزوم الذي ادعاه والمقدمة التي نقلها عنهم .

ولما جاءت مسألة القرآن ، وأنه كلام الله غير مخلوق ، منه بدا واليه يعود ، نازع بعضهم في كونه منه بدأ وإليه يعود وطلبوا تفسير ذلك .

فقلت : أما هذا القول فهو المأثور والثابت عن السلف ، مثل ما نقله عمرو بن دينار . قال : أدركت الناس منذ سبعين سنة يقولون : الله الخالق وما سواه مخلوق إلا القرآن ، فانه كلام الله غير مخلوق منه بدا واليه يعود .

ومعنى منه بدا أى هو المتكلم به وهو الذى أنزله من لدنه ، ليس هو كما تقوله الجهمية أنه خلق في الهواء أو غيره وبدأ من غيره .

وأما اليه يعود : فانه يسرى به في آخر الزمان من المصاحف والصدور ، فلا يبق في الصدور منه كلمة ، ولا في المصاحف منه حرف ، ووافق على ذلك غالب الحاضرين .

فقلت : هكذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما تقرب العباد إلى الله بمثل ما خرج منه » ، يعنى القرآن وقال خباب بن الارت : يا هتاه تقرب إلى الله بما استطعت فلن يتقرب إلى الله بشئ أحب إليه مما خرج منه .

وقلت : وان الله تكلم به حقيقة ، وان هذا القرآن الذى أنزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم هو كلام الله حقيقة لا كلام غيره ، ولا يجوز اطلاق القول بأنه حكاية عن كلام الله ، أو عبارة بل إذا قرأ الناس القرآن أو كتبوه في المصاحف لم يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله ، فان الكلام إنما يضاف حقيقة إلى من قاله مبلغا مؤديا ، فامتص بعضهم من إثبات كونه كلام الله حقيقة بعد تسليمه أن الله تكلم به حقيقة ، ثم أنه سلم ذلك لما بين له أن المجاز

يصح نفيه وهذا لا يصح نفيه ، وأن أقوال المتقدمين المأثورة عنهم ، وشعر الشعراء المضاف إليهم هو كلامهم حقيقة ، ولما ذكر فيها أن الكلام إنما يضاف حقيقة إلى من قاله مبتدئاً لآل من قاله مبلغاً ، استحسنا هذا الكلام وعظموه .

وذكرت ما أجمع عليه سلف الأمة : من أنه سبحانه فوق العرش وأنه معنى حق على حقيقته لا يحتاج إلى تحريف ، ولكن يسان عن الظنون الكاذبة وليس معنى قوله : (وهو معكم أينما كنتم) أنه محتلط بالخلق ، فإن هذا لا توجب اللغة وهو خلاف ما أجمع عليه سلف الأمة ، وخلاف ما فطر الله عليه الخلق ، بل القمر آية من آيات الله من أصغر مخلوقاته ، وهو موضوع في السماء وهو مع المسافر أينما كان .

ولما ذكرت أن جميع أسماء الله التي يسمى بها المخلوق كلفظ الوجود الذي هو مقول بالحقيقة على الواجب والممكن تازع كبيران هل هو مقول بالاشتراك أو بالتواطؤ . فقال أحدهما : هو متواطئ ، وقال آخر : هو مشترك لئلا يلزم التركيب . وقال هذا قد ذكر غير الدين أن هذا النزاع مبنى على أن وجوده هل هو عين ماهيته أم لا ، فمن قال أن وجود كل شيء عين ماهيته قال أنه مقول بالاشتراك ، ومن قال أن وجوده قدر زائد على ماهيته قال أنه مقول بالتواطؤ ، فأخذ الأول يرجع قول من يقول : أن الوجود زائد على الماهية لينصر أنه مقول بالتواطؤ . فقال الثاني : مذهب الأشعرى وأهل السنة ؛ أن وجوده عين ماهيته فأنكر الأول ذلك .

فقلت : أما متكلموا أهل السنة ، فعندهم أن وجود كل شيء عين ماهيته

وأما القول الآخر فهو قول المعتزلة : ان وجود كل شيء قدر زائد على ماهيته وكل منهما أصاب من وجه ، فان الصواب أن هذه الأسماء مقولة بالتواطؤ كما قد قررته في غير هذا الموضع ، وأما بناء ذلك على كون وجود الشيء عين ماهيته أو ليس ، فهو من الغلط المضاف إلى ابن الخطيب ، فانا وإن قلنا أن وجود الشيء عين ماهيته لا يجب أن يكون الاسم مقولا عليه وعلى نظيره بالاشتراك اللفظي فقط ، كما في جميع أسماء الاجناس ، فان اسم السواد مقول على هذا السواد ، وهذا السواد بالتواطؤ وليس عين هذا السواد هو عين هذا السواد ، إذ الاسم دال على القدر المشترك بينهما وهو المطلق الكلي ، لكنه لا يوجد مطلقاً بشرط الإطلاق إلا في الذهن ، ولا يلزم من ذلك نفي القدر المشترك بين الأعيان الموجودة في الخارج ، فانه على ذلك تنفي الأسماء المتواطئة ، وهي جمهور الأسماء الموجودة في اللغات ، وهي أسماء الاجناس اللغوية ، وهو الاسم المعلق على الشيء وما أشبهه ، سواء كان اسم عين أو اسم صفة جامداً أو مشتقاً ، وسواء كان جنساً منطقياً أو فقهيّاً أو لم يكن ، بل اسم الجنس في اللغة يدخل فيه الاجناس والاصناف والانواع ونحو ذلك ، وكلاماً أسماء متواطئة وأعيان مسمياتها في الخارج متميزة ، هذا آخر بعض ماعلقه الشيخ فيما يتعلق بالمناظرة ، بحضرة نائب السلطنة والقضاة والفقهاء وغيرهم . قال الحافظ الذهبي ، ثم وقع الاتفاق على أن هذا معتقد مسلمي جيد .

تمت الرسالة العاشرة

ويلها الرسالة الحادية عشر : العقيدة الحوية الكبرى

الرسالة الحادية عشر
العقيدة الجموية الكبرى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ما قول السادة العلماء أئمة الدين أحسن الله إليهم أجمعين ، في آيات الصفات كقوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) وقوله : (ثم استوى إلى السماء) إلى غير ذلك من الآيات ، وأحاديث الصفات أيضاً كقوله صلى الله عليه وسلم : « إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن ، وقوله : « يضع الجبار خدمه في النار ، إلى غير ذلك ، وما قالت العلماء فيه وليبسطوا القول في ذلك مأجورين إن شاء الله تعالى .

فأجاب شيخنا شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم بن تیمیة رضی الله عنه وأرضاه :

الحمد لله رب العالمين . قولنا فيها ما قاله الله ورسوله والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، وما قاله أئمة الهدى بعد هؤلاء الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرایتهم ، وهذا هو الواجب على جميع الخلق في هذا الباب وفي غيره ، فإن الله سبحانه وتعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بأذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ، وشهد له بأنه بعثه داعياً إليه بإذنه ، وأمره أن يقول : هذه سبيلي ادعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني . ومن المحال في العقل والدين أن يكون السراج المنير ، الذي أخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وأنزل معه الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وأمر الناس أن يردوا ما تنازعوا فيه من دينهم إلى ما بعث به من الكتاب والحكمة ، وهو

يدعو إلى الله وإلى سبيله بإذنه على بصيرة ، وقد أخبره الله بأنه أكمل له
ولامته دينهم وأتم نعمته ، محال مع هذا وغيره أن يكون قد ترك باب الإيمان
بالله والعلم به ملتبساً مشتتباً ، ولم يميز ما يجب لله من الأسماء الحسنى والصفات
العليا ، وما يجوز عليه ، وما يمتنع عليه ، فان معرفة هذا أصل الدين وأساس
الهداية ، وأفضل وأوجب ما اكتسبته القلوب وحصلته النفوس وأدركته
العقول ، فكيف يكون ذلك الكتاب ، وذلك الرسول ، وأفضل خلق الله
بعد النبيين ، لم يحكوا هذا الباب اعتقاداً وقولاً ، ومن المحال أيضاً أن
يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد علم أمته كل شيء حتى الحرمة . وقال :
« تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك » ، وقال فيما
صح عنه أيضاً : « ما بعث الله من نبي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير
ما يعلمه لهم وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم » ، وقال أبو ذر : لقد توفى رسول الله
صلى الله عليه وسلم وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكرنا منه علماً . وقال
عمر بن الخطاب : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً فذكر بده
الخلق ، حتى دخل أهل الجنة منازلهم ، وأهل النار منازلهم ، حفظ ذلك من
حفظه ونسيه من نسيه رواه البخاري . ومحال مع تعليمهم كل شيء لهم فيه
منفعة في الدين وإن دقت ، أن يترك تعليمهم ما يقولونه بألسنتهم وقلوبهم ،
في ربهم ومعبودهم ، ورب العالمين الذي معرفته غاية المعارف ، وعبادته
أشرف المقاصد ، والوصول إليه غاية المطالب ، هذا خلاصة الدعوة النبوية
وزبدة الرسالة الإلهية ، فكيف يتوهم من في قلبه أدنى مسكة من إيمان وحكمة
أن لا يكون بيان هذا الباب قد وقع من الرسول على غاية التمام ، ثم إذا
كان قد وقع ذلك منه ، فمن المحال أن خير أمة وأفضل قرونها قصرُوا في هذا
الباب زائدين فيه أو ناقصين عنه .

ثم من المحال أيضاً أن تكون القرون الفاضلة ، القرن الذي بعث فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، كانوا غير عالمين وقائلين في هذا الباب بغير الحق المبين ، لأن ضد ذلك اما عدم العلم والقول ، واما اعتقاد نقيض الحق وقول خلاف الصدق ، وكلاهما ممتنع . أما الاول : فلأن من في قلبه أدنى حياة وطلب للعلم أو نهمة في العبادة ، يكون البحث عن هذا الباب والسؤال عنه ومعرفة الحق فيه أكبر مقاصده وأعظم مطالبه ، وليست النفوس الصحيحة إلى شيء أشوق منها إلى معرفة هذا الامر ، وهذا أمر معلوم بالفطرة الوجدية ، فكيف يتصور مع قيام هذا المقتضى الذي هو من أقوى المقتضيات ، أن يتخلف عنه مقتضاه وأولئك السادة في مجموع عصورهم ، هذا لا يكاد يقع في أبداً الخلق وأشداهم اعراضاً عن الله ، وأعظمهم اكباباً على طلب الدنيا والغفلة عن ذكر الله ، فكيف يقع في أولئك .

وأما كونهم كانوا فيه معتقدين غير الحق أو قائلين ، فهذا لا يعتقده مسلم ولا عاقل عرف حال القوم .

ثم الكلام في هذا الباب عنهم أكثر من أن يمكن سطره في هذه الفتوى أو أضعافها ، يعرف ذلك من طلبه وتبعه ، ولا يجوز أيضاً أن يكون الخالفون أعلم بالله من السالفين ، كما قد يقوله بعض الأغبياء من لم يقدر قدر السلف ، بل ولا عرف الله ورسوله والمؤمنين به حقيقة المعرفة بالمأمور بها ، من أن طريقة السلف أسلم ، وطريقة الخلف أعلم أو أحكم ، فان هذا القول إذا تدبره الانسان وجده في غاية الجهالة بل في غاية الضلالة ، كيف يكون هؤلاء المتأخرون لاسماً والاشارة بالخلف إلى ضرب من المتكلمين

الذين كثر في باب الدين اضطرابهم ، وظلّ عن معرفة الله حجابهم ، وأخبر
الواقف على نهاية إقدامهم بما انتهى إليه من مرامهم حيث يقول :

لعمري قد طفت المعاهد كلها وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كف حائر على ذقن أو قارعا سن نادم

وأقروا على أنفسهم بما قالوه ممثلين به ، أو منقشين له فيما صنفوه من
كتبهم ، مثل قول بعض رؤسائهم :

نهاية إقدام العقول عقال وأكثر سعى العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسوننا وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قبل وقالوا

ويقول الآخر منهم : لقد خضت البحر الخضم ، وتركت أهل الإسلام
وعلوهم ، وخضت في الذي نهوني عنه ، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته
فالويل لفلان وها أنا ذا أموت على عقيدة أُمي .

ويقول الآخر منهم : أكثر الناس شكا عند الموت أصحاب الكلام ، ثم
إذا حقق عليهم الأمر لم يوجد عندهم من حقيقة العلم بالله وخالص المعرفة
به خبر ، ولا وقعوا من ذلك على عين ولا أثر ، كيف يكون هؤلاء
المنقسمون المحجوبون المفضولون المسبوقون الحيارى المنهوكون ، أعلم بالله
وآياته من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان
من ورثة الانبياء وخلفاء الرسل وأعلام الهدى ومصابيح الدجى ، الذين
قام الكتاب وبه قاموا ، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا ، الذين وهبهم
الله من العلم والحكمة ما برزوا به على سائر أتباع الانبياء ، وأحاطوا

من حقائق المعارف وبواطن الحقائق بما لو جمعت حكمة غيرهم إليها ، لاستحيا من يطلب المقابلة ، ثم كيف يكون خير قرون الامة أنقص في العلم والحكمة ، لاسيما العلم بالله وأحكام أسمائه وآياته من هؤلاء الاصاغر بالنسبة إليهم ، أم كيف يكون أفرار المتفلسفة واتباع الهند واليونان ، أعلم بالله من ورثة الانبياء وأهل القرآن والإيمان ، وإنما قدمت هذه المقدمة لأن من استقرت هذه المقدمة عنده ، علم طريق الهدى أين هو في هذا الباب وغيره ، وعلم أن الضلال والنهوك إنما استولى على كثير من المتأخرين بنزهم كتاب الله وراء ظهورهم ، وإعراضهم عما بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم من البينات والهدى ، وتركهم البحث عن طريق السابقين والتابعين ، والتاسهم علم معرفة الله ، بمن لم يعرف الله بأقراره على نفسه وبشهادة الامة على ذلك وبدلالات كثيرة .

وليس غرضي واحداً معيناً ، وإنما أصف نوع هؤلاء ونوع هؤلاء ، وإذا كان كذلك فهذا كتاب الله من أوله إلى آخره ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم من أولها إلى آخرها ، ثم عامة كلام الصحابة والتابعين ، ثم كلام سائر الائمة بملوء بما هو إما نص وإما ظاهر ، في أن الله سبحانه وتعالى فوق كل شيء وعلى كل شيء ، وأنه فوق العرش ، وأنه فوق السماء مثل قوله : (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) . (إني متوفيك ورافعك إلی) . (أأنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض) . (أم أمتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً) . (بل رفعه الله) . (إليه تعرج الملائكة والروح إليه) . (يتخافون ربهم من فوقهم) ثم استوى على العرش في ستة مواضع : (الرحمن على العرش استوى) . (ياها مان ابن لی صرحاً لعلی أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله

موسى وانى لأظنه كاذباً). (تنزيل من حكيم حميد). (منزل من ربك) إلى أمثال ذلك بما لا يكاد يحصى إلا بكلفة .

وفى الأحاديث الصحاح والحسان ما لا يحصى ، مثل قصة معراج الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ربه ، ونزول الملائكة من عند الله وصعودها إليه وقوله فى الملائكة : الذين يتعاقبون بالليل والنهار فيعرج الذين باتوا فيكم إلى ربهم فيسألهم وهو أعلم بهم ، وفى الصحيح فى حديث الخوارج : « ألا تأمنونى وأنا أمين من فى السماء يأتينى خبر السماء صباحاً ومساءً ، وفى حديث الرقية الذى رواه أبو داود وغيره : « ربنا الله الذى فى السماء تقدس اسمك أمرك فى السماء والأرض كما رحمتك فى السماء اجعل رحمتك فى الأرض اغفر لنا حوبنا وخطايانا أنت رب الطيبين أنزل رحمة من رحمتك وشفاء من شفائك على هذا الوجع ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا اشتكى أحد منكم أو اشتكى أخ من إخوانه فليقل ربنا الله الذى فى السماء ، وذكره وقوله فى حديث الأوعال : « والعرش فوق ذلك والله فوق عرشه وهو يعلم ما أنتم عليه ، وقوله فى حديث قبض الروح : « حتى يعرج به إلى السماء التى فيها الله ، .

وقول عبد الله بن رواحة الذى أنشده النبى صلى الله عليه وسلم وأقره عليه :

شهدت بأن وعد الله حق	وأن النار مشوى الكافرينا
وأن العرش فوق الماء طاف	وفوق العرش رب العالمينا

وقول أمية بن أبي الصلت الثقفى الذى أنشده النبى صلى الله عليه وسلم هو وغيره من شعره فاستحسنه وقال : آمن شعره وكفر قلبه :

مجدوا الله فهو للمجد أهل ربنا فى السماء أمسى كبيراً
بالبناء الأعلى الذى سبق لنا من وسوى فوق السماء سريراً
شرجنا ما يناله بصر العين ترى دونه الملائك صورا (١)

إلى أمثال ذلك مما لا يحصىه إلا الله ، مما هو من أبلغ التواترات اللفظية والمعنوية التى تورث علماً يقينياً من أبلغ العلوم الضرورية ، ان الرسول المبلغ عن الله أتى إلى أمته المدعويين أن الله سبحانه على العرش استوى ، وأنه فوق السماء كما فطر الله على ذلك جميع الأمم ، عربهم وعجمهم فى الجاهلية والإسلام ، إلا من اجتالته الشياطين عن فطرته .

ثم عن السلف فى ذلك من الأقوال ما لو جمع لبلغ مثين أو ألوفاً ، ثم ليس فى كتاب الله ولا فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا عن أحد من سلف الأمة لا من الصحابة والتابعين ، ولا عن الأئمة الذين أدركوا زمن الأهواء والاختلاف ، حرف واحد يخالف ذلك لانصاً ولا ظاهراً ، ولم يقل أحد منهم قط أن الله ليس فى السماء ، ولا أنه ليس على العرش ، ولا أنه فى كل مكان ، ولا أن جميع الأمكنة بالنسبة إليه سواء . ولأنه لا داخل العالم ولا خارجه ، ولا متصل ولا منفصل ، ولا أنه لا تجوز الإشارة الحسية إليه بالأصابع ونحوها ، بل قد ثبت فى الصحيح عن جابر أن النبى صلى الله عليه وسلم لما خطب خطبته العظيمة يوم عرفات فى أعظم مجمع حضره

(١) الشرجع : الطويل . . والصور : جمع أصور المائل العنى .

رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل يقول : « ألا هل بلغت فيقولون نعم فيرفع أصبعه إلى السماء وينكبها اليهم ويقول اللهم اشهد » غير مرة وأمثال ذلك كثيرة ، فلأن كان الحق ما يقوله هؤلاء السالبون النافون من هذه العبارات ونحوها ، دون ما يفهم من الكتاب والسنة ، إما نصاً وإما ظاهراً كيف يجوز على الله ثم على رسوله ثم على خير الأمة ، أنهم يتكلمون دائماً بما هو نص أو ظاهر في خلاف الحق ، ثم الحق الذي يجب اعتقاده لا يوحون به قط ، ولا يدلون عليه لا نصاً ولا ظاهراً ، حتى يحى أنباط الفرس والروم وفروخ اليهود والفلاسفة ، يبيرون للأمة العقيدة الصحيحة التي تجب على كل مكلف أو كل فاضل أن يعتقدوها . إذن كان ما يقوله هؤلاء المتكلمون المتكلفون هو الاعتقاد الواجب ، وهم مع ذلك أحيلوا في معرفته على مجرد عقولهم ، وأن يدفعوا بمقتضى قياس عقولهم ما دل عليه الكتاب والسنة ظاهراً ، لقد كان ترك الناس بلا كتاب ولا سنة أهدى لهم وأنفع على هذا التقدير ، بل كان وجود الكتاب والسنة ضرراً محضاً في أصل الدين ، فإن حقيقة الأمر على ما يقوله هؤلاء : انكم يا معشر العباد لا تطلبوا معرفة الله ولا ما يستحقه من الصفات نقياً وإثباتاً ، لا من الكتاب ولا من السنة ولا من طريق سلف الأمة ، ولكن انظروا أنتم فما وجدتموه مستحقاً له من الصفات فصفوه به ، سواء كان موجوداً في الكتاب والسنة أو لم يكن ، وما لم تجدوه مستحقاً له في عقولكم فلا تصفوه به . ثم هم هنا فريقان : أكثرهم يقولون ما لم تثبت في عقولكم فانفوه ومنهم من يقول : بل ترفقوا فيه وما نفاه قياس عقولكم الذي أنتم فيه مختلفون ومضطربون اختلافاً أكثر من جميع اختلاف على وجه الأرض فانفوه ، واليه عند التنازع فارجعوا فإنه الحق الذي تعبدتم به ،

وما كان مذكوراً في الكتاب والسنة مما يخالف قياسكم هذا ، أو ثبت ما لم تدركه عقولكم على طريقة أكثرهم ، فاعلموا أنني امتحنكم بتزيله لاتأخذوا الهدى منه ، لكن لتجتهدوا في تخريجه على شواذ اللغة ووحشي الالفاظ وغرائب الكلام ، أو أن تسكتوا عنه مفوضين عليه إلى .

هذا حقيقة الامر على رأي المتكلمين ، وهذا الكلام قد رأيته صرح بمعناه طائفة منهم وهو لازم لجماعتهم لزوما لا محيد عنه ، ومضمونه أن كتاب الله لا يمتدى به في معرفة الله ، وأن الرسول معزول عن التعليم والأخبار بصفات من أرسله ، وأن الناس عند التنازع لا يردون ما تنازعوا فيه إلى الله والرسول بل إلى مثل ما كانوا عليه في الجاهلية ، وإلى مثل ما يتحاكم اليه من لا يؤمن بالأنبياء كالبراهمة والفلاسفة وهم المشركون والمجوس وبعض الصابئين ، وإن كان هذا الرد لا يزيد الأمر إلا شدة ولا يرتفع به الخلاف ، إذ لكل فريق طواغيت يريدون أن يتحاكموا اليهم وقد أمروا أن يكفروا بهم ، وما أشبه حال هؤلاء المتكلمين بقوله سبحانه : (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً . وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً . فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقاً) فان هؤلاء إذا دعوا الى ما أنزل الله من الكتاب وإلى الرسول والدعاء اليه بعد وفاته الدعاء الى سفته ، أعرضوا عن ذلك وهم يقولون : إنا قصدنا الاحسان علما وعملا بهذه الطريق التي ملكناها والتوفيق بين الدلائل العقلية والنقلية .

ثم عامة هذه التسليمات التي يسمونها دلائل ، إنما تقلدوا أكثرها عن طاغوت من طواغيت المشركين والصابئين ، أو بعض ورثتهم الذين أمروا أن يكفروا بهم مثل فلان وفلان : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلبوا تسليما) . (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم اليينات بغيا بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه) .

ولازم هذه المقالة أن لا يكون الكتاب هدى للناس ، ولا بياناً ولا شفاء لما في الصدور ولا نوراً ولا مردأ عند التنازع ، لأننا نعلم بالاضطرار أن ما يقوله هؤلاء المتكلفون أنه الحق الذي يجب اعتقاده ، لم يدل عليه الكتاب والسنة لا نصاً ولا ظاهراً ، وإنما غاية المتخذلق أن يستنتج هذا من قوله : (ولم يكن له كفواً أحد) ، (هل تعلم له سمياً) وبالاضطرار يعلم كل عاقل أن من دل الخلق على أن الله ليس على العرش ولا فوق السموات ونحو ذلك بقوله : (هل تعلم له سمياً) لقد أبعد النجعة وهو إما ملنز أو مدلس لم يخاطبهم بلسان عربي مبين .

ولازم هذه المقالة أن يكون ترك الناس بلا رسالة خيراً لهم في أصل دينهم ، لأن مردمهم قبل الرسالة وبعدها واحد ، وإنما الرسالة زادتهم عبي وضللاً ، يا سبحان الله كيف لم يقل الرسول يوماً من الدهر ولا أحد من سلف الأمة هذه الآيات والأحاديث ، لا تعتقدوا ما دلت عليه ولكن

اعتقدوا الذى تقتضيه مقاييسكم ، أو اعتقدوا كذا وكذا فانه الحق ، وما خالفه
ظاهره فلا تمتدوا ظاهره ، أو انظروا فيها فيما وافق قياس عقولكم
فاعتقدوه وما لا يوافقه فتوقفوا فيه أو انفروه .

ثم الرسول صلى الله عليه وسلم قد أخبر بأن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين
فرقة ، فقد علم ماسيكون ثم قال : « إني تارك فيكم ما إن تمسكم به لن تضلوا
كتاب الله » .

وروى عنه أنه قال فى صفة الفرقة الناجية : « هو من كان على مثل ما أنا
عليه اليوم وأصحابي » ، فهلا قال من تمسك بظاهر القرآن فى باب الاعتقاد
فهو ضال ، وإنما الهدى رجوعكم إلى مقاييس عقولكم وما يحدثه المتكلمون
منكم بعد القرون الثلاثة ، وإن كان قد نبغ أصلها فى أواخر عصر التابعين .

أصل هذه المقالة إنما هو مأخوذ عن تلامذة اليهود والمشرىين وضلال
الصائبين ، فإن أول من حفظ عنه أنه قال هذه المقالة ، أعنى أن الله ليس على
العرش حقيقة ، وإنما استوى ؛ استولى ونحو ذلك ، أول ما ظهرت هذه المقالة
من جعد بن درهم ، وأخذها عنه الجهم بن صفوان وأظهرها ، فنسب مقالة
الجهمية إليه والجعد أخذ مقالته عن ابان بن سيمان ، وأخذها أبان من طالوت
ابن أخت لبيد بن أعصم ، وأخذها طالوت من لبيد بن أعصم اليهودى الساحر
الذى سحر النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان الجعد هذا فيما قيل من أهل حران ،
وكان فيهم خلق كثير من الصابئة والفلاسفة بقايا أهل دين الفروذ الكنعانيين
الذين صنف بعض المتأخرين فى سحرهم ، وكانوا يعبدون الكواكب ويبنون
لها الهياكل ، ومذهبهم فى الرب أنه ليس له إلا صفات سلبية أو اضافية أو

مركبه منهما ، وهم الذين بعث ابراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم اليهم فيكون
الجمد قد أخذها عن الصابئة الفلاسفة ، وأخذها الجهم أيضاً فيما ذكره
الامام أحمد وغيره من السمنية بعض فلاسفة الهند ، وهم الذين يمجّدون
من العلوم ما سوى الحسيات ، فهذه أسانيد الجهم ترجع الى اليهود والصابئين
والمشركين والفلاسفة الضالون ، هم إما من الصابئين وإما من المشركين .

ثم لما عربت الكتب الرومية في حدود المائة الثانية ، زاد البلاء مع
ما ألقى الشيطان في قلوب الضلال ابتداء من جنس ما ألقاه في قلوب أشباههم ،
ولما كان في حدود المائة الثانية انتشرت هذه المقالة التي كان السلف يسمونها
مقالة الجهمية بسبب بشر بن غياث المريسي وطبقته ، وكلام الأئمة مثل :
مالك رضي الله عنه ، وسفيان بن عيينة ، وأبي يوسف ، والشافعي ، وأحمد ،
واسحاق ، والفضيل بن عياض ، وبشر الحافي وغيرهم ، في بشر المريسي هذا
كثير في ذمه وتضليله ، وهذه التأويلات الموجودة اليوم بأيدي الناس مثل
أكثر التأويلات التي ذكرها أبو بكر بن فورك في كتاب التأويلات ،
وذكرها أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي في كتابه الذي سماه تأسيس التقديس ،
ويوجد كثير منها في كلام خلق غير هؤلاء ، مثل أبي علي الجبائي ، وعبد الجبار
ابن أحمد الهمداني ، وأبي الحسين البصري ، وابن عقيل ، وأبي حامد الغزالي
وغيرهم ، وهي بعينها التأويلات التي ذكرها بشر المريسي في كتابه ، وإن
كان قد يوجد في كلام بعض هؤلاء التأويل وإبطاله أيضاً ، ولهم كلام حسن
في أشياء ، فإنما بينت أن عين تأويلاتهم في عين تأويلات المريسي ، وعلمنا
ذلك بكتاب الرد الذي صنفه عثمان بن سعيد الدارمي أحد الأئمة المشاهير في

زمن البخارى ، صنف كتابا سماه نقض عثمان بن سعيد على الكاذب العنيد فيما افترى على الله فى التوحيد .

حكى فيه هذه التأويلات بأعيانها عن بشر المريسي بكلام يقتضى أن المريسي أقعد بها ، وأعلم بالمعقل والمنقول من هؤلاء المتأخرين الذين اتصلت اليهم من جهته ، ثم ردها عثمان بن سعيد بكلام إذا طالعه العاقل الذكى علم حقيقة ما كان عليه السلف ، فيبين له ظهور الحجة لطريقهم وضعف حجة من خالفهم .

ثم إذا رأى الأئمة ، أئمة الهدى قد أجمعوا على ذم المريسة وأكثرهم كفروهم أو ضللوهم ، وعلم أن هذا القول السارى فى هؤلاء المتأخرين هو مذهب المريسي ، تبين الهدى لمن يريد الله هدايته ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، والفتوى لا تحتل البسط فى هذا الباب وإنما أشير إشارة إلى مبادئ الأمور والعاقل يسبر فينظر ، وكلام السلف فى هذا الباب موجود فى كتب كثيرة لا يمكن أن نذكر ههنا إلا قليلا منه ، مثل كتاب السنن للإسكافى ، والإبانة لابن بطة ، والسنة لأبى ذر الهروى ، والأسماء والصفات لليسقى ، وقبل ذلك السنة للطبرانى ، ولأبى الشيخ الأصهبانى ، وقبل ذلك السنة للخلال ، والتوحيد لابن خزيمة ، وكلام أبى العباس بن سريج ، والرد على الجهمية لجماعة ، وقبل ذلك السنة لعبد الله بن أحمد ، وكلام عبد العزيز المكي صاحب الحميدة فى الرد على الجهمية ، وكلام الامام أحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهويه وأشياء كثيرة .

وعندنا من الدلائل السمعية والعقلية ما لا يتسع هذا الموضع لذكره .

وأنا أعلم أن المتكلمين لهم شبهات موجودة لكن لا يمكن ذكرها في الفتوى
فنظر فيها وأراد ابانة ما ذكره من الشبه فانه يسير ، واذا كان أصل
هذه المقالة مقالة التعطيل والتأويل مأخوذاً عن تلامذة المشركين والصابئين
واليهود ، فكيف تطيب نفس مؤمن بل نفس عاقل أن يأخذ سبيل هؤلاء
المغضوب عليهم والضالين ، ويدع سبيل الذين أنعم الله عليهم من النبيين
والصديقين والشهداء والصالحين .

ثم القول الشامل في جميع هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه ،
أو وصفه به رسوله ، بما وصفه به السابقون الأولون ، لا يتجاوز القرآن
والحديث .

قال الإمام أحمد رضى الله عنه : لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه
أو وصفه به رسوله لا يتجاوز القرآن والحديث ، ونعلم أن ما وصف الله
به من ذلك فهو حق ليس فيه لغز ولا أحاجى ، بل معناه يعرف من حيث
يعرف مقصود المتكلم بكلامه . وهو سبحانه مع ذلك ليس كمثله شيء في
نفسه المقدسة المذكورة بأسمائه وصفاته ولا في أفعاله ، فكما نتيقن أن الله
سبحانه له ذات حقيقة وله أفعال حقيقة ، فكذلك له صفات حقيقة ، وهو
ليس كمثله شيء لافي ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ، وكل ما أوجب
نقصاً أو حدوداً فإن الله منزّه عنه حقيقة ، وأنه سبحانه مستحق للكمال
الذى لا غاية فوقه ، ويمتنع عليه الحدوث لامتناع العدم عليه ، واستلزام
الحدوث سابقة العدم ، ولافتقار المحدث إلى محدث ولوجوب وجوده بنفسه
سبحانه وتعالى .

ومذهب السلف : بين التعطيل وبين التمثيل ، فلا يمثلون صفات الله بصفات خلقه ، كما لا يمثلون ذاته بذات إخلقه ، ولا ينفون عنه ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ، فيعطلون أسماءه الحسنى وصفاته العليا ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، ويلحدون في أسماء الله وآياته ، وكل واحد من فريق التعطيل والتمثيل فهو جامع بين التعطيل والتمثيل .

أما المعطلون ، فإنهم لم يفهموا من أسماء الله وصفاته إلا ما هو اللائق بالخلق ، ثم شرعوا في نفي تلك المفهومات فقد جمعوا بين التمثيل والتعطيل ، مثلوا أولاً وعطلوا آخرأ ، وهذا تشبيه وتمثيل منهم للمفهوم من أسمائه وصفاته ، بالمفهوم من أسماء خلقه وصفاتهم ، وتعطيل لما يستحقه هو سبحانه من الاسماء والصفات اللائقة بالله سبحانه وتعالى . فإنه إذا قال القائل : لو كان الله فوق العرش للزم إما أن يكون أكبر من العرش أو أصغر أو مسايا ، وكل ذلك محال ، ونحو ذلك من الكلام ، فانه لم يفهم من كون الله على العرش إلا ما ثبت لأى جسم كان على أى جسم كان ، وهذا اللازم تابع لهذا المفهوم ، أما استواء يليق بجلال الله ويختص به فلا يلزمه شيء من اللوازم الثلاثة ، كما يلزم سائر الأجسام ، وصار هذا مثل قول الممثل : إذا كان للعالم حانع فإما أن يكون جوهرأ أو عرضأ ، إذ لا يعقل موجود إلا هذان ، أو قوله : إذا كان مستويا على العرش فهو مماثل لاستواء الانسان على السرير أو الفلك ، إذ لا يعلم الاستواء إلا هكذا ، فإن كلاهما مثل ، وكلاهما عطل حقيقة ما وصف الله به نفسه ، وامتاز الأول بتعطيل كل مسمى للاستواء الحقيقي ، وامتاز الثانى بإثبات استواء هو من خصائص المخلوقين .

والقول الفاصل : هو ما عليه الامة الوسط ، من أن الله مستو على عرشه

استواء يلحق بهلاله ويختص به ، فكما أنه موصوف بأنه بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير ، وأنه سميع بصير ونحو ذلك ، ولا يجوز أن نثبت للعلم والقدرة خصائص الأعراض التي لعلم المخلوقين وقدرهم .

فكذلك هو سبحانه فوق العرش ، ولا نثبت لفوقيته خصائص فوقية المخلوق على المخلوق ولوازمها .

واعلم أن ليس في العقل الصريح ولا في النقل الصحيح ، ما يوجب مخالفة الطريقة السلفية أصلاً ، لكن هذا الموضع لا يتسع للجواب عن الشبهات الواردة عن الحق ، فمن كان في قلبه شبهة وأحب حلها فذلك سهل يسير .

ثم المخالفون للكتاب والسنة وسلف الأمة من المتأولين لهذا الباب في أمر مريب ، فإن من ينكر الرؤية يزعم أن العقل يحيلها ، وأنه مضطر فيها إلى التأويل ، ومن يحيل أن الله علماً وقدرة وأن يكون كلامه غير مخلوق ونحو ذلك ، يقول : أن العقل أحال ذلك فاضطر إلى التأويل ، بل من ينكر حقيقة حشر الأحياء والأكل والشرب الحقيقي في الجنة ، يزعم أن العقل أحال ذلك وأنه مضطر إلى التأويل ، ومن يزعم أن الله ليس فوق العرش ، يزعم أن العقل أحال ذلك وأنه مضطر إلى التأويل .

ويكفيك دليلاً على فساد قول هؤلاء ، أنه ليس لواحد منهم قاعدة مستمرة فيما يحيله العقل ، بل منهم من يزعم أن العقل جوز أو أوجب ما يدعى الآخر أن العقل أحاله .

بأيت شعري ، بأي عقل يوزن الكتاب والسنة ، فرضى الله عن مالك

ابن أنس الامام حيث قال : أوكلنا جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ما جاء به جبريل الى محمد صلى الله عليه وسلم لجدل هذا ، وكل من هؤلاء مخصوم بمثل ما خصم به الآخر وهو من وجوه .

أحدها : بيان أن العقل لا يحيل ذلك . والثاني : أن النصوص الواردة لا تحتمل التأويل . الثالث : أن عامة هذه الامور قد علم أن الرسول جاء بها بالاضطرار ، كما أنه جاء بالصلوات الخمس وصوم شهر رمضان ، فالتأويل الذي يحيلها عن هذا بمنزلة تأويلات القرامطة والباطنية ، في الحج والصوم والصلاة وسائر ما جاءت به النبوات ، على أن الاساطين من هؤلاء الفحول معترفون بأن العقل لا سبيل له الى اليقين في عامة المطالب الإلهية ، وإذا كان هكذا ، فالواجب تلقى علم ذلك من النبوات على ما هو عليه ، ونحن نذكر من ألفاظ السلف باعيانها ، وألفاظ من نقل مذهبهم بحسب ما يحتمله هذا الموضع ما يعلم به مذهبهم .

روى أبو بكر البيهقي في الاسماء والصفات بإسناد صحيح عن الاوزاعي قال : كنا والتابعون متوافرون نقول أن الله تعالى ذكره فوق عرشه ، ونؤمن بما وردت السنة به من صفاته . فقد حكى الاوزاعي وهو أحد الائمة الاربعة في عصر تابعي التابعين الذين هم : مالك لإمام أهل الحجاز ، والاوزاعي لإمام أهل الشام ، والليث لإمام أهل مصر ، والثوري لإمام أهل العراق ، حكى شهرة القول في زمن التابعين بالايان بأن الله فوق العرش وبصفاته السمعية ، وإنما قال الاوزاعي هذا بعد ظهور مذهب جهن المنكر لكون الله فوق عرشه والثاني لصفاته ، ليعرف الناس أن مذهب السلف كان بخلاف هذا .

وروى أبو بكر الخلال في كتاب السنة عن الأوزاعي . قال : سئل
مكحول والزهرى عن تفسير الأحاديث فقالا أمروها كما جاءت .

وروى أيضا عن الوليد بن مسلم قال : سألت مالك بن أنس ، وسفيان
الثوري ، والليث بن سعد ، والأوزاعي عن الأخبار التي جاءت في الصفات
فقالوا : أمروها كما جاءت ، وفي رواية فقالوا : أمروها كما جاءت بلا كيف .
فقولهم رضي الله عنهم أمروها كما جاءت رد على المعطلة ، وقولهم بلا كيف
رد على الممثلة ، والزهرى ومكحول هما أعلم التابعين في زمانهم ، والأربعة
الباقيون أئمة الدنيا في عصر تابعي التابعين . ومن طبقهم حماد بن زيد ، وحماد
ابن سلة وأمثالها .

روى أبو القاسم الأزجى بإسناده عن ابن مطرف بن عبد الله قال : سمعت
مالك بن أنس إذا ذكر عنده من يدفع أحاديث الصفات يقول : قال عمر
ابن عبد العزيز سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأولاة الأمر بعده سننا ،
الآخذ بها تصديق بكتاب الله ، واستكمال لطاعة الله ، وقوة على دين الله ،
ليس لأحد من خلق الله تغييرها ، ولا النظر في شيء خالفها ، من اهتدى بها
فهو مهتد ، ومن استنصر بها فهو منصور ، ومن خالفها واتبع سبيل غير
المؤمنين ، ولله ما تولى وأصله جهنم وساءت مصيراً .

وروى الخلال بإسناد كلهم أئمة عن سفيان بن عيينة قال : سئل ربيعة
ابن عبد الرحمن عن قوله : (الرحمن على العرش استوى) كيف استوى ؟
قال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، ومن الله الرسالة ، وعلى

الرسول البلاغ ، وعلينا التصديق ، وهذا الكلام مروى عن مالك بن أنس
تليذ ربيعة من غير وجه .

منها ما رواه أبو الشيخ الأصهباني وأبو بكر البيهقي عن يحيى بن يحيى قال :
كما عند مالك بن أنس فجاء رجل فقال : يا أبا عبد الله ؛ الرحمن على العرش
استوى كيف استوى ؟ فأطرق مالك برأسه حتى علاه الرضاء ثم قال :
الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ،
والسؤال عنه بدعة ، وما أراك إلا مبتدعا ، فأمر به أن يخرج .

وروى أبو عبد الله بن بطة في الإبانة بإسناد صحيح عن عبد العزيز بن عبد
الله بن أبي سلمة الماجشون ، وهو أحد أئمة المدينة الثلاثة وهم : مالك وابن
الماجشون وابن أبي ذئب ، وقد سئل فيها جحدته الجهمية . أما بعد : فقد فهمت
ما سألت فيما تابعت الجهمية ومن خالفها في صفة الرب العظيم ، الذي فاقت
عظمته الوصف والتقدير ، وكلت اللسان عن تفسير صفته ، وانحسرت
العقول دون معرفة قدره ، ردت عظمته العقول ، فلم تجد مساعداً فرجعت
خاسئة وهي حسيرة ، وإنما أمروا بالنظر والنفكر فيما خلق بالتقدير ، وإنما
يقال كيف لمن لم يكن مرة ثم كان ، فأما الذي لا يحول ولا يزول ولم يزل
وليس له مثل ، فإنه لا يعلم كيف هو إلا هو ، وكيف يعرف قدر من لم يبدأ
ومن لا يموت ولا يبلى ، وكيف يكون لصفة شيء منه حداً ، ومنتهى يعرفه
عارف أو يحده قدره واصف ، على أنه الحق المبين لا حق أحق منه ولا شيء
أبين منه ، الدليل على عجز العقول عن تحقيق صفته ، عجزها عن تحقيق
صفة أصغر خلقه ، لا تكاد تراه صغراً يحول وبراً ، ولا يرى له سميع ولا

بصر ، لما يتقلب به ويحتال من عقله أعضل وأخنى عليك بما ظهر من سمعه وبصره ، فبارك الله أحسن الخالقين وخالقهم ، وسيد السادة وربهم ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، اعرف رحمة الله ، غناءك عن تكلف صفة ما لم يصف الرب من نفسه بعجزك عن معرفة قدر ما وصف منها إذا لم تعرف قدر ما وصف ، فما تكلفك علم ما لم يصف هل تستدل بذلك على شيء من طاعته ، أو تنزجر به عن شيء من معصيته .

وأما الذي جحد ما وصف الرب من نفسه تعمقاً وتكلفاً ، قد استهوته الشياطين في الأرض حيران ، فصا يستدل بزعمه على جحد ما وصف الرب وسمى من نفسه بأن قال: لا بد أن كان له كذا من أن يكون له كذا ، فعمى عن البين بالخفى بجحد ما سمي الرب من نفسه ، لصمت الرب عما لم يسم منها ، فلم يزل يملئ له الشيطان حتى جحد قول الله عز وجل : (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) فقال لا يراه أحد يوم القيامة بمحمد والله أفضل كرامة الله التي أكرم بها أوليائه يوم القيامة ، من النظر إلى وجهه ونضرتة إياهم في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، قد قضى أنهم لا يموتون فهم بالنظر ينضرون إلى أن قال :

ولما جحد رؤيته يوم القيامة إقامة للحجة الضالة المضلة ، لأنه قد عرف إذا تجلى لهم يوم القيامة رأوا منه ما كانوا به قبل ذلك مؤمنين وكان له جاحداً ، وقال المسلمون يا رسول الله : هل نرى ربنا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هل تضارون في رؤية الشمس ليس دونها سحاب ، قالوا : لا . قال : هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب قالوا : لا .

قال : فإنكم ترون ربكم يومئذ كذلك ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تمتلئ النار حتى يضع الجبار فيها قدمه فتقول قط قط وينزوى بعضها إلى بعض ، وقال ثابت بن قيس : « لقد ضحك الله مما فعلت بضيفك البارحة » .

وقال : « فيما بلغنا أن الله ليضحك من أزلكم^(١) وقنوطكم وسرعة إجابتكم ، فقال له رجل من العرب : إن ربنا ليضحك . قال : « نعم ، قال : لا نعدم من رب يضحك خيراً ، في أشباه هذا بما لم نخصه . وقال الله تعالى : (وهو السميع البصير) . (واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا) وقال : (ولنضع على عيني) وقال : (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي) وقال : (والارض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون) فوالله ما دلهم على عظم ما وصف من نفسه وما تحيط به قبضته ، إلا صغر نظرها منهم عندهم ، إن ذلك الذي ألقى في روعهم وخلق على معرفة قلوبهم ، فما وصف الله من نفسه فسماه على لسان رسوله ، سميانه كما سماه ولم تتكلف منه صفة ما سواه لا هذا ولا هذا ، لا نجحد ما وصف ، ولا نتكلف معرفة ما لم يصف .

اعلم رحلك الله : أن العصمة في الدين أن تنتهي حيث انتهى به ، ولا تتجاوز ما قد حد لك ، فإن من قوام الدين معرفة المعروف ، وإنكار المنكر ، فابسطت عليه المعرفة وسكنت إليه الأفتدة ، وذكر أصله في الكتاب والسنة ، وتواترت عليه الأمانة ، فلا تخافن في ذكره وصفته من ربك ما وصف

(١) هكذا يروى وفي بعض طرقه من أزلهم والأزل : الشدة والضيق .

من نفسه غيباً ، ولا تكلفن لما وصف لك من ذلك قدراً ، وما أنكرته نفسك ولم تجد ذكره في كتاب ربك ، ولا في الحديث عن نبيك من ذكر صفة ربك ، فلا تكلفن عليه بعقلك ، ولا تصفه بلسانك ، واصمت عنه كما صمت الرب عنه من نفسه ، فإن تكلفك معرفة ما لم يصف من نفسه مثل إنكارك ما وصف منها ، فكما أعظمت ما جحد الجاحدون بما وصف من نفسه ، فكذلك أعظم تكلف ما وصف الواصفون بما لم يصف منها ، فقد والله عز المسلمون الذين يعرفون المعروف ويعرفتهم يعرف ، وينكرون المنكر ويإنكارهم ينكر ، يسمعون ما وصف الله به نفسه من هذا في كتابه وما يبلغهم مثله عن نبيه ، فما مرض من ذكر هذا ، وتسميته من الرب قلب مسلم ، ولا تكلف صفة قدره ولا تسمية غيره من الرب مؤمن ، وما ذكر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سباه من صفة ربه ، فهو بمنزلة ما سمي ووصف الرب تعالى من نفسه ، والراشخون في العلم الواقفون حيث انتهى عليهم ، الواصفون لربهم بما وصف به من نفسه ، التاركون لما ترك من ذكرها ، لا ينكرون صفة ما سمي جحداً ولا يتكلفون وصفه بما لم يسم تعمقاً ، لأن الحق ترك ما ترك ، وتسميته ما سمي : (فن يتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً) وهب الله لنا ولكم حكماً ، وألحقنا بالصالحين ، وهذا كله كلام ابن الماجشون الامام .

وروى أبو القاسم اللالكائي الحافظ الطبري ، في كتابه المشهور في أصول السنة بإسناده ، عن محمد بن الحسن صاحب أبي خنيفة قال : اتفق الفقهاء كلهم من المشرق الى المغرب ، على الايمان بالقرآن والاحاديث التي جاء بها الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في صفة الرب عز وجل ، من غير تفسير

ولا وصف ولا تشبيه ، فن فسر اليوم شيئاً من ذلك فقد خرج عما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وفارق الجماعة ، فانهم لم يصفوا ولم يفسروا ، ولكن أفتوا بما في الكتاب والسنة ثم سكنوا ، فن قال بقول جهم فقد فارق الجماعة ، لأنه قد وصفه بصفة لا شيء ، محمد بن الحسن ، أخذ عن أبي حنيفة ومالك وطبقتهما من العلماء ، وقد حكى هذا الاجماع ، وأخبر أن الجهمية تصفه بالأمور السلبية غالباً أو دائماً .

وروى البيهقي وغيره بأسانيد صحيحة ، عن أبي عبيد القاسم بن سلام قال : هذه الأحاديث التي تقول فيها ضحك ربنا من قنوط عباده وقرب خيره وأن جهنم لا تمتلئ حتى يضع ربك قدمه فيها والكرسى موضع القدمين ، وهذه الأحاديث في الرواية هي عندنا حق حملها الثقات بعضهم عن بعض ، غير أنا إذا سئلنا عن تفسيرها لا نفسرها ، وما أدركنا أحداً يفسرها .

أبو عبيد : أحد الائمة الأربعة الذين هم : الشافعي ، وأحمد ، وإسحاق ، وأبو عبيد ، وله من المعرفة بالفقه واللغة والتأويل ما هو أشهر من أن يوصف ، وقد كان في الزمان الذي ظهرت فيه الفتن والاهواء ، وقد أخبر أنه ما أدرك أحداً من العلماء يفسرها .

وروى اللالكائي والبيهقي عن عبد الله بن المبارك أن رجلاً قال له : يا أبا عبد الرحمن إنني أكره الصفة عنى صفة الرب . فقال له عبد الله ابن المبارك أنا أشد الناس كراهة لذلك ، ولكن إذا نطق الكتاب بشيء قلنا به ، وإذا جاءت الآثار بشيء جسرنا عليه . ونحو هذا ، أراد ابن المبارك

أنا نكره أن نبتدىء بوصف الله من تلقاء أنفسنا حتى يحىء به الكتاب والآثار .

وروى عبد الله بن أحمد وغيره بأسانيد صحاح عن ابن المبارك أنه قيل له : بماذا تعرف ربنا . قال : بأنه فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه ، ولا نقول كما تقول الجهمية أنه مهنا في الأرض ، وهكذا قال الامام أحمد وغيره وبإسناد صحيح عن سليمان بن حرب الامام سمعت حماد بن زيد ، وذكر هؤلاء الجهمية فقال : إنما يحاولون أن يقولوا ليس في السماء شيء .

وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن عامر الضبعي امام أهل البصرة علماً وديناً من شيوخ أحمد ، أنه ذكر عنده الجهمية فقال : هم شر قولاً من اليهود والنصارى ، وقد اجتمع اليهود والنصارى وأهل الأديان مع المسلمين على أن الله على العرش وقالوا هم ليس عليه شيء .

وقال محمد بن اسحاق بن خزيمة امام الأئمة ، من لم يقل أن الله فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه ، وجب أن يستتاب ، فإن تاب وإلا ضربت عنقه ، ثم ألقى على مزبلة لثلا يتأذى بتن ريحهم أهل القبلة وأهل الذمة .

وروى عبد الله بن أحمد عن عباد بن العوام الواسطي امام أهل واسط ، من طبقة شيوخ الشافعي وأحمد . قال : كلمت بشر المريسي وأصحاب بشر ، فرأيت آخر كلامهم ينتهي أن يقولوا ليس في السماء شيء .

وعن عبد الرحمن بن مهدي الامام المشهور أنه قال : ليس في أصحاب الأهواء شر من أصحاب جهنم ، يدورون على أن يقولوا ليس في السماء شيء ، أرى والله أن لا يناكحوا ولا يوارثوا .

وروى عبد الرحمن بن أبي حاتم في كتاب الرد على الجهمية ، عن عبد الرحمن ابن مهدي قال : أصحاب جهم يريدون أن يقولوا ليس في السماء شيء ، وأن الله ليس على العرش ، أرى أن يستتابوا فإن تابوا وإلا قتلوا .

وعن الأصمعي قال : قدمت امرأة جهم فنزلت الدباغين فقال رجل عندها : الله على عرشه . فقالت : محدود . فقال الأصمعي : كافرة بهذه المقالة .

وعن عاصم بن علي بن عاصم ، شيخ أحمد والبخاري وطبقتهما قال : فاطرت جهميا فبين من كلامه ألا يؤمن أن في السماء ربا .

وروى الإمام أحمد قال : أنبأنا شريح بن النعمان قال : سمعت عبد الله ابن نافع الصائغ قال : سمعت مالك بن أنس يقول : الله في السماء وعله في كل مكان لا يخلو من عله مكان .

وقال الشافعي رضي الله عنه : خلافة أبي بكر حق قضاه الله في سمائه وجمع عليه قلوب عباده .

وفي الصحيح عن أنس بن مالك قال : كانت زينب تفخر على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم تقول : زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سموات ، هذا مثل قول الشافعي ، وقصة أبي يوسف صاحب أبي حنيفة مشهورة في استنابة بشر المريسي حتى هرب منه ، لما أن أنكر أن يكون الله فوق العرش ، وقد ذكرها ابن أبي حاتم وغيره .

وكلام الائمة في هذا الباب ، أطول وأكثر من أن تسع هذه الفتوى

عشره ، وكذلك كلام الناقلين لمذهبهم مثل : ما ذكره أبو سليمان الخطابي في رسالته المشهورة في الغنية عن الكلام وأهله قال : فأما ما سألت عنه من الصفات ، وما جاء منها في الكتاب والسنة ، فإن مذهب السلف إثباتها وإجراؤها على ظواهرها ، ونفي الكيفية والتشبيه عنها ، وقد نفاهما قوم فابطلوا ما أثبتته الله ، وخففها قوم من المثبتين ، فخرجوا في ذلك إلى ضرب من التشبيه والتكييف ، وإنما القصد في سلوك الطريقة المستقيمة بين الأمرين ودين الله تعالى بين الغالى فيه والمقصر عنه ، والأصل في هذا أن الكلام في الصفات نوع عن الكلام في الذات ويحتذى في ذلك حذوه ومثاله ، فإذا كان معلوماً أن إثبات الباري سبحانه ، إنما هو إثبات وجوده لا إثبات تحديد وتكييف ، فإذا قلنا : يد ، وسمع ، وبصر ، وما أشبهها ، فإنما هي صفات أثبتها الله لنفسه ، ولسنا نقول أن معنى اليد القوة أو النعمة ، ولا معنى السمع والبصر العلم ، ولا نقول أنها جوارح ، ولا نشبهها بالأيدي وبالأصابع وبالأبصار التي هي جوارح وأدوات للفعل .

ونقول : أن القول إنما وجبت بإثبات الصفات . لأن التوقف ورد بها ، وورد نفي التشبيه عنها ، لأن الله ليس كمثله شيء ، وعلى هذا جرى قول السلف في أحاديث الصفات ، هذا كله كلام الخطابي . وهكذا قاله أبو بكر الخطيب الحافظ في رسالة له ، أخبر فيها أن مذهب السلف على ذلك ، وهذا الكلام الذى ذكره الخطابي ، قد نقل نحوه من العلماء من لا يحصى . مثل : أبى بكر الاسماعيلى ، والإمام يحيى بن عمار السنجرى شيخ شيخ الإسلام أبى إسماعيل الأنصارى الهروى ، وأبى عثمان الصابونى شيخ الإسلام ، وأبى عمر بن عبد البر النمرى إمام المغرب وغيرهم .

وقال أبو نعيم الاصبهاني صاحب الخلية في عقيدة قال في أولها : طريقتنا طريقة المتبعين للكتاب والسنة وإجماع الامة قال : فما اعتقدوه أن الاحاديث التي ثبتت عن النبي صلى الله عليه وسلم في العرش واستواء الله ، يقولون بها ويثبتونها من غير تكييف ولا تمثيل ولا تشبيه ، وأن الله بائن من خلقه ، والخلق بائون منه لا يحل فيهم ولا يمتزج بهم ، وهو مستو على عرشه في سمائه من دون أرضه وخلقه .

وقال الإمام العارف معمر بن أحد الاصبهاني شيخ الصوفية في حدود المائة الرابعة في بلاده قال : أحبت أن أوصي أصحابي بوصية من السنة ، وموعظة من الحكمة ، وأجمع ما كان عليه أهل الحديث والآثر ، وأهل المعرفة والتصوف من المتقدمين والمتأخرين . قال فيها : وإن الله استوى على عرشه بلا كيف ولا تشبيه ولا تأويل ، والاستواء معقول والكيف فيه مجهول ، وأنه عز وجل بائن من خلقه ، والخلق منه بائون بلا حلول ولا تمازجة ولا اختلاط ولا ملاصقة ، لأنه الفرد البائن من الخلق ، الواحد الغني عن الخلق وأن الله عز وجل سميع بصير عليم خبير ، يتكلم ويرضى ، ويسخط ويضحك ، ويعجب ويتجلى لعباده يوم القيامة ضاحكا ، وينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا كيف شاء فيقول : هل من داع فاستجب له ، هل من مستغفر فأغفر له ، هل من تائب فأتوب عليه ، حتى يطلع الفجر ، ونزول الرب إلى السماء بلا كيف ، ولا تشبيه ، ولا تأويل ، فن أنكر النزول أو تأول فهو مبتدع ضال ، وسائر الصفوة من العارفين على هذا ، ومن متأخريهم الإمام أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح الجيلي قال في كتاب الغيبة له : أما معرفة الصانع بالآيات والدلالات على وجه الاختصار ، فهو أن تعرف وتيقن أن

الله واحد ، إلى أن قال : وهو بجهة العلو مستو على العرش ، محتو على الملك محيط عليه بالاشياء ، إليه يصعد الحكيم والعمل الصالح برفعه ، يدبر الامر من السماء إلى الارض ، ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ، ولا يجوز وصفه بأنه في كل مكان . بل يقال : أنه في السماء على العرش كما قال : (الرحمن على العرش استوى) وذكر آيات وأحاديث إلى أن قال : وينبغي إطلاق صفة الاستواء من غير تأويل ، وأنه استواء الذات على العرش قال : وكونه على العرش ، مذكور في كل كتاب أنزل على نبي أرسل بلا كيف ، وذكر كلاما طويلا لا يحتمل هذا الموضع ، وذكر في سائر الصفات نحو هذا ، ولو ذكرت ما قاله العلماء في ذلك لطال جداً .

قال أبو عمر بن عبد البر : روينا عن مالك بن أنس وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة والاوزاعي ومعر بن راشد في أحاديث الصفات : أنهم كلهم قالوا : أمروها كما جاءت قال أبو عمر : ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم من نقل الثقات . أو جاء عن الصحابة رضى الله عنهم ، فهو علم يدان به ، وما أحدث بعدهم ولم يكن له أصل فيما جاء عنهم ، فهو بدعة وضلالة .

وقال في شرح الموطأ لما تكلم على حديث النزول قال : هذا حديث ثابت من جهة الثقل صحيح الاسناد ، ولا يختلف أهل الحديث في صحته ، وهو منقول من طريق سوى هذه من أخبار العدول عن النبي صلى الله عليه وسلم وفيه دليل على أن الله في السماء على العرش ، من فوق سبع سموات كما قالت الجماعة ، وهو حجتهم على المعتزلة في قولهم : أن الله في كل مكان . قال : والدليل على صحة قول أهل الحق قول الله ، وذكر بعض الآيات إلى أن قال :

وهذا أشهر وأعرف عند العامة والخاصة من أن يحتاج إلى أكثر من حكايته لأنه اضطرار لم يوقفهم عليه أحد ، ولا أنكره عليهم مسلم .

وقال أبو عمر بن عبد البر أيضاً : أجمع علماء الصحابة والتابعين الذين حمل عنهم التأويل قالوا في تأويل قوله : (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا وهو رابعهم) هو على العرش ، وعليه في كل مكان ، وما خالفهم في ذلك من يحتج بقوله .

وقال أبو عمر أيضاً : أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة والإيمان بها ، وحملها على الحقيقة لا على المجاز ، إلا أنهم لا يكتفون شيئاً من ذلك ، ولا يحدون فيه صفة محصورة ، وأما أهل البدع الجهمية والمعتزلة كلها والخوارج ، فكلهم ينكروها ولا يحمل شيئاً منها على الحقيقة ، ويزعم أن من أقربها شبه وهم عند من أقربها نافون للعبود ، والحق فيما قاله القائلون ، بما نطق به كتاب الله وسنة رسوله وهم أئمة الجماعة هذا كلام ابن عبد البر إمام أهل المغرب ، وفي عصره الحافظ أبو بكر البيهقي مع توليه للتكلمين من أصحاب أبي الحسن الأشعري وذبه عنهم . قال في كتاب الاسماء والصفات ، باب ما جاء في إثبات اليتين صفتين لا من حيث الجارحة ، لورود خبر الصادق به قال الله : (يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي) وقال : (بل يداه مبسوطتان) وذكر الأحاديث الصحاح في هذا الباب مثل قوله في غير حديث في حديث الشفاعة : يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ، ومثل قوله في الحديث المتفق عليه : وأنت موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك الألواح بيده ، وفي لفظ : وكتب لك

التوراة بيده . ومثل ما في صحيح مسلم : « وغرس كرامة أوليائه في جنة عدن بيده ، ومثل قوله صلى الله عليه وسلم : « تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفأها الجبار بيده كما يتكفأ أحدكم خبزته في السفر نزلاً لأهل الجنة ، وذكر أحاديث مثل قوله : « بيدك الأمر والخير بيدك والذي نفس محمد بيده . وإن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، وقوله : « المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين ، وقوله : « يطوى السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون ثم يطوى الأرضين بشماله ثم يقول أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون ، وقوله : « يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحابة الليل والنهار أرايتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغيض ما في يمينه وعرشه على الماء وبيده الأخرى القبض يخفض ويرفع ، وكل هذه الأحاديث في الصحاح وذكر أيضاً قوله : « إن الله لما خلق آدم قال له ويداه مقبوضتان اختر أيهما شئت قال اخترت يمين ربى وكلتا يدي ربى يمين مباركة ، وحديث : « أن الله لما خلق آدم مسح ظهره ، إلى أحاديث آخر ذكرها من هذا النوع .

ثم قال البيهقي : أما المتقدمون من هذه الأمة فإنهم لم يفسروا ما كتبنا من الآيات والأخبار في هذا الباب ، وكذلك قال في الاستواء على العرش وسائر الصفات الخبرية ، مع أنه يحكى قول بعض المتأخرين .

وقال القاضي أبو يعلى في كتاب إبطال التلويح : لا يجوز رد هذه الأخبار

ولا التشاغل بتأويلها ، والواجب حملها على ظاهرها وانما صفات الله لا تشبه
جسائر الموصوفين بها من الخلق ولا يعتقد التشبيه فيها ، لكن على ما روى عن
الإمام أحمد وسائر الأئمة ، وذكر بمض كلام الزهري ، ومكحول ، ومالك ،
والثوري ، والأوزاعي ، والليث ، وحماد بن زيد ، وحماد بن سلمة ،
وابن عينة ، والفضيل بن عياض ، ووكيح ، وعبد الرحمن بن مهدي ،
وأسود بن سالم ، وإسحاق بن راهويه ، وأبي عبيد ، ومحمد بن جرير الطبري
وغيرهم في هذا الباب ، وفي حكاية ألفاظهم طول إلى أن قال : ويدل على
إبطال التأويل : أن الصحابة ومن بعدهم من التابعين حملوها على ظاهرها ولم
يتمضوا لتأويلها وصرفها عن ظاهرها ، ولو كان التأويل سائفاً لكانوا
لإليه أسبق لما فيه من إزالة التشبيه ورفع الشبهة .

وقال أبو الحسن علي بن اسماعيل الأشعري المتكلم ، صاحب الطريقة
المنسوبة إليه في الكلام في كتابه الذي صنفه في اختلاق المضلين ومقالات
الإسلاميين ، ذكر فرق الروافض والخوارج والمرجئة والمعتزلة وغيرهم
ثم قال :

مقالة أهل السنة وأصحاب الحديث جملة قول أصحاب الحديث أهل السنة ؛
الإقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وبما جاء عن الله وما رواه الثقات
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يردون من ذلك شيئاً ، وأن الله واحد
أحد فرد صمد لا إله غيره لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، وأن محمداً عبده ورسوله
وأن الجنة حق ، وأن النار حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله
يبعث من في القبور ، وأن الله على عرشه كما قال : (الرحمن على العرش
الستوى) وأن له يدين بلا كيف ، كما قال : (خلقت يدي) وكما قال : (بل

يداه مبسوطتان) وأن له عيتين بلا كيف كما قال : (تجرى بأعيننا) وأن له وجهاً كما قال : (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) وأن أسماء الله لا يقال أنها غير الله ، كما قالت المعتزلة والخوارج ، وأفروا أن الله علماً كما قال : (أنزله بعلمه) وكما قال : (وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) وأثبتوا السمع والبصر ولم ينفوا ذلك عن الله كما نفته المعتزلة ، وأثبتوا الله القوة كما قال : (أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة) وذكر مذهبهم في القدر إلى أن قال ويقولون : القرآن كلام الله غير مخلوق ، والكلام في اللفظ والوقف ، من قال باللفظ وبالوقف فهو مبتدع عندهم ، لا يقال اللفظ بالقرآن مخلوق ، ولا يقال غير مخلوق ، ويقولون أن الله يرى بالابصار يوم القيامة ، كما يرى القمر ليلة البدر ، يراه المؤمنون ولا يراه الكافرون ، لأنهم عن الله محجوبون قال عز وجل : (كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) وذكر قولهم في الإسلام والإيمان والخوض والشفاعة وأشياء إلى أن قال : ويقولون بأن الإيمان قول وعمل ، يزيد وينقص ، ولا يقولون مخلوق ، ولا يشهدون على أحد من أهل الكبائر بالنار إلى أن قال : ويشكرون الجدل والمراء في الدين ، والخصومة والمناظرة فيما يتناظر فيه أهل الجدل ويتنازعون من دينهم ، ويسلمون الروايات الصحيحة ولما جاءت به الآثار التي جاءت بها الثقات عدلاً عن عدل ، حتى ينتهي ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يقولون كيف ولالم ، لأن ذلك بدعة إلى أن قال : ويقولون أن الله يحى يوم القيامة كما قال : (وجاء ربك والملك صفاً صفاً) وأن الله يقرب من خلقه كيف شاء كما قال : (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) إلى أن قال : ويرون مجانبية كل داع إلى بدعة ، والتشاغل

بقراءة القرآن ، وكتابة الآثار ، والنظر في الفقه مع الاستكانة والتواضع وحسن الخلق ، مع بذل المعروف ، وكف الأذى وترك الغيبة والنميمة والسعاية ، وتفقد الماء كل والشارب قال : فهذه جملة ما يأمرون به ويستسلمون إليه ويروونه ، وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول : وإليه نذهب وماتوا فبئنا لإبائه وهو المستعان .

وقال الأشعري أيضاً في اختلاف أهل القبلة في العرش فقال : قال أهل السنة وأصحاب الحديث : ليس بجسم ولا يشبه الأشياء ، وأنه استوى على العرش كما قال : (الرحمن على العرش استوى) ولا تتقدم بين يدي الله في القول بل نقول : استوى بلا كيف ، وأن له وجهاً كما قال : (ويبقى وجه ربك) وأن له يدين كما قال : (خلقت بيدى) وأن له عينين كما قال : (تجري بأعيننا) وأنه يحيى يوم القيامة هو وملائكته كما قال : (وجاء ربك والملك صفاً صفاً) وأنه ينزل إلى السماء الدنيا كما جاء في الحديث ، ولم يقولوا شيئاً إلا ما وجدوه في الكتاب ، وجاءت به الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالت المعتزلة : ان الله استوى على العرش بمعنى استولى ، وذكر مقالات أخرى .

وقال أيضاً أبو الحسن الأشعري في كتابه الذي سماه الإبانة في أصول الديانة ، وقد ذكر أصحابه أنه آخر كتاب صنفه ، وعليه يعتمدون في الذب عنه عند من يطعن عليه فقال :

(فصل) في إبانة قول أهل الحق والسنة ؛ فإن قال قائل : قد أنكرتم قول المعتزلة ، والقدرية ، والجهمية ، والحرورية ، والرافضة ، والمرجئة ،

فعرّفونا قولكم الذى به تقولون وديانتكم الذى بها تدينون ، قيل له : قولنا الذى نقول به وديانتنا الذى ندين بها التماسك بكتاب ربنا وسنة نبينا ، وماروى عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ، ونحن بذلك معتمدون ، وبما كان يقول أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل نضر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مشربته ، قائلون ؛ ولما خالف قوله مخالفون لأنه الإمام الفاضل والرئيس الكامل ، الذى أبان الله به الحق ، ودفع به الضلال ، وأوضح به المنهاج ، وقع به بدع المبتدعين ، وزيف الزائغين ، وشك الشاكين فرحة الله عليه من إمام مقدم وجليل معظم وكبير مفهم .

وجملة قولنا : أنا نقرب الله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، وبما جاءوا به من عند الله ، وبما رواه الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا نرد من ذلك شيئاً ، وأن الله واحد لا إله إلا هو ، فرد ، صمد ، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ، وأن الجنة حق ، والنار حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور ، وأن الله مستوعب على عرشه كما قال : (الرحمن على العرش استوى) وأن له وجهاً كما قال : (ويبقى وجه ربك ذى الجلال والاكرام) وأن له يدين بلا كيف كما قال : (خلقت ييدى) وكما قال : (بل يدها مبسوطتان) وأن له عينين بلا كيف كما قال : (تجري بأعيننا) .

وأن من زعم أن أسماء الله غيره كان ضالاً ، وذكر نحواً مما ذكر فى الفرق إلى أن قال : ونقول أن الإسلام أوسع من الإيمان ، وليس كل إسلام إيماناً .

وندين بأن الله يقلب القلوب بين أصبغين من أصابع الله عز وجل ،
وأنه عز وجل يضع السموات على أصبع ، والأرضين على أصبع ، كما جاءت
الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن قال : وأن الإيمان قول
وعمل يزيد وينقص .

ونسلم للروايات الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم التي رواها
الثقات عدلاء عن عدل ، حتى ينتهي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن قال :
ونصدق بجميع الروايات التي يثبتها أهل النقل من النزول إلى السماء
الدنيا ، وأن الرب عز وجل يقول : هل من سائل ، هل من مستغفر ، وسائر
مانقلوه وأثبتوه ، خلافا لما قال أهل الزيغ والتضليل .

ونعول فيما اختلفنا فيه على كتاب ربنا ، وستة نبينا ، وإجماع المسلمين ،
وما كان في معناه ، ولا نبتدع في دين الله ما لم يأذن لنا به ، ولا نقول على
الله ما لا نعلم .

ونقول أن الله يحى يوم القيامة كما قال : (وجاء ربك والملك صفاً
صفاً) وأن الله يقرب من عباده كيف شاء كما قال : (ونحن أقرب إليه من
حبلوريد) وكما قال : (ثم دنى فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى) إلى
أن قال : وسنحتاج لما ذكرناه من قولنا ، وما بقي مما لم نذكره باباً باباً ، ثم
تكلم على أن الله يرى واستدل على ذلك ، ثم تكلم على أن القرآن غير
مخلوق واستدل على ذلك ، ثم تكلم على من وقف على القرآن وقال : لا أقول
أنه مخلوق ، ولا غير مخلوق ، ورد عليه ، ثم قال باب الاستواء على
العرش فقال :

إن قال قائل : ماتقولون في الاستواء قيل له نقول : إن الله مستو على عرشه كما قال : (الرحمن على العرش استوى) وقد قال الله : (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) وقال : (بل رفعه الله إليه) وقال : (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه) وقال حكاية عن فرعون : (ياها مان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فاطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا) كذب موسى في قوله : أن الله فوق السموات وقال : (أمتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض) فالسموات فوقها العرش فلما كان العرش فوق السموات قال : (أمتم من فى السماء) لأنه مستو على العرش الذى هو فوق السموات ، وكل ما علا فهو سماء ، والعرش أعلى السموات ، وليس إذا قال : (أمتم من فى السماء) يعنى جميع السماء ، وإنما أراد العرش الذى هو أعلى السموات ، ألا ترى أن الله ذكر السموات فقال : (وجعل القمر فىهن نورا) فلم يرد أن القمر يملأهن ، وأنه فىهن جميعاً ، ورأينا المسلمين جميعاً يرفعون أيديهم إذا دعوا نحو السماء ، لأن الله على العرش الذى هو فوق السموات ، فلو لا أن الله على العرش لم يرفعوا أيديهم نحو العرش ، كما لا يحيطونها إذا دعوا إلى الأرض ، ثم قال :

(فصل) وقد قال قائلون من المعتزلة والجهمية والحرورية : أن معنى قوله : (الرحمن على العرش استوى) أنه استولى وملك وقهر ، وأن الله عز وجل فى كل مكان ، ووجدوا أن يكون الله على عرشه كما قال أهل الحق ، وذهبوا فى الاستواء إلى القدرة ، فلو كان هذا كما ذكروه ، كان لافرق بين العرش والأرض السابعة لأن الله قادر على كل شيء ، والأرض فأنه قادر عليها ، وعلى الحشوش وعلى كل ما فى العالم ، فلو كان الله مستويا على العرش بمعنى الاستيلاء ،

وهو عز وجل مستول على الاشياء كلها، لكان مستوياً على العرش، وعلى الأرض وعلى السماء، وعلى الحشوش والاقذار، لانه قادر على الاشياء مستول عليها، وإذا كان قادراً على الاشياء كلها ولم يجز عند أحد من المسلمين أن يقول: ان الله مستول على الحشوش والاخلية، لم يجز أن يكون الاستواء على العرش الاستيلاء الذى هو عام فى الاشياء كلها، ووجب أن يكون معنى الاستواء يختص العرش دون الاشياء كلها، وذكر دلالات من القرآن والحديث والإجماع والعقل ثم قال: باب الكلام فى الوجه والعينين والبصر واليدين وذكر الآيات فى ذلك، ورد على المتأولين بكلام طويل لا يتسع هذا الموضع لحكايته مثل قوله: فان سئلنا أتقولون لله يدان قيل نقول ذلك، وقد دل عليه قوله: (يد الله فوق أيديهم) وقوله: (لما خلقت بيدي).

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ان الله مسح ظهر آدم بيده فاستخرج منه ذرية»، وقد جاء فى الخبر المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم: «ان الله خلق آدم بيده وخلق جنة عدن بيده وكتب التوراة بيده وغرس شجرة طوبى بيده»، وليس يجوز فى لسان العرب ولا فى عادة أهل الخطاب أن يقول القائل: عملت كذا بيدي، ويعنى به النعمة، وإذا كان الله إنما خاطب العرب بلغتها وما يجرى فى مفهومها، فى كلامها ومعقولا فى خطابها، وكان لا يجوز فى خطاب أهل اللسان أن يقول القائل: فعلت بيدي ويعنى به النعمة، بطل أن يكون معنى قوله عز وجل: (بيدي) النعمة وذكر كلاماً طويلاً فى تقرير هذا ونحوه.

قال القاضى أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى المتكلم، وهو أفضل المتكلمين المنتسبين إلى الأشعرى، ليس فيهم مثله لاقبله ولا بعده. قال فى

كتاب الإبانة تصنيفه فان قال : فما الدليل على أن الله وجهاً وبدأ قيل له : (ويبنى وجه ربك ذى الجلال والإكرام) وقوله تعالى : (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي) فأثبت لنفسه وجهاً وبدأ . فان قال : فما أنكرتم أن يكون وجهه ويده جارحة إذ كنتم لاتعقلون وجهاً وبدأ إلا جارحة . قلنا : لا يجب هذا كما لا يجب إذا لم نعقل حياً عالماً قادراً إلا جسماً ، أن نقضى نحن وأنتم بذلك على الله سبحانه ، وكما لا يجب في كل شيء كان قائماً بذاته أن يكون جوهرأ ، لانا وإياكم لانجد قائماً بنفسه في شاهدنا إلا كذلك ، وكذلك الجواب لهم إن قالوا ، فيجب أن يكون علمه وحياته وكلامه وسمعه وبصره . وسائر صفاته عرضاً ، واعتلوا بالوجود .

قال : فان قال قائل : أتقولون أنه في كل مكان . قيل له : معاذ الله بل هو مستو على عرشه كما أخبر في كتابه . فقال : (الرحمن على العرش استوى) وقال تعالى : (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) وقال تعالى : (أأنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فاذا هي تمور) قال : ولو كان في كل مكان ، لكان في بطن الإنسان وفه والحشوش والمواضع التي يرغب عن ذكرها ، ولوجب أن يزيد بزيادة الأمكنة إذا خلق منها ما لم يكن ، وينقص بنقصانها إذا بطل منها ما كان ، ولصح أن نرغب إليه إلى نحو الأرض وإلى خلفنا ، وإلى يميننا وشمالنا ، وهذا قد أجمع المسلمون على خلافه وتخطئة قائله .

وقال أيضاً في هذا الكتاب : صفات ذاته التي لم يزل ولا يزال موصوفاً بها وهي الحياة ، والعلم ، والقدرة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، والاراد ، والبقاء ، والوجه ، والعينان ، واليدان ، والغضب ، والرضا .

وقال في كتاب التمهيد كلاماً أكثر من هذا ، وكلامه وكلام غيره من المتكلمين في هذا الباب ، مثل هذا كثير لمن تطلبه ، وإن كنا مستغنين بالكتاب والسنة وآثار السلف عن كل كلام .

وملاك الامر أن يهب الله للعبد حكمة وإيماناً بحيث يكون له عقل ودين حتى يفهم ويدين ، ثم نور الكتاب والسنة يغنيه عن كل شيء ، ولكن كثير من الناس قد صار منتصباً إلى بعض طوائف المتكلمين ، ومحسناً للظن بهم دون غيرهم ، أو متوهماً أنهم حققوا في هذا الباب ما لم يحققه غيرهم ، فلو آتت بكل آية ما تبعها حتى يؤتى بشيء من كلامهم ، ثم هم مع هذا مخالفون لأسلافهم غير متبعين لهم ، فلو أنهم أخذوا بالهدى الذي يجدونه في كلام أسلافهم ، لرجى لهم مع الصدق في طلب الحق أن يزدادوا هدى ، ومن كان لا يقبل الحق إلا من طائفة معينة ثم لا يستمسك بما جاء به من الحق ، ففيه شبه من اليهود الذين قال الله فيهم : (وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين) فإن اليهود قالوا : لا نؤمن إلا بما أنزل علينا قال الله لهم : (قل فلم قتلتم الأنبياء من قبل إن كنتم مؤمنين) بما أنزل عليهم يقول سبحانه لا لما جاءكم به أنبياءكم تتبعون ولا لما جاءكم به سائر الأنبياء تتبعون ولكن إنما تتبعون أهواءكم .

فهذا حال من لم يتبع الحق لا من طائفته ولا من غيرها ، مع كونه يتعصب لطائفته دون طائفة بلا برهان من الله ولا بيان .

وكذلك قال أبو المعالي الجويني في كتاب الرسالة النظامية : اختلف

مسالك العلماء في هذه الظواهر ، فرأى بعضهم تأويلها والتزم ذلك في آى الكتاب وما يصح من السنن ، وذهب أئمة السلف الى الانكشاف عن التأويل ، وإجراء الظواهر على مواردنا وتفويض معانيها إلى الرب . قال : والذى نرتضيه رأياً وندين الله به عقداً ، اتباع سلف الأمة والدليل السمعى القاطع فى ذلك ، أن إجماع الأمة حجة متبعة وهو مستند معظم الشريعة ، وقد درج صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ترك التعرض لمعانيها ودرك مافها ، وهم صفوة الإسلام والمستقلون بأعباء الشريعة ، وكانوا لا يألون جهداً فى ضبط قواعد الملة والتواصى بحفظها ، وتعليم الناس ما يحتاجون إليه منها ، فلو كان تأويل هذه الظواهر مسوغاً أو محتوماً ، لا وشك أن يكون اهتمامهم بها فوق اهتمامهم بفروع الشريعة ، وإذا انصرم عصرهم وعصر التابعين على الاضراب عن التأويل ، كان ذلك هو الوجه المتبع ، فحق على ذى الدين أن يستفد تنزه البارى عن صفات المحدثين ، ولا يخوض فى تأويل المشكلات ، ويكل معناها إلى الرب فليجر آية الاستواء والمجىء وقوله : (لما خلقت بيدي) ، (ويبقى وجه ربك) وقوله : (تجري بأعيننا) وماصح من أخبار الرسول ، كخبر النزول وغيره على ما ذكرناه .

(قلت وليعلم السائل) أن الغرض من هذا الجواب ، ذكر ألفاظ بعض الأئمة فى هذا الباب ، وليس كل من ذكرنا شيئاً من قوله من المتكلمين وغيرهم ، نقول بجميع مايقوله فى غير هذا ، ولكن الحق يقبل من كل من تكلم به .

كان معاذ بن جبل رضى الله عنه يقول فى كلامه المشهور عنه ، الذى رواه أبو داود فى سننه : اقبلوا الحق من كل من جاء به وإن كان كافراً أو قال فاجراً

واحذروا زينة الحكيم . قالوا : كيف نعلم أن الكافر يقول الحق . قال :
 هل الحق نور أو كلاماً هذا معناه .

فأما تقرير ذلك بالدليل وإماطة ما يعرض من الشبه ، وتحقيق الأمر
 على وجه يخلص إلى القلب ما يبرده من اليقين ، ويقف على مواقف ازاء
 العباد في هذه المهامة ، فالتوسع له هذه الفتوى .

وقد كتبت شيئاً من ذلك قبل هذا ، وخاطبت ببعض ذلك بعض من
 يجالسنا ، وربما أكتب إن شاء الله في ذلك ما يحصل به المقصود .

وجماع الأمر في ذلك : أن الكتاب والسنة يحصل منهما كمال الهدى
 والنور لمن تدبر كتاب الله وسنة نبيه وقصد اتباع الحق ، وأعرض عن
 تحريف الكلم عن مواضعه ، والاحاد في أسماء الله وآياته ، ولا يحسب الحاسب
 أن شيئاً من ذلك يناقض بعضه بعضاً البتة مثل أن يقول القائل : ما في الكتاب
 والسنة من أن الله فوق العرش يخالفه في الظاهر قوله : (وهو معكم أينما
 كنتم) وقول النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا قام أحدكم إلى الصلاة فأن
 الله قبل وجهه ، ونحو ذلك . فان هذا غلط ، وذلك أن الله معنا حقيقة ،
 وهو فوق العرش حقيقة كما جمع الله بينهما في قوله سبحانه : (وهو الذي
 خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في
 الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يرج فيها وهو معكم أينما
 كنتم والله بما تعملون بصير) فأخبر أنه فوق العرش يعلم كل شيء ، وهو معنا
 أينما كنا كما قال صلى الله عليه وسلم في حديث الأوعال : « والله فوق العرش
 وهو يعلم ما أنتم عليه ، وذلك أن كلمة مع في اللغة إذا أطلقت فليس ظاهرها
 (٣٠ — مجموعة الرسائل)

في اللغة إلا المقارنة المطلقة ، من غير وجوب عماسة أو محاذاة عن يمين أو شمال
 فإذا قيدت بمعنى من المعاني دلت على المقارنة في ذلك المعنى فانه يقال : مازلنا
 نسير والقمر معنا ، أو والنجم معنا ، ويقال هذا المتاع معنى لجماعته لك ، وإن
 كان فوق رأسك ، فانه مع خلقه حقيقة ، وهو فوق عرشه حقيقة ، ثم هذه
 المعية تختلف أحكامها بحسب الموارد ، فلما قال : (يعلم مايلج في الارض
 ومايخرج منها وماينزل من السماء ومايعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله
 بما تعملون بصير) دل ظاهر الخطاب على أن حكم هذه المعية ومقتضاها ، أنه
 مطلع عليكم ، شهيد عليكم ، مهيمن عالم بكم ، وهذا معنى قول السلف ، أنه
 معهم بعلمه ، وهذا ظاهر الخطاب وحقيقته ، وكذلك قوله : (ما يكون من
 فجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولاخمسه إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك
 ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ، ثم يفتهم بما عملوا يوم القيامة) ولما
 قال النبي صلى الله عليه وسلم لصاحبه في الغار : ه لا تحزن إن الله معنا ، كان
 هذا أيضاً حقاً على ظاهره ، ودلت الحال ، عن أن حكم المعية هنا مع الاطلاع
 النصر والتأييد ، وكذلك قوله : (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون)
 وكذلك قوله لموسى وهرون : (إني معكما أسمع وأرى) .

هنا المعية على ظاهرها وحكمها في هذا الموطن ، النصر والتأييد ، وقد
 يدخل على صبي من يخيفه فيكي ، فيشرف عليه أبوه من فوق السقف ويقول :
 لا تخف أنا معك ، أو أنا هنا ، أو أنا حاضر ونحو ذلك ، يفهم على المعية
 الموجبة بحكم الحال رفع المكروه ، ففرق بين معنى المعية وبين مقتضاها ،
 وربما صار مقتضاها من معناها فيختلف باختلاف المواضع ، فلفظ المعية قد
 استعمل في الكتاب والسنة في مواضع تقتضي في كل موضع أموراً لاقتضياها

في الموضوع الآخر ، فإما أن تختلف دلالتها بحسب المواضع ، أو تدل على قدر مشترك بين جميع مواردنا وإن امتاز كل موضع بخاصيته ، فعلى التقديرين ليس مقتضاها أن تكون ذات الرب مختلطة بالخلق حتى يقال : قد صرفت عن ظاهرها ونظيرها من بعض الوجوه الربوبية والعبودية ، فانها وإن اشتركت في أصل الربوبية والتعبد فلما قال رب العالمين : (رب موسى وهرون) كانت ربوبية موسى وهرون لها اختصاص زائد على الربوبية العامة للخلق ، فإن من أعطاه الله من الكمال أكثر مما أعطى غيره ، فقد ربه ورباه ربوبية وتربية أكمل من غيره ، وكذلك قوله : (عينا يشرب بها) . (عباد الله) سبحانه الذي أسرى بعبد له ليلا) .

(فإن العبد) تارة يعنى به المعبود فيعم الخلق كما في قوله : (إن كل من في السموات والأرض إلا آت الرحمن عبداً) وتارة يعنى به العابد فيخص ثم يختلفون ، فمن كان أعبد علما وحالا كانت عبوديته أكمل ، فكانت الإضافة في حقه أكمل مع أنها حقيقة في جميع المواضع ، ومثل هذه الالفاظ فيسميها بعض الناس مشككة لتشكك المستمع فيها ، هل هي من قبيل الاسماء المتواطئة ، أو من قبيل المشتركة في اللفظ فقط ، والمحققون يعلمون أنها ليست خارجة عن جنس المتواطئة ، إذ واضح اللغة إنها وضع اللفظ بإزاء القدر المشترك وإن كانت نوعا مختصا من المتواطئة ، فلا بأس بتخصيصها بلفظ ، ومن علم أن المعية تضاف إلى كل نوع من أنواع المخلوقات . كإضافة الربوبية مثلا ، وأن الاستواء عن الشيء ليس إلا للعرش . وأن الله يوصف بالعلو والفوقية الحقيقية ، ولا يوصف بالسفول ولا بالتحية قط ، لاحقيقة ولا مجازاً ، علم أن القرآن ما هو عليه من غير تحريف .

ثم من توهم أن كون الله في السماء ، بمعنى أن السماء تحيط به وتحويه ، فهو كاذب إن نقله عن غيره ، وضال إن اعتقده في ربه ، وما سمعنا أحداً يفهمه من اللفظ ، ولا رأينا أحداً نقله عن أحد ، ولو مثل سائر المسلمين هل يفهمون من قول الله ورسوله أن الله في السماء ، أن السماء تحويه ، لبادر كل أحد منهم إلى أن يقول : هذا شيء لعله لم يخطر ببالنا ، وإذا كان الأمر هكذا ، فمن التكلف أن يجعل ظاهر اللفظ شيئاً محالاً ، ولا يفهمه الناس منه ثم يريد أن يتأوله ، بل عند المسلمين أن الله في السماء وهو على العرش واحد ، إذ السماء إنما يراد به العلو فالمعنى ؛ أن الله في العلو لا في السفلى .

وقد علم المسلمون أن كرسیه سبحانه وسع السموات والأرض ، وأن الكرسي في العرش كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وأن العرش خلق من مخلوقات الله لانسبة له إلى قدرة الله سبحانه وعظمته ، فكيف يتوهم بعد هذا أن خلقاً يحصره أو يحويه وقد قال سبحانه : (ولا صلبنكم في جذوع النخل) وقال : (فسيروا في الأرض) بمعنى على ونحو ذلك ، وهو كلام عربي حقيقة لا مجازاً ، وهذا يعلمه من عرف حقائق معاني الحروف وأنها متواطئة في الغالب لا مشتركة ، وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا قام أحدكم إلى الصلاة فإن الله قبل وجهه فلا يبصقن قبل وجهه ، الحديث حق على ظاهره وهو سبحانه فوق العرش وهو قبل وجه المصلي ، بل هذا الوصف يثبت للمخلوقات ، فإن الإنسان لو أنه يناجي السماء ، أو يناجي الشمس والقمر ، لكأنات السماء والشمس والقمر فوقه ، وكانت أيضاً قبل وجهه .

وقد ضرب النبي صلى الله عليه وسلم المثل بذلك ، والله المثل الأعلى ،

ولكن المقصود بالتمثيل ، بيان جواز هذا وإمكانه لا تشبيه الخالق بالخلق ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما منكم من أحد إلا سيرى ربه غليظاً به » ، فقال له أبو رزین العقيلي : كيف يا رسول الله وهو واحد ونحن جميع فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « سأنبئك بمثل ذلك في آلاء الله هذا القمر كلكم يراه غليظاً به وهو آية من آيات الله فالله أكبر ، أو كما قال صلى الله عليه وسلم وقال : « إنكم سترون ربكم كما ترون الشمس والقمر ، فشبه الرؤية بالرؤية وإن لم يكن المرئي مشابهاً للمرئي ، فالمؤمنون إذا رأوا ربهم يوم القيامة وناجوه ، كل يراه فوقه قبل وجهه كما يرى الشمس والقمر ولا منافاة أصلاً ، ومن كان له نصيب من المعرفة بالله والرسوخ في العلم بالله يكون إقراره للكتاب والسنة على ما هما عليه أوكد .

واعلم أن من المتأخرين من يقول : مذهب السلف إقرارها على ما جاءت به مع اعتقاد أن ظاهرها غير مراد ، وهذا لفظ يحمل فان قوله : ظاهرها غير مراد . يحتمل أنه أراد بالظاهر نعوت المخلوقين وصفات المحدثين ، مثل أن يراد بكون الله قبل وجه المصلي أنه مستقر في الحائط الذي يصلي إليه ، وأن الله معنا ظاهره أنه إلى جانبنا ونحو ذلك ، فلا شك أن هذا غير مراد ، ومن قال أن مذهب السلف أن هذا غير مراد فقد أصاب في المعنى ، لكن خطأ في إطلاق القول بأن هذا ظاهر الآيات والاحاديث ، فان هذا المحال ليس هو الظاهر على ما قد بيناه في غير هذا الموضع ، اللهم إلا أن يكون هذا المعنى المستع صار يظهر لبعض الناس ، فيكون القائل لذلك مصيباً بهذا الاعتبار معذوراً في هذا الإطلاق ، فان الظهور والبطون قد يختلف باختلاف أحوال الناس ، وهو من الأمور النسبية ، وكان أحسن من هذا أن يبين لمن

اعتقد أن هذا هو الظاهر أن هذا ليس هو الظاهر ، حتى يكون قد أعطى كلام الله وكلام رسوله حقه لفظاً ومعنى ، وإن كان الناقل عن السلف أراد بقوله : الظاهر غير مراد عندهم ، أن المعاني التي تظهر من هذه الآيات والاحاديث مما يليق بجلال الله وعظمته ، ولا تختص بصفة المخلوقين ، بل هي واجبة لله أوجازة عليه جوازاً ذهنياً ، أو جوازاً خارجياً غير مراد ، فهذا قد أخطأ فيما نقله عن السلف ، أو تعمد الكذب فيما يمكن أحداً قط أن ينقل عن واحد من السلف ما يدل لا نصاً ولا ظاهراً ، أنهم كانوا يعتقدون أن الله ليس فوق العرش ، ولا أن الله ليس له سمع ولا يصر ولا يد حقيقة .

وقد رأيت هذا المعنى ينتحله بعض من يحكيه عن السلف ويقول : أن طريقة أهل التأويل هي في الحقيقة طريقة السلف بمعنى أن الفريقين انفقوا على أن هذه الآيات والاحاديث لم تدل على صفات الله سبحانه ، وإنما السلف أمسكوا عن تأويلها ، والمتأخرون رأوا المصلحة تأويلها لمسيئ الحاجة إلى ذلك ويقول : الفرق أن هؤلاء قد يعينون المراد بالتأويل ، وأولئك لا يعينون لجواز أن يراد غيره ، وهذا القول على الإطلاق كذب صريح على السلف ، أما في كثير من الصفات فقطعاً مثل : أن الله فوق العرش ، فإن من تأمل كلام السلف المنقول عنهم الذي لم يحك هنا عشره ، علم بالاضطرار أن القوم كانوا مصرحين بأن الله فوق العرش حقيقة ، وأنهم ما اعتقدوا خلاف هذا قط ، وكثير منهم قد صرح في كثير من الصفات بمثل ذلك .

والله يعلم أني بعد البحث التام ، ومطالعة ما أمكن من كلام السلف ،

ما رأيت كلام أحد منهم يدل لا نصاً ولا ظاهراً ولا بالقرائن على نفي الصفات الخيرية في نفس الأمر ، بل الذي رأيت أنه كثيراً من كلامهم يدل إما نصاً وإما ظاهراً على تقرير جنس هذه الصفات ، ولا أنقل عن كل واحد منهم لإثبات كل صفة ، بل الذي رأيت أنهم يشبتون جنسها في الجملة ، وما رأيت أحداً منهم نفاهاً ، وإنما ينفون التشبيه وينكرون على المشبهة الذين يشبهون الله بخلقه مع إنكارهم على من بنى الصفات أيضاً ، كقول نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري : من شبه الله بخلقه فقد كفر .

وليس ما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيهاً ، وكانوا إذا رأوا الرجل قد أغرق في نفي التشبيه من غير إثبات للصفات قالوا : هذا جهمي معطل ، وهذا كثير جداً في كلامهم ، فإن الجهمية والمعتزلة إلى اليوم يسمون من أثبت شيئاً من الصفات مشبهاً كذباً منهم وافتراء ، حتى أن منهم من غلا ورمى الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين بذلك ، حتى قال ثمامة ابن الأشرس من رؤساء الجهمية : ثلاثة من الأنبياء مشبهة ، موسى حيث قال : إن هي إلا فتنتك . وعيسى قال : تعلم ما في نفسي . ومحمد حيث قال : ينزل ربنا . وحتى أن جل المعتزلة يدخل عامة الأئمة مثل مالك وأصحابه ، والثوري وأصحابه ، والأوزاعي وأصحابه ، والشافعي وأصحابه ، وإسحاق ابن راهويه ، وأبي عبيد وغيرهم في قسم المشبهة .

وقد صنف أبو إسحاق إبراهيم بن عثمان بن درباس الشافعي جزءاً سناه تنزيه أئمة الشريعة عن الألقاب الشنيعة ، وذكر فيه كلام السلف وغيرهم في معاني هذه الألقاب ، وذكر أن أهل البدع كل صنف منهم يلقب أهل السنة

بلقب افتراء يزعم أنه صحيح على رأيه الفاسد ، كما أن المشركين كانوا يلقبون النبي صلى الله عليه وسلم باللقاب افتروها ، فالروافض تسميهم نواصب ، والقدرية تسميهم مجبرة ، والمرجئة تسميهم شككا ، والجهمية تسميهم مشبهة ، وأهل الكلام يسمونهم حشوية ، ونوابت وغثاء وغثراً . إلى أمثال ذلك ، كما كانت قريش تسمى النبي صلى الله عليه وسلم تارة مجنوناً ، وتارة شاعراً ، وتارة كاهناً ، وتارة مفترياً ، قالوا : وهذا علامة الارث الصحيح والمتابعة التامة ، فإن السنة هي ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتقاداً واقتصاداً وقولاً وعملاً ، فكما أن المنحرفين عنه يسمونه بأسماء مذمومة مكذوبة ، وإن اعتقدوا صدقها بناء على عقيدتهم الفاسدة ، فكذلك التابعون له على بصيرة الذين هم أولى الناس به في الحياء والمات باطنياً وظاهراً ، أما الذين وافقوهم ببواطنهم وعجزوا عن إقامة الظواهر ، أو الذين وافقوه بظواهرهم وعجزوا عن تحقيق البواطن ، أو الذين وافقوه ظاهراً وباطناً بحسب الإمكان ، لا بد للمنحرفين عن سنة أن يعتقدوا فيهم نقصاً يذمونهم به ويسمونهم بأسماء مكذوبة وإن اعتقدوا صدقها ، كقول الرافضى : من لم ييغض أبا بكر وعمر فقد أبغض علياً ، لأنه لا ولاية لعلى إلا بالبراءة منهما ، ثم يجعل من أحب أبا بكر وعمر ناصيباً بناء على هذه الملازمة الباطلة التي اعتقدها صحيحة أو عاند فيها وهو الغالب .

وكقول القدرى : من اعتقد أن الله أراد الكائنات وخلق أفعال العباد ، فقد سلب العباد الاختيار والقدرة ، وجعلهم مجبورين كالجمادات وكقول الجهمى : من قال أن الله فوق العرش فقد زعم أنه محصور ، وأنه جسم محدود ، وأنه مشابه لخلقه ، وكقول الجهمية المعتزلة : من قال أن الله علماً

وقدرة ، فقد زعم أنه جسم وهو مشبه ، لأن هذه الصفات أعراض ، والعرض لا يقوم إلا بجوهر متحيز ، وكل متحيز بجسم أو جوهر فرد .

ومن حكى عن الناس المقالات وسامهم بهذه الاسماء المكذوبة ، بناء على عقيدته التي هم مخالفون له فيها فهو وريه أعلم ، والله من ورائه بالمرصاد : (ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله) .

وجماع الامر أن الأقسام الممكنة في آيات الصفات وأحاديثها ستة أقسام : كل قسم عليه طائفة من أهل القبلة . قسمان يقولون : تجري على ظواهرها . وقسمان يقولون : هي على خلاف ظاهرها . وقسمان يسكتون . أما الأولون فقسمان : أحدهما : من يجريها على ظاهرها ويجعل ظاهرها من جنس صفات المخلوقين ، فهؤلاء المشبهة ومذهبهم باطل ، أنكره السلف وإليه توجه الرد بالحق . والثاني : من يجريها على ظاهرها للاتق بجلال الله ، كما يجرى اسم العليم ، والقدير ، والرب ، والإله ، والموجود ، والذات ونحو ذلك ، على ظاهرها للاتق بجلال الله ، فإن ظواهر هذه الصفات في حق المخلوق ، إما جوهر وإما عرض ، فالعلم ، والقدرة ، والكلام ، والمشية ، والرحمة ، والرضا ، والغضب ونحو ذلك ، في حق العبد أعراض ، والوجه ، واليد ، والعين ، في حقه أجسام . فإذا كان الله موصوفاً عند عامة أهل الإثبات ؛ بأن له علماً ، وقدرة ، وكلاماً ، ومشية ، وإن لم يكن ذلك عرضاً يجوز عليه ما يجوز على صفات المخلوقين ، جاز أن يكون وجه الله ويداه ليست أجساماً يجوز عليها ما يجوز على صفات المخلوقين ، وهذا هو المذهب الذي حكاه الخطابي وغيره عن السلف ، وعليه يدل كلام جمهورهم ، وكلام الباقيين لا يخالفه ، وهو أمر

واضح فان الصفات كالذات ، فكما أن ذات الله ثابتة حقيقة من غير أن تكون من جنس المخلوقات ، فن قال لا أعقل علماً وبدأ إلا من جنس العلم واليد المعهودتين . قيل له : فكيف تعقل ذاتاً من غير جنس ذوات المخلوقين .

ومن المعلوم أن صفات كل موصوف تناسب ذاته وتلائم حقيقته ، فمن لم يفهم من صفات الرب الذي ليس كمثل شيء إلا ما يناسب المخلوق ، فقد ضل في عقله ودينه ، وما أحسن ما قال بعضهم : إذا قال الجهمي كيف استوى ، أو كيف ينزل إلى سماء الدنيا ، أو كيف يداه ونحو ذلك ، فقل له : كيف هو في نفسه ، فإذا قال لك لا يعلم ما هو إلا هو ، وكنه الباري غير معلوم للبشر . فقل له : والعلم بكيفية الصفة مسبوق بالعلم بكيفية الموصوف ، فكيف يمكن أن نعلم كيفية صفة لموصوف لم نعلم كيفية ، وإنما نعلم الذات والصفات من حيث الجملة على الوجه الذي ينبغي لك ، بل هذه المخلوقات في الجنة . قد ثبت عن ابن عباس أنه قال : ليس في الدنيا بما في الجنة إلا الأسماء ، وقد أخبر الله أنه : (لا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم : « أن في الجنة ما لا عين رأت . ولا أذن سمعت . ولا خطر على قلب بشر » ، فإذا كان نعيم الجنة وهو خلق من خلق الله كذلك ، فما الظن بالخالق سبحانه وتعالى ، وهذه الروح التي في بني آدم قد علم العاقل اضطراب الناس فيها وإمساك النصوص على بيان كيفيةها ، أفلا يعتبر العاقل بها عن الكلام في كيفية الله تعالى ، أما أنا نقطع بأن الروح في البدن ، وأنها تخرج منه وتخرج إلى السماء ، وأنها تسيل منه وقت النزوع ، كما نطقت بذلك النصوص الصحيحة ، لا نغالي في تجريد ما غلو

المتفلسفة ومن وافقهم ، حيث نفوا عنها الصعود والنزول والاتصال بالبدن والانفصال عنه ، وتخطوا فيها حيث رأوها من غير جنس البدن وصفاته ، فعدم تماثلها للبدن لا ينفى أن تكون هذه الصفات ثابتة لها بحسبها ، إلا أن يفسروا كلامهم بما يوافق النصوص ، فيكونون قد أخطؤوا في اللفظ وأنى لهم بذلك .

وأما القسمان اللذان ينفيان ظاهرهما ، أعني الذين يقولون ليس لها في الباطن مدلول ، هو صفة الله تعالى قط ، وأن الله لا صفة له ثبوتية ، بل صفاته إما سلبية ، وإما إضافية ، وإما مركبة منهما ، أو يثبتون بعض الصفات وهي الصفات السبعة ، أو الثمانية ، أو الخمسة عشر ، أو يثبتون الأحوال دون الصفات على ما قد عرف من مذاهب المتكلمين ، فهؤلاء قسمان : قسم يؤولونها ويعينون المراد مثل قولهم استوى : بمعنى استولى أو بمعنى علو المكانة والقدر ، أو بمعنى ظهور نوره للعرش ، أو بمعنى انتهى الخلق إليه إلى غير ذلك من معاني المتكلمين ، وقسم يقولون : الله أعلم ما أراد بها لكننا نعلم أنه لم يرد لإثبات صفة خارجة عما علمناه .

وأما القسمان الواقفان فقسم يقولون : يجوز أن يكون المراد بظاهرهما اللائق بالله ، ويجوز أن لا يكون المراد صفة لله ونحو ذلك ، وهذه طريقة كثير من الفقهاء وغيرهم ، وقوم يسكون عن هذا كله ولا يزيدون على تلاوة القرآن وقراءة الحديث ، معرضين بقلوبهم وأسفلتهم عن هذه التقديرات .

فهذه الأقسام الستة لا يمكن أن يخرج الرجل عن قسم منها .

والصواب في كثير من آيات الصفات وأحاديثها القطع بالطريقة الثانية ، كالآيات والاحاديث الدالة على أن الله سبحانه فوق عرشه ، ونعلم أن طريقة الصواب في هذا وأمثاله ، بدلالة الكتاب والسنة والإجماع على ذلك ، دلالة لا تحتل النقيض ، وفي بعضها قد يغلب على الظن ذلك مع احتمال النقيض ، وتردد المؤمن في ذلك هو بحسب ما يؤتاه من العلم والإيمان : (ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) .

ومن اشتبه عليه ذلك أو غيره ، فليدع بما رواه مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل يصلي يقول : اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق يا ذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم ، وفي رواية لآبي داود أنه كان يكبر في صلاته ثم يقول ذلك ، فإذا افتقر العبد إلى الله ودعاه وأدمن النظر في كلام الله وكلام رسوله ، وكلام الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين ، انفتح له طريق الهدى .

ثم إن كان قد خبر نهايات إقدام المتفلسفة والمتكلمين في هذا الباب ، وعرف غالب ما يزعمونه برهانا وهو شبهة ، ورأى أن غالب ما يعتمدونه يؤول إلى دعوى لاحقيقة لها أو شبهة مركبة من قياس فاسد ، أو قضية كلية لا تصح إلا جزئية ، أو دعوى لإجماع لاحقيقة له ، ثم إن ذلك إذا ركب بالفاظ كثيرة طويلة غريبة عن علم يعرف اصطلاحهم ، أو همت الفر ما يؤهمه السراب للعطشان ، ازداد إيماناً وعلماً بما جاء به الكتاب والسنة ، فان الضد

يظهر حسنه الضد ، وكل من كان بالباطل أعلم كان للحق أشد تعظيماً وبقدرة أعرف ، فأما المتوسط من المتكلمين فيخاف عليه ما لا يخاف على من لم يدخل فيه وعلى من قد أنهاه نهايته ، فإن من لم يدخل فيه هو في عافية ، ومن أنهاه قد عرف الغاية فسا بقى يخاف من شيء آخر ، فإذا ظهر له الحق وهو عطشان إليه قبله ، وأما المتوسط فتوهم بما تلقاه من المقالات المأخوذة تقليداً المعظمة تهويلاً .

وقد قال الناس : أكثر ما يفسد الدنيا نصف متكلم ، ونصف متفقه ، ونصف متطبب ، ونصف نحوي ، هذا يفسد الأديان ، وهذا يفسد البلدان ، وهذا يفسد الأبدان ، وهذا يفسد اللسان .

ومن علم أن المتكلمين من المتفلسفة وغيرهم ، هم في الغالب في قول مؤفك يؤفك عنه من أفك ، يعلم الذكي منهم العاقل ، أنه ليس هو فيما يقوله على بصيرة ، وأن حجته ليست بيينة وإنما هي كما قيل فيها :

حجج تهافت كالزجاج تخالها حقاً وكل كاسر مكسور

ويعلم العليم البصير ؛ أنهم من وجه مستحقون ما قال الشافعي رضي الله عنه حيث قال : حكى في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال ، ويطاف بهم في القبائل والعشائر ، ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام .

ومن وجه آخر : إذا نظرت لإلهم بعين القدر والحيرة مستولية عليهم ، والشیطان مستحوذ عليهم ، رحمتهم ورفقت عليهم ، أوتوا ذكاء ، وما أوتوا

زكاه ، وأعطوا فهم ما أعطوا علوما ، وأعطوا سمعاً وأبصاراً وأفئدة : (فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن) .

من كان عليهما بهذه الأمور ؛ تبين له بذلك حذق السلف وعليهم وخبرتهم ، حيث حذروا عن الكلام ونهوا عنه وذموا أهله وعابوهم ، وعلم أن من ابتغى لدى في غير الكتاب والسنة ، لم يزداد إلا بعداً .

فنسأل الله العظيم ؛ أن يهدينا صراطه المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ، ولا الضالين آمين . والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً كثيراً مباركاً إلى يوم الدين .

تمت الرسالة الحادية عشر

وبليها الرسالة الثانية عشر : الاستغاثة

الرسالة الثانية عشر
الاستغاثة



بسم الله الرحمن الرحيم

سئل شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية رضى الله عنه : ما تقول السادة العلماء أئمة الدين ، وفقهم الله لطاعته فيمن يقول : لا يستغاث برسول الله صلى الله عليه وسلم . هل يحرم عليه هذا القول ، وهل هو كفر أم لا ؟ وإن استدل بآيات من كتاب الله وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم ، هل ينفعه دليله أم لا ؟ وإذا قام الدليل من الكتاب والسنة ، فما يجب على من يخالف ذلك . أفتونا مأجورين . الجواب :

الحمد لله . قد ثبت بالسنة المستفيضة ، بل المتواترة ، واتفاق الأمة ، أن نبينا صلى الله عليه وسلم الشافع المشفع ، وأنه يشفع في الخلائق يوم القيامة ، وأن الناس يستشفعون به ، يطلبون منه أن يشفع لهم إلى ربهم ، وأنه يشفع لهم .

ثم اتفق أهل السنة والجماعة ، أنه يشفع في أهل الكبائر ، وأنه لا يدخل في النار من أهل التوحيد أحد .

وأما الخوارج والمعتزلة : فأنكروا شفاعته لأهل الكبائر ولم ينكروا شفاعته للؤمنين ، وهؤلاء مبتدعة ضلال ، وفي تكفيرهم نزاع وتفصيل ، وأما من أنكر ما ثبت بالتواتر والإجماع ، فهو كافر بعد قيام الحجة ، وسواء سمى هذا المعنى استغاثة أو لم يسمه ، وأما من أقر بشفاعته ، وأنكر ما كان الصحابة يفعلونه من التوسل به والاستشفاع به ، كما رواه البخاري في صحيحه عن أنس أن عمر بن الخطاب كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب (٣١ - مجموعة الرسائل)

وقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنينا فقتسقنا ، وإنا نتوسل إليك بعم
 بنينا فاستقنا ، فيسقون . وفي سنن أبي داود وغيره أن أعرابيا قال للنبي
 صلى الله عليه وسلم : جمدت الأنفس وجاع العيال وهلك المال ، فادع الله
 لنا ، فإننا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك ، فسبح رسول الله صلى
 الله عليه وسلم حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه وقال : « ويحك إن الله
 لا يستشفع به على أحد من خلقه شأن الله أعظم من ذلك ، وذكر تمام
 الحديث فأنكر قوله : نستشفع بالله عليك ولم ينكر قوله : نستشفع بك على
 الله . بل أقره عليه ، فعلم جوازه . فن أنكر هذا فهو ضال مخطئ مبتدع ،
 وفي تكفيره نزاع وتفصيل .

وأما من أقر بما ثبت بالكتاب والسنة والإجماع ، من شفاعته والتوسل
 به ونحو ذلك ، ولكن قال : لا يدعى إلا الله ، وأن الأمور التي لا يقدر
 عليها إلا الله ، فلا تطلب إلا منه ، مثل غفران الذنوب ، وهداية القلوب ،
 وإنزال المطر ، وإنبات النبات ونحو ذلك ، فهذا مصيب في ذلك ، بل هذا
 مما لا نزاع فيه بين المسلمين أيضاً كما قال تعالى : (ومن يغفر الذنوب إلا
 الله) وقال : (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) وكما
 قال تعالى : (يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله
 يرزقكم من السماء والأرض) وكما قال تعالى : (وما جعله الله إلا بشري
 لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله) وقال : (إلا تصروه
 فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول
 لصاحبه لا تحزن إن الله معنا) .

فاللعان الثابتة بالكتاب والسنة يجب إثباتها ، واللعان المنفية بالكتاب

والسنة يجب نفيها ، والعبارة الدالة على المعاني نفيا وإثباتا إن وجدت في كلام الله ورسوله وجب إقرارها ، وإن وجدت في كلام أحد وظهر مراده من ذلك رتب عليه حكمه وإلا رجع فيه اليه ، وقد يكون في كلام الله ورسوله عبارة لها معنى صحيح ، لكن بعض الناس يفهم من تلك غير مراد الله ورسوله فهذا يرد عليه فهمه ، كما روى الطبراني في معجمه الكبير أنه كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم منافق يؤذى المؤمنين فقال أبو بكر الصديق : قوموا بنا لنستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا المنافق ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله » فهذا إنما أراد به النبي صلى الله عليه وسلم المعنى الثاني ، وهو أن يطلب منه ما لا يقدر عليه إلا الله ، وإلا فالصحابة كانوا يطلبون منه الدعاء ويستسقون به ، كما في صحيح البخاري عن ابن عمر قال : ربما ذكرت قول الشاعر وأنا أنظر إلى وجه النبي صلى الله عليه وسلم يستسقي ، فأنزل حتى يجيش له ميزاب :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

وهو قول أبي طالب ، ولهذا قال العلماء المصنفون في أسماء الله تعالى : يجب على كل مكلف أن يعلم أن لا غياث ولا مغيث على الإطلاق إلا الله ، وأن كل غوث فمن عنده ، وإن كان جعل ذلك على يدي غيره ، فالحقيقة له سبحانه وتعالى ، ولغيره مجاز .

قالوا من أسماء الله تعالى : المغيث ، والغياث ، وجاء ذكر المغيث في حديث أبي هريرة ، قالوا واجتمعت الأمة على ذلك .

وقال أبو عبد الله الحليمي : الغياث : هو المغيث . وأكثر ما يقال غياث

المستغيثين ، ومعناه المدرك عبادته في الشدائد إذا دعوهم ويحييهم ومخلصهم ، وفي خبر الاستسقاء في الصحيحين : « اللهم أغثنا اللهم أغثنا » ، قال أغاثه إغاثته وغياثا وغوثا ، وهذا الاسم في معنى المجيب والمستجيب قال تعالى : (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم) إلا أن الإغاثة أحق بالأفعال ، والاستجابة أحق بالأقوال ، وقد يقع كل منهما موقع الآخر قالوا : الفرق بين المستغيث والداعي أن المستغيث ينادى بالفرث ، والداعي ينادى بالمدعو والمغيث ، وهذا فيه نظر ، فإن من صيغة الاستغاثة يا الله للمسلمين ، وقد روى عن معروف الكرخي : أنه كان يكثر أن يقول واغوثا ويقول إني سمعت الله يقول : (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم) وفي الدعاء المأثور : « يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت برحمتك أستغيث أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا إلى أحد من خلقك » .

والاستغاثة برحمته استغاثة به في الحقيقة ، كما أن الاستعاذة بصفاته استعاذة به في الحقيقة ، وكما أن القسم بصفاته قسم به في الحقيقة ، ففي الحديث : « أعوذ بكلمات الله التامة من شر ما خلق ، وفيه : « أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وبك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » .

ولهذا استدل الأئمة فيما استدلوا : على أن كلام الله غير مخلوق بقوله : « أعوذ بكلمات الله التامة » قالوا والاستعاذة لاتصلح بالمخلوق .

وكذلك القسم ، قد ثبت في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » ، وفي لفظ : « من حلف بغير الله

فقد أشرك ، رواه الترمذى وصححه ، ثم قد ثبت في الصحيح : « الحلف بعة الله ولعمر الله ، ونحو ذلك مما اتفق المسلمون على أنه ليس من الحلف بغير الله الذى نهى عنه ، والاستغاثة بمعنى أن يطلب من الرسول ما هو اللائق بمنصبه لا ينازع فيها مسلم ، ومن نازع في هذا المعنى فهو إما كافر إن أنكر ما يكفر به ، وإما مخطف ضال .

وأما بالمعنى الذى نفاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو أيضاً مما يجب نفيها ، ومن أثبت لغير الله ما لا يكون إلا لله ، فهو أيضاً كافر إذا قامت عليه الحجة التى يكفر تاركها .

ومن هذا الباب قول أبى يزيد البسطامى : استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة الفريق بالفريق . وقول الشيخ أبى عبد الله القرشى المشهور بالديار المصرية : استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون .

وفى دعاء موسى عليه السلام : اللهم لك الحمد واليك المشتكى وأنت المستعان وبك المستغاث وعليك التكلان ولا حول ولا قوة إلا بك . ولما كان هذا المعنى هو المفهوم منها عند الإطلاق وكان مختصاً بالله صح إطلاق نفيه عما سواه ، ولهذا لا يعرف عن أحد من أئمة المسلمين أنه جوز مطلق الاستغاثة بغير الله ، ولا أنكر على من نفي مطلق الاستغاثة عن غير الله .

وكذلك الاستغاثة أيضاً فيها ما لا يصلح إلا لله ، وهى المشار إليها بقوله : (إياك نعبد وإياك نستعين) فإنه لا يعين على العبادة الإعانة المطلقة إلا الله ، وقد يستعان بالمخلوق فيما يقدر عليه ، وكذلك الاستنصار قال الله تعالى :

(وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر) والنصر المطلق هو خلق ما به يغلب العدو ، ولا يقدر عليه إلا الله .

ومن خالف مائت بالكتاب والسنة ، فانه يكون إما كافراً ، وإما فاسقاً ، وإما عاصياً ، إلا أن يكون مؤمناً مجتهداً مخطئاً ، فيثاب على اجتهاده ، ويفقر له خطؤه ، وكذلك إن كان لم يبلغه العلم الذي تقوم عليه به الحجة ، فان الله يقول : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وأما إذا قامت عليه الحجة الثابتة بالكتاب والسنة فخالفها ، فانه يعاقب بحسب ذلك ، إما بالقتل ، وإما بدونه والله أعلم .

تمت الرسالة الثانية عشر

وبتمامها ! تم والله الحمد طبع الجزء الاول من مجموعة الرسائل الكبرى ،
لشيخ الاسلام ، تقي الدين أبي العباس أحمد بن تيمية الحراني الدمشقي .

وطيه إن شاء الله ! الجزء الثاني وأوله : الرسالة المسماة :

(بالا كليل في التشابه والتأويل)

فهرس

الجزء الأول من

مجموعة الرسائل الكبرى

لابن تيمية

الصفحة	الموضوع
٣	الرسالة الأولى — الفرقان بين الحق والباطل
١٧٣	الرسالة الثانية — معارج الوصول
٢١٣	الرسالة الثالثة — التبيان في نزول القرآن
٢٢٩	الرسالة الرابعة — الوصية الصغرى
٢٤١	الرسالة الخامسة — النية
٢٥٩	الرسالة السادسة — العرشية
٢٦٧	الرسالة السابعة — الوصية الكبرى
٣٢٣	الرسالة الثامنة — الإرادة والأمر
٣٩١	الرسالة التاسعة — العقيدة الواسطية
٤١٣	الرسالة العاشرة — المناظرة في العقيدة الواسطية
٤٢٣	الرسالة الحادية عشر — العقيدة المحوية الكبرى
٤٧٩	الرسالة الثانية عشر — الاستغاثة

تم الفهرس

الطبعة الثانية

١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م